

النَّاسُ والحرب

أسامة علي الصادق

النَّاسُ والحَرْب

الصادق، أسامة على.

الناس والحرب: شاهد وشارك فى أحداث حرب ٦٧ ـ حرب الاستنزاف ـ حرب ٦٧/ أسامة على الصادق. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .

٤٤٨ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٧ ٧٦٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ حرب يونيو ١٩٦٧م ـ مصر.

٢ ـ مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث ـ جمال عبد الناصر (١٩٥٤ ـ ١٩٧٠م).

٣ ـ مصر ـ الأحوال السياسية.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٨٦٩/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -762 - 7

ديوى

النّاسُ والحرب

شاهد وشارك فى الأحداث

حرب ٦٧ - حرب الاستنزاف - حرب ٧٣

أسامة علي الصادق



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١١

الإخراج الفنى والغلاف

مرفت عنتر النحاس

هذا الكتاب

عندما تلقيت أوراق هذا الكتاب من العقيد أسامة الصادق أخذت أقلب أوراقه وفى تصورى أنه لن يضيف جديداً لكتب مماثلة حاول أصحابها أن يبرروا الهزائم أو أن ينسبوا لأنفسهم بطولات وهمية ، وبدأت أقلب الأوراق أقرأ صفحة هنا وصفحة هناك ، غير أننى شعرت أن لهذا الكتاب مذاقا خاصا وأنه يقدم شيئا مختلفا.

فتح الرجل خزائن ذاكرته وترك الأحداث تتدفق بحيوية وعفوية ، ولم يسمح لقلمه أن يتجاوز التسجيل الأمين لهذه الصور وعندما أكملت القراءة كانت ملاحظات عديدة قد تبلورت حول هذا الكتاب.

*قدّم الكتاب صورة للحشود العسكرية فى يونيو عام ١٩٦٧ ووصف بأمانة الحالة المزرية للجيش المصرى أفراداً ومعدات ، وهذه الصور تكشف بوضوح أسباب الهزيمة الثقيلة التى وقعت هذا العام.

* غير هذا الكتاب من الصورة الذهنية التى استقرت فى أعماق جيلنا عن الهروب والاستسلام والضياع الذى حدث للقوات المسلحة. فقدم الكتاب صوراً مضيئة لقيادات عليا وقيادات وسيطة وأفرادا عاديين من القوات المسلحة لم

يستسلموا وقاتلوا بشراسة فى ظروف غير متكافئة دفاعاً عن شرف العسكرية المصرية.

* قدّم الكتاب تفاصيل بناء القوات المسلحة الجديدة وكيف تغيرت الصورة تماما سواء بالنسبة للمجندين أو المعدات أو اهتمام القيادات العليا ، وكانت النتيجة الطبيعية نصر أكتوبر الباهر.

* قدّم الكاتب صوراً إنسانية رائعة تخللت الأحداث الدامية للحرب ونسج هذه الأحداث فى نسيج متجانس لا يشعر القرّاء أنها مقحمة فى غير موقعها الطبيعى فجاءت صور الكتاب نابضة بالحياة الطبيعية التى تتلازم فيها أهوال القتال بالمشاعر الإنسانية.

* يكشف الكتاب عن مجموعات من القوات المسلحة عبرت القناة قبيل العبور الكبير لتأمين مناطق العبور ، ويقدم الكاتب الذى قاد إحدى هذه المجموعات صوراً رائعة لشجاعة الرجال وتصديهم لمدرعات العدو التى حاولت صد موجات الهجوم وكان صمود وبطولة هذه المجموعات أحد مفاتيح النصر المهمة.

وأخيرا فهذا الكتاب يقدم للقارئ أحداثاً تكشف زاوية لم تلق الاهتمام المطلوب فى هزيمة ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف وحرب ١٩٧٣ ... والآن إلى صفحات الكتاب.

السيد الغضبان

تلك الكلمات البديعة كانت مقدمة الطبعة الأولى التى صدرت شهر مايو ٢٠٠٧

مروة مدين

October 21, 2007

قد تظن وأنت فى غمرة الأحداث أنك تقرأ إحدى روايات "رجل المستحيل" التى ينجو فيها البطل من الموت بأعجوبة، وفى اللحظة الأخيرة، ولكنك تعود وتتذكر أن ما تقرأه حقيقة وليس خيالاً!! وتجد نفسك تتساءل مشدوها... كيف ظل على قيد الحياة بعد كل هذا؟

ثم تتداعى إليك أسئلة أخرى... كيف استطاع مع مجموعته أن يمروا بكل تلك الأهوال ثم يخرجوا منها ليحيوا بيننا دون أن يعلم العالم عنهم شيئا؟؟ أهوال تعود إلى أربعين عاما مضت!!

لماذا لم يذكرهم أحد رغم أنهم حقيقة واقعة!!

لماذا تركهم صناع الدراما بما لديهم من حقائق واقعة، لهثا وراء خيالات فاضحة ؟؟

والإجابة :لأن هناك من يريد أنْ يمحو ذكراهم من الأذهان... ويريد أن يهيل التراب على ذاكرتنا ويفقدنا الأمل فى أن هذا البلد قد تضعفه جراحه لبعض الوقت ولكنها أبدا لا تقتله.

ستذوق فى هذا الكتاب طعم كل كلمة هزيمة... متاهة لا نهاية لها.. عطش وجوع ومياه مسمومة.. ذئاب وثعابين.. دبابات ورصاص.. حقول ألغام وتجار مخدرات ... جرحى وقتلى وجنود مسحولة تحت دبابات العدو. عدد من المصادفات التى لا يصدقها إلا من يؤمن بالله، وبأن من يعمل صالحا يوف أجره، لا ينقص منه شيئا... ثم نصر من عند الله .

توقفت كثيرا عند جملة معينة فى هذا الكتاب.. أن الإسرائيليين فى الأيام التالية للخامس من يونيو ١٩٦٧ كانوا يبحثون عن الضباط المصريين بالذات ليقتلوهم. وكان السبب فى ذلك أن إعداد القادة يستلزم وقتا طويلا للغاية، ويقتلهم للضباط يضمنون سقوط هذا الجيش لسنوات طويلة!! .

ألا يفسر لنا هذا أفعال من أخذوا على عاتقهم ألا تقوم لهذا البلد قائمة بعد حرب أكتوبر، والذين أدركوا أنه لابد من هزيمة الشخصية المصرية حتى ينالوا من هذه الأمة.. وبالتحديد تغييب شبابها!!

إن عبقرية هذا الكتاب ترجع لعدة أسباب.. أولا بساطة اللغة، إذ تشعر وكأنك تسمع الكاتب وهو يروى الأحداث بنفسه. ثانيا الصدق الذي تستشعره من الكلمات المسطورة برغم ما تثيره فى نفسك من شجن. والأهم أنه كتاب عن الناس... وليس كغيره عن القادة. لذا فقد جاء حديثه عنه كملازم – وقتها – وعن الجنود. أولئك البسطاء والعاديين إلى درجة لا يصدقها عقل... ربما لم يكونوا بالجنود المذهلين الذين نراهم فى الأفلام الأجنبية المختلقة ولكن أجسادهم كانت وبدون مبالغة هى الجسور التى عبرت عليها مصر إلى الضفة الشرقية.. حتى كان مصير الكثير منهم ليس أكثر من نصب لعين من الحجر الأصم أطلقوا عليه تسمية أكرهها للغاية.. "الجندي المجهول"!!!

ومن جعله مجهولاً إلا نحن!! جعلناه مجهولا وجعلنا غيره من حثالة البشر نجوما براقة لا همّ لها سوى إضفاء المزيد من القبح على حياتنا.

بعد قراءتي لهذا الكتاب الذي كان من الصعب تركه. أقول: الحمد لله الذي منّ على مصر بنصر مبين بعد هزيمة منكرة.

ورحمة الله على من كان سببا فى هذا النصر: الرئيس الراحل محمد أنور السادات..

وتحية لكل من ساهم فى هذه الحرب وأقول لهم بالله عليكم تكلموا كما تكلم العقيد أسامة على الصادق، وأخبرونا وأخبروا من بعدنا عما شاهدتموه وفعلتموه فى هذه الحرب... أعيدوا للناس ثقتها فى أن هذا البلد قادر بإذن الله على أن يقوم من كبوته وأن يلعق جراحه مهما كانت قاتلة!!

وأخيرا .. تحية خاصة للعقيد أسامة على الصادق وشكر من شخصي المتواضع على الصورة التى نقلها لنا بكل تفاصيلها الحلوة والمرة. بارك الله في حضرتك وجزاك خيرا عما قدمته لهذا البلد وأهله.

مقدمة الطبعة الثالثة

كتب مقدمة الطبعة الأولى الصحفى والإعلامى الأستاذ السيد الغضبان .. ثم كتب مقدمة الطبعة الثانية الآنسة مروة مدين الإنسانة المثقفة من الجيل الجديد بعد أن قرأت الطبعة الأولى وكتبت رأى جيلها ..كُنت فى أشد الشوق والحاجة إلى أحد القادة العسكريين الذين لهم صولات وجولات لقراءة الكتاب وإعطاء الرأى.

وفقنى الله فى هذا والتقيت بأحد هؤلاء الرجال .. اللواء أركان حرب عبدالمنعم خليل.. إنه من جيل القادة القدامى فهو زميل الفريق سعد الدين الشاذلى وعاصر حروب مصر الحديثة "الحرب العالمية الثانية حرب عام ١٩٤٨، حرب عام ١٩٥٦، حرب اليمن، حرب عام ١٩٦٧، حرب الاستنزاف، حرب عام ١٩٧٣".

شرفت بلقائه للمرة الأولى فى منزله العامر فى شهر مايو عام ٢٠٠٩ برفقة اللواء طيار أركان حرب، محمد عكاشة أحد قادة أسراب الميج الذى قاتل الأعداء فى الجو .. بعد لقاء ممتع جمع ثلاثتنا أهديت القائد كتابى الناس والحرب بتوصية من اللواء عكاشه والذى سبق وأن قرأ الكتاب.

وبعد مُضى خمسة أسابيع تقريبا على اللقاء الأول اتصل بى طالبا لقائى، كنت وجلاً من هذا اللقاء ، هذا قائد كبير حيث كان قائدا للجيش الثانى وأنا ضابط برتبة ملازم أول .. سوف يقف العصفور فى حضرة النسر وسوف يلقن النسر العصفور مبادئ العسكرية والقتال بل قد يوجه لى بعضا من أخطاء أقدمت عليها أثناء لقاء العدو.

التقيت به فى هذا اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو من هذا العام ٢٠٠٩، لم أستطع لملمة نفسى المبعثرة من حديثه الشيق ومن إطرائه على ما قمنا به أنا وجنودى فى المعارك سواء أثناء الانسحاب من سيناء أو خلال حرب الاستنزاف ومنحى خطاب شكر على ما قمنا به من تدمير مخزن ذخيرة للجيش الإسرائيلى بمدينة القنطرة شرق ، عادت به الذاكرة لهذا الحدث حين أخبره مساعدوه فى قيادة الجيش بأن مخازن ذخيرة العدو بالقنطرة شرق مازالت الانفجارات تتوالى بها ، كما أنه القائد الذى حل محل قائد الجيش اللواء سعد مأمون لقيادة الجيش الثانى بعد المعركة الدامية التى قمت بها مع وحدتى فى باكورة الهجوم على العدو ظهر عام النصر عام ١٩٧٣.

ترددت فيما أسطره من كلمات سواء كتبها بخط يده المنمق أو بتسجيل صوتى أعتبره وساما على صدرى من قائد ومقاتل له من الحنكة والتاريخ الطويل المشرف. لقد كان الثناء فوق الوصف ، لا أستطيع تحمله ، طلبت منه تشريفى وتشريف القراء بكلماته الطيبة للطبعة الثالثة ، تردد الرجل لكنه كقائد شجاع وله من البطولات العديدة رضخ لرجائى وأصبح النمر الجسور يكتب مقدمة للقط الأليف أسامة الصادق .. لن أزيد ولكن سوف أكتب بعضا من سطور كتبها وأترجم بعضا من نبرات صوته المسجلة إلى كلمات على الورق ليقرأها شباب مصر وليعلموا أن مصر بها أجيال تسلم راية النصر إلى أجيال حتى يوم قيام الساعة ، وهذا تقليد توارثه الآباء عن الأجداد.

***

زميلى فى الحب والحرب المقاتل/ أسامة الصـادق

هذا يوم سعيد علىّ يا أسامة

أتمنى أن يكون تقديمى لكتابك الناس والحرب للطبعة الثالثة فاتحة خير عليك وعلى المصريين ، عشت مع كتابك لأكثر من شهر وقرأته سبع مرات زرفت فيها الكثير من الدمع وتألمت لحالك أنت وجنودك ، كنتم كأشباح هزيلة تدق بأقدامها أرض سيناء تنبه العدو بأن هناك شبابا مازال يقاوم رغم العطش والجوع وقسوة الصحراء ، تذكرت أيام صباى فى جميع حروب مصر التى خضتها من أجل الوطن الحبيب الذى لا نشبع منه ولا ننساه ، إنه خالد إلى الأبد ، ساكن فى دمائنا مهما تجرعنا كئوس الذل والألم والظلم من الخارج والداخل ، مصر الفتية القوية بأبنائها من أمثالك وأمثال جنودك الشجعان.

أشكر الله سبحانه وتعالى أن التقيت بك واطلعت على كتابك الذى هو مفخرة لكل مصرى ، أرجو من الجميع أن يقرأ هذا الكتاب ، هذا الكتاب لا يخصك وإنما هو خاص لمصر والعرب والمسلمين. إليك بعضا من مشاعرى:

* أزرفـــت دمعى سبع مرات
* ازدادت همـومى سبع مرات
* أسـعدت عمرى سبع مرات
* ألهبت شـــوقى سبع مرات
* حيّرت فـــكرى سبع مرات
* أعدتنى إلى الماضى سبع مرات
* حفظت فيها أسرارى سبع مرات ... يستكمل القائد كلماته:

تلك المشاعر عشت معها وفيها مع كلماتك الصادقة رغم أن سبعًا منها حيّرت أفكارى نحو صراع الكلم وضباب الوضوح ووخز الشيطان ، لكن فى النهاية كُنت مشتاقا إلى لقائك حتى أفرغ ما فى نفسى إلى نفسك فقد كنا ومازلنا زملاء فى

الحب والحرب من أجل مصر ، ورغم الغش والخداع وأهل الثقة وزبانية السلطة ونقص مكارم الأخلاق ولكن الله مع الذين اتقوا وأحسنوا.

قبل النهاية .. أتذكر موقفاً بعد إيقاف إطلاق النار فى حرب أكتوبر المجيدة وكنت أثناءها قائدا للجيش الثانى الميدانى والذى كنت يا أسامة أحد أبطاله وأحد عناصر الهجوم المباغت المبكر على قوات العدو المدرعة ، كان برفقتى لزيارة الجبهة شيخ الأزهر فضيلة الشيخ عبدالحليم محمود "رحمه الله" وأثناء زيارة مدينة القنطرة شرق والتى ساهمت بتحريرها مع رجالك بأن دمرتم الدبابات الإسرائيلية بأجسادكم وأرواحكم حتى تم النصر والتحرير.

اقترب منى شيخ الأزهر وسألنى سؤالاً : هل حدثت أشياء غريبة وغير معقولة ومنطقية لرجال الجيش الثانى أثناء الحرب؟

ابتسمت له وأجبته ببيت من الشعر:

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونَ

قال: صدقت .. رحمك الله شيخ ورع تقى

والله ينصر مصر دائما ويرعاها ويرعى أهلها وإلى لقاء.

مع تحياتى

لواء أركان حرب/عبدالمنعم خليل

قائد الجيش الثانى الميدانى

خلال حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ١٩٧٣

من تاريخ يونيو ١٩٦٧ إلـى يونيو ٢٠٠٩

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تحيرت كثيرا فى إعداد هذا الكتاب .. حيث وجدت لزاما على أن أتناوله من خلال موضوعات شتى ومتعددة .. سواء فى طبيعتها أو أماكنها وشخصياتها المتنافرة فى بعض الأحيان والمتجانسة فى أحيان أخرى، ولكن من غرائب القدر أنها جميعا كانت أحداثا حدثت لى بالفعل فى الزمان والمكان والشخصيات التى ذكرتها فيه.

ورغم أن المؤلف قد يقدح أحيانا زناد فكره لكى ينسج قصصا من وحى خياله محاولا بقدر الإمكان أن يضفى عليها من عناصر التشويق مع الاحتفاظ بمنطق الأحداث ومحاولة الابتعاد عما نسميه المصادفات .. وانا لست مؤلفا بل انا أسجل ما عشته فقط كما هو .. ولست أدون سيرة ذاتية فأنا أتحدث عن فترة معينة لشعب مصر ولجزء مهم بها وهو جيشها؛ لذلك فإننى أرى أنه إذا كان من عادة من يكتبون القصص والروايات المستوحاة من الواقع أن يكتبوا فى المقدمة عبارة تقول ما معناه "أى تشابه بين أحداث هذه القصة وبين أحداث وشخصيات موجودة فى الواقع هو مجرد صدفة، "لكننى هنا أقول وأعنى العكس تماما فكل الأسماء والأحداث والأماكن حقيقية لواقع سمعته ورأيته وساهمت فيه وتألمت

وعانيت منه الكثير ولم يتدخل خيالى فى أى من تفصيلاته .. وكل ما أدخلته من تغييرات هو على الأسماء النسائية احتراما للقيم والمبادئ التى تربى عليها الشعب المصرى وهى ضرورة أخلاقية بكل المعانى التى تحملها .. الأحداث لا فضل لخيالى فيها لأنها وقعت وحدثت وبعض آثارها باق فى الوطن وشخوص منها مازالت موجودة على قيد الحياة .. وهذا ما جعلنى أتردد طوال الأربعين عاما الماضية فى هل أكتب ما عشته أو أظل أحتفظ به فى عقلى.

وكان الدافع إلى محاولة إقحام هذا الموضوع فى الكتابة عدة نقاط جوهرية فى اعتقادى والتى تدور حول:

١- كان التحدث عن حرب ٦٧ كأنها هزيمة عسكرية والجميع مسئول عنها وخاصة كبار القادة فى تلك الفترة .. لكننى أقول للمعلقين ومن كتبوا عنها هل هناك حرب مهما كانت نتائجها مريرة بدون مقاومة وتكبيد العدو خسائر كبيرة؟ ولماذا نحن نفكر .. إما ١٠٠٪ أو لا شىء .. ألا يفيد حتى ولو ٢٠٪ إن لم يكن أكثر .. هل الناس فى مصر والعالم اعتقدوا ان الحرب انتصر فيها الإسرائيليون بدون خسائر وبدون مقاومة.

أهلنا التراب على أرواح ضحايا تلك الحرب سواء من استشهدوا فى القتال أو لاقوا ربهم أثناء الانسحاب لكن فى الحالتين هناك أرواح أزهقت .. اذكروا هؤلاء بكل خير تخليدا لهم ولذويهم .. فنحن مازلنا نذكر صلاح الدين الأيوبى وسليمان الحلبى وغيرهما.

٢- تصحيح التاريخ.. وهنا لا أقصد التاريخ العسكرى ولكن تاريخ مصر الحديث .. الصورة التى سيحصل عليها القارئ من الجزء الأول عبارة عن شريحة لمئات من الشباب المصرى وما فعلوه أثناء الانسحاب، بطولات فردية قاموا بها ولم يبخلوا على وطنهم بأغلى شىء .. وهى أرواحهم الطاهرة.

٣- ليعلم جميع الشباب أنهم عُدة الوطن وأمله وأنه لا مناص من حروب أخرى مع الأعداء .. والأعداء هنا ليس دولة واحدة محددة ، بل العديد من الدول التى تريد القضاء على مصر ومنعتها قوتها بكل الطرق.

كتاب "الناس والحرب" هو كتاب من جزءين ..

الجزء الاول :يتحدث عن فترة الخمسين يوما منذ إعلان حالة الطوارئ فى مصر منذ ١٥مايو عام ١٩٦٧ حتى الرابع من يوليو من نفس العام وهو يوم وصول جنودى وأنا برفقتهم إلى غرب قناة السويس .. وفيها تم انسحاب لمجموعة من الشباب المصرى .. ستة من الجنود الأوفياء لبلدهم "ضابط برتبة ملازم وخمسة من جنود كتيبته"

الجزء الثانى :ويشمل ما بعد وصول هؤلاء الرجال الى الضفة الغربية لقناة السويس ثم عودتهم لوحدتهم ومراحل إعداد القوات المسلحة والتى تتخللها مواقف اجتماعية وإنسانية على أعلى مستوى نظرا للحدث التى كانت تمر به مصر .

يتناول الكتاب بجزئيه بعض المواقف الإنسانية غير الطبيعية والتى يُحكم عليها بالخوارق وتلك الأشياء كانت غريبة علىّ وكنا نسمع عنها أو على شاكلتها مثل حواديت أيام زمان .. ولكنها حدثت لى وأنا احكى عنها ولست طامعا فى شئ فأنا أعتقد كل الاعتقاد أن الله أظهرها لكى يساعدنا وينجينا مما نحن فيه .. ولقد رسخ فى عقلى الصغير وقتها ومازال حتى الآن هو أننا بالبعد عن المناطق المأهولة بالبشر والعيش بالمناطق المهجورة نفاجأ بأشياء لم نكن نراها أو نشاهدها ونتابعها ونحن فى وسط البشر والمدن .. وهذا ما يحدث مع أصحاب الكرامات والشيوخ وما يطلق عليه بالخلوة ويذكر اسمه بعدها " مثل خلوة الشيخ أبى مسلم" .. هذا ما حدث بأن أشياء وخوارق كنا نسمع عنها أو نشعر بها ونخاف منها فى بعض الأوقات ولكنها لم تضرنا بل كانت نفعا وملاذا ونفحة من عند الله لنا نحن الضعفاء.

إذًا المعجزات والخوارق من عند الله وحده وأى قول غير هذا يعتبر شركا مع الله القادر .. والمعجزات ترسل للأنبياء وأولياء الله الصالحين ونضيف عليها الضعفاء والمساكين والمحتاجين .. الله يمُدهم بمدد من عنده .. والقرآن الكريم خير شاهد على ما ينفحه الله لأنبيائه وعباده ....

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾

(١١) .. سورة إبراهيم

وقد اختص الله سبحانه وتعالى الكثير من البشر بمعجزاته كما اختص بها أنبياءه ورسله وقد جاء فى كتابه العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾

(١١) سورة الكهف

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(٢٥٩) سورة البقرة

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

(٥) سـورة الحج

السؤال الذى يتبادر للأذهان بعد أن أوضحت أجزاء الكتاب والغرض الموضح بداخله .. سؤال: ولماذا فكرت فى نشر الكتاب فى تلك الأيام ونحن على أبواب الذكرى الأربعين لتلك الحرب؟

الجواب : مكون من عدة نقاط سريعة .. الحدث لم يترك فكرى وعقلى منذ أن حدث حتى اليوم ، بل وأثناء جلوسى مع بعض شباب العائلة فى مصر أو أثناء تواجدى فى الولايات المتحدة كنت أروى للشباب من الجنسين عن تلك الحرب فتنتابهم الدهشة من اختلاف روايتى عما يعلمونه فقد أصبحت ذكرى ٦٧ هى رفيقة للحزن والصمت ولقد فوجئ الشباب بما قلته فتغير حكمهم على الأشياء.. صحيح لم ننتصر ولكننا قاومنا بكل ما نستطيع من قوة .. كما كان لاطلاعى عما حدث فى الحرب العالمية الثانية وهزيمة الألمان ورغم هذا فإن كتبًا كثيرة أظهرت بطولتهم وشجاعتهم ومنها بالطبع كتاب "الفيلق الإفريقى"وفيها تظهر الحرب شجاعة رومل وجنوده .. إذًا نعطى كل ذى حق حقه حتى حرب اليمن يجب أن نخلد ذكرى ضحاياها أيضا.

لقد اخترت لهذا الكتاب بجزئيه عنوان "الناس والحرب "وشاهدت الخوارق التى حدثت وشاهدها البعض من جنودى الذين عاصروها .. كما أدعو الله أن أكون قد وفقت فى نقل صورة خالصة واضحة عن تجربتى ومعى خمسة آخرون متوخيا الصدق والصراحة سارداً الأحداث ذاكراً الأشخاص دون تعديل أو تحريف إلا بتعديل فى أسماء بعض الشخصيات النسائية غير المشهورة طالبا من جيل الأبناء والأحفاد الاستفادة بتلك التجربة طالبا منهم الثقة بالنفس بأن جيل ٦٧ كان جيلاً شجاعاً رغم الظروف المحيطة به ولم يسلم سلاحه .. كما أوجهها الى أقارب ضحايا تلك الحرب .. تلك صورة لما قاساه أبناؤكم وأحبابكم وكيف لاقوا ربهم إما عطشا من قلة الماء .. أو من أثر إصابة لم تعالج .. أو فى اشتباك مع العدو مثل ما حدث لأبطال المدرعات أمامنا.

أرجو أن تسعدوا بقراءة هذا الكتاب وأن أنال رضاكم وهذه هى المكافأة العظمى ليس لى فقط بل لجنودى أيضا بل الأهم لشهداء تلك الحرب ولتترحموا عليهم ذاكريهم بكل خير وترفعوا رأسكم عاليا استعدادا لجولات أخرى مع أعداء آخرين تيمنا بقول الرسول الكريم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فهم خير أجناد الأرض.. قيل ولما يارسول الله .. قال لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة.. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم).

والله الموفق

● الجزء الأول

أهوال الانسحاب

الجيش المصرى

وقف الخلق ينظرون جميعا ... كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهر ... كفونى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق ... ودراته فرائد عقدى
أنا إن قدر الإله مماتى ... لاترى الشرق يرفع الرأس بعدى

هذا مقطع من نشيد مصر تتحدث عن نفسها لشاعر النيل حافظ ابراهيم والتى تغنت به كوكب الشرق أم كلثوم وإذا سمعته اهتزت أعضاء جسدك حمية وقوة ووطنية ونحن جيل تربى على الوطنية والروح القومية والوحدة العربية ومقاومة الاستعمار وإذنابه من المحيط الى الخليج .. كان منهجا عاليا رائعا تبناه زعيم مصر والذى وهبه الله هذه النعمة .. نعمة اللباقة حديثا ومعنى ونظراته الى الجماهير تأثيرا وتوجيها وحبا من الشعب له لما يقول ويفعل .. لقد جاء عبد الناصر ابن مصرمن ترابها وطينها ويبقى حتى وفاته كما هو يتحدث عن العامل والفلاح والموظف الصغير .. وقد كان محقا فيما يقول ومن منا فى الريف لم يشاهد البؤس الذى كان يعيش فيه الفلاح .. عمل وسخرة طوال النهار وكل ما يحصل عليه من غداء هو بضع لقيمات خبز جاف وقطعة جبن مملح ومش وبعض من خضرة الأرض ثم شربة ماء من مياه الترعة والقناة الواصلة من الترعة لرى قطعة الأرض التى يعمل بها.

تخرجت فى الكلية الحربية فى شهر أغسطس من عام ١٩٦٦ .تم توزيع الضباط الخريجين على التشكيلات العسكرية كل حسب نصيبه والقليل حسب الواسطة والتى لم تكن ظاهرة، كانت معيبة فى حق طالب الواسطة بأنه أقل من الآخرين ويحتاج العون .. كُنت ضمن ضباط سلاح المشاة وهو أكبر سلاح فى الجيوش عامة وجيوش الدول ذات المساحات الواسعة والأراضى الصحراوية .. ألحقت على الفرقة الثالثة المشاة فى منطقة وصلة الهايكستب والتى تمتد حتى طريق السويس الصحراوى الذى كان يقف آخر عمران به عند علامة الكيلو٤,٥ وهى المنطقة التى بها مصانع الهيئة العربية للتصنيع .. توجهت الى الوحدة ويحوينى أمل بأننى سأجد جنودا وضباطا على أعلى مستوى من التدريب والانضباط العسكرى خاصة أن بعض ضباط إدارة المشاة أخبرونا بأن حظنا من "السما" حيث إن تلك الوحدة من الوحدات القديمة القوية وأنها قدمت من اليمن حديثا بعد انتهائها من العمليات الحربية الموكلة إليها هناك.

عدد الضباط الجدد المنضمين على تلك الوحدة كان سبعة ضباط وهو عدد كبير؛ لأنه فى العادة يكون العدد واحداً أو اثنين على الأكثر , ولكن نظرا لحدوث خسائر أثناء معركة اليمن .. وانتهاء خدمة بعض الضباط الاحتياط فقد قررت إدارة المشاة تعويض تلك الكتيبة بعدد كاف من الضباط الجدد.

الكتيبة قليلة العدد بسبب أنها قدمت من اليمن منذ شهر و الضباط والجنود فى إجازات حيث إنهم مقسمون إلى عدة دفعات نصفهم حصل على إجازته وتبقى النصف لكن ما لفت نظرى هو أن تأثير وجود الوحدة باليمن كان باديا عليهم وهذا واضح على الوحدة سواء من حالة عدم الانضباط على الجنود أو الصف ضباطًا أو من سوء التدريب وهذا لم يكن خافيا على قيادة الوحدة لكن المسألة كانت مسألة وقت فالقائد منتظر انتهاء الجنود من الإجازات التى مُنحت لهم حتى يُعدهم إعدادا جيداً بما يتمشى مع النظام العسكرى.

كانت حالة الجنود محزنة .. جميعهم من كبار السن الأميين الذين لا يعرفون قراءة أى كلمة ولا يستطيعون كتابة أى حرف وكل ما يمتلكونه من مهمات هو عدد اثنين أفرول .. يّجنب أحدهما لارتدائه خلال الإجازات وما أقلها لمن هم من

الأقاليم والصعيد والأفرول الثانى هو للتدريب والنوم والخدمة ليلا ويصبح هذا الافرول بعد عدة أسابيع مهلهلا وبه العديد من الرقع وعلى الجندى أن يغسله وينشره فى الشمس يوم الجمعة وهو جالس بملابسه الداخلية البالية أيضا حتى يجف والمنشر هو سور السلك الشائك الفاصل بين الوحدات وقد يكون هذا اليوم غائما والشمس غير ساطعة أو ممطراً فتكون كارثة للجندى الذى يتحير كيف ينام وكيف يرتدى زيه للطابور فى الصباح الباكر .. كانت كل الأمور متداخلة متشابكة مغايرة لمفهومنا السابق بأن هؤلاء الجنود أبطال وهم فى لياقة بدنية عالية ويتدربون ليل نهار وخاصة أنهم عائدون من معركة اليمن .. ولكن للأسف لم يكن هذا صحيحا ، يبدأ الجندى يومه بطابور الصباح الذى هو فى الأصل تربية بدنية بعدها يتوجه لتناول طعام الإفطار ثم يعود لاستكمال طوابيره وهى عادة طوابير تعليم أولى للتدرب على السير بالخطوة المعتادة رغم أنه قضى فى التجنيد والاحتياط ما يزيد عن الخمسة أعوام والتجنيد فترته ثلاثة أعوام لمن فى حالتهم ولكن الجزاءات التى كانت توقع عليهم بدون سبب أو "بسبب قلة الإدراك والفهم المصاحب للأمية" جعلتهم يمكثون تلك الفترة الطويلة وهم لا حول ولا قوة ولا يعلمون فى أى وقت ينتهى تجنيدهم ..

بعد تناول الجندى لطعام الفطار يقوم بوضع قليل من الرمال فى مشمع الفرش الذى ينام عليه ويسير ساحبا هذا المشمع خلفه فيقوم بتسوية الرمال المنتشرة على أشكال مختلفة من أثر سير الجنود فوقها بالحذاء ويستمر هذا الحال عدة ساعات وما تم تسويته منذ دقائق يتم هدمه وإزالته بعدها لأنه سيحضر جندى آخر خلف الأول بمشمعه ويخرب ما قام به .. بدون هذا يصبح الجندى مشكلة.

أما الضباط فهم لاهون بالضحك والحكايات والمغامرات والتى كان أكثر من نصفها كذبا وخداعا على أبناء الأقاليم من نوعيتى .. أما إذا حادثت جنديا بهدوء وسماحة تكون أنت ضابط "طرى" وضعيف وهذا الأسلوب سيقضى على الضبط والربط ويجب أن يكون الضابط حازما وكل تعامله مع الجنود بعنف وشخط وكثير من الإهانات وقد دُهشت لهذا فإنه شىء جديد على مسامعى

ونظرى ولم ندرس مثل هذا الأسلوب فى التعامل وقد طلب منا الضباط الأقدم رتبة أن نتجاهل ونهمل ما درسناه.

اما طعام الجنود فهو أردأ ما يكون وحتى الآن كلما تذكرت ما يقدم لهم من طعام تجزع نفسى سواء فى النوعية أو أسلوب الطهى .. يمكن أن يطلق عليه أى اسم غير "طعام" وأتذكر بعد عملى بعدة أشهر وكنت ضابطاً نوبتجياً لاستلام التعيينات الطازجة من المستودع وذهبت الى هناك ورفضت استلام اللحوم الطازجة لقذارتها ورداءتها وقد ضايق هذا المتعهد حيث إنه سيعود بأكثر من عجل ونصف غير مطابق للمواصفات وقد جاء المتعهد للسؤال عن المشكلة , فنظر إلىّ من أعلى إلى أسفل كأنه يقول "ما هذا العصفور الصغير اللى عامل فيها عفريت" .. سألنى بصوت أجش يبعد عن الاحترام واللياقة .. فيه إيه يا فندى؟ .. وقد شعرت بضيق من أسلوبه فأوعزت إلى الرقيب النوبتجى المكلف معى بالرد عليه وعرض العيوب .. حيث قال له إن منظر اللحمة لا يسر وأنه توجد بعض القاذورات عليها .. يجيب الرجل بكل بساطة وسهولة.. "أبدا والله.. مافيش حاجة" .. ويمسح تلك القاذورات بيده ويقربها من أنفنا قائلاً: "والله ما فيه حاجة.. دى كلها جلة "روث الجاموسة" يعنى شوية ميه وتبقى فل وبالهنا والشفا" ..هذا جزء من كثير فى هذا المجال.

أما نومهم فحدث ولا حرج .. يفرش مشمع أرضا وفوقه بطانية ويغطى جسده ببطانيتين ولا يوجد شئ اسمه مخدة فعلية تطبيق البالطو الصوف الكاكى ويعمله كمخدة .. الصابون المسلم له يجعله يتهرش طوال الليل إذا جازف واستحم به .. أما الناموس والذباب فهو الرفيق والصديق لهم.. نهارا ذباب وليلا تغير النوبتشية ليتسلمهم الناموس تاركا الذباب فى راحة حتى الصباح .. وللنزول إجازات عليهم السير على الأقل عدة كيلو مترات حتى يصلوا قريبا من بوابة المطار والتى يقف عندها الأتوبيس الذى ينقلهم الى ميدان روكسى بمصر الجديدة وهكذا فى العودة ساعتين ذهابا وساعتين عودة .. أما داخل القاهرة فمطاردة القط والفأر مع جنود الشرطة العسكرية حيث يلقون القبض عليهم أمام

الشعب الحزين على حال جيشه ..أما راتبهم الشهرى فلا يغنى شيئا لأنه أقل من ثلاثة جنيهات وأغلبهم متزوج ويعول.

اما عن التدريب العملى فكان فى ذيل الاهتمامات وخاصة الرماية فنحن مثلا كطلاب فى الكليات العسكرية لم نتدرب على الرماية سوى بالأسلحة الصغيرة أما الأسلحة المضادة للدبابات أو الطائرات فلم نتدرب عليها اكتفاء بالنظر إليها والحصول على بعض المعلومات الأولية فقط ..هذا أيضا فى الوحدات فكانت تدريبات الرماية بالذخيرة الحية فى أقل الحدود مما يؤثر على نتيجة الوحدة وعلى تقارير القائد وترقيته، فيتم الاحتيال بكل الطرق غير الشريفة وغير الممكنة لعلاج الأخطاء سواء بالتزوير فى نتائج الاختبارات أو إبدال أصحاب العاهات بآخرين ليقوموا بأداء الرماية بدلا منهم وهكذا خاصة لانتشار مرضى العشى الليلى الذى يجعل الجندى لا يرى بوضوح أثناء الليل .. كله بيضحك على كله فتغرق البلاد مثلما حدث ويحدث دائما.

كانت الصفة الغالبة فى العلاقة بين الضباط والجنود ظاهرها العنف والترفع ضد هؤلاء الجنود ولكن فى حقيقة الأمر أن كثيرًا من القادة والضباط كانوا يعطفون عليهم نظرا للمستوى المتدنى لحالتهم الصحية والاجتماعية والثقافية فقد تكالبت عليهم الظروف الاجتماعية والسياسية ضدهم , كل ضغط عليهم يأتى بخسائر أكثر وهم لا يستطيعون الشكوى أو التألم .. و مما زاد الأمور تعقيدا هو تمسك تلك الطبقة الفقيرة بالدين وإيمانهم الأعمى والمفرط فيما يقوله رجال الدين غير المؤهلين جيدا فهؤلاء الرجال المنتسبون لرجال الدين ظلما وبهتانا لا يعرفون شيئا عن علوم الدين إلا القليل منها لأنهم ببساطة لم يتخرجوا فى الأزهر وماله من فضل على العالم أجمع .. كان هذا هو حال هؤلاء الذين استسلموا لكل ألوان القهر والظلم لهذا كنت ألحظ بعض الضباط يشترون بعض الأغراض المفيدة لهم أو الحلوى أو ماشابه على نفقتهم الخاصة وهذا ليس تظاهراً وتفضلاً ولكنه شعور إنسانى ورحمة داخلية مبعثها أنهم إخوة لهؤلاء الجنود البسطاء وأن ظروفهم قاسية قسوة شديدة وقد لفت نظرى هذا لأول مرة بأن حضر قائد سريتى النقيب مصطفى أبو بكر وكان رجلا فاضلا واشترى

بعض الأشياء التى تهمهم من ورنيش أحذية وأمواس حلاقة وكولونيا وكان عددهم يزيد عن المائة جندى وأثناء توزيع هذا الترفيه عليهم قال لهم إن هذا الترفيه اشتراه حضرات الضباط لكم وهو يشير إلى ثلاثتنا وقد دُهشنا مما قال لأننا لم ندفع مليما واحدا وهو الذى تحمل كل شىء ثم حملنا فضل هذا .. وقد تعلمت أول درس فى حياتى على يديه وسرت على منواله بعد ذلك بالعطف على الجنود وبمشاركة ضباطى معى فى تحمل كل شىء لأن هؤلاء هم جنودهم مثل ما هم جنودى .. وكان درسا قيما لم أنسه فى حياتى.

* * *

نظرا لأننى من محافظة الشرقية وليس لى سكن خاص بالقاهرة بل كنت أقطن وأعيش فى منطقة ثكنات العباسية فى شارع باب ثلاثة المواجه لكلية الشرطة والمجاور لمبنى وزارة الكهرباء حاليا حيث كان هناك ما يسمى "بميس المشاة" وهو المكان المخصص لطعام ونوم الضباط المغتربين من سلاح المشاة بالأجر ولكنه كان أجراً رمزيا يقل عن الخارج بحوالى خمسين بالمائة.

كان عدد من ضباط الكتيبة يتهافتون على صداقتى والتودد لى ليس حبا ولا خوفا ولكن بغرض مصلحة شخصية بأن أتولى النوبتجية مكانهم فى الأدوار التى تحل على كل واحد منهم لدرجة أننى كنت أحصل على نوبتجية يومًا بعد يوم رغم أن المقرر لى مرة واحدة كل خمسة عشر يوما .. هم يريدون التمتع مع عائلاتهم وأصدقائهم أما عن حالى فجلوسى فى ميس المشاة مثل جلوسى بالوحدة الشيئان متشابهان لكن قيامى بالنوبتجية كخدمة أقدمها لزميل يسعده أن أقوم بها وهو متودد لى .. وبعد انتهائها يعود وكأنما لا يعرفنى.

فى معسكر الكتيبة حجرة حبس للجنود المخالفين ولكن الشىء الغريب أن بحجرة الحبس بعض الجنود والذين حكم عليهم بمحكمة عسكرية وهؤلاء حسب القانون يلزمون السجن الحربى ولكن لظروف عودة الكتيبة من اليمن وامتلاء السجون الحربية فى مصر فى ذلك الوقت من مدنيين محكوم عليهم بمحاكم عسكرية أبقت القيادات بعض المحكوم عليهم بوحداتهم.

كنت أثناء نوبتجيتى أحاول التخفيف عنهم بإخراجهم من غرفة الحبس آخر النهار وأتركهم يلعبون ويمرحون مع زملائهم الجنود وكان هذا مبعث سعادتهم وسرورهم وسرور زملائهم الجنود.

فى إحدى المرات وبعد مغادرة جميع الضباط الوحدة جاءنى حارس البوابة ليخبرنى بوجود شخص مدنى راغب فى زيارة شقيقه وذكر اسمه ولدى معلومات عن هذا المسجون فلقد كان يعمل مدرسا فى حياته المدنية ولكنه أخطأ فى حق قائده فى موقعه باليمن وقد كان هذا القائد متعنتا وعنيفا ولكن القانون قاسٍ فى أثناء العمليات ولهذا فقد تم تحويله للمثول أمام محكمة عسكرية .. حكمت عليه بثلاثة أعوام ونصف العام سجنا .. ومنذ عام ونصف وهو نزيل السجن ولا يستطيع مغادرته لزيارة أهله.

سمحت له بمقابلة شقيقه وكان هذا المسجون يكبرنى فى العمر بعدة أعوام كما كان يحترمنى هو وجميع المساجين .بعد اللقاء ترك شقيقه وجاء مع حارسه يحدثنى حيث أمرت الحارس بأن يقف بعيداً حتى لا يعلم ما يرغب قوله مراعاة لسره الشخصى فأخبرنى وعيناه تجرى بهما الدموع أن شقيقه حضر ليخبره بأن أمه مريضة جدا وأنها ترغب فى رؤيته وهو يعلم أنها سوف تودع الدنيا وهى لم تره منذ أربع سنوات أى منذ سافرت الوحدة إلى اليمن ، سألنى أيمكن أن يذهب لرؤيتها ويعود فى خلال ست ساعات .. نظرت إليه وأنا أتذكر حكاية الكذب بين الجنود بأن يأتى كل منهم يريد الحصول على إجازة ويخترع حكاية بأن أمه ماتت أو مريضة وستموت وكان هذا واضحا للجميع وهكذا وُضع هذا المسكين كضحية لكذب الآخرين.

سألته ماذا تفعل لو كنت مكانى وأمامك مثل هذا الوضع؟ .. أجاب بكل صراحة لن أوافق على نزول هذا المسجون حتى لو كان شقيقى .. أعجبنى رده ولا أعتقد أن تصرفى جاء اعتباطا أو شجاعة أو قل إنه تهور الشباب حيث صرحت له بالخروج وقد حضر حكمدار حرس السجن بدفتر أسماء المساجين لأوقع أمام اسمه أننى تسلمته حسب القانون .. وقعت وطلبت منه أن يطمئن على أمه وأن يعلم أن عدم عودته بالنسبة لى محكمة عسكرية .. شكرنى وحين هم خارجا

مسرعا مبتعداً سائرا بصحبة أخيه كنت أشعر أن قلبى ينقبض محاولاً النكوص عن وعدى ولكن هذا لم يحدث وهكذا خرج المسجون بموافقتى وتوقيعى متحملاً مسئولية ما سوف يحدث لى من عواقب.

استمر هذا الحال حتى عصر ذلك اليوم وتعداه إلى المغرب ثم بلغ صلاة العشاء .. توجهت إلى السجن لأتمم على المساجين حسب التعليمات وقد قارنت أعدادهم بعدد ما هو موجود بالدفتر فوجدت العدد مطابقا ونظرت إلى "نائب حكمدار السجن" .. وهذا تقليد فى السجون أن أقدم مسجونًا يكون الحكمدار والذى يليه هو النائب .. والذى خرج هو الحكمدار .. فقال نائبه اطمئن يافندم عليوة جاى إنشاء الله النهاردة بس إحنا عملنا حسابنا يمكن ضابط عظيم اللواء يحضر يتمم علشان كده طلبنا من زميلنا "وأشار إليه" أن يحضر للبقاء فى الزنزانة حتى حضور عليوة والكل عارف كده والحرس والموضوع مترتب ومحدش يقدر يوشى بينا .. شكرتهم عائدا إلى حجرتى لا أستطيع تناول الطعام وانا أشعر بأننى مصاب بالحمى وقد تعدى عليوة الثمان ساعات وقد أسقط فى يدى وأيقنت بأنه لن يعود وأن نصيبى من هذا العمل الإنسانى المحكمة العسكرية.

توجهت إلى فراشى وتمددت وأنا أهذى مما سيلحق بى بسبب إنسانيتى سواء مع زملائى حيث أعمل بدلا منهم وهم يمرحون ويسعدون وأنا بديل لهم أو مع هذا المسجون الذى أوقعنى حظى العاثر أمامه.

بعد منتصف الليل رن جرس التليفون والمتحدث الرائد (.....) ضابط عظيم اللواء الذى طلب منى الذهاب الى مقره فى قيادة اللواء بدفتر المساجين حيث وصلتهم إخبارية بفرار عدد من مساجين الوحدات باللواء .. لم أستطع أن أجيب وكل ما دار بذهنى أنه قد ألقى القبض على عليوة أو أن أحد أفراد الأمن بالوحدة قد وشى بنا الى مجموعة المخابرات وهذا هو عملهم .. ارتديت ملابسى وأرسلت فى طلب سيارة بسائق للتوجه الى قيادة اللواء وبعد أن حضرت السيارة اتصل هذا الضابط ليلغى ما طلبه منى حيث إن مساجين اللواء لم يهرب منهم أحد.

عادت بعض الدماء القليلة إلى وجهى واستطعت أن أحصل على بعض الهواء وأن أستعيد اتزان نفسى ولكن دون جدوى ..بقيت ممدا فى سريرى أنتظر وكلها

ساعات قلائل ويحضر القائد والضباط والكل يعرف أن هذا الضابط الصغير أودع السجن منتظراً محكمة عسكرية للمساعدة فى تهريب مسجون نظير أموال أخذها منه ولن يقول أحد أنه قد فعلها بدافع إنسانى وإلا يكون أبله أو مجنونا ..

وانا فى غمار العراك النفسى الداخلى سمعت شخصا يتحدث مع الحارس أمام غرفتى ، حضر الحارس على استحياء خشية إيقاظى ولكن فى ضوء الظلام استفسرت عما يريد فأخبرنى قائلا : أصل عليوة جه يا فندم وكان عايز يدى تمام وصوله لحضرتك .. انتعشت آمالى وعادت الدماء تتدفق إلى شراييني التى جفت منذ ساعات وامتلأ قفصى الصدرى بالهواء النقى وظهرت ابتسامات عديدة على وجهى وشعرت أننى الناصح المفكر أبو الشهامة والجدعنة .. طلبت منه أن يدخله.. دخل محييا ووقف أمامى بشحمه ولحمه ولكن الهيأة غير الهيأة.. لقد ماتت أمه بعد دقائق من وصوله ولكنه كلمها وكلمته وقبلته وقبل يديها ودعت له ولمن ساعد فى نزوله لها حتى يبرد قلبها قبل أن تفارق الدنيا وقص علىّ كل شىء ويقول: كنت أبكى على أمى ولكنى كنت بداخل نفسى أدعو لك أن ربنا يكون معاك .. لم أحضر العزاء .. أردت العودة قبل موعدنا ولكن تعطلت السيارة على طريق السويس وحاول السائق إصلاحها فخشيت أن يحدث كمين من الشرطة العسكرية ويلقون القبض علىّ ويضيع كل شىء وأكون أنا المتسبب لك فى مشاكل فغادرت السيارة إلى الجبل باحثا عن مكان الكتيبة وأنا جاهل به حيث لم أغادر هذا المكان منذ عودتنا من اليمن .. لقد ضللت الطريق الذى لا أعرفه أصلا وأسأل فى كل وحدة تقابلنى لمدة أربع ساعات وأنا هنا أمامك أقبل يديك وأشكرك على هذا الجميل الكبير .. وأعيدها لو كنت مكانك ما فعلتها ولكنك أشجع منى .. طلبت منه أن يعود إلى الزنزانة وطلبت من حكمدار السجن تسجيله وشطبت توقيعى .. وعاد كل شىء إلى وضعه لكنها كانت تجربة إنسانية مرة ومؤلمة وخطيرة.

الزحف إلى سيناء

منتصف شهر مايو ١٩٦٧ أعلنت حالة الطوارئ فى الجيش ورفعت درجات الاستعداد , كنت أتولى قيادة فصيلة مشاة وقوتها العددية ثلاثون جنديا وهذا هو مرتب الحرب أما العدد الفعلى فكان أربعة عشر جنديا منهم اثنان لا يصلحان للحرب حيث إن أحدهم مصاب بالعشى الليلى فإذا أقبل الليل لا يشاهد باب الخيمة والثانى مصاب بشلل أطفال وقدم تظلم ومازالت تدرس حالته .. لم تكن حالة الطوارئ حدثًا جديدًا على وحدتنا حيث كان اللواء الذى أعمل به (اللواء١١٦مشاه) دائما ما ترفع درجات استعداده حيث كان مرشحا للعمل بالجبهة السورية ضد إسرائيل .. كل مناوشات بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الجبهة السورية ترفع درجة استعداد هذا اللواء وبالتالى يهدئ الإسرائيليون من تهديدهم لسوريا .. كنا نعتقد جميعا أن حالة الطوارئ مثل سابقتها ولكن المختلف هذه المرة هو أن حالة الطوارئ تمت على جميع وحدات القوات المسلحة على مستوى الجمهورية .. أمرنا بالانتشار خارج المعسكرات فى التلال المحيطة بنا تحاشيا لغارات جوية إسرائيلية ومكثنا على هذا الحال أربعة أيام وجاء الأمر الإنذارى بالتوجه الى سيناء.

تحركت الكتيبة الى المنطقة الشرقية وهى البديل السابق للجيشين الثانى والثالث حاليا ولا نعرف كيف نتحرك .. نحن مع جنودنا محشورون فى سيارات نقل الجنود العادية ولم نكن مشاه ميكانيكى بل كان اللواء مشاة مترجلاً ، لم نمنح فرصة لوداع الأهل وقد يكون أمام الأقدم منا رتبة هذه الفرصة أو الذين يقيمون بالقاهرة لأن كل ما أتيح هو عدة ساعات لكل فرد فى تلك الفترة ولم تكن تلك السويعات كافية للسفر إلى بلدتنا الزقازيق والعودة فى نفس اليوم .. كما كان لرؤيتنا السابقة بأنها زوبعة سوف تنتهى قريبا مثل ما تم من قبل .. لكن الصحف كانت تضخم الحدث وكذلك أجهزة الإعلام والإذاعة خاصة إذاعة صوت العرب وبدا أن جميع الزعماء العرب يتصلون بالزعيم جمال عبدالناصر مؤيدين ومشجعين ويعضهم يعده بأنه سوف يرسل قوات والبعض الآخر يفكر فى هذا وحدث هرج ومرج إعلامى كبير حتى وصل إلى الأمم المتحدة ولكن الجيوش لا تأخذ أوامرها من تلك الأجهزة بل من قياداتها .. لكن المهمة التى كنا متجهين إليها غير معلومة ولا نعرف لماذا نحن متجهون إلى سيناء ولم نكن نعلم عنها إلا القليل .. ولم يسبق لى ولا لصغار الضباط أن خدموا بها من قبل أو زيارتها أو استطلاع منطقتها للتعرف عليها رغم أنها مسرح العمليات الرئيسى للقوات المسلحة.

تستعد الوحدة لعبور قناة السويس على كبارى أنشأها سلاح المهندسين وكان هذا مساء بعد الغروب وكان الموجهون لنا من عدة أجهزة سواء من القادة والشرطة العسكرية والمخابرات الحربية ونحن صاغرون لتلك الأوامر .. أوامر بأن نقف بعد عدة كيلومترات وبعدها أمر بالتحرك إلى الاتجاه الفلانى ونحن نسير ضمن رتل من السيارات وجميعنا لا يعلم شيئا عن الوجهة التى نحن بصددها ولا نعرف ماذا سوف نفعل فى سيناء .. إنها أوامر للتنفيذ .. تعطى للسائقين والذين يقودون السيارات بجهل مطبق حيث إن غالبيتهم لم يقد سيارة خارج الوحدة والبعض مستدع من عمله حيث كان مجندا منذ عدة سنوات كسائق وترك الجيش وهو يعمل فى عمل آخر.

أما المشكلة الأهم والتى كانت تخيف الجميع أن الطرق إلى سيناء ضيقة وتكفى بالكاد لسيارتين متقابلتين من السيارات الصغيرة وغير قادرة على تحمل المعدات الثقيلة والتى كنا نشاهدها تتحرك معنا فى نفس الاتجاه ..قول من سيارات المشاة وقول آخر من الدبابات المحملة على حاملات نقل الدبابات وهى ضخمة وقول آخر من المدافع الثقيلة كله يسرع فى اتجاه سيناء لأن كل وحدة محدد لها موعد لوصولها إلى موقعها متجاهلين الكثافة على الطريق أو جهل السائقين بقيادة تلك المركبات وأصبح من المعتاد أن نشاهد اصطدام حاملة نقل المعدات الثقيلة بـ لوارى المشاة وانقلاب أحد اللوارى على جانبى الطريق ويسرع رجال الشرطة العسكرية والإسعاف لإنقاذ من يستطيعون إنقاذه ، كان المنظر شبيهاً بمنطقة ضيقة تتحرك بها الجمال والماعز .. ومما شاهدته أثناء تلك الرحلة الغريبة على نظرى وحياتى العملية هى نقاط توزيع الوقود .. حيث توجد كميات ضخمة من الوقود من مختلف الأنواع حسب نوع المركبات ومعبأة فى عبوات الوقود سعة ٢٠لتراً .. يسأل مختص الوقود السائق عن نوع السيارة فيخبره كما حدث أمامى"اللورى جاز ٦٣" وهو لورى يعمل بالبنزين وسعته٢٠٠لتر .. فيسلمه عشر عبوات مملوءة بالبنزين واللورى به أكثر من نصفه وقود فيعيد السائق باقى الوقود ولكن مسئول الوقود يخبره بأن يعيد العبوات فارغة ولم يجد السائقون سوى إفراغ تلك العبوات على الرمال .. أى والله على رمال سيناء.

الرحلة من الشاطئ الشرقى للقناة حتى منطقة مفارق الحسنة قرب مدينة العريش لا تزيد عن ٢٥٠ كيلومتراً ولكننا قطعناها فى عشر ساعات والشمس ساقطة مسلطة على رءوس الجميع ودرجة حرارة مرتفعة والجميع محشورون فى تلك اللوارى التى تحمل الأفراد والسلاح والذخيرة والخيام وأدوات الحفر.

وصلنا الى المكان المحدد لنا من قائدنا وأعطى أوامره العنترية بسرعة الحفر.. تسلسلت الأوامر حتى وصلت الى الضباط الأصاغر وبالتالى إلى الجنود، وقفنا نشرف على عمليات الحفر لتجهيز الموقع الدفاعى الذى أمرنا أن نعده لقواتنا .. استمرت تلك الأعمال حتى عم الظلام بالمنطقة وكنا لم ننته بعد من إعداد الموقع وطُلب منا استمرار العمل على أضواء كشافات السيارات وهكذا

استمر الحفر الى ما بعد العاشرة مساء و جاء الليل ببرودة الصحراء الشديدة ليلا.

كل قائد وحدة صغيرة أعطى تمامًا بانتهاء تجهيز موقعه كما وزع الطعام على الجنود وهو تعيين قتال معد فى مطابخ متنقلة وعليك أن تستسيغه سواء أردت أو لم ترد لأن الجميع بذل جهداً وعرقاً والكل فى احتياج لطاقة لتعويض هذا المجهود المضنى ومقاومة البرودة الزاحفة علينا .. وزعت الخدمات ونام الجميع فى الصحراء حيث لا نعرف أين نحن بالضبط .. فأنت تنفذ الأوامر وليس عليك السؤال أو الاستفهام .. فقط نفذ الأوامر.

جاء الصباح برطوبة الصحراء المتعبة للجهاز التنفسى والنوم غير المريح ولم تكن هناك دورات مياه لقضاء الحاجة والكل يفعل مثل الإنسان البدائى .. جاء القائد يشاهد ما قد تم إنجازه ليلا وفوجئ ومن معه أن حفر المواقع جاء معاكسا لاتجاه احتمال تقدم العدو فبدلا من أن نعدها لتكون شرقا أعدت لتكون غربا بحيث نكون فى مواقعنا وظهورنا تواجه تقدم العدو .. ولهذا ألغيت تلك المواقع لنعدلها بالاتجاه الصحيح وأن نعكس اتجاه حفرنا السابق واختار القادة المواقع الجديدة وأعطيت الأوامر لبدء الحفر .. وما تم خلال الليلة السابقة فعلناه نهاراً تحت أشعة الشمس المحرقة من شهر مايو .. وقبل آخر ضوء انتهينا من إعداد المواقع بالطريقة الصحيحة كما تنص عليه كتب التكتيك وفن القتال ، أعطيت المهام وهى ببساطة مقاومة العدو إذا هاجمنا .. الآن نحن ننفذ ما سبق أن تعلمناه وما حدث مساء أمس حدث هذا المساء من تناول طعام لا نعرف ماهو ولكنه طعام على كل حال.

صباح اليوم التالى جاءت التعليمات بالتحرك لمكان آخر لأن الخطة قد تغيرت وأعدنا حشو سيارات النقل بالجنود والمعدات التى أفرغناها منذ ثلاثة أيام وتحركت قوافل اللوارى نهارا إلى أين؟ لا نعلم .. حتى وصلنا إلى مكان جديد .. قيل .. هذا هو موقعكم المختار .. أعدوا العدة لتجهيز موقع دفاعى.. الآن ننفذ الأمر وانتهينا منه فى ظهيرة اليوم التالى بين إعياء الجنود والضباط .. أسعدنا أن هذا هو موقعنا وبقينا به يومين وجاءت تعليمات أخرى جديدة باحتلال منطقة

ثالثة وما تم فى الموقعين الأولين تم فى هذا الموقع وقد تكسرت الكثير من أدوات الحفر وهى كواريك وأزم وقام الجنود بإصلاحها بنزع أعمدة الخيام الخشبية ووضعها مكان ما كسر من كثرة الاستخدام.

كل ما أعرفه وأتذكره آننا بقينا على هذه الحالة حتى قبل قيام الحرب بثلاثة أيام ويقول البعض إننا نقلنا مابين خمسة إلى ستة أماكن وكل مرة يتم الحفر والتجهيز.

طلبنى قائد السرية ليخبرنى بأننى وبعض الجنود سوف نتوجه إلى قاعدة المليز الجوية حيث سيكون هناك لقاء مع إحدى القيادات وعلينا أن نكون هناك قبل العاشرة صباح الغد .. قبل السادسة تجمع من وقع عليهم الاختيار للذهاب لمقابلة القائد الزائر للجبهة ولا نعرف من هو .. وصلناإلى مكان القاعدة قبل العاشرة وانتظرنا وصول القائد الذى حضر بعد الثانية عشرة ظهرا .. شاهدت عدداً كبيراً من القادة وكان الزائر هو المشير عبدالحكيم عامر ووزير الحربية آنذاك شمس بدران وقائد فرقتنا اللواء عبدالحليم عبدالعال وبعض القادة الذى لا أعرفهم لفرط حداثة خدمتى أو من عدم رؤيتى لهم فى أماكن وحداتنا بالقاهرة حيث إن ظهورهم أمام الجنود والضباط كان عزيز المنال.

أسعدنا حضور سيادة المشير وهو شخصية رقيقة المستوى وكان متواضعاً بمقارنته بقائد فرقتنا "اللواء عبدالحليم عبدالعال" والذى كان اسمه يثير الهلع والخوف من جراء ما يوزعه من جزاءات قاسية على من تقع عينه عليه صدفة.

اللقاء كان معنويا وينصب على تلقين إسرائيل درسا لن تنساه ونحن الضباط نعرف مستوانا ولكنهم الأكابر يعرفون مالا نعرفه وكان التصفيق والتهليل هو سمة اللقاء ، بعد هذا عُدنا ونحن نعلم أننا سوف نفعل الأفاعيل بل إن البعض أقسم أن إسرائيل تستجدى من دول العالم أن تبعد مصر بجيشها الفتاك عنها وأنها لن تهدد أحدا بعد ذلك وقد نزلت علينا تلك الأخبار بسعادة لأنهم شعروا بالعين الحمراء لمصر ، تمادينا فى أحلامنا وأننا لمنتصرون وأدخلت الغزوات الدينية والأحاديث وآيات من القرآن الكريم فى الحوارات وجلسنا فى مواقعنا ننتظر

العدو أو هو ينتظر هجومنا عليه ولسان حال كل منا يشكر الله أننا لم نغير مواقعنا منذ ثلاثة أيام.

قدم إلى الوحدة جنود جدد لاستكمال النقص حيث كان العدد الموجود لا يزيد عن ٥٠٪ من القوة المفروضة لكل وحدة ولكن هؤلاء الجنود أتوا بملابسهم المدنية والتى يغلب عليها ارتداء الجلباب أو زى عمال المصانع وتسلموا ملابس عسكرية وغير المناسبة المقاس ولاحظت أيضا أن البعض تسلم حذاء ميرى الفردتين شمال أو يمين والبعض تسلم الفردتين مقاسين مختلفين ، اللوارى التى أحضرتهم كان بها بعض ضباط الصف ضباط "شاويش" كل تعاملهم معهم بالسباب والصياح والضرب بالقايش على أجسادهم والملاحظ أيضا هو الفارق العمرى بينهم وبين الجنود الموجودين لأن أغلبهم يصل عمره الى ما يزيد على الثلاثين عاما بعدة أعوام .. البعض فى الأربعين او الخامسة والثلاثين أجسادهم مترهلة ولهم كروش ويصيبهم الإعياء لبذل أقل مجهود كما أنهم غير منضبطى السلوك فى تنفيذ الأوامر والتعليمات ولا يتحدثون بالطريقة العسكرية المعتادة الموجودة بالوحدات .. فلا أفندم ولا حضرتك .. إما يخاطبك بلقب بيه أو باشا أو الأفندى وكأن على رءوسهم الطير وحالتهم النفسية سيئة وقد تركوا عائلاتهم وأبناءهم وإذا سألته عن السلاح المسلم له فيخبرك بأنه لا يعرف عنه شيئا وأنه شىء جديد عليه وهو يعرف كيفية استخدام البندقية القديمة "لى انفيلد" والتى استخدمها الجنود فى الحرب العالمية الأولى" والأرقى استخداما هى البندقية النصف آلية التى شاركت فى حرب بورسعيد والعدوان الثلاثى واستخدمها الروس فى الحرب العالمية الثانية وكل تلك الأنواع انتهى عهد الجيش بها فالمتوفر هو البندقية الآلية "كلاشنكوف" .. صدرت التعليمات بتدريبهم .. شعرت أننى خولى أنفار لجمع الدودة أو تطهير الترع وليس ضابطا فى الجيش المصرى من الحالة التى وصل إليها الجنود فالحفر كل فترة ولا أعرف هل ذهبنا لسيناء للحفر والبحث عن المعادن أم ذهبنا لقتال العدو بل كان عدد كبير من الجنود قد أصابت يداه تسلخات من كثرة ما قام بالحفر .. قمنا بالتدريب النظرى لأنه غير مسموح بالرماية فى الموقع الدفاعى وهكذا أصبح عدد من الجنود المنضمين إلينا

عالة فهم لا يعرفون استخدام البندقية ولم يكن لديهم الاستعداد أو الرغبة فى العمل , أما عن موضوع الخدمات الليلية فكان النوم هو رفيقهم ولم يكن هناك إنسان يتخيل أنك فى موقع عسكرى وفى حالة حرب والعدو جاثم أمامنا بعدة أمتار وجنود الخدمة يغطون فى نوم عميق .. قام القادة بتوقيع الجزاءات عليهم محملين الضباط الأصاغر السبب فى الإهمال والتسيب بأن جنودهم لا يطيعون أوامرهم.

إذا وجهت سؤالاً إلى جندى عن كيفية استخدام القاذف الصاروخى "آربى جى" فلا أحد يعرف عنه شيئا سواء من الجنود النظاميين أو من جنود الاحتياط الذين ينظرون للسلاح كأنه شىء قادم من السماء .. حتى تجهيز القنابل اليدوية ووضع المتفجرات بها لا يعلمون عنها شيئا وكان على الضباط الأصاغر القيام بتلك المهام.

لم يكن هذا مقصورًا على وحدتى الصغيرة المكونة من ثلاثين جنديًا نصفهم من الاحتياط بل فى جميع وحدات الكتيبة وهم جالسون القرفصاء مثل عمال التراحيل ضاربين بكل ما يصلنا من تعليمات عرض الحائط وقد أثر هذا سلبا على جنودنا النظاميين فهم يشاهدون هؤلاء بدون عمل سوى الحضور لاستلام الطعام والشكاوى والبلادة المصاحبة لكل تصرفاتهم وأفعالهم فتتأثر معنوياتهم ويصابون بالإحباط .. وقد تذكرت أن هؤلاء من أبناء شعب مصر الذين يهتفون بالهتاف الشهير بالروح والدم نفديك يا ريس .. ويتغنون فى حب مصر ورئيسه وهم ساكنو الحركة كأنهم خشب مسندة.

قتال بدون خطة

هذا هو صباح الخامس من شهر يونيو عام ١٩٦٧ , هو يوم لن ينساه المصريون ولكن الذى لن ينساه ليل نهار هم من كانوا فى الحرب وخاصة على الخطوط الأمامية .. فصيلتى المشاة تحتل موقعا دفاعيا فى منطقة أبو عجيلة على الخطوط الأمامية ويخترق هذا الموقع طريق العوجة الدولية "معبر كرم أبو سالم حاليا" والذى كان معروفا قبل قرار التقسيم عام ١٩٤٨ ولهذا أمرنى قائد السرية بالحيطة والحذر لأن الطريق مرصوف ويصل ما بين مصر وإسرائيل وقد يستغله اليهود فى التقدم والذى كان متوفرًا معى ثلاثون جنديا نصفهم لا يعمل ولن يعمل.. إنهم مستهلكو القوه والصحة النفسية حيث جاء جنودى يخبروننى بأن هؤلاء الجنود هم من حضروا معركة عام ١٩٥٦ وهم يعرفون أن اليهود سيضربون فى الأماكن التى لن نتوقعها وأننا سوف ننسحب وسينصب اليهود لنا الكمائن أثناء الانسحاب فيقتلون البعض منا ويأسرون البعض ويفر البعض ليلقى جزء منهم ربه من حرارة وعطش الصحراء كما حدث لهم قبل ذلك .. كل هذا قبل بداية الحرب بيومين أو ثلاثة وقد أخبرت قائدى الذى حضر وعنفهم على هذا القول الانهزامى مهددا بأنه سيطالب بمحاكمتهم عسكريا ويجب عليهم ألا يفتوا من عضد الجنود وإلا شملنا الهلاك جميعا.

حوالى الساعة التاسعة من هذا اليوم الدامى الحزين لمصر شعبا وجيشا هجم الإسرائيليون على مواقعنا بغارات جوية يقول الأقدم رتبة عسكرية إنها طائرات قديمة وعتيقة وتصدت لها وحدات الدفاع الجوى (مواسير) دون جدوى وكان هجومهم مرتبا حيث دمروا مخازن الذخيرة أولا ثم مستودعات الوقود والمياه والطعام ثم القيادات وهكذا واصلوا التدمير حتى نهاية هذا اليوم ونحن لا نعرف من أين يأتى القذف وما هو سبيلنا لتفاديه .. مساء أسقطتْ وحدات مظلات معادية على مواقع وحدات مدفعية الميدان المجاورة وحدثت خسائر بينهم وشاهدت بعض جنودهم قادمين لموقعى ليلا يطلبون أسلحة خفيفة وذخيرة حتى يقاوموا هجوم العدو حيث لن ينفع المدفع الثقيل فى هذا وكانت ملابسهم ملطخة بالدماء.

دفع قائد الكتيبة بعدد من الفصائل المشاة لمهاجمة قوات العدو ونحن متوقفون عن إطلاق النار حتى لا نصيب قواتنا وحتى صباح اليوم التالى لم تعد تلك الفصائل وقد غمرنا حزن عميق بعد أن علمنا أنهم لاقوا حتفهم من حديث لجندى مصاب عاد صباح اليوم التالى ليخبر الكتيبة بما حدث لهم.

العقيد مصطفى محمد توفيق فهمى ، هذا هو اسم قائد كتيبتنا فى حرب الأيام الستة .. كان رجلا عنيداً وصلباً ولا يعترف بأوامر الانسحاب حيث إنه اتجه لتلك الحرب للأخذ بثأر شقيقه الذى استشهد فى معركة ١٩٥٦ كما إنه خريج نفس عام التقسيم ٤٨ وشهد وعاصر هذه الحرب التى أثرت فى هذا الجيل والتى دفعتهم بعد ذلك إلى القيام بثورة ١٩٥٢ .. يتميز هذا القائد بالهيبة والوقار فهو قليل الكلام وضخم البنية ومن أبناء الإسكندرية التى أنجبت الكثير من عظماء مصر فى كل المحافل على مر العصور .. كان يعتبر الحرب فرصة ذهبية أتت له فى هذا الموقع المتقدم وها نحن نوشك على نهاية اليوم التالى ومازال يرفض الانسحاب بينما القوات من حولنا تعود مسرعة فى اتجاه الغرب.. اتجاه قناة السويس .. فى المساء حدثت اشتباكات مع الإسرائيليين وقد اقتربوا منا كثيرا .. الآن جنود أمام جنود وكانت المواجهة بيننا ودارت معهم معارك بالأسلحة الخفيفة وقد حدثت خسائر بشرية بينهم وكنا نسمع أنينهم ونواحهم

على قتلاهم ونحن لا نراهم فالظلام حالك وأثناء تلك الاشتباكات التى رفعت روحنا المعنوية جاءت طلقة رشاش إسرائيلى من النوع خارق حارق لتصيب كف يدى اليمنى .. لم أشعر إلا ودماء ساخنة تخرج من كف يدى وألم شديد وأحضر أحد جنودى رباط ميدان وربط الجرح والذى أحدث شقا طوليا بطول الكف من الرسغ حتى إصبع السبابة ولكن الألم كان شديدا حيث شاهدت أثره نهارا فكان مثل أى شىء محترق وعلى جانبى هذا الشق اللون الأسود الذى يماثل شواء اللحم المحترق.

هذا هو اليوم الثالث قتال .. الموافق السابع من يونيو وقد قطعت وسائل التموين الغذائية فلم يعد هناك ماء ولا طعام واستبدل ذلك بالتعيين الجاف من بسكوت مخصص لذلك وعلب محفوظة بينما قادة السرايا بالكتيبة يحاولون إقناع القائد بأن نلحق بباقى القوات إلى خط الدفاع التانى "جلال وحلمى " والذى يبعد عنا وخلف القوات لجهة الغرب بحوالى ثلاثين كيلومتراً حيث إننا أصبحنا بمفردنا وإنه لا جوار معنا والإمداد الغذائى قُطع عنا .. لا أعلم إلى أى نتيجة وصلت تلك المحاولات ولكن كل معلوماتى أننا خسرنا عدداً من الجنود والضباط وكان من بين الضباط "الملازم جلال أنور البهنساوى" نجل المستشار البهنساوى وكان لفقده أثر عميق فى حالتى النفسية وبعض الضباط نظرا لأنه الدفعة التى تخرجت قبلنا بعام وليس هذا هو السبب الرئيسى بل لما يمتاز به هذا الضابط من خُلق على أعلى مستوى .. وإذا أردت أن تضع صورة مثالية للشاب المصرى فيصبح هذا هو النموذج الذى نفخر ونحتذى به .. التدين والهدوء والمعلومات العسكرية الكثيرة وتمكنه منها كما يتمتع برأى ثاقب فيما يعن لنا نحن الشباب من مشاكل وكان يلجأ إليه بعضنا فيعطيه من الآراء السديدة وكل هذا يتم فى طى الكتمان، فكان حافظا للسر ولا يبوح به لأحد، كما أنه عف اللسان حتى فى الضحك والهزار والنكات أضف إلى هذا صورته الجميلة وبنيان جسده الذى وهبه الله له.

حوالى الساعة العاشرة صباحا ونحن فى انتظار قرار الانسحاب أو الاستمرار فى موقعنا والجميع فى حالة من التوتر لما أصابنا من خسائر وما شاهدناه فى

اليومين السابقين من انسحاب وحدات مدفعية ومدرعات ضخمة قادمة من داخل الحدود الإسرائيلية مع التدمير التى قامت به قصفات سلاح المدفعية للمستعمرات الإسرائيلية تاركين هؤلاء الجنود الضعفاء بسلاح شخصى لا يغنى فى معارك الصحراء أمام الطائرات والدبابات، شاهدت أحد جنودى خارجا من موقعه الدفاعى حاملا بندقيته فى وضع الضرب موجها نحوى الماسورة وفى حالة من التوتر صارخا بى بصوت مرتفع طالبا منى الموافقة على انسحابه وإلا سيفرغ فى جسدى خزنة البندقية .. توقف كل تفكيرى للحظات وقد أدركت خطورة الموقف فلا يغنى ويفيد فى تلك الحالات أن أصرخ فيه أو أن أهدده بالعقاب فالجندى فاقد لأعصابه مثل العديد منا وأنا بالطبع أحدهم ونحن بشر يصيبنا ما يصيب الآخرين مع تفاوت فى درجات التحمل وحسن التصرف .. هدانى الله أن أعالج الموقف بكل ثبات حيث دفعة من بندقيته ستكون فيها نهايتى ونحن فى حالة انسحاب ولا ضابط ولا رابط فيها ، حدثته قائلاً : فيه إيه يا دمنهورى؟ بنفس طريقته الهستيرية أجاب: عايز أمشى .. عايز أنسحب سيبنى أمشى .. مازلت واقفا فى مكانى وجنودى واجمون والجميع أصابهم الخوف من إحداث أى تصرف يكون رد فعله القضاء على عدد كبير منا رغم أن غالبية هؤلاء الجنود ضعاف فى نتائج الرماية ولكن فى مثل تلك الظروف فهم شجعان فى إصابة زملائهم! حدثته:

- عايز تنسحب يا دمنهورى؟ .. صارخا

- أيوة .. ومش عايز أحارب وينعل أبو الحرب واللى بعتنا لها ..قلت:

- طيب ما تنسحب يا دمنهورى .. أنت شايفنى ماسكك .. الناس حوالينا بتنسحب اعمل زيهم .. شعر بالارتياح لهذا الاقتراح أو التصريح له بالانسحاب وهدأ من نفسه المتوترة

- أيوة كده .. أنا ماشى .. ونظر إلى زملائه قائلاً:

- فيه حد عايز ييجى معايا؟.. أجبته:

. لك الحق فى الانسحاب ولكن مش لك الحق فى أن تأخذ زمايلك معاك .. فاهم كلامى .. كل واحد مسئول عن نفسه .. عندئذ قال:

. حاضر يافندم. وضع سلاحه جانبا وهو مازال ممسكا به وبعض الجنود ينظرون إلى منتظرين بأن نفعل شيئا معه ولكننى تجاهلت نظراتهم واستفساراتهم .. سار قليلا وهنا سألته:

. على فين يا دمنهورى؟ فأجاب

. إيه رجعت فى كلامك؟

. لا طبعا .. أنت مش عايز تحارب ، اترك لنا السلاح نحارب بيه عشان مش يضيع منك ويتخصم عليك بمبلغ كبير ، طلبت منه أن يسلمه لرقيب الفصيلة حتى يخلى ذمته منه ، وافق سعيداً بأننى خلصته من تلك العهدة الخطيرة وسلم السلاح إلى رقيب الفصيلة .. سار قليلاً فأرسلت فى عقبيه اثنين من زملائه فقبضوا عليه وأحضروه منهاراً إلىّ .. لم أحاول التعدى عليه ولكننى جمعت كل جنودى طالبا منهم عدم إخبار أحد بذلك لأن عقوبة ما قام به الإعدام رميا بالرصاص وأنه جندى ممتاز وفلتت أعصابه .. كما أخبرتهم بأننى أنتظر أوامر الانسحاب ولا يجب على أى فرد فيكم أن يعرض نفسه لهذا الخطر.. فنحن مازلنا فى الجيش والهروب من المعركة عقابه الرمى بالرصاص .. أنا أخاف عليكم لأنكم جنودى .. أرجوكم الهدوء .. بعد أن هدأ الجندى الدمنهورى طلبت إحضاره وعانقته:

. يخرب عقلك يا دمنهورى , عايز تودى روحك فى داهية .. استنى شوية ونمشى سوا مع بعض .. بكى الجندى معتذرا طالبا منى حمايته وألا أخبر أحدا.. احتضنته ثانية قائلا:

. ولا يهمك كأن مافيش حاجه حصلت .. وهكذا استطعت بفضل الله أن أسيطر على هذا الانفعال كما استطعت أن أحمى نفسى بألا يقوم أحد بفعل فعلته ولكنه بدلا من التهديد قد يطلق علىّ الرصاص.

دقائق قليلة وحضر قائد السرية والذى تصادف آن شاهد هذا الموقف دون أن نراه وقد آخبرنى بأنه كان يرثى لحالى خوفا من الاندفاع والتهور وقال كنت أهمس:

. يا ريتك يا أسامة تسيبه يروح بدل ما يضربك دفعة وتضيع فطيس .. لكن الحمد لله , خاطب الجنود قائلا إننا يا شباب ننتظر أوامر الانسحاب وأعتقد عصر هذا اليوم سنترك موقعنا ولكن آوصيكم بالمحافظة على موقعكم وسلاحكم حتى أثناء الانسحاب نكون سويا ونحمى بعضنا بعضا .. كان لحديثه أثر مهم فهو قائدى وقائدهم وله معرفة قديمة بهم قبلى وكان معروفا عنه الهدوء والحصافة فى عمله كما أنه لم يذكر ما جدث من الدمنهورى.

أنقذنا الله من أنفسنا .. لم يمر على هذا الحادث حوالى ساعة إلا وشاهدنا دبابة قادمة من جهة العدو وقد طلب القائد من المدفع المضاد للدبابات أن يدمرها وكنا نعلم سوء عمل تلك المدافع حيث لا تدريب ولا معرفة للجنود بأرقام ضبط الزوايا والاتجاه لأنها مكتوبة باللغة الانجليزية .. فإذا كانت زاوية التصويب ٢٥ درجة يمينًا يحاول الجندى التأكد من هذا الرقم بأن يعد الشرط الأفقية الموجودة على جهاز التصويب .. وهذا يماثل لو سألت أحدا عن ساعته كم الآن وهو لا يعرف الفارق بين الرقم ثلاثة من الرقم سبعة فيقوم بعد الشرط بالساعة.. وفى هذه الأثناء يكون اتجاه الدبابة قد تغير أو تكون شاهدته وأطلقت عليه النيران .. ولكن لم يحدث هذا رغم أن بعض الجنود شاهدوا فانلة داخلية بيضاء تضعها الدبابة على هوائى جهاز الإرسال الخاص بها .وبسرعة البرق بين نداء البعض بأنها قد تكون دبابتنا وليست دبابة العدو وآراء أخرى بأنها دبابة للعدو ولو كانت دبابتنا قد يكون العدو قام بخدعة فلتقصف .. بكل مساوئ الرماة استطاع المدفع من أول دانة أن يدمر الدبابة بين فرح البعض وتوتر البعض أن تكون الدبابة لنا .. هرع البعض للدبابة لإحضار أسرى إن كان مازال بها أحد على قيد الحياة .. أتوا بعد خمس عشرة دقيقة يحملون جثمان قائد الدبابة. نقيب من الجيش المصرى حاملين معهم مذكراته وتحكى أنه هاجم العدو بسبع دبابات وأحدث خسائر بهم وفقد الدبابات الست بعد أن دمر بعض المستعمرات

حيث كان يختبئ طول النهار ويهاجمهم ليلا خشية الطائرات ..كل هذا مدون بمذكراته ساعة بساعة وكانت نهايته على أيدى جيشه الذى حضر إليهم طالبا مساعدة من الطعام والوقود والذخيرة .. كان وحيدا فى دبابته لمدة يومين يعيش داخل الدبابة مختبئا داخل النباتات الصحراوية الطويلة الموجودة بالمنطقة .. كان استشهاد "النقيب عز الدين" أكبر مأساة تعرضنا لها طوال الأيام الثلاثة السابقة وغطى الحزن الجميع وقام بعض الضباط بالصلاة عليه ودفنه وكنت من بينهم ولأول مرة فى حياتى أشاهد جثمانا والدماء تلفه وقد تمزق من أثر القنبلة التى أصابته وهو الذى لم يذق الماء والطعام ليومين حسب مذكراته.

جلسنا صامتين ولو حضر فى ذلك الوقت بعض الجنود اليهود لأسرونا جميعا دون مقاومة حيث انهارت معنوياتنا إلى أدنى درجة .. أرسل إلى قائد السرية يخبرنى بأن أوامر الانسحاب وصلت وعلينا الانتقال لخط الدفاع الثانى "جلال وحلمى" وأنا لا أعرف من هو جلال ومن هو حلمى ولكن البعض قال سوف نسأل وكأنك تسير فى ميدان التحرير وتسأل عن شارع قصر العينى .. إنها صحراء سيناء الشاسعة الكبيرة التى بها من الجبال الضخمة والوديان الكثير.

قفز الجنود إلى ظهر اللورى ولا أعرف لماذا وقفنا اصطفافًا ننتظر السير رتلا كأننا نسير فى موكب النصر بشارع النصر فى مدينة نصر والطائرات المعادية منتظر ان تأتى فى اى وقت .. سرنا رتلا خلف قائد السرية وبعد حوالى نصف الساعة سمعنا انفجاراً ضخماً وتفرقت اللوارى مسرعة فى أى اتجاه ومازالت الانفجارات تتوالى، شاهدت السائق ينحرف باللورى إلى أحد الأجناب وكنا فوق منطقة صخرية وبجوارنا منطقة أقل ارتفاعا بحوالى المتر.. انقلب اللورى بنا جميعا وخرج الجنود من تحته يجرون فى أى اتجاه وقد استطاع السائق ان يخرج بعد أن تحطم زجاج اللورى الأمامى ووجدت نفسى مقلوبا داخل اللورى وساقاى لأعلى وأريد أن أعرف أين أنا .. حاولت الخروج ولكن يداً واحدة لم تساعدنى .. طلبت العون ولكن الجميع أسرعوا للحاق بقطار النجاة تاركين المحطة فارغة.. أى لم يكن هناك أحد بالقرب منى وإلى أين هم يهربون وبهذه السرعة والدبابات الإسرائيلية مازالت كامنة لنا وصوبت مدافعها فى اتجاهنا ولم نجد مرشدا أو

موجها لكى نتصرف .. مكثت على حالى هكذا أكثر من ساعة إلى أن سمعت بعض أصوات لجنود مصريين يتحدثون , سمعوا استغاثتى فساعدونى على الخروج وقد أصابتنى بعض شظايا الزجاج كما تمزق أفرولى من آثارها وهم يجذبوننى إلى الخارج بدون عناية كأنهم يسحبون شوالا وليس إنسانا .. خرجت أنظر حولى وأنا جالس أرضا حتى أستعيد الوعى مما حدث متسائلاً .. هل هم جنود من الكتيبة؟ .. كان عددهم خمسة فوجدوها فرصة بأن يرافقهم ضابط فهو يعرف أكثر منهم وهذا فكرهم الذى عودناهم نحن القادة عليه.

ساعدونى على الوقوف ولملمة نفسى المبعثرة وسألتهم من تكونون .. فأجاب أحدهم إحنا يا فندم من فصيلة "الـ م/ط" وهذا اختصار لفصيلة المدافع المضادة للطائرات .. كنت لا أعرفهم ولكن أحدهم كان من فصيلتى وهو الجندى فراج جلال عسران والباقى يعرفوننى لأننى ضابط بالكتيبة خاصة من كثرة ما توليت نوبتجيات بدلا من زملائى أبناء القاهرة قبل قيام الحرب.

استفسرت منهم عما حدث وقد أفادونى بأن كمين دبابات للعدو قصف لوارى الكتيبة وأن عددا كبيرا أصيب أو قتل ومن بينهم بعض الضباط وسألت عن قائدنا العقيد مصطفى؟ أفادونى بأنه مازال موجودا بالموقع لمقاتلة اليهود بمفرده .. شعرت أننى فقدت أبى وكيف سأعود فهو الذى يعرف أين "جلال وحلمى" والذى قال عنه قائد السرية أن به قوات ضخمة والتى ستقوم بهجوم مضاد تدمر به إسرائيل ..لم نكن نعلم حجم الكارثة بأن قواتنا الجوية دمرت .. إن كل معلوماتنا أن جيشنا قوى وسيدمر إسرائيل وأن كل المشاكل التى نواجهها موجودة فى كتيبتنا فقط أما باقى الوحدات فإنها من أعظم القوات .. رضينا أننا الأضعف المهم أن يكون هناك الأقوى ويرد ما حدث لنا ويحمينا ونجد عنده المأوى والحماية.

سرنا نحن الستة ونحن لا نعرف إلى أين نسير وسألنى أحدهم .. أفندم : عارف فين خط الدفاع "جلال وحلمى"؟ أجبته بالنفى وقد نظر إلى أحدهم وهو يتمتم بصوت منخفض "أمال عامل ظابط إزاى" وقد نهره من بجواره وقد تجاهلت ذلك وكأننى لم أسمع وقد عاهدت نفسى منذ ثورة الجندى الدمنهورى

أن أكون حليما هادئا حيث لا قانون ولا ضابط ولا رابط .. سرنا حتى اقترب الظلام وكنا قريبين من أحد الجبال الشاهقة وعرفت بعد ذلك أنه جبل لبنى ولم آكن قد سمعت عنه من قبل .. اقترح أحدهم أن نستريح حيث سرنا أكثر من أربع ساعات وقد أرهقنا التعب ودرجة الحرارة وكنت مثلهم أحتاج إلى الراحة.

استلقى كل شخص فى أحد الأماكن وبعد عدة دقائق سمعنا صوت أقدام من ارتطام الأحذية بكميات الزلط الموجودة بالمنطقة .. هتف أحد جنودى .. أنت يا دفعة.. مين هناك؟ .. ولم نسمع إجابة مرت دقيقتان وشاهدنا ظلين لشخصين وهما يسألانا بصوت مرتفع وبطريقة أبعد ما تكون عن اللياقة .. فين ياد أنت وهو "خط جلال وحلمى"؟ أجاب أحد الجنود بدون اكتراث على هذا السائل بنفس طريقته .. روح دور هو أنا عارف .. فإذا بهذين الشخصين يضربانا جميعا بالشلاليت والسباب بالأم والأب .. ضربونا نحن الستة ونحن مستلقون أرضا وقد أفزعنا هذا وقال أحدهم وهو يسبنا بأقذع الألفاظ .. معاكم ظباط؟ .. فأجابوا خوفا من بطشهم أيوه .. اهه فى الظلام يشيرون جهتى بعد أن حصلت على كام شلوت محترمين .. أحدهم يخاطبنى .. رتبتك؟ أخبرته "الملازم أسامة الصادق" ضحك الاثنان بسخرية وكأننى حشرة أمامهما .. سألنى أحدهم.. تعرف فين خط الدفاع التانى يا نطل وإلا أنت غبى زى اللى معاك؟ .. تساءلت: مين أنت عشان تكلمنى بالطريقة دى؟ .. مسكنى أحدهم من كتفى وهو يهزنى بعنف .. بتسأل إحنا مين؟ .. طيب .. سيادة العميد جلال قدامك وأنا العميد حلمى .. أديت التحية العسكرية بعد ما نلته من تحيتهم السابقة وقد اعتذرت بأننى لا أعرف المكان فسارا سويا بعد أن تركانى وجنودى وأحدهم يقول للآخر .. وإحنا نعرف نحارب ومعانا شوية الحمير اللى شفناهم .. جيش زفت.

لقد عرفنا الآن الفارسين الذين أهانانا ونحن لم نقترف ذنبا يسمح لهم بمثل هذا وفى تلك الظروف الصعبة .. ها هما الفارسان أصحاب خط الدفاع الذى أمرنا أن نتوجه إليه لا يعرفان إلى أى مكان يذهبان وهما قائدا لواءين من قواتنا المسلحة وقد سمحت لهم الغطرسة العسكرية بأن يعاملوننا بتلك الطريقة المهينة فى أرض المعركة .. علق أحد الجنود بأنه كان يعتقد أنهم يهود ولكن زميله نبهه

بأن اليهود يتكلمون إنجليزى وليس عربيًا وقد أفاده بأنه لو عرف بأنهم مصريون لأطلق عليهم النيران من المسدس الذى كان معه .. حتى الجندى حرم دم اليهودى وأباح دم المصرى.

أمضينا ليلتنا فى هذا المكان وقد أعيانا الظمأ حيث أمضينا ما يقرب من أربع وعشرين ساعة بدون مياه ولا نستطيع السير لأننا لا نعرف الطريق .. أمضينا ليلة قاسية باردة رغم ان الليلتين السابقتين كانتا أشد إيلاما من المعارك والشهداء وتوتر أعصابنا من مناظر القوات التى تنسحب تاركة هؤلاء الجنود العجزة بهذا السلاح الهزيل .. قام بعض الجنود يجرون حول أنفسهم اتقاء البرد الذى يشبه برودة الشتاء فى شهرى يناير وديسمبر.

أضاءت الشمس الأرض وبدا ضوؤها يسرى فى أجسادنا وكنا أيقاظا من البرودة وأصواتنا مبحوحة من شدته .. شاهدنا ما حولنا .. سرنا على غير هدى، سألنى أحدهم هل أعرف الطريق ونفيت هذا قائلا إن مصر فى الغرب ولهذا نجعل الشمس حتى الظهيرة فى ظهورنا وبعد العصر أمامنا .. ساروا معى وليس أمامهم خيار غير ما قلت .. كان سيرنا بعيدا عن الطريق المعروف وهو الطريق الأوسط حيث نشاهد من على بعد تحرك الدبابات والعربات المدرعة وتحليق الطائرات المعادية.

لا أثر لمياه أو قوات .. كنا ظمأى ونريد الشراب وشمس سيناء فى شهر يونيو قاتلة بضوئها الشديد ولا مكان تجد فيه شيئًا تستتر أو نختفى به أو تعثر على ظل.. أقبل منتصف النهار وقد بلغ منا الإعياء أشده والعطش منع أصواتنا من الخروج .. ارتمى أحد الجنود أرضا تعبا أو يأسا ونظر إليه زملاؤه فتبعوه وتبعتهم بالتوالى .. رقدنا على الرمال الحارقة ووجهنا للسماء تفعل بها الشمس والحرارة ما تريد .. عصراً سمعنا أصواتاً وهمهمة بعيدة خشينا أن يكون اليهود قادمين إلينا فسوف يطلقون نيرانهم دون إنذار .. رقدنا فى أماكننا وقلوبنا تدق مثل أصوات انفجار قنابل المدافع ولا يوجد عَرق يلطف من درجة الحرارة .. اقتربت الأصوات واستطعنا أن نميز أنهم مثل حالنا .. فهم الذين أرسلتهم قيادتهم ليلقوا حتفهم بدون قتال سواء من العدو أو من الطبيعة إهمالا وعطشا.

كان عددهم كبيراً وقد اقتربوا منا وشاهدونا ونحن بالمثل شاهدناهم فانبطحوا أرضا متخذين وضع الدفاع للتعامل معنا وأخافنا هذا التصرف فهذا يدل على أنهم أعداء رغم أننا سمعنا بعض أحاديثهم بالعربية ولكن اليهود يقلدون كل اللغات هذا ما أخبرونا به وتصرفهم هذا لا يبشر بخير .. تحدث أحدهم قائلاً : أنتم عدو ولا صديق؟ .. وكان الجندى القريب منى ابن نكتة رغم ظروفنا الصعبة فأجابه: أنا صديق وحبيب .. فسأله الجندى من الجانب الآخر .. إيه الدليل؟ .. فين الهدايا ؟ فأخبره الجندى قائلاً : أنا جايب لكم هدية عظيمة ورفع خوذته فشاهدها الآخرون وهتفوا .. تاج عظيم .."السلطانية"!! وقاموا فرحين ونحن الآخرون ورقصوا يدورون حول أنفسهم قائلين "السلطانية .. تاج الجزيرة"

كان كل منا يمنى نفسه بأن الآخرين سيساعدونهم فى الارتواء بجرعة ماء ومعرفة الطريق ولكن تبين أن حالهم مثل حالنا .. عددهم وصل إلى الاثنين والعشرين شخصا وهم جنود لإحدى ورش الجيش وليس لهم دراية بالحرب ولا بفنونها ولا حتى استخدام السلاح الشخصى .. إنهم أجساد تتحرك .. تشجعنا وسرنا .. لم يكن يرافقهم ضباط ولكن كان المرافق لهم مساعد "صول" وبالطبع فهو أكبر منى عمراً وخبرة وقد يصل عمره إلى ضعف عمرى وقد استأذن الرجل بأنه سيقود المجموعة بعد أن علم منى أننى لا أعرف الطريق لأنه يعتقد بأننى حضرت إلى سيناء لأول مرة ثم ضحك قائلا : سيبها عليا أنا عارفها خُرم خُرم.. أسعدنى هذا وزاد من سعادتى إننى سأجد شخصا ارتكن عليه ويتولى مسئولياتنا .. سرنا خلفه نتبعه .. إنه "المساعد عبد الراضى" إنه شخصية تزيدك إعجابا .. فهو نحيف الجسد قصير القامة له شارب كثيف لا يقل طول جناحيه عن خمسة عشر سنتيمتراً وقد تلون الجزء العلوى أسفل أنفه بلون بنى نظراً لشراهته فى التدخين .. أما صوته فهو عشرة أمثال حجمه ويستطيع أى إنسان أن يسمعه من على مسافة بعيدة وكان كثير الحديث وإلقاء المعلومات والأخبار ويقص قصصاً عجيبة لم أسمع عنها لمغامرات قام بها ضد اليهود فى هذا المكان عام ٥٤ وفى مكان آخر عام ٥٦ وبهذا أشعر من معه أنه بطل أبطال سيناء وأنه لا يقل عن رومل ومنتجمرى إلا فى شيئين .. يقف قائلاً:

سامعينى يا بقر..

(جموع المنسحبين) سامعينك يا فندم ..

إيه هما الحاجتين اللى باختلف فيهم عن روميل .. ده كان يابانى ومونتجمرى كان قائد أمريكى وأنا مصرى كمان دول كانوا ظباط كبار زى ما تقولوا كده مقدمين وإلا عقدا وأنا لسه .. أحد الجنود .. صول يا فندم .. يتوقف عن السير والحديث وهو يؤنب العسكرى الحمار طالبا منه تنفيذ أمر "تسعة استعد" (أحد التمرينات الرياضية الصعبة التى نعاقب بها فى الجيش حين اقتراف خطأ ما) الجندى يتوسل له أن يرحمه لأنه متعب ويسير منذ ثلاثة أيام ولكن الصول يزداد حنقا عليه قائلاً :

يا بجم .. عندكم كام صول فى داركم .. ينفى الجندى وجود مثل تلك الألقاب الرفيعة .. يوبخه وهو يجذبه من أذنه .. اسمى إيه؟..

يصحح الجندى "ح الصول" ينظر للجميع قائلا :اسمى إيه؟..

الجميع "ح الصول يا فندم" يتحنح ويعدل شاريه ويقول "مارش يا بقر"

كنت أضحك فى نفسى من تلك الشخصية التى مازالت تعيش فى مراكز التدريب بالقاهرة وليس فى ميدان قتال وانسحاب.

أسدل الليل ظلامه وهنا استشارنى "ح الصول" أو أنه تذكر بأن بالقطيع الذى يقوده ضابط قال: .. أفندم .. إحنا نريح هنا والصباح رباح .. نظر إلى الأمام وهو يشير بيده قائلا فى واد هناك .. شايفه؟

أعتقد ولكننى غير متأكد منه .. نسير فى اتجاه الوادى وهناك نجد منطقة منخفضة تستطيع استيعاب عدة لوارى وتكثر بها بعض النباتات المشابهة للغاب حول الترع والجسور.

وادى الثعابين

نحن فى مساء الثامن من يونيو والذى يعتبر اليوم الثانى لنا بدون طعام أو مياه وقد وصلنا الى الوادى الذى أشار إليه المساعد عبدالراضى .. هبطنا إليه ولم نتبين ملامحه سوى من بعض الهيش والحشائش الطويلة التى تتواجد فى بعض الأماكن المنخفضة وقد حل بالجميع الإعياء من ارتفاع درجات الحرارة والشمس الساطعة شديدة الإضاءة لعدم وجود الماء ولهذا فقد شعر الجميع بأن حناجرهم مغلقة وأصبحوا قليلى الحديث وأخيرا أثر عليهم المجهود الذى بُذل فى السير حوالى عشر ساعات طوال النهار.

ارتمى الجميع أرضا فالأجساد منهكة من فرط الإرهاق وقد غشى الجميع نوم عميق لم ننتبه إلى طول فترة النوم أو إلى برودة الطقس ليلاً مثل الليالى السابقة وكنت أتقلب أحيانا وأنا نائم وأشعر أو أتخيل بأن شيئا ما يسير على يدى أو قريبا من رأسى لكن كل هذا لم يفزعنى أو يبعد النوم عن عينى كما شاهدت البعض أثناء تقلبى وهم غارقون فى نومهم وكان للشخير نصيب من هذا الوضع السيئ لتلك المجموعة من شباب مصر.

استمعت واستمع الآخرون لأصوات وجلبة لمحركات وأصوات جنازير دبابات وقد اعتقد أحد الجنود أنها لقواتنا ولكن الآخرين منعوه من الخروج حتى لا يرانا من هم بداخل تلك المركبات .. سكن الجميع بدون أى حركة وكل ما قام به قائدنا روميل المصرى بأن اقترب من حافة الوادى ونظر خارجا قليلاً وعاد مسرعاً مرتجفاً وأخبرنى بأنهم اليهود ودباباتهم اللعينة وهم يفتشون المنطقة عن قواتنا مستخدمين كشافاتهم القوية وكنا نلاحظ ذلك بأن خارج الوادى أضواء مبهرة .. استمر هذا حوالى نصف ساعة حتى ابتعدت تلك المعدات عن منطقتنا وعاد إلينا الهدوء والسكينة حيث تخوفنا جميعا بأن تصل أى دبابة إلى الوادى وتشاهدنا وتفتح نيرانها علينا فتقضى علينا نحن الثمانية والعشرين نفسا.

غلبنا النعاس ثانية وجثم على أجفاننا وعدنا الى نوم هادئ بعد أن أنقذنا الله من تلك القوات المعادية .. انبلج ضوء النهار وما زالت الرطوبة المرتفعة تحيط بنا وقد فعلت سحرها بأجسادنا حيث رطبت وقللت من تأثير درجة حرارة النهار الجافة .. قام أحد الجنود يتسكع ويتمطع وكنت أشاهده وأنا نصف نائم وإذا به يصرخ ويجرى ويصيح تعبان .. تعبان وكرد فعل هرعنا من أماكننا نجرى وإذ ألاحظ بأن المنطقة تعج بعشرات الثعابين من أحجام مختلفة بدءا من حجم القلم الرصاص حتى أطول من المتر كما يغلب عليها اللون الأسود بخلاف لون الثعابين فى سيناء .. لكن كل ما شاهدته وأنا أعدو كأننى فى مسابقة اختراق ضاحية هو ان الثعابين كثيرة وأن البعض منا وهو يجرى تسقط منه ثعابين وخاصة الصغيرة وتفاجأ وأنت تعدو بان أمامك ثعبانا أو أكثر .. بعد أن تركنا هذا الوادى اللعين والذى قضينا به ليلة بأحضان الثعابين جلسنا نلتقط أنفاسنا ونشاهد على مرمى النظر اثنين من الثعابين الضخمة السوداء قادمة فى اتجاهنا بأقصى سرعة وقد تنبه مستر روميل وهو يصرخ قائلا: يا ولاد الأبالسة كل واحد يفتش نفسه لازم فيه ثعابين صغيرة وأمهاتهم جاية ورانا .وقد انشغل كل فرد منا بأن يفلى نفسه من الثعابين وليس من البراغيث .. وهتف أحد الجنود وهو يصرخ ويرمى حذاءه بعيداً حيث وجد أن مجموعة من الثعابين "البيبى" الصغيرة قد استولت على تجويف الحذاء ونامت به ساكنة.. قذف الحذاء وأفزع هذا الثعابين الصغيرة

فخرجت من الحذاء تجرى .. كان المشهد محيراً ونحن نمتلئ رعبا إذ وقعنا ما بين فكى الثعابين أو أن يأتى اليهود فى تلك الظروف ويحصدونا بالنيران .. توقفت الثعابين الكبيرة عن التقدم جهتنا ورفع كل ثعبان نصفه الأعلى وهنا صرخ عبد الراضى:

- ينهار أسود "كوبرا سيناوية" ووقفنا جميعا نعى ما يقول لكنه انشغل باستقبال أمهات الثعابين لأطفالهم .. حيث أسرع صغار الثعابين نحو الأمهات وقد التفت كل ام حول صغارها .. كيف عرفتهم؟ .. وكيف عرفوها؟ .. لا ندرى .. لكن عبدالراضى أوضح لنا بأننا نزلنا بطريق الخطأ فى وادى الثعابين وأن أى إنسان لا يستطيع أن يقترب من هذا الوادى لأنه معقل ثعابين الكوبرا بسيناء وهى أخطر أنواع الثعابين فى العالم ولا يوجد مصل لها لأن اللدغة منها قاتلة فى ظرف ثلاث دقائق .. سمعنا ما قاله وقد وصلنا إلى مرحلة احتباس الأنفاس ولكن أحد الجنود صرخ وقفز قائلاً :

- تعبان .. تعبان .. ولكن المدهش أنه لم يكن ثعبانا بل سحلية اقتربت من يده وهو واضعها خلفه جالسا يستمع الى محاضرة السيد رومل.

تعجبت مما سمعته ورأيته وقد عادت بى الذاكرة لما كنت أشاهده أو أشعر به وأنا نائم من أن أشياء تسير بالقرب من أذنى أو على أصابعى كما شعرت بأن شيئا ما يدفعنى فى ظهرى وأنا نائم مثل إصبع طفل وقد تبين كل هذا ونحن نتبادل الحديث إننا نمنا فوق فتحات جحور تلك الثعابين فلم تستطع الخروج والتى كانت بالخارج تبحث عن فرائسها لم تستطع الدخول .. ولكن الله سلم وقد علق أحد الجنود على ذلك بأن "حضرة الصول عبد الراضى" .. أسعده هذا التوقير وان الجندى سوف يمتدحه .. يكمل بأنه خلع حذاءه وقد أثرت رائحة الحذاء على الثعابين فحدث إغماء لهم جميعا وهذا الذى منعهم من أذيتنا .. وقد جرى الصول خلف الجندى ليخبره بأنه منتظر مكتب .. يا ابن......

أعيانا الجرى من المنطقة التى بها هذا الكم من الثعابين وكل فرد فينا يفتش جسده خوفا بأن يكون هناك ثعبان أو أكثر عالقا بملابسه بل إن بعض الجنود

خلع ملابسه بالكامل يفتش بداخلها خوفا من أن يفاجأ بأحد تلك الثعابين وخاصة الصغيرة منها التى كانت كثيرة بشكل لافت للنظر ..

واصلنا السير وبعد عدة كيلومترات صاح أحد الجنود قائلاً: لقد وجدت كنزاً وأسرعنا جميعا جهته وهو ممسك بهذا الكنز .. إنها بصلة صغيرة أكبر من الليمونة بقليل وتهافت الجميع عليها ولكن رومل أخذها منه وقسمها بالعدل على الثمانى والعشرين شخصا ولم تكف حيث نال البعض قطعة من قشرة البصلة الخارجية وما تغنى بصلة جافة مع رجال يحتاجون الماء والطعام.

الجميع يتوجه إلى الله بالدعاء فى السر والعلن بأن يهبنا بئر ماء أو شخصا من البدو نشاهده فيدلنا على الماء والطريق الصحيح لانسحابنا حيث تبين أن السيد رومل مُسطح المعلومات فهذا هو اليوم الثانى لقيادته ونحن نسير على غير هدى وكاد أن يهلكنا قتلا بسموم تلك المجموعة الراقدة من الثعابين .. مازلنا نسير وكلنا إحباط بأنه لليوم الثالث لا جدوى من سيرنا فلا نحن عثرنا على مياه تروى عطشنا ولا نحن انضممنا إلى وحداتنا التى وصلت التعليمات بالانضمام إليهم خاصة بعد لقاء أمس الأول مع أصحاب الموقع وهما العميدان "جلال وحلمى" والذى فوجئنا بعد سيرنا بمسافة طويلة وقد اقترب موعد الظهيرة بوجود سيارة جيب مدمرة وأسرعنا إليها حيث لاحظنا وجود ثلاثة من القتلى اثنان متدلان خارجها والثالث هو السائق قضى نحبه على عجلة القيادة وتعرفنا عليهما .. إنهما العميدان جلال وحلمى اللذان أشبعونا ركلا وصفعا وسبابا منذ ثلاثة أيام .. كان منظرا مؤلما أن تجد مصريين مقتولين بتلك الطريقة الوحشية من دانة دبابة اقتنصتهم بعد أن عثروا على سيارة جيب تقلهم إلى ما يبغون .. ترحمنا عليهم وحفرنا بأيدينا حفرة لدفنهم وقرأنا الفاتحة عليهم والصلاة على أرواحهم بدون وضوء سوى قليل من التيمم .. أهلنا الرمال على الشهداء الثلاثة وجمعنا بعض الصخور والأحجار المنتشرة هنا وهناك حتى نحمى أجسادهم الطاهرة من بنات آوى"الثعالب والذئاب والضباع" جلسنا نستريح من آثار المجهود وقد ازدادت نفوسنا عطشا وشعر البعض أنهم هالكون فهذا هو اليوم الثالث بدون شربة ماء وما رأيناه فى الصباح من هجوم جحافل الثعابين وما رأيناه الآن

من استشهاد ثلاثة من أبناء مصر أودعناهم الثرى وما أدراك بالذى يقتل ويبقى أكثر من يومين فى تلك الحرارة وعوامل التعفن والتحلل السريعة ورائحتها النفاذة إلى أنفاسنا اللاهثة.

رغبنا فى الاستراحة قليلا وقبل أن نجلس نفاجأ بطائرة هليكوبتر إسرائيلية قادمة فى اتجاهنا بسرعة ونحن شبه عرايا فى تلك الأرض المفتوحة فلا ساتر نختبئ أو نحتمى خلفه ولا حفرة تقى الفرد منا ومازال منظر الثلاثة الذين دفنوا منذ قليل عالقاً فى أذهاننا وعقولنا وقلوبنا .. أسرع كل منا يجرى فى أى اتجاه على غير هدى والبعض ارتمى على الأرض يهيل الرمال فوق رأسه لعل وعسى أن تحميه تلك الحبات القليلة من الرمال من رصاصات الطائرة أو صواريخها .. هاجمتنا الطائرة من ارتفاع منخفض وأحد الرماة بداخلها يطلق مدفعه الرشاش فتتطاير الرمال من حولنا ونسمع أصوات "سكرتما" الطلقات التى تصطدم بالحصى والزلط وكلها تبعث الرعب فى أى شخص فينا فالروح عزيزة .. دارت الطائرة دورتين حولنا وتفعل هذا ونحن نشاهد الرامى والطيار وهما يضحكان على منظر تلك الأغنام الهائمة على وجوههم بالصحراء وكل منا ينظر لهم بعيون حزينة دامعة بدون دموع ..أيها البشر لا تقتلونا نحن أضعف من أن نقتل .. اتركونا لحال سبيلنا وسوف نموت اليوم أو غدا على أكثر تقدير هالكين بحكم الطبيعة القاسية والتى حرمتنا ثانى أهم شيء بعد التنفس .. مازالت الطائرة تهاجمنا والبعض منا وقوف بأن تصطدم به بعجلاتها وهى طائرة بتلك السرعة فينقلب الجندى على الأرض صارخا والدماء نازفة منه ثم تركتنا الطائرة لحال سبيلنا بدون أن تقضى علينا جميعا إلا من بعض الإصابات التى حدثت من اصطدام عجل الطائرة برءوس بعض الجنود المساكين وهم ما زالوا ينزفون والدماء تغطى الوجه ومن المؤكد أنهم كانوا يستطيعون قتلنا جميعا لو أرادوا .. شعرت وكأنهم يلعبون بنا مثل ما نشاهد فى الأفلام مطاردة المغامرين الأجانب للحيوانات فى سهول أفريقيا .. نحن مثلهم ولكن تلك الحيوانات أحسن منا حالا فقد انتهت من وجبتها منذ قليل وارتوت من مياه الأنهار أو البرك ولكن دماءنا أصبحت لزجة فى أجسادنا ثقيلة لن تنزف إذا حدث جرح أو إصابة.

تركت الطائرة المنطقة بعد أن أرعبتنا وأخافتنا وأذلتنا زيادة على ما نحن عليه وقد استطاع رومل أن يجمع المشتتين بصوته الجهورى والذى وهبه الله له ونحن لا نستطيع أن نحادث الجار إلا همسا من الخوار والضعف والهلاك الذى يحدث قبل الوفاة.

عاد الجنود كسالى خائفين، حاول أن يشد من أزرهم ويقوى من عزيمتهم وأنا مثله أشارك بقدر طاقتى وقد ضاعت الثقة به فكادوا أن يهلكوا مرتين .. سرنا ونحن نجرجر أقدامنا والسراب يفعل بنا فعله الأسود فنشاهد سطح مياه على بُعد وتتصاعد منه الأبخرة فنهرع إليه جريا وسيرا ودفعا ولا نجد شيئا ونجد أن المسافة الفاصلة بيننا وبينه ما زالت كما هى .. جلسنا نستريح أو كما قال أحدنا يا بخت من يموت منا الأول .. لأنه سيجد من يدفنه ويوارى جسده التراب .. بعد جلسة قصيرة لم نستطع أن نكملها لصعوبة الجلوس على الرمال المشتعلة من درجة الحرارة وقد أصبحت الشمس عمودية فوق رءوسنا .. فأصبحنا محاصرين بين نارين ولا فكاك منهما وإلى أين؟ ..

قال أحد الجنود.. أنا شايف عربية هناك .. وأشار بيده على جانب الطريق الذى كنا نخشاه ونبتعد عنه خوفا من كمائن الدبابات .. أسرع الجميع وأنا أطلب منهم التروى حتى لا نفاجأ بسيارة معادية تطلق نيرانها علينا ولكنهم كانوا فى شغل آخر عن تلك المخاوف التى فى عقلى وهو شربة ماء .. كنت أسمع صوت أحذيتهم الثقيلة وهى تطرق الأسفلت حتى وصلوا إلى اللورى واقتحموه وركبوا فوقه يبحثون عن أى شىء تصل أياديهم إليه .. إنه لورى من لوارى الجيش المصرى الضخمة تحمل كميات كبيرة من صناديق القنابل اليدوية .. لم يجدوا شيئا به ولكن أحدهم قال .."راديتير العربية" ولم يكمل حديثه .. فقد أسرع البعض بفتح طبة الردياتير وتناطحوا فيما بينهم وكنت أشاهد الرءوس ترتطم بمقدمة اللورى معتقدا بأنهم سيصابون بإصابات بالغة وأخذ أحدهم بخوذة قديمة كانت باللورى واندفعت مياه الردياتير إلى الخوذة فملأتها فهم بالشرب وهذا يريد وذلك يريد ، وقعت الخوذة أرضا وانسكبت المياه على أرضية الأسفلت المشتعلة نارا بجانب أن باقى المياه مازالت تندفع من الفتحة الخاصة به ..أصبح

الأسفلت ممتلئا بالمياه واندفعت الرءوس تشفط تلك المياه وترشفه وتبعتهم فيما يفعلون ولكن مجرد أن شربت رشفتين حتى كدت أن أتقيأ .. فرائحة المياه مثل الجاز كما أن لونها أحمر من الصدأ أما درجة حرارتها فأقرب إلى الغليان فالبخر كان يتصاعد من أثر نزولها على أرضية الطريق خاصة وقت الظهيرة وحرارة يونيو القاتلة.

من المؤكد والذى شاهدته أن المياه التى سقطت ابتلعها الجنود وكنت تستطيع أن تسمع رشفهم لتلك المياه من على مسافات بعيدة .. أما منظرنا فكان أقرب إلى الحيوانات التى تدلى أفواهها إلى جدول مياه لتروى ظمأها .. وقفوا بعد أن شربوا وعبوا من الماء كل حسب ما استطاع من قوة فى أن يجاهد ويحصل على نصيب أكبر وآخرون اكتفوا بشربة ماء قليلة لعدم استطاعتهم المناطحة التى كانت تحدث بينهم وكنت أسمع ارتطام الرءوس بينهم .. كل ينظر إلى الآخر .. خاصة سعداء الحظ منهم الذين حصلوا على جزء كبير من المياه , بعد دقائق بدأ الكثير منهم يشعر بآلام ومغص ولا أعرف سببا لها , قد يكون سخونة المياه والبعض يقول إنها مياه فاسدة تحتوى على زيوت وشحوم وسولار من ماكينة تلك السيارة وخاصة ان هذا النوع توضع به المياه لعدة أشهر .

واصلنا السير بعد أن أصيب البعض بالمغص والألم ونحن ننظر لهم آسفين وليس فى مقدورنا شيئا نفعله .. أثناء سيرنا لهدف غير محدد حيث لا نعرف إلى أين ولكننا أصبحنا مثل قوم موسى الذين كتب الله عليهم التيه فى سيناء أربعين عاما عقابا لهم من الله .. نشاهد واديًا منخفضًا وبه بعض النباتات .. أصابتنا السعادة والبهجة .. فهذه خضرة .. وطالما توجد خضرة ستكون هناك مياه .. أسرعنا الخطى جميعا إلى الوادى ولكننا لم نعثر على بغيتنا وهى المياه فتطفل البعض لأكل تلك النباتات والتى كانت تحيط بها الأشواك وقد اعتقد البعض أنها تين شوكى ولكن منظرها لا يدل على ذلك فهى كبيرة الحجم وذات أشواك أطول ..لم يمنع الجميع أن يحاولوا إزالة الأشواك ثم تقشيرها بالسونكى حيث فاحت منها رائحة مثل الخيار أو البطيخ فانتعشوا لهذا وشرعوا يأكلون ولكنهم سرعان ما بصقوا ما تناولوه لقد كان نبات الحنظل شديد المرارة .. جلسنا نشاهد تلك

النباتات ونحن نقول لبعضنا البعض إن الله غير راض عنا .. حتى النباتات ضارة وذات مرارة .. لو أن الله راض عنا لكنا وجدنا الكثير من النباتات مثل البطيخ أو القثاء وقد آنعشت تلك الأسماء الجميع الذين رقدوا على ظهورهم مع تلك الأحلام حتى جن الليل وقد احترقت وجوهنا وأصبحت جلودنا جافة والبعض ظهرت به تشققات وآثار دماء بنية اللون متجمدة نظرا لكثافة الدماء.. أثناء تلك الفترة لم نتذكر الله سوى بالدعاء ولم يفكر أحد منا بالصلاة والتضرع للخالق القادر على كل شىء.

ودعتنا الشمس بحرارتها الملتهبة لتسلمنا الى نسيم الليل الرطب فى أوله .. شديد البرودة فى منتصفه ..كان الألم هو رفيقنا ليلاً أو نهاراً .. بالنهار نطلب ان يجن الليل وبالليل نطلب أن ياتى النهار لنهرب من لسعات البرد القاسى وقد من الله على عباده بذلك فلولا برودة الليل لتقطعت جلودنا من الشمس القاتلة ولولا النهار ما أنقذنا الله من البرودة القاتلة أيضا .. كان النوم أقرب إلى نفوسنا كما أصاب البعض منا بعض حالات الهستيريا واللوثة الخفيفة فكنت أسمع البعض يهذى أو يحدث زوجته وأبناءه والبعض يبكى وما لبكاء الرجل من صوت مُرعب لا أستطيع أن أصفه ، رجلٌ يشعر أنه هالك وقد اقترب موعد نهايته وينتظر الدقائق ليلقى حتفه إما عطشا أو على أيدى أعدائنا.

بعض الجنود راودتهم فكرة أن نسلم أنفسنا أسرى لليهود حتى ننجى بأنفسنا بدلا من هذا الهلاك المحقق وكنت أنا من أشد الناس معارضة لهذا لما درسته من أساليب الإذلال التى يمارسها العدو ومن هم اليهود أولئك الذين لا يحترمون المواثيق كما أن الجنود الاحتياط هم الآخرون لهم تجربة مريرة فى حرب العدوان الثلاثى ويعرفون ما حدث لإخوانهم من ذل بعد الأسر بل إن البعض قتل وهو يسلم نفسه لهم .. وقد تراجع الجنود عن تلك الفكرة الشيطانية وقد وصلنا الى قرار طوعى أنه لا استسلام إلا مجبرين وأن الموت عطشا وجوعا أهون على النفس من أن نذهب لعدونا حتى يتسلمنا ليفرغ فى أجسادنا الرصاص الغادر.

جاء صباح اليوم الرابع انسحاباً وعطشاً وإرهاقا وقد تأثر الصول عبد الراضى بدنيا وصحيا لكبر سنه فلم تساعده فأصبح قليل الحركة واختفى صوته

وكان لابد من قيادة .. توليتها مجبراً وأى قيادة تلك التى بدون سلطة وبدون إمكانيات .. واصلنا سيرنا نسير ساعة ونرقد تحت أشعة الشمس ساعتين والكل أصبح يطلب من الله أن تنتهى حياته فلا حياة بعد هذا العذاب.

* * *

قُبيل الظهيرة وبجوار مرتفع صخرى تحيط به الكثير من الصخور مختلفة الأحجام سمعنا صوتا "بس .. بس .. أنت يا دفعه" توقفنا نجيل النظر .. عثرنا على صاحب هذا الصوت .. توجهنا إليه .. لقد كان جنديا مصابا فى كفيه وقدميه ومربوطة بالضمادات ويرقد فى وضع الاشتباك خلف مدفعه الرشاش أسفل ظل شجرة شوك صغيرة .. وصلنا إليه , نظر إلينا فاردا ذراعه متسائلاً عن شربة ماء تروى عطشه .. اعتذرنا له فحاله من حالنا ,, سألته لماذا يحتل هذا المكان؟ أجاب: أثناء الانسحاب أصابت بعض دانات الدبابات المعادية قائد الفصيلة وبعض الجنود الذين لاقوا ربهم .. وصلنا إلى هذا الموقع وحدد لى رقيب الفصيلة المهمة بأن أظل بهذا الموقع لمقاومة الأعداء وقد مضى علىّ ثلاثة أيام وأنا بهذا المكان ولم أشاهد الأعداء أو رقيب الفصيلة الذى اصطحب باقى زملائى لتوزيع المهام عليهم خلف تلك الصخور.

طيبت من خاطره وعرضت عليه صحبتنا إلى خط الدفاع الثانى , رفض أن يبرح موقعه انتظارا للقاء العدو , استفسرت منه بأن مشكلته هى الجوع والعطش أم أنه يخشى الذئاب والضباع مع الوحدة , نفى هذا ولكنه قال بأنه فى الأمس كاد أن يقتله ثعبان ضخم . عرض روايته:

كنت متخذا هذا الوضع مستعدا لفتح النيران والشمس عمودية فأثرت علىّ فهاجمنى النوم ولم أشعر إلا وأنا مستلقى على ظهرى ولكنى شعرت بأن شيئا يتحرك أسفل ظهرى , لم أبال وبعد قليل شعرت بثعبان ضخم التف حول رقبتى ويدأ يقبض عضلات جسده وشعرت بأن عظام رقبتى سوف تتحطم ومن شدة الألم صرخت قائلاً يا رب , بعد تلك الكلمة ترك الثعبان رقبتى فارا بعيدا عنى وقد استطعت أن أشاهده , لقد كان ثعبانا ضخما ولونه أصفر وقطر جسده يماثل قطر ذراع الرجل.

تبادلنا النظرات إعجابا بهذا الشجاع الذى صمم على البقاء تنفيذا لتعليمات رقيب الفصيلة، ودعناه ثم عاد ينادى علىّ "ح الظابط" : طلب صغير ، لو وصلت مصر بالسلامة إقرالى الفتحة فى مسجد أم هاشم .. مدد يا ست ..وعرفنى باسمه وبلدته واسمها فرشوط ولكنى نسيت اسمه.

تركنا هذا البطل الشجاع وما زلنا نسير , شاهدنا بعيدا وبجوار الطريق غراب الماء"وهو عبارة عن ماسورة طويلة على شكل رقم (٦) وبالمنتصف محبس وفى النهاية خرطوم يساعد على توزيع المياه وخط المواسير هذا يستقبل المياه من مدينة الإسماعيلية ومخصص إلى القوات فى سيناء .. أسرعنا جميعا إليه وكلنا أمل بأن يمن الله علينا بشرية ماء هنية، لم يستطع عبدالراضى اللحاق بنا , طلبت منه السير على قدر إمكانياته وإننى سوف أرسل إليه بالمياه ..اقتربنا من غراب المياه وهناك شاهدنا ما لم يكن يخطر ببالنا .. عدد من الجنود المصريين قتلى حول منطقة الغراب والرائحة تزكم الأنوف .. وقد انتفخت أجسادهم ورائحة التحلل تصاعدت منها , سمعنا صوت أنين لأحد الجنود .. أحد الجنود المصابين مازال على قيد الحياة .. أسرعنا إليه نحاول أن نرفع من معنوياته , نظر إلينا مستغيثا "ميه .. ميه .. حاموت وعايز أشرب .. حد يبل ريقى بنقطة ميه" , نظر بعضنا إلى بعض لدرجة أن أحد الجنود بكى من توسل هذا المسكين الذى كان فى النزع الأخير وقد وعده البعض بأننا سوف نبحث عن مياه ونحضرها له وعلمنا منه أن الدبابات الإسرائيلية هاجمتهم عندما عثرت عليهم فى اتجاه غراب المياه لغرض الشرب "يواصل حديثه" مع أن الغراب ليس به ماء لأن المسئولين فى الجبهة الشرقية بالإسماعيلية منعوا المياه حتى لا يستفيد بها العدو .. يضحك وهو فى النفس الأخير قائلاً: يمكن القيادة عارفة إن المصريين مش بيشربوا الميه وإن اليهود حيحتاسوا من غير ميتنا .. يعيد نداءه نقطة ميه .. نق ....فارق الحياة بعد أن ظل مصابا لمدة ثلاثة أيام دون أن ينقذه أحد وقد أرسلنا الله له لكى نقوم بدفن هؤلاء الجنود الذى تعدى عددهم الخمسين شخصا وقد دميت أصابعنا من حفر مقابر لهم .. وكما قال أحد الجنود لو ربنا أنقذنا حنشتغل "حانوتية".

أسدل الليل ستاره وجاء الظلام بوحشته وبرودته وها نحن قد أكملنا يومنا الرابع بدون شربة ماء إلا من بعض جرعات مياه فاسدة من رادييتر اللورى وقد أصبحنا نعانى من بعض آلام و جروح غير نافذة وتهتك بعض جلود الوجه كما أصبح تفكيرنا فى إجازة ولا نستطيع أن نفكر فى أى شىء وتلونا جميعا الشهادة بدعاء من الله أن نجد أحدا يقوم على دفننا مثل ما قمنا بدفن بعض الشهداء أمس واليوم.

كنت أجلس قريبا من بعض الجنود وأنظر إليهم بدهشة متسائلاً: من يكونون هؤلاء القوم؟ .. ومن أنا؟ .. وما هو اسمى؟ .. وماذا أفعل فى هذا المكان؟ .. شعرت بأن سقف بأعلى الرأس قد سقط مثل حالة الغيبوبة المفاجئة التى تصيب الإنسان أو حالات التيه اللحظية التى تصيب الصائمين فى شهر رمضان .. لكن حالتنا كانت تتعدى الأربع أو الخمس ساعات حيث نجلس ساكنين بدون حركة والشمس مسلطة على رءوسنا تلهبها ونغمض عيوننا لنريحها من الضوء المبهر الناتج من انعكاس أشعة الشمس على الرمال الناعمة ولدغات الذباب المستمرة والتى كانت تؤلمنا ولم نستطع مقاومتها لعدم القدرة على التفكير وكل ما نقوم به هو النفخ مثل الحيوان أو هز الرأس .. لا ينتبه أحد منا إلا على صوت طائرة أو صوت أحد الجنود باكيا صارخا من آلام يشعر بها ونحن مازلنا فى وضعنا ناظرين له بدون أن نقدم له أى مساعدة .. بل إننا سمعنا صرخة مؤلمة لأحد الجنود وهو يتلوى وكأن شيئا أصابه بظهره من حركاته .. أسرع البعض إليه حيث كان يتلوى أمامنا ولا نستطيع السؤال لعدم قدرتنا على الحديث وهو لا يستطيع شرح ما به ولكنه أشار إلى ظهره .. اتجهنا إلى ظهره ورفعنا السلاح الموضوع على ظهورنا بطريقة متقاطعة حتى لا نفقده أو يضيع منا .. رفع أحدنا قميص الأفرول وكانت دهشتنا .. لقد شاهدت علامة حمراء منتفخة على ظهره وتبين أنها من اكتساب كتلة الحديد بالبندقية الكلاشنكوف للحرارة وبثها ثانية على ظهره فالتهبت كأن مكواة ساخنة سقطت على ظهره وكان السبب الرئيسى لما حدث له بخلاف الباقين أن فانلته الداخلية مهلهلة ومقطوعة من فرط القدم وبظهره مساحة فى حجم طبق الطعام لا تغطيها الفانلة .. أسرع البعض بالحفر

فى الرمال حتى وصلوا إلى الطبقة الرطبة وأحضروا رمالاً رطبة ووضعوها على ظهره كل هذا كان يتم فى ظل درجة الحرارة الملتهبة .. استمروا على هذا حوالى ربع ساعة .. كل عدة دقائق يحضرون رمالاً رطبة وتوضع على ظهره حتى شعر بالراحة وأزالت بعضا من هذا الالتهاب الذى شاهدناه .

قضينا ليلتنا بجوار هؤلاء الشهداء ليس حبا فيهم ولكن لعدم مقدرتنا على أن نكمل المسير خاصة أن النظر إليهم كان مؤلما سواء لمن أكلت الطيور الجارحة عينيه أو لمن قضمت الضوارى من الذئاب والضباع أنفه وأذنه وأجزاء من الوجه بالإضافة إلى باقى أجزاء الجسم.

بعد منتصف الليل شاهدنا ضوءا لسيارة مسرعة سرعان ما سمعنا انفجاراً مكتوماً فأسرعنا بالجرى فى اتجاه تلك السيارة المتواجدة على الطريق .. كان منظر وجوهنا يخيف أى شخص يرانا، أما بالنسبة لنا فنحن نرى بعضنا يوميا ونرى الهلاك النامى لأجسادنا وأشكالنا .. وصلنا إلى الطريق الأسفلت وبيننا وبين السيارة مسافة لا تقل عن خمسمائة متر .. كان صوت الأحذية البيادة المزودة بحدوة حديد مثل حدوة الخيل يحدث صوتا شديدا أثناء سكون الليل .. لكن المشاهد للسيارة أنها سيارة إسعاف إسرائيلية .. وقد انفجرت إحدى عجلاتها وأراد سائقها أن يغير العجلة فسمع بهذا الضجيج من البشر فخاف وأسرع مبتعدا عنها حيث كان وحيداً .. هاجم الجنود السيارة فى الظلام وكنت أشاهد السيارة حيث كنت قريبا منها تتأرجح وأسمع أصواتاً وعراكاً بالداخل والظلام حالك وسباب من كل نوع وأشاهد أحد الجنود يقذف من داخلها للخارج بعد أن حصل على عدة لكمات وتبعه آخر ، وآخرون يقتحمونها بالإضافة إلى من بالداخل ..هرج ومرج وأصوات عالية وأصوات تكسير زجاجات وصراخ وما زالت السيارة تتأرجح يمينا ويسارًا بقوة من كثرة ما بها ومما يحدث بداخلها .. لم يتركوا شيئا إلا وعبثوا به وأنا أصرخ بهم "عربية إسعاف .. مافيهاش حاجة تنفع ويمكن تلاقوا حاجة تضر" ولكن الجميع معذورون ، جاءت روائح الأدوية والمطهرات وأشياء لا أعرفها لأن كل هذا تم فى الظلام ولكن المعاين لتلك الليلة أن أحد الجنود صرخ وارتمى على أرضية الطريق وفارق الحياة وأسرعنا حوله

وكل يسأل الآخر عن السبب ولا نعرف سوى أنه شرب زجاجة اعتقد أنها بها ماء أو عصير ولكن رائحة فمه تنبعث منه رائحة مبيد حشرى .. كان من يحدثنى قد غطى فمه ووجهه بشىء ما وقد علمت أنه وجد علبة بها شىء مثل الزبادى فأكله وقد ظهر أنه تناول كريما مضادا للحروق وقد شعر بعد ذلك بألم وتعب فى البلعوم من أثر تلك المادة وآخرون كسروا أنبولات الحقن وشربوها .. لكن النتيجة وفاة جندى فوراً..

مازال الجنود فى سيارة الإسعاف والبعض جلس قريبا منها لأنهم لا يستطيعون المناطحة والحصول على بعض الجرعات التى يحصل عليها زملاؤهم.. شاهدت الجنود مغادرين سيارة الإسعاف وحالتهم مزرية من الإرهاق وألوان الأدوية التى سقطت عليهم.

اليوم الخامس

جمعنا بعض الصخور وقمنا بدفن الجندى المتوفى بجوار الطريق الأوسط وانبلج ضوء الفجر فشاهدنا جبلا بجوارنا لا نعرف اسمه لكن المهم أن نعمل على الاختباء فى ثناياه خوفا من هجمة إسرائيلية.

ظهر نور الصباح عن يوم جديد فى معاناتنا اليومية .. فهذا هو اليوم الخامس منذ انسحابنا وحرماننا من الماء والطعام كما أنه اليوم السابع للإرهاق المتواصل من عمليات الخامس من يونيو ، وصلنا إلى داخل فتحة بجبل مجهول وكانت تلك المرة الأولى التى أشاهده كما أننى لم أكن مزوداً بخريطة ومازلنا نسير وقد وصلت حالة المساعد عبد الراضى الصحية إلى وضع سيئ فقد امتنع عن الكلام وقلت مقدرته على الحركة وتساوى معنا فى العطش الشديد الذى دخل يومه الخامس بدون أن نجد حلا لتلك المشكلة كما كان للأحداث التى تمت أمامه فى عربة الإسعاف الأثر السيئ عليه وهو الرجل كبير السن والذى كان ينظر إلينا كأبنائه أو إخوته الصغار فكان عطوفا على الجميع راغبا فى مساعدتنا بإحساس منه بأننا أقل منه تحملاً وجلداً وخبرة.

من إحدى ثنايا الجبل دخلنا فيه وهذا أبعدنا عن أنظار العدو البرى لكن الطائرات كانت كاشفة لكل شىء أمامها وكنا نحمد الله أننا لا نشاهدها كثيرا خاصة بعد موقعة أمس الاول والتى هاجمتنا فيها الطائرة الهليكويتر بدون أن تصيبنا .. بل كان هجومها بغرض إدخال الرعب والخوف إلى قلوبنا .. كان واضحا أن بعض الجنود مازالوا متأثرين مما حدث فجر هذا اليوم بالهجوم على سيارة الإسعاف الإسرائيلية .. لقد قضى أحدهم نحبه لكن الملاحظ أن اثنين أو ثلاثًا مازالوا يعانون من أثر ذلك ولم يساعدهم أحد أو يمد لهم يد المساعدة حتى ولو بالكلمة لأن الجميع لا يستطيعون تقديم هذا الدعم البسيط فلقد بلغت القلوب الحناجر .. كنت أشاهد الجنود وأتحسس بشرتى وأقول فى نفسى تُرى هل الإنسان قوى أم أن الله قوانا على تحمل تلك المصاعب حتى الآن .. وعندما تذكرت شهر رمضان وما يعانيه الصائم من عطش لفترة لا تزيد عن أربع عشرة ساعة ولحظة آذان المغرب يندفع الى الشراب ليروى ظمأه وبعدها يشعر أنه قد ردت إليه روحه وحياته .. لهذا التمست العذر لهؤلاء الجنود البسطاء الذين يعتقدون أن أى سائل أو أى شىء يسيل ويشعرون أنه يحدث رجا بداخل الزجاجة هو ماء أو شراب مفيد ولا يفكرون فى حياتهم العادية ولا يدركون أن هناك تشابها بين الماء مع أدوية شديدة وقاتلة ونحن ليس لدينا العلم والخبرة لتساعدنا على كشف ذلك.

سقط ثلاثة جنود آخرين تباعا على الأرض أحدهم فى النزع الأخير والآخران مازالا يشعران بألم شديد فى أمعائهما.. وقفنا ننظر إليهم بلا مبالاة بل جلس بعضنا بجوارهم وهم يطلبون منا العون ويصرخون بأصوات أقرب منها الى الهمس فلا قدرة على إخراج صوت كامل ونحن بجوارهم أيضا وكل ما أشاهده أمامى عيون صغيرة متحجرة وشفاه ممزقة بدون دماء وذباب يدخل الأنف والعين والفم دون أن يكون لدى أى جندى القدرة كى يبعد هذا الشىء المؤلم. كانت حالة رهيبة قابلتنا من الاستسلام الكامل لاستقبال الموت لا محالة.

توالى وفاة الجنود الثلاثة وكنت راغبا فى معرفة أسباب الوفاة ولكننى لا أستطيع السؤال نظرا لما أنا عليه من خوار القوى كما أن باقى الجنود إذا نظرت

إلى أى منهم فسوف تشعر أنه على شفا الموت .. كل ما استطعت فعله هو الزحف إلى مكان نوم الجندى أرضا وقد فارق الحياة ولم يعد أحد منا مستعدا لدفنهم .. أحد الجنود وجدت آثار لون أحمر حول فمه وأعتقد أنه عثر على زجاجة ميكروكروم فشربه وآخر شاهدت لون أزرق لامع لم أعرف ماهو ولكن المساعد عبد الراضى أخبرنى بأنها مادة تسمى"جنتيانا" وهى شبيهة بالميكركروم والآخر لم أعرف سبب وفاته ويعتقد أنه تناول زجاجة فيتامين أو أى شىء من مثل تلك الأنواع.

كنا جلوسا هكذا متفرقين وعلى مسافات بعيدة نسبيا والبعض أخلد لنوم متقطع لكن الجميع أصابهم اليأس والقنوط والإحباط بالإضافة الى عدم المقدرة على الحركة أو التحدث حتى السمع قلت كفاءته .. شاهدت أحد الجنود يقف مترنحا كأنه سكير ويسير بصعوبة بالغة على غير هدى ممسكا بكعب زمزمية مصنوعة من البلاستيك ويدور على زملائه طالبا منهم أن "يتبولوا" له بعضا من بولهم .. البعض لا يجيب عليه أو لا يسمعه والبعض يستنكر هذا متعللين بأنهم أحوج إلى بولهم بدلا من أن يحصل هو عليه ويستفيد منه والآخرون يوضحون له بأنه لا بول لديهم فهم لم يشربوا ماء منذ عدة أيام .. كان منظراً فريداً وصلنا إليه نحن الجنود بعد هذا العناء الشديد من العطش وارتفاع درجة الحرارة حتى أن رائحة وملمس الأفرولات التى نرتديها كانت محترقة كأن كواء قام بكيها الآن .. الملمس جاف وكأن به نشا ورائحته مع الشمس تعطيك الشعور بتلك الحرارة المرتفعة.

تحدثت بصوت أقرب إلى الهمس قائلاً: يجب علينا الاستمرار ووضعنا هذا فيه خطر علينا .. سنموت عطشاً .. خلف تلك الجبال مدينة الإسماعيلية وبها المياه والطعام .. فهيا نتحرك .. نظر الغالبية إلىّ عندما سمعوا هذا الحديث وكنت لا أكذب ولكن كان هذا هو اعتقادى .. قال أحدهم نريد التأكد بان خلف هذا الجبل مدينة الإسماعيلية وزرع وحياة وماء .."ميه يا أما.. هىء هىء .."وانخرط الجندى فى دور بكاء مؤلم .. قلت لنتأكد.. فليصعد أحدنا الجبل ليرى ويشاهد .. لم يتحرك أحد.. فأعدت رجائى .. لم يتحركوا وتكلم أحدهم

وأشـار إلىّ .. اطلع أنت "بصـيغـة آمـرة .."مـا أنت الظـابط بتـاعنـا .. روح وشـوف وتعالى قلنا .. مش بتدى أوامـر على طول .. كان القـرار صـعبـاً فـإذا رفضت لن نحصل على أية معلومات وسيتكاسلون وسينامون فى تلك المنطقة حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة .. كنت لا أخشى من تهور واعتداء أى جندى على شخصى حيث كان الجميع خائر القوى .. أجبتهم سوف أصعد ولكن على شرط أن تقوموا بدفن زملائكم الثلاثة .. تشجعوا ، هكذا سنعمل وسنتحرك ولكن الصول عبد الراضى سألنى وهو غير قادر على إتمام جملته .. إزاى حتطلع وأيدك فيها الجرح الكبير ده .. أنت لازم أيدك ورجلك يكونوا سلام .. تسلق الجبـال عايز كده وأنت مش معاك حبل ولا حاجه .. ده خطر عليك .. نظر إليه أحد الجنود بضيق قائلاً: خليك محضر خير ..ح الظابط حيروح ويشوف إيه فوق الجبل.

هكذا صدر الحكم على بالإجماع بأن أتسلق الجبل لأعرف ما خلفه .. كان هناك شيئان أجهلهما .. الأول أننى كنت أعتقد بأن الجبل مثل الحائط بمجرد أن أصل إلى القمة فسوف أشاهد ما خلفه وهذا اعتقاد خاطئ ومخالف للواقع .. الثانى هو تقدير قمة ارتفاع الجبل .. فكنت أنظر من أسفل وأعتقد أن ارتفاعه ليس كبيراً وقد ثبت خطأ هذا التقدير.. وهكذا قررت صعود الجبل وخلفى نقطتين خطأ بالإضافة إلى توقعى الأول من أن خلف هذا الجبل تقع مدينة الإسماعيلية .. تجمعت أخطاء ثلاثة ضدى منذ البداية.

لم يكن رافضا تلك المهمة سوى الصول عبدالراضى الذى شاهد ما ألم بيدى من جرح غائر أثر على قدرتى فى الإمساك بأى شىء .. تخيرت أقل منطقة بها ارتفاع وأن تكون ذات ميول حتى تساعدنى على التسلق وبدأت تلك العملية وبعد ربع ساعة تقريبا نظرت إلى الأسفل وقد دفعنى هذا إلى التسلق أكثر حيث قطعت مسافة معقولة وخصوصا أن الجنود لم يشجعونى ليس ضيقا منهم ولكن لسوء حالتهم وعدم مقدرتهم على إخراج أى أصوات إلا بصعوبة شديدة .. كل فترة زمنية أتوقف وأنظر إلى أسفل وقد شعرت أننى قد قطعت مسافة كبيرة لصغر حجم الجنود وفى نفس الوقت أنظر لأعلى لأرى ما المسافة المتبقية حتى أصل لقمة هذا الجبل .. لم أستطع بالطبع تحديد تلك القمة ولم أشاهدها لأننى

كنت ملتصقا بجانب الجبل وبالتالى ليس أمامى أية مساحة رؤيا تساعدنى على تحديد المسافة المتبقية خاصة أن قواى ضعفت وقوة الدفع الأولى تخلت عنى ولا تشجيع ولا اقتراب من الهدف كما أن جرح يدى شعرت به كأن ما يشبه السكين يقطع فيه وهكذا دخلت دوامة صعبة للغاية فلا أنا قادر على أن أكمل المهمة التى تسلقت من أجلها ولا أنا قادر على أن أعود من حيث بدأت لأن الهبوط هو الآخر يحتاج إلى مجهود وأخيرا لا يوجد أحد يستطيع تقديم العون لى .. ولهذا كانت الاختيارات أمامى صعبة للغاية والأهم من هذا وذاك هو ضآلة التفكير حيث العقل لم يسعفنى فى الحل الأمثل والأجدى فى مثل تلك الأحوال.

التصقت بعض الوقت بصدر الجبل أستعيد أنفاسى وعافيتى وثقل جسدى محمل على ذراعىَّ وقدمىَّ ولكنهما بدأتا تهتزان تحت طول فترة التعلق وخشيت أن أهوى من هذا الارتفاع وهذا معناه هلاكى .. استعنت بالله وأكملت صعودى وها أنا سوف أصل إلى قمة الجبل ويدا الهواء يلفح يداى ثم وجهى حيث إن الجرف بداخل الجبل شديد الحرارة نظراً لعدم وجود تيارات هوائية به ولذا فإن درجة الحرارة مرتفعة ، كل تلك العوامل جعلت المنطقة أسفل الجبل والتى بها الجنود مثل البوتقة المنصهرة رغم تعرضنا فى الأيام الخمسة للانسحاب للحرارة المرتفعة إلا أن وجودنا فى مناطق مفتوحة يشعرنا فى بعض الأحيان بنسمات هواء جافة وليست رطبة ولكنها أحسن حالاً من داخل الجبل.

وصلت الى قمة الجبل والتى كنت أنظر إليها من أسفل ولكننى لم أجدها قمة. كان على أن أتسلق عدة أمتار أخرى حتى أصل إلى الارتفاع الذى أشاهده أمامى وكانت المساحة المضافة أسهل مما تسلقته حيث أنها كانت مائلة بدلا من المساحة السابقة التى كانت أقرب ما تكون للحائط المتعرج .. واصلت تسلقى يعترينى شعور بالثقة وأننى قد أقتربت من نهاية الطريق الصعب وأمنى نفسى بأننى سوف أشاهد الإسماعيلية أو أشاهد الناس وأرى المزروعات والخضرة فى كل مكان وقد تدافعت الأحلام فى ذهنى حيث سأطلب من أول شخص أشاهده كمية من المياه وأحضرها لهؤلاء المساكين وأنزلها إليهم بحبل حتى يرتوى الجميع ثم بعد هذا أحضر كميات من أشهى الطعام بل فكرت بأن أحضر لهم بطيخا .. آه على

البطيخ الرطب وما به من مياه وحلاوة ستنعشهم وسيفرحون بها ويشعرون أن هذا الضابط الصغير والذى لا يأبهون به إنما هو قائد صغير وممتاز وما العيب فى أننى صغير السن ، كل إنسان يبدأ صغيراً ثم مع مرور الأيام يكبر وينمو ولكن القيادة عنصر مهم والتاريخ القديم ملىء بمثل هؤلاء القادة العظام والذين كانوا فى مثل عمرى .. الملك العظيم توت عنخ آمون والقائد اليونانى الإسكندر الأكبر .. جميعهم كانوا صغاراً ولكنهم بعد آلاف السنين مازالت كتب التاريخ تذكرهم وتذكر أمجادهم .. فسوف أنضم لهؤلاء !! .. مازلت أتسلق الجبل مثل السلحفاة .. من حين لآخر تعاودنى مشاعرى الفياضة بالنجاح وأثناء تلك المشاعر هبت نسمة هواء شديدة فنظرت أمامى حيث كنت أثناء تلك الأفكار السعيدة والأحلام الهانئة أنظر بين يدى و أنا أبدل على تلك الصخور القاسية الملتهبة.

نظرت أمامى وانا فى هذا الوضع أجلس على أربع مثل الأنعام أو الحيوانات ذات الأربع لأكحل عينىّ بمدينة الإسماعيلية أو أى قرية بجوارها ولكن هيهات ولا أستطيع أن أصف بالتحديد المنطقة التى شاهدتها ورأيتها بعد كل تلك الأحلام .. حتى من شدة ما شاهدته انكفأت على وجهى أرضا فوق الصخور المشتعلة بدون نيران والقاسية مثل قطع من الحديد الساخن وكل وجهى بين يدى وأنا أبكى دون صوت أو دموع لكنى بكيت داخل نفسى وبمشاعرى وبتشنجات عصبية كنت أشعر خلالها أن جسدى يهتز .. فرددت ذراعى للأمام وساقى للخلف وكأننى أنام على وسادة من ريش النعام وأنا بهذا الوضع واستسلمت لقدرى المحتوم شاعراً أننى فعلت كل ما أستطيع ولم أبخل على نفسى وحياتى ولم أركن وأنام حتى يأتينى الإنقاذ .. الآن مضت خمسة أيام بالتمام ولم يدخل أى شىء جوفنا ويقولون إن الإنسان يستطيع تحمل تلك الفترة .. لكن فى تلك الحرارة المرتفعة والخوف من العدو يصبح الحال شيئًا آخر .. إن كل شىء حولنا ضدنا ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئا وكل ما معى من جنود مساكين وقدراتهم الصحية والعلمية بسيطة وقد جبلوا منذ نعومة أظفارهم على أنهم تابعون وليسوا قادة ولذا فهم دائما فى انتظار الأمر لتنفيذه ولا يستطيعون الابتكار أو التفكير فى أى مشكلة .. وهكذا أصبح كل من معى عاجزًا عن إمدادى بأى شىء ذى نفع

فيما نقابله من مشاكل عويصة .. كما أننى جاهل بكل ما يتعلق بطبوغرافية تلك المنطقة ودروبها ومسالكها وقد أكون بالطريق الخطأ ولكننى أصبحت مثل جنودى الذين تعودوا أن يقادوا أو بالأحرى أقاد من الطبيعة حيث أسير على خطاها مبتعداً عن العدو .. هذا هو كل اختيارى حسب مقدرتى وطاقتى العملية.

أسمع أصواتا من أسفل تسألنى عما أشاهد وأرى .. وأصواتا أخرى تستنكر فعلتى وبأننى وجدت المن والسلوى وتركتهم بأسفل وقد غضب البعض مصححين بأنهم كان عليهم إرسال شخص آخر وقد قال قائل منهم ماذا لو لم يعد الضابط .. كيف سنسير ونكمل مشوارنا وقد أجابه آخر بأن نفعل مثله ونصعد الجبل ولكن الصول عبدالراضى اعترض على ذلك وأنه من الصعب فعل هذا وكان يعتقد بأن الضابط هالك لا محالة ولكن الله سترها معه وليس فى كل مرة تسلم الجرة وقد خنع الجميع وهم غير القادرين على استخراج أصواتهم من أفواههم أو حناجرهم. "

كنت أسمع كل هذا رغم خفوت أصواتهم حيث كان الهدوء تاما والتى تشاركنا فيه الطبيعة لإشعارنا بالحزن والألم ونحن ننتظر الموت بعد عذاب تلك الأيام الخمسة وكأنه كتب علينا ألا نقابل الله إلا بعد ان نسدد للدنيا فاتورة أخطائنا رغم أننا جميعا كنا صغار العمر ولم نصل إلى مراحل البغى والظلم الذى يقوم بها بنو آدم فى الحياة.

أفقت من محنتى وأنا أحاول أن أعيد الاتزان إلى عقلى والذى كنت أشعر بأنه قد أصبح أجوف ولا يستطيع تذكر بعض ما مر بى من مواقف أثناء حياتى بل وصل بى الأمر إذ فكرت فى عائلتى وإخواتى فأجدنى قد نسيت بعض أسمائهم .. ولهذا انتابتنى حالة من فقدان الثقة فيما أفكر أو أقترحه بأنه سليم .. بل تأكدت أننى مخطئ والدليل على ذلك بأن فكرت بأن خلف هذا الجبل تقع الإسماعيلية .. فما الذى دفعنى لقول هذا وبناء خطتى عليه ..نظرت أمامى فوجدت مساحة منبسطة من الأرض وفى نفس مستوى الأرض أسفل الجبل أى أننى لابد أن أهبط إليها إذا أردت ولكن تلك الأرض كانت قاحلة وهى قليلة الرمال كثيرة الصخور وصخورها بين الأسود والأحمر وتمتد تلك المساحة إلى ما

يزيد عن ثلاثة إلى أربعة كيلومترات وتحيط بها الجبال من كل جانب ولا يوجد بها شيء من الحياة فلا أشجار ولا نخيل ولا إنسان. تحطمت كل أفكارى التى كنت أفكر بها والتى دفعتنى للصعود لهذا المكان.

كانت الهوة شديدة بين ما كنت أحلم به وما شاهدته ورأيته فلقد تحطم كل شيء ولم أستطع أن أفكر ما هو الحل ..تسمرت فى مكانى عدة دقائق حتى أستطيع استيعاب الموقف ومازلت أسمع نداءات الجنود وهى نداءات حزينة بائسة خارج إطار اللياقة والعلاقة العسكرية يغلب عليها طابع الألفاظ البذيئة والساخرة. غالبت نفسى وأجبتهم بأننى أشاهد جبلا على مسافة عدة كيلومترات واحتمال خلف هذا الجبل يكون أملنا فى العثور على مدينة الإسماعيلية أو مشاهدة بوادر حياة تعيد إلينا ما سلبته الطبيعة القاسية منا .. وقع هذا الخبر عليهم بكل ألم صارخ لم ينتج عنه أى شيء سوى السكون المطبق ثم سماع البعض يتألم بإصدار الآهات والتنهدات الحزينة القاسية .. كنت أشاهد هذا الموقف من أعلى قمة الجبل مائلاً برأسى جهتهم وأتابعهم وهم يتحركون بأحجامهم الصغيرة لبعد المسافة بينى وبينهم وأثناء ذلك جاء غراب ينعق قريبا منى وكأن لسان حاله يخبرنى بأنك وزملاءك ستصبحون طعاما لى ولزملائى على مدار الأيام القادمة ومن المتعارف عليه بين الناس فى مصر أن نعيق الغراب نذير شؤم .. نظرت إليه وقد وصلتنى رسالته وكان رد فعلها صعبًا على جداً ولأول مرة فى حياتى أفكر فى الانتحار ، وقفت على حافة الجبل وأنا أنظر إلى أسفل وأشاهد الجنود مترنحين مثل السكارى ما بين جالس أو ممدد أرضا وأصبحنا كمن حكم عليهم بالإعدام عطشا وجوعا وهم ينفذون هذا الحكم وما هى إلا مسألة وقت وكأن ذلك الوقت قد أزف وأقبل وها نحن قد فقدنا أربعة منهم فى حادث سيارة الإسعاف وعبدالراضى على وشك أن يلفظ أنفاسه واحتمال أن يلحق بهم ومعه نفر آخر من هؤلاء الجنود .. إذًا سأكون أنا الآخر من ضمنهم وأنهى حياتى بنفسى وكما يقول المثل العربى "بيدى لا بيد عمرو" .. أتممت كل الإجراءات والاستعدادات للقفز من هذا الارتفاع الشاهق وأغمضت عينى وبدا جسمى يترنح ليس بدافع منى ولكن بدافع الضعف والهزال الذى أصاب الجميع وأنا فى هذا

الوضع الذى سيصل بى بعد ثوانٍ إلى الدار الآخرة وينهى آلامى وعذابى وإذا بى أتردد فى فكرة الانتحار.

ولماذا الانتحار؟ وما بعد الانتحار وكل هذا العذاب ثم أموت كافراً وأقابل ربى وأنا عاص أمره وماذا يحدث لى وأنا سابح فى الهواء إلى نهايتى المحتومة وأردت أن أعود فى قرارى؟ لن يكون أمامى أى خيار لأن هذا السقوط أو الانتحار مثل طلقة القنبلة التى إذا خرجت لا تستطيع استعادتها وفكرت أيضا ماذا سأشعر به عند ارتطام جسدى بتلك الصخور الشديدة القوية والتى تشبه قطعا من الحديد الساخن الملتهب بفعل درجات الحرارة الساقطة عليها من أشعة الشمس لهذا الشهر شديد الحرارة .. أفقت واستغفرت وابتعدت بسرعة قبل أن يسبق السيف العذل .. عُدت لاهثاً بعيداً عن حافة السقوط من فوق الجبل وجلست أستجمع أنفاسى المتلاحقة وقد بلغ الظمأ بى أشده ومازلت جالسا تفعل بى أشعة الشمس فعلها وحرارة الصخور التى أجلس فوقها لا يستطيع الإنسان تحملها وما السبيل والحل لتفادى تلك الحرارة؟ هل سأظل طوال النهار واقفا حتى لا أجلس فوق تلك الصخور المشتعلة .. كل شىء مشتعل نهاراً بارد ليلاً وهكذا وضعنا القدر بين هذين الفكين .. نهارٌ ساطع الرؤية شديد الحرارة وظلام ليلٍ دامس مع عدم الرؤية بارد قاسى وما بينهما فاصل كبير من عدم وجود شربة مياه أو قطرة واحدة لليوم الخامس على التوالى .. تنبهت على نعيق الغراب ثانية وقد هداه الله إلى ذلك حيث شعر هذا الطائر بأن هذا الجسد النحيل الذى يتحرك بصعوبة هو فريسته تلك الليلة .. لقد اندهشت وأنا أشاهد جرح يدى فلقد جف وأصبح مثل الحطب أو الطين الصلصال الجاف ولهذا أصبح خشن الملمس مثل الأشواك فى يد الإنسان.

أسرعت الخطى يملؤنى العزم بالعودة ثانية إلى رفاقى ولكن عند التنفيذ قابلتنى مشكلة كبيرة وهى كيف سأهبط؟ إنها مهمة صعبة للغاية وتذكرت الحكمة الهندية والتى تقول"إن النمر كان يصطحب ابنه كل يوم ليعلمه الصيد وتسلق الأشجار وفى إحدى المرات شعر النمر الصغير أنه ليس فى حاجة لعون الأب وبعد أن صعد إلى الشجرة ومعه الفريسة التى حصل عليها طلب من والده أن

يتركه وقد سأله الأب: أتستطيع أن تعتمد على نفسك؟ ..فأجابه الابن بكل ثقة: إننى أعتمد على نفسى دائما وانا الذى دربت نفسى وأنت لم تعلمنى شيئا .. غضب النمر الأب من جحود ابنه قائلا له ألم أعلمك أى شىء؟ .. نفى الابن أن الأب علمه أى شىء .. ضحك النمر الأب وقال : إننى لم أعلمك كيفية النزول وسأتركك لتلقى حتفك حيث لم تتعلم هذا وأرجو أن أشاهدك وأنت تهبط من فوق الشجرة .. وعندما أراد النمر الصغير أن ينزل وجد الهبوط شديدة الصعوبة ونادى بصوت عال على والده أن يحضر ليساعده ولكن الأب رفض نداءه وبكى الصغير ولكن الأب ظل واقفاً ومعه باقى أبنائه وهم يشاهدون الأخ العاق ماذا سيفعل وأخيرا نزل النمر الصغير ولكن كما يقول المثل على "جدور" رقبته حيث قتل من أثر سقوطه من فوق الشجرة .. هكذا تعلم أبناء النمر ليس المهارة فى الصعود إلى الشجرة أو التل لكن الأهم هو كيفية النزول.

دار كل هذا برأسى الفارغ من عقله وذكائه وماذا أفعل ليس لى أب ولا موجه سوى الله وإذا نزلت بنفس طريقة الصعود فلن أستطيع أن أرى موضع قدمى وقد هدانى الله إلى أن أهبط ووجهى للخارج وظهرى لبطن الجبل حتى أستطيع أن أشاهد موضع قدمى .. تحركت للتنفيذ وأنا مازلت أشاهد الموقف المأساوى من هذا الارتفاع الشاهق والذى لا أستطيع تحديد ارتفاعه ولكنه لا يقل عن ارتفاع عمارة رمسيس أو برج القاهرة وهذا مبعثه حجم الجنود المتنامى فى الصغر بالنسبة لأحجامهم الطبيعية .. قطعت مسافة لا بأس بها وحادثتهم بصوت أجش كما هو متعارف بيننا منذ يومين .. البعض نظر إلى بدون مبالاة والآخرون لم يكلفوا أنفسهم حتى النظر إلى وتحركوا سائرين وأنا معلق فى الهواء وأمامى نصف ساعة على أقل تقدير حتى أصل إلى الأرض وقد أفزعنى هذا وظللت ألح عليهم طالبا منهم الانتظار وعدم تركى هكذا دون جدوى.

أصبح قاع الجبل فارغا إلا من الجثث الثلاث التى دفنت بوضع الصخور عليها لعدم إمكانية الحفر فى تلك الصخور وعدم توفر أدوات حفر معهم .. هبطت إلى الأرض بصعوبة كبيرة وقد استمر هذا الهبوط حوالى الساعة على أقل تقدير .. نظرت حولى فلم أجد سواى وبعض الغربان التى جاءت تحاول الوصول إلى

زملائنا المدفونين .. بل وصلت إليهم الطيور وتتقاتل على تلك الوليمة وآفزعنى كل هذا خاصة عندما كنت أنادى على جنودى وأسمع صدى صوتى فى بطن الجبل وأصبحت حرارته مثل حلة فوق النيران بدرجة لا تطاق.

تحركت لا ألوى على شىء ولا أعرف إلى أين أسير حيث شاهدت عدة دروب فى كل الاتجاهات وأنا لا أدرى إلى أى درب سلكوا ولكنى سرت فى اتجاه ما وبدون قصد وكل فتره أرفع صوتى على قدر استطاعتى وأطلب منهم أن يخبرونى أين هم دون مجيب .. صعدت عدة صخور وكأن الطبيعة نحتت فى الجبل لتكون سلما كبيراً فسقطت من فرط الإعياء ومن الجروح التى بظهرى ويدى من أثر التسلق أو الهبوط حيث أدت ندوب الصخور إلى حفر جروح مابين المتوسطة والشديدة بجسدى ولم تكن تلك الجروح تؤلمنى كثيراً ولم ينتج عنها نزيف لكن كل ما ظهر هو رشح دموى أو لون أحمر غير ظاهر فوق الجلد من أسفله فقط .. سقطت أرضا على هذا السلم وأنا أنظر بعينى إلى أسفل هربا من شدة الضوء ويا لهول ما رأيت!!

كنت أعتقد أنه سراب مثل الذى كنا نشاهده ولكنه كان حقيقة .. لقد شاهدت لمعانا فى داخل حفرة بالصخرة وهذه الحفرة ضيقة لا يزيد قطرها عن حجم القطعة المعدنية العادية أى أقل قليلاً من قطر ساعة اليد .. لم أصدق نفسى ووضعت إصبعى بداخلها لأتأكد من أنها مياه وقد تأكدت أنها مياه ذات طعم جميل مثل باقى المياه .. لم أشعر إلا وأنا أصرخ بأعلى صوتى .. لقيت ميه .. ميه .. اللى عايز يشرب .. ميه .ميه .. يا عالم ميه .. الله أكبر ميه .. اللى سامعنى بأقول ميه .. والله ميه يا عالم ميه .. الله أكبر.. الله أكبر .. فجأة حدث صمت تام فقد ضاع صوتى الذى كان يتردد صداه .. بعد قليل سمعت أصواتا كأنها لقافلة من الحمير أو الخيل وأصوات طرقعة ودربكة وشاهدت الجنود قادمين مسرعين وكأنهم فى نهاية سباق الدورة الأوليمبية يتدافعون ناطحى الرءوس دافعى الأجساد وكل يريد أن يصل إلى المياه حتى وصلوا إلىّ وهم مرهقون لاهثون وقد فقدوا آخر قطرة من الماء كانت ستعينهم على حياتهم .. دفعنى أحدهم بعيداً وهو قابض على رقبتى وكاد أن يخنقنى متسائلا فين المية؟ .. فين

الميـة يا ابن دين ..... وقد خيل إليه أننى أهنتهم أو سـخـرت منهم أو قد شـربت الماء بمفردى .. فلم يشاهد أحد الماء معتقدين أنهم سيشاهدون بئرا ضخما من المياه .. تقدمت جهته دافعا إياه قائلاً : كلكم صف واحد لأن كمية المياه بسيطة .. أما أنت فستعرف كيف تسبنى بهذه الطريقة وقد اقتربنا من قيادة سلاح الحدود وسوف أسلمك لهم .. لم يكن هـذا سوى نوع من الضغط والتخويف حتى يرتدع البعض وكنت ألتمس لهم الأعذار. رجانى ألا أفعل هذا طالبا منى أن آخذ حقى منه سبابا ولعنا .ولكننى رفضت وقبلت اعتذاره ووقفوا صاغرين لاهثين مثل ما نشاهد فى بعض الأحيان الكلاب فى عز الحر فاتحة أفواهها لاهثة ولسانها قد تدلى من فمها .. هكذا كنا بالإضافة إلى اصفرار عام فى الوجه وخاصة العيون التى اقتربت أن تقفل والذباب يفعل بها ما يريد .. جلسوا خلف بعضهم البعض فى الصف وأخبرتهم أن الكمية بسيطة وسنتقاسمها فيما بيننا.

أصبحت المشكلة أمامى مزدوجة .. أولا: ضيق الفتحة وكيف نستطيع الحصول على الماء منها وقطرها لا يزيد عن البوصة .. والمشكلة الثانية هى قلة المياه المتواجدة بها بالنسبة لجموع الجنود والذى وصل عددهم بعد وفاة أربعة إلى الأربعة والعشرين فرداً .. اصطف الجميع سكونا واحتراما وليس خوفا بل وداعا للحياة وفقد الأمل فى النجاة فأصبحت اللا مبالاة هى الطابع الغالب مع قلة الطاقة فلا قوة تدفعهم لعمل شىء كما انعدم التفكير فى إيجاد حل لأى مشكلة تافهة حتى إبعاد الذباب عن وجوههم وأعينهم أصبحت غير ذات بال.

هدانى الله " لأن تفكيرى كان مشلولاً مثل الآخرين" إلى ان أستخدم منديلى القماش وألفه مثل الحبل وأسقطه فى الحفرة وأنا ممسك بالطرف الآخر.. وحتى تلك اللحظة لم أتذوق الماء إلا فى المرة الأولى لاختباره ليس شجاعة أو حبا فى جنودى ولكن لنفس ذات السبب ، لا أمل فى الحياة ..أول جندى وضعت المنديل فى فمه امتصه مثل الطفل .. وجذبته منه لأعيد الكرة ثانية مع آخر وهكذا .. كانت رشفات قليلة وأعتقد أن كل عصرة منديل لا تزيد كمية المياه بها عن معلقة شربة من المياه ولكنها كانت ذات تأثير نفسى وعضوى عليهم حيث انتعشوا قليلاً وأحسوا بأن هناك أملا قادما بالحياة وبدون الآمال والأحلام

تتحطم الأمم أمام أى ضغط أو مشكلة ما .. فى منتصف تلك العملية شاهدت أشياء تتلوى وتتحرك بالمياه ولقد تبينتها .. إنها ديدان ، توقفت برهة ماذا أفعل؟ وسألنى من عليه الدور بصوته الذى سمعته بصعوبة .. الميه خلصت؟ أجبته بأنها مازالت موجودة ولكن أشاهد بها بعض الديدان .. ابتسم بصعوبة قائلاً: لو فيها حنش"ثعبان" حاشربها وهكذا أكملت الدورة حتى بقيت وأخذت حقى وقد اقتربت المياه من النفاد وقد أعدت بعض جرعات للبعض خاصة الصول عبد الراضى الذى كان يعانى سكرات الموت طالبا منى توفير المياه لمن هم على قيد الحياة أما هو فذاهب للقاء ربه.

إنه شىء مؤلم على النفس أن يجلس الإنسان بجوار زميل فى الضراء التى نحن بها وأحدهم يعانى سكرات الموت ونحن جلوس حوله لا نستطيع فعل أى شىء .. حتى الكلمة الطيبة لا نستطيع التحدث بها حيث كان هذا هو حالنا. بعد عدة ساعات أو صباح الباكر على أقصى تقدير سنلقى الله وكان البعض يفزعه أن يموت ولا يجد أحدا يدفنه وقد تلاحظ هذا فى الثلاثة الذين لقوا حتفهم أخيراً مما تناولوه من سيارة الإسعاف الإسرائيلية حيث دفنوا سطحيا وليس لهم حفر تقيهم شر الضوارى من الحيوانات المفترسة التى تخرج ليلاً لمثل تلك الحالات ومثل الطيور المفترسة من النسور الجبلية والغربان والحدايات.

تعدى الوقت منتصف النهار وقد ألهبت صخور الجبل أجسادنا جميعا وكنا مازلنا على هذا الممر الذى عثرنا فيه على المياه وعلمت بعد ذلك أنها مياه متجمعة من سيل حدث فى بداية الشهر الماضى أى قبل رفع حالة الطوارئ فى الجيش المصرى .. تجمعت فى تلك الصخور .. يوجد بتلك المنطقة جيوب فى جوف الجبل تسع الواحدة منها شخصا أو أكثر ، توجه البعض إلى تلك الجيوب للراحة وهربا من شمس الصيف وحرارتها وقد حاولت أن أثنيهم عن هذا فأخبرونى أنه لفترة وبعد أن يتحسن الجو سيخرجون منها لنكمل مشوارنا ولكن ثبت لى بعد ذلك بأنها آخر مرة يشاهدون الناس وقد حدث معهم مثل ما حدث مع أهل الكهف بأن دخلوا تلك الكهوف ليقابلوا الله بعد عدة ساعات وقد رواهم الله بقطرات من الماء قبل أن يقابلوه ويصحبهم إلى جنة الخلد.

بعد هذا صعدت المرتفع الصخرى حتى نهايته وكنت وحيداً حيث تفرق الشمل هربا من شدة الحرارة التى تعكسها علينا الصخور .. استطعت النزول مستخدما مقعدتى وأرجلى للمرة الثانية وهبطت زحفا عليهم ووجهى للخارج حتى أتبين أين أضع قدمى مثل ما فعلته فى هبوطى قبل هذا من قمة الجبل .. وبعد جهد ووقت هبطت إلى سطح الوادى الفاصل بين الجبلين والذى شاهدته منذ عدة ساعات من أعلى الجبل وأوحى إلى بفكرة الانتحار لأول مرة فى حياتى .. تحركت سيراً عدة أمتار وأنا أشاهد هذا الوادى والذى أعتقد انه لا مثيل له على كوكب الأرض من الصخور رصاصية اللون والقاتمة ، أدور حول نفسى أتفحص المكان فلا أجد أثرا لحياة فى تلك المنطقة ولن يكون وكيف تتكون حياة هنا فى تلك الصخور القاتمة .. أكثر من أربعة كيلومترات مربعة من الصخور السوداء والبنية والرصاصية اللون وقليل من الرمال.

شاهدت شجيرة لا ترتفع عن سطح الأرض بأكثر من ثمانين سنتيمترا فاقتربت منها ولكنها كانت شجرة شوك وشعرت أننى أقف فى صينية من النحاس فوق لهب بتلك المساحة الضخمة حيث ارتفاع درجة الحرارة والضوء الشديد ، نزعت سترة أفرولى ووضعتها فوق شجرة الشوك ونمت فى ظلها وقد تذكرت الجندى الذى كان يمر علينا مستعطفا أن نتبول له ليروى ظمأه

اعتقدت أن تلك المياه صالحة للشرب ولكننى تذكرت أيضا الجندى الذى أخبرنى أنه سيشرب مياه العين التى بها ديدان حتى لو كانت بها ثعابين .. لكن لا يوجد دافع للتبول وأنا أعتقد أننا منذ أربعة أيام لم يتوفر لدى الدافع للتبول وأنا فى هذا الحوار البولى شعرت بأننى لدى الدافع للتبول فأسرعت وأحضرت كعب الزمزمية محاولا التبول .. أسعدنى نجاح التجربة ونزول البول ببطء وقد كساه اللون الأحمر أو البنى الغامق .. أنهيت التبول وها أنا مستعد لأحصل على جرعة ماء تزيد عن نصف الكوب العادى .. قربت الكوب من فمى ولكننى شعرت برائحة نفاذة شديدة دفعتنى للقيء ولكن لم يتم هذا القيء .. أوكلت سبب ذلك إلى أن البول مازال ساخنا ولو وضعته بجانبى فترة حتى يبرد سيكون حلو المذاق!!!!

كانت الآمال والأحلام تراودنى فى اليقظة والمنام بأنى أسمع أصوات طرقعة بائع العرقسوس بصاجاته وهو ينادى على مشروبه الرائع المثلج "خمير يا متلج ، اشرب العرقسوس وطفى نار الصيف .. خمير يا عرقسوس" كنت أتلفت يمينا ويساراً لأبحث عنه فلقد سمعت هذا الصوت وعندما لا أجده أعتقد أنه سيظهر من خلف إحدى تلك الجبال أو الصخور وقد لازمنى هذا الشعور والإحساس لقرابة أربعة أيام خلت واصبحت هاجسا شديدا يدور فى عقلى ولم أستطع التخلص منه .. استلقيت على ظهرى لأستريح وأحصل على قسط من النوم وقد حجب سترة الأفرول ضوء الشمس عن وجهى لكن حرارة الصخور أسفل جسدى خاصة ظهرى مؤلمة وأن جزءاً من ذراعى وظهرى عار سواء أمام الحرارة أو من الصخور الملتهبة والمتعرجة ورغم هذا خلدت إلى نوم عميق.

لقد روانى الله وأطفأ ظمأى وأنا نائم ..لقد شاهدت رؤيا بأننى أمضى الصيف على بلاج رأس البر وحولى الناس من مختلف الأعمار يلعبون ويلهون والجميع سعداء ، أمامى طبق بطيخ مثلج وفى نفس الوقت أمسك بيدى زجاجة "كوكاكولا"ونسائم البحر ترطب وجهى وجسدى وأنا جالس بالمايوه وكلى شباب وحيوية وأتفرس فى وجوه وأجساد الحسان أمامى وهن رائحات غاديات والبعض ينظر إلى هذا الشاب الوسيم الذى تملؤه الحيوية والنشاط وبجوارى ترابيزة صغيرة وعليها راديو ترانزستور وعبدالوهاب يشدو بأغنيته"الميه تروى العطشان وتطفى نار الحران "وأنا أتمايل زهوا وسعادة بتلك النعم التى وهبنا الله إياها وقد جاء أحد الأصدقاء يمرح ويقلد أصوات الغربان التى أكرهها ويدفعنى بشىء مدبب فى بطنى وأجنابى وأنا أتألم من تلك النغزات وأطلب منه الكف عن ذلك ولكنه تمادى وقد ازدادت تلك النغزات حتى وصلت إلى وجهى فقمت من نومى مذعوراً لأشاهد مجموعة من الغربان فوق جسدى وحولى وكلها تنهش فى جسدى ، شملنى الرعب مما رأيته وشاهدته وأصابتنى حالة من الهستيريا وقد أحدثت تلك الطيور بمنقارها بعض الثقوب فى يدى ووجهى وقد أصابنى الهلع أن أشاهد هذا المنظر وأكثر من ثلاثين غرابا يغطوننى والبعض يهبط من السماء فى اتجاهى وقد تذكرت فيلم الطيور للمخرج العالمى الفريد هتشكوك والذى يصور

طيوراً جارحة تهاجم الناس وتقتلهم ، أردت أن أصرخ ولكن صوتى لم يتجاوز حلقى فهممت واقفا فابتعد بعضها والبعض ما زال يقف على رأسى وأكتافى العارية ودفعنى حب الحياة بألا أصبح لقمة سائغة وأنا مازلت أتنفس لأن أتناول بعض الأحجار وأقذفهم بها وجسدى يرتعد خوفا وألما لما أصابنى وأمسكت بجاكت الأفرول وارتديته بسرعة خوفا من عودته وأنا فى تلك الأحوال سمعت صوت أحد الجنود يصرخ بألم مناديا على أمه "ياما ألحجينى ياما حاموت ..ابنك عطية بيفرفر وحيحصل أبوه .. آه ياما" كان الصوت مزعجا فهو صوت لرجل فى آخر لحظات حياته وهو منكفئ على وجهه والغربان تغطى ظهره تنهش لحمه ولا يستطيع أن يفعل شيئا فقواه قد خارت ولا أمل أمامه فأسرعت جهته أقذفه بكميات من الحصى فتصيبه بعضها والبعض منها تصيب الطيور فتبتعد حتى طردت كل الطيور عنه وشاهدت رقبته بها ثقوب كثيرة من أثر هجوم الغربان عليه بل تعداها إلى أذنه وجوانب من وجهه .. كان مشهداً فظيعاً أن تلتهم تلك الطيور الجارحة إنسانا ما زال على قيد الحياة ولا يستطيع الدفاع عن نفسه .. أجلسته وظل ساكنا وهو يشاهد الغربان تحاول العودة للهجوم عليه وهو غير مبال أو أنه لا يشعر بما يجرى حوله .. وأصبحت معركتى هى مع الغربان وليس مع اليهود ولا للحصول على الماء.

منذ يومين كنت أشعر بأن الجنود لا يستطيعون الحركة بسهولة ويسر فقد أصبحت المفاصل غير لينة وكنت ألاحظ هذا على شخصى وعلى الآخرين أيضا الصعوبة فى النهوض أو ثنى الأذرع وفردها ، بل كانت أصابع يدنا مفرودة ممدودة على استقامتها وإذا رغب الرجل منا فى ثنى أصابعه أو محاولة الإمساك بأى شىء كانت تقابله صعوبة مما يدفعه بالمساعدة بيده اليسرى لثنى حركة الأصابع، وقد أثرت تلك الحالة علىّ أثناء صعود الجبل ، لقد فقدت الأجساد الليونة المعتادة فى المفاصل وأصبحت أقرب إلى أجساد الموتى فى عملية التصلب والتخشب.

فى أثناء ذلك شاهدت أحد الجنود واسمه "عامر"وقد أسرع إلى كوب الزمزمية والتى كنت أنتظر أن يبرد ما به ونسيته فى لحظة عراكى مع الغربان ،

هجم عامر على الزمزمية وقبل أن ألحق به كان قد أفرغها فى جوفه دفعة واحدة ما بين حسرتى وألمى وأنا أطارده ببعض الصخور الصغيرة وابتعد عنى قليلا ثم عاد يسير الهوينا فاتحا فمه ولا يستطيع الكلام ثم أمسك ببعض الرمال واضعا بها فى فمه بغرض إزالة ما شربه من بول لم يستطع تحمله ولم يستطع أن يتقيأه وقد لصقت الرمال بداخل فمه ولم يستطع أن يغلقه وكان للذباب نصيب فى لدخول إلى فمه والعبث به ثم إلى أذنه وأنفه وأصبح يصرخ ويتألم ورغم أنه سرق كنز حياتى إلا أننى أشفقت عليه فهو مثلى يريد شربة ماء وقد كدت أن أكون مثله لو شربتها ولكننى لم أحزن لهذا فقد شعرت بأنه إنسان بائس.

وقفت أنظر إلى كل من عطية وعامر وأنا لا أدرى ماهو المتبقى لنا من دقائق سنقابل الله بعدها ، دعيت الله فى سرى وتذكرت أننا لم نؤد الصلاة حتى الآن وتذكرت أنه يمكن التيمم ولهذا أشرت إليهم بالحضور فحضروا كسالى لأنهم يعلمون أنه لا جديد عندى فحالنا واضح ووصل إلى حد التنافس على سرقة البول وشربه .. أقبلا كسالى وقد أشرت إليهما بأن نصلى لله وندعوه بأن يحقق ما نحن عليه من آلم وتفوهت بكلمات قصيرة متحشرجة قائلا: نطلب منه الرحمة وان ينهى حياتنا إذا كان أجلنا قد قرب أو يمنحنا القوة ويكشف لنا عن الماء ويساعدنا فى محنتنا .. نظرا إلى صامتين وهما يقولان فى أنفسهما ليس هذا وقت الوعظ، تيممت وفعلا مثلى ، صلينا صلاة لا نعرف ماهى ولا نعرف أين جهة القبلة ولكنها كانت صلاة ساكنة من داخل النفس ، كنت أطلب من الله الرحمة وأن يدخلنا جنته ويرفع مقته وغضبه عنا وأن يكون ما لا قيناه من عذاب حتى الآن هو تكفير عما نكون قد اقترفنا من ذنوب فى تلك الأعوام القليلة التى انقضت من أعمارنا .. جلست أرضا بعد صلاة لم أعرف عدد ركعاتها ومددت بصرى خلال جلستى هذه ناظراً فى مساحة الأرض التى أمامى وقد ضعفت الرؤيا ولا أستطيع أن أصل ببصرى إلى عدة أمتار لا تزيد عن خمسين مترا وإذ بى أشاهد شيئا أبيض يتحرك ويختفى من على مسافة بعيدة واعتقدت ساعتها أن المسافة لا تقل عن ثمانمائة متر حيث كان حجمه مثل حجم عود الكبريت والتى كانت تدرس لنا لتحديد مسافة الأشخاص على الأبعاد المختلفة .. لم

أتحرك ولكنى دققت النظر رغم حالة الضعف التى آلمت بأجسادنا ومنها النظر .. اعتقدت أنه نوع من خداع النظر لما نحن فيه ومثله مثل حالات السراب التى كانت تحدث لنا بأننا نشاهد بركة مياه على مسافة ما وبعد أن نسير لمسافات طويلة تحت أشعة الشمس نكتشف أنه سراب .. نظرت إلى الجنديين الذين كان يبكيان بجوارى فقد قربت ساعتهما والغربان تقف أمامنا ترمقنا منتظرة سقوط أى شخص لتهجم عليه وتتناول لحمه فى دقائق .. وبصوت محشرج وبأعلى ما عندى من صوت صرخت قائلاً: "بدوى .. أنا شايف بدوى .." نظرا إلى بدهشة من كلماتى والتى كانت حلما لنا منذ بداية الانسحاب وهما غير مصدقى معتقدين أنها أضغاث أحلام يقظة مثل التى كانت تتنابهما .. وقفت وأنا أشير "بدوييى... بدوييى" قاما ووقفا بجوارى ليشاهدا ما أتحدث عنه وفى تلك اللحظة اختفى البدوى .. أرادا العودة جلوسا على الأرض لعدم قدرتهما على الوقوف ولكن عامراً شاهده .. صرخ ..الله .. بدوى والله العظيم. شاهدته يعدو مسرعا وقد اندهشت لتلك القوة الكامنة به واعتقدت أن هذا ناتج من كمية البول التى شربها وحرمنى منها .. تبعه الآخر وأنا مازلت واقفاً أشاهد ما يفعلانه الجنديان خوفا من أن أبذل مجهودا فوق طاقتى خاصة أن آلام مناقير الغربان مازالت تؤلمنى ..جاء من خلفى الجنود الثلاثة الآخرون الذين بدأوا معى تلك الرحلة " جويلى / فراج / مصطفى "يستفسرون منى عن سبب هذا الصراخ وما الذى جعل كل من عطية وعامر يسرعان فى ذلك الاتجاه فأخبرتهم بما شاهدناه، ارتفعت معنوياتهم خاصة أنهم شاهدوا البدوى بملابسه البيضاء فأسرع الثالث فى أعقابهما باسما بوعد بأن يحضر إلينا الماء .. شعرت وشعر الجنديان الآخران بأننا قد شربنا بعض الماء وقلت حدة العطش .. مازلنا نراقب البدوى والجنود وقد أصابنا الخوف أن يختبئ البدوى عندما يشاهد الجنود يهرعون إليه مسرعين فإنها حالة حرب .. وأخيرا شاهدنا الجنديين يقفان مع البدوى ولحق بهم الثالث وبعد وقت قصير ساروا سويا عائدين إلى الجهة التى كان البدوى قادما منها فى أول مشاهدة له ثم اختفى الأربعة وقد بدأ قرص الشمس فى النزول وبعد نصف ساعة سوف يحل الظلام ولا نشاهد البدوى أو الجنود الثلاثة

وبقيت مع الجنديين الآخرين وهما يتساءلان هل سيعود زملاؤهم أم سوف يرافقون البدوى ويتركوننا ولكنى طمأنتهم وفى الحقيقة كنت أريد أن أطمئن نفسى .. اختفوا لأكثر من عشر دقائق عن أنظارنا واعتقدت أنهم أختفوا إلى الأبد فالفترة الزمنية كانت طويلة وقاسية على قرار الحياة او الموت .. ظهر البدوى ثانية بدون الجنود الثلاثة واعتقدنا أنه إما قتلهم أو سلمهم إلى الإسرائيليين وتوترت نفوسنا وازداد ألمنا ولكن من الظاهر أن صورة البدوى تزداد وضوحا وهذا يعنى إنه يقترب ولا يبتعد عنا .. وقد تأكد هذا بعد أن قطع مسافة جعلتنا نستوضح حجمه وطريقة سيره ولكن الأهم أنه كان ممسكا بحمار معه وتبادلنا النظرات نستوضح ما سبب أن ياتى البدوى لنا ممسكا بحماره ، تحدث الجندى مصطفى قائلا " يظهر يا أفندم أنه حيبعت معانا الحمار يورينى الطريق .. ضحك قليلا وأكمل حديثه بأن الرجل عرف أننا مش فاهمين السكة فلقى أن حماره أحسن منا وعارف كل حاجة.. كويس على كل حال .. حمار .. حمار" ابتسمت أنا والجندى فراج لكن السؤال الذى كان يدور فى رأسى ماذا فعل مع كل من عطية وعامر وجويلى .. لم أفكر كثيرا حيث كان البدوى أمامنا بعدة أمتار والبسمة تعلو شفتيه مرحبا بنا ولاقاه الجنديان بالأحضان ثم أقبل الرجل جهتى قائلاً: حضرة الضابط .. اتفضل معايا ومد يده يصافحنى بحفاوة ..تبادلنا المصافحة وأنا سعيد باش معه فقال: اركب الحمار .. أنا جايبه معايا لما "الدفعة" قالوا إنك معاهم وتعبان شوية .. كان هذا هو اللقب الذى يطلقه البدو على الجنود فهم لا يعرفون كلمة عسكرى أو جندى .. ساعدنى على ركوب الحمار ولكن بعد دقائق قليلة شعرت بألم فى مقعدتى وفخذاى حيث أثرت عملية الهبوط مرتين من فوق الجبل فى هذا اليوم وأثخنت جراحا كثيرة.

أشرت إليهم لمساعدتى على الترجل بينما امتطى الجندى فراج الحمار وركبه مسرعا فى اتجاه زملائه الذين بدأوا يظهرون لنا وخاصة أن البدوى أخبرنا بأن الدفعة يشربون من بئر المياه .. إذًا لقد عثرنا على المياه وسنرتوى بعد خمسة أيام من العطش والشمس الحارقة والليل البارد المؤلم ..وليكن ما يكون وسنكون مستعدين للقاء الله بعد ذلك ..كنا نسير إليهم وأنا أعد الخطوات كأنها أميال طويلة.

نحن أمام بئر المياه .. إنه بئر عميق وله منزل مائل حتى يستطيع أن يصل إليه الإنسان وليس بئرا عمودية مثل ما نعتقد نحن فى مصر .. خوذه قديمه لا أعرف من أين عثروا عليها حيث كانوا يشربون ويمرحون ويغسلون وجوههم ورأسهم وأحدهم يضع الماء فوق ثيابه .. أحضروا لى خوذة ممتلئة لأشرب منها .. كانت مياها باردة مثلجة وبها طعم مياه الآبار التى تختلف عن مياه النيل لكنها مياه نقيه على كل حال .. ارتوينا جميعا شاكرين الرجل قبل أن نشكر الله مدركين أنه سيغفر لنا هذا الوزر وقد عم الظلام حيث طلب الرجل منا مرافقته إلى داره فوق الجبل قائلا: حتى أقدم لكم الطعام ، شكرته مكتفيين بهذا الإعجاز الذى تحقق .نظر إلينا قائلا: منذ كم يوما لم تتناولوا طعاما فتحدث فراج قائلاً: "يا بوى ستة أيام من غير وكل وخمسة أيام من غير شرب" يتحدث فراج بلهجته الصعيدية قال الرجل لابد أن تأكلوا معنا اليوم وبكرة نشوف حل لكم .. ثم قال : نحن سنسير على طريق على جرف الجبل وهذا الجرف لا يسع شخصين بل يسع شخصًا واحدًا فقط ولهذا كونوا حذرين لأن اختلال توازن أحدكم معناه السقوط من ارتفاع كبير .. أرجوكم أن تكونوا بالجانب الأيسر للجبل .. تبعنا الرجل سائرين خلفه وأمامنا مشكلة الصعود الجبل ليلا بطريق غير معلوم لم نعهده من قبل ، كان شيئا خطيراً·وقد عاودنا الرعب والخوف ثانية.

ليلة بكل أيام عمرنـا

استمر صعود الجبل والسير فى هذا الممر اللعين قرابة الساعة إلا ربعا أنهكنا خلالها الألم والعرق والخوف .. كنا نشعر ونحن نرتقى صاعدين بالهواء يلفح أجسادنا من الجهة اليمنى أما من الجهة اليسرى فمازالت حرارة الجبل تلسعنا بحرارتها التى اكتسبتها من أشعة الشمس وكان طبيعيا أن نستند بأيدينا على جسم الجبل مائلين عليه وقد اكتشفنا بعد ذلك الجروح والشُرط المدممة التى أصابتنا فى تلك الليلة.

توقف الرجل قائلاً : خلاص وصلنا ومافيش خوف من السقوط الحمد لله كنت متخوفا عليكم من هذا الصعود ولكننى لا أستطيع ترككم فى تلك المنطقة التى تملؤها الذئاب والأفاعى ليلاً .. أنتم هنا فى أمان خذوا راحتكم هنا وسأتغيب عنكم عشر دقائق وأحضر لكم ما تيسر من الطعام واعذرونى إذا كان قليلا أو رديئا لأننا مهاجرون من مكاننا بُعدا عن الحرب.

اختفى فى ظلام الليل الدامس وكنا نشعر بالسعادة والأمان بعض الوقت وخائفين وقتا آخر ولكن الذى كان يؤنس وحدتنا أننا وصلنا إلى منطقة بها بشر وبها بدو ولم يكن لنا خبرة فى التعامل معهم من قبل. أصابتنا حالة من الإسهال

حيث اندفعت المياه فى أجسادنا تجرى من الفم حتى خرجت من الجهة الأخرى فالمعدة فارغة والأمعاء خاوية .. استراحت أجسادنا أكثر فالمياه قد غسلت أى شائبة فى أمعائنا خاصة هذا المسكين عامر الذى تناول البول فقد استطاع عند البئر ان ينظف أسنانه وفمه من البول ومن الرمال العالقة بفمه .. بعد قليل بدأت تظهر بُقع دماء فى وجهى وأجنابى وأيضا الجندى عطية من آثار مناقير الغربان.. كنا أشبه بمرضى الحصبة ولكن الدم كان بديلا عن البقع الحمراء.

ظهر ضوء خافت من خلف الصخور التى كنا نجلس خلالها حيث اختار الرجل مكانا تحيط به بعض الصخور ومن خلالها يمكن المرور .. كنا جلوسًا فى ظلمة الليل الحالك وقد تعودنا على هذا قرابة الأسبوع .. جاء حاملاً لمبة كيروسين صغيرة نسبيا" لمبة جاز نمرة خمسة" مقدما اعتذاره بأن الضوء الخافت أفضل منعا لمشاهدة طائرات العدو التى تظل طوال الليل سابحة فى السماء ثم تركنا وعاد مسرعاً حاملا طبقا من الألمنيوم ولم أصدق أنا ولا الجنود الخمسة ما شاهدناه .. طبق بيض مقلى بالزبد وخبزا طازجا مثل الخبز الفلاحى وساخن وقطعة جبن وعدد من حبات الطماطم والخيار الطازج .. نظر بعضنا إلى بعض والرجل يضع أمامنا كل هذا الطعام ثم أخرج من جيبه راديو صغير الحجم وأداره بصوت منخفض لتنساب بعض أغانى حلوة رطبة واستأذن فى العودة لإحضار الشاى ..

كنا فى أشد حالات الجوع وطبق الطعام شهى ورائحته التى تسيل لعاب الشبعان فما بال الجوعان وجميعنا ينظر إلى الطعام فى شك وريبة .. فنحن لم نعتد مثل هذا الترف وتساءل أحدنا: هل هذا معقول ويجيب آخر موضحا .. أنا خايف يا فندم يكون الراجل ده ناوى يسمنا .. أنا فاكر كان بيقولوا لنا فى البلد إن أمنا الغولة كانت عايزة تعمل كده فى الشاطر حسن .. نبهتهم إلى أن تلك الخرافات لا داعى لها الآن ونحن جوعى خاصة بعد شرب الماء شعرنا بالمطلب الثالث بعد الهواء والماء .. فأصبح الطعام .. أخبرتهم إننى سأتناول الطعام .. ستة من الأيادى امتدت إلى الطبق وكنا نسمع أصوات مضغ الخيار والطماطم بين الضحكات والانبساط الذى داعبنا بعد خمسة أيام أو بعد ما لا يقل عن "مائة وعشرين ساعة" بدون ماء.

جاء الرجل بعد أن التهمنا الطعام وأنهينا عليه بالكامل فنظر إلينا سعيداً مقدما اعتذاره لقلة الطعام ونحن نشكره بكل ما نستطيع من كلمات الثناء وحتى كتابة تلك السطور أدعو له بالعيش الهنيء إذا كان على قيد الحياة أو أن يدخله الله جنته لما قام به معنا نحن الستة من مجهود لا يمكن أن ينسى .. كان ممسكا ببراد شاى سوقى .. أى عبارة عن كوز من الصاج وحوله سلك مبروم ليصبح مثل الكنكة وأشعل بعض العفش الجبلى ووضع الشاى والسكر مع الماء وانتظر إلى أن يتم سواء الشاى والذى بدأت رائحته فى الظهور والتى غزت أنفاسنا برائحته ونحن مثل صاحب المكيفات والذى حُرم من هذا لأكثر من ثمانية أيام منذ بداية الحرب فنحن الآن فى يوم الثانى عشر من شهر يونيو.

وزع علينا الشاى وأخبرنا بقصة تنحى الرئيس عبدالناصر وحزنا كثيرا لهذا لأن هذا معناه أن البلد هزمت ولم نكن نعرف حتى الآن أننا هزمنا ولكن القوات الموجودة بجوارنا هى التى أصابتها الهزيمة حيث كان شعورنا قويًا بالنصر .. أما ثقتنا بزعيمنا جمال عبدالناصر فلم تشبها أية شائبة إنه الزعيم العظيم وطوال تلك الرحلة الشاقة التى تكبدناها لم نتأثر أو يقل شعورنا وثقتنا به كما أن البدو كانوا يشعرون بأنه الزعيم المخلص المحبب لهم جميعا. لم يكن هناك اتحاد اشتراكى ليدفعهم أو يدفعنا لهذا الشعور كما عرفنا بعد هذا بسنوات أن الاتحاد الاشتراكى هو الذى دفع بالجماهير لتفتعل تلك المظاهرة أو التمثيلية وأقولها بكل إخلاص وصراحة أننا كنا جنودا وبدوا نحُب هذا الرجل ومهما كان من أخطاء حدثت فقد كان مخلصا لمصر ونحن الذين عانينا من أثر تلك الهزيمة ولم يعانها الشعب مثلنا رغم أنه تكبد خسائر وُحزنا ولكنه لم يقتل ولم يصب ولم يلعق جراحه وتدمى آدميته مثلنا ومثل بدو سيناء ولكن الناس تنسى وتريد من المحبوب أن يكون مكروها وقد أثبتت الأيام أنه رجل مخلص بعد أن شاهدنا ماذا فعل اللاحقون به بعد أن ورى الثرى وأصبح بجوار ربه.

أسعدنا حديث البدوى بأن الزعيم عاد ليتقلد أمور الدولة ثانية فهو القادر دون غيره على إصلاح ما أفسده مساعدوه وحتى لو كان مشاركا فيما حدث باختياره لهؤلاء المفسدين الانهزاميين الذين أساءوا لمصر وجيشها .. لقد عدد

هذا البدوى مآثر الزعيم الذى كان يرعاهم فى تلك الصحراء القاتلة بمدهم بالمساعدات التموينية من أرز ودقيق وسكر وشاى وبن وأطباء وعلاجهم وزودهم بالأدوية وحفر آبار مياه وكل هذا بدون أن يتكلفوا أى مبالغ .. إنه يعلم أنهم من أبناء الوطن وأنهم فقراء والصحراء قاسية عليهم فكان عونا لهم مثل ما كان عونا للفقراء المصريين محاولاً إسعادهم وحمايتهم من غول الأغنياء وقسوتهم.

غادرنا البدوى لنحصل على راحتنا كما أحضر لنا بطانية من عنده لنتقى بها برد الليل .. أى والله فالرجل لم يكتف بكل ما فعله معنا بل زاد عليها بتلك البطانية والتى أدفأتنا رغم عدم كفايتها ولكن المكان الذى اختاره وقانا برودة الأيام والليالى السابقة ونمنا لأول مرة ونحن سعداء وقد ارتوينا وشبعنا وشربنا الشاى ونلنا غطاء يقينا من البرد والأهم أننا قريبون من بشر سيمدون يد العون والمساعدة لنا بعد أن ضنت الأيام والليالى السابقة برحمتها علينا بل زاد من طيبة وخلق هذا الرجل بأن أخبرناه بقصة العدد الذى تخلف فى المنطقة التى حضرنا منها فأخبرنا أنه سيطلب عون رجال القبيلة للبحث عنهم وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

كانت ليلة بكل ليالى عمرنا السابقة واللاحقة فلم نتعرض قبل هذا لتلك المأساة ولا أعتقد أننا سنتعرض لمثل هذا الاختبار الإنسانى المؤلم علينا جميعا .. كنا فى حالة من الإرهاق الجسدى الشديد فقد تفككت عظامنا بعد أن شربنا الماء ونلنا طعامنا بدأنا نشعر بآلام مما قاسيناه وخاصة نقرات مناقير الغربان حيث رشح الدماء انقلب إلى نزف بعد أن سالت الدماء بفعل تناولنا مياها وأصبحت دماؤنا عادية وليست لزجة مثل سابق عهدنا وكل هذا لم يطغ على ما نحن فيه من فرحة وبهجة بعد أن كدنا أن نهلك فى تلك الظروف الصعبة .. داعب النوم الأجفان ونمنا حتى أيقظتنا أشعة شمس اليوم التالى ، لقد كان صباحًا غير أى صباح سابق ، صباح لأحياء وليس لأشباه أموات نتحدث ونتكلم وبدأت عيوننا تتفتح بعد أن أصبحت ضيقة وغير ظاهرة كامنة بالداخل كما أن بروز عظامنا قل نسبيا وشفاهنا بدأت فى الالتئام من كثرة ما أصابها من تشققات أما وجوهنا فهى مازالت محترقة من أشعة الشمس كما أننا نستطيع أن

نقف ونتحرك بسهولة أكثر من سابق عهدنا دون ترنح واضح ..لقد اقتربنا من عالم الأحياء وابتعدنا عن عالم الأموات والذى كانت علاماته واضحة فيما شهدناه من شهداء أو موتى من أثر الهجوم على سيارة الإسعاف.. والشىء العجيب والمدهش والذى لا أزال فى حيرة من أمرى حياله هو كيف لإنسان أن يسارع فى تناول سائل دون أن يدرى محتواه فقد يكون ضارا وقد يكون قاتلا مثل الذين تناولوا المطهرات القاتلة من صبغة اليود وغيرها. بل إنى أجزم بأن هؤلاء مُحقون فيما فعلوا فالعطش شىء لا يستطيع أحد وصفه لدرجة إننى لو شاهدت مياه الصرف الصحى وقتها لشربت منها.. آه من ويلات الحرب وآه على هؤلاء المساكين.

حضر الرجل الكريم يلقى علينا بتحية الصباح وهو باش الوجه والابتسامة تعلو شفتيه ولا أعلم سببا لذلك غير شعوره بأن الله قد ساعده فى إنقاذ الأرواح الستة الذى يلقى بتحيته عليهم وقد تحدث معنا معلنا أسفه لأنهم لم يستطيعوا إنقاذ زملائنا فقد وصلوا إليهم فى تلك البقعة المهجورة وعثروا عليهم بعد أن فارقوا الحياة إلا واحدا فقط وأثناء إحضاره صعدت روحه هو الآخر كأنما كان رافضا أن يعود للحياة دون زملائه الذين قاسوا معه.

أزعجنا هذا الخبر لكن أصابنا شعور بالراحة فى نفس الوقت ، لقد تخلصوا من عذاب الأيام الخمسة التى لاقيناها سواء بالموت أو بالحياة لكن تلك الحياة التى يغلب عليها الموت أو أنك تنتظر الموت كل ساعة فهى مؤلمة جدا .. عاد الرجل الكريم وأحضر لنا طعام الإفطار المكون من فتة باللبن وقطعة جبن وخبز ، تناولنا طعامنا بهدوء حيث إننا لم نتعود على طعام وشراب كل فترة قصيرة كما أن وليمة الليل أشبعتنا وأعطتنا جرعة من الراحة الجسدية والنفسية لا مثيل لها وانعكس هذا علينا بقضاء ليلتنا فى نوم هادئ واستيقظنا بنشاط وحيوية.

انتهينا من طعامنا وشرابنا مع شرب الشاى وتحدث الرجل معنا مُبديا عذره بأنه لن يستطيع مصاحبتنا حيث إن عائلته معه وهو لا يستطيع تركهم فى تلك المنطقة الغريبة لفترة طويلة وخاصة فى ظروف الحرب وانسحاب الجيش وما يصاحب هذا من أحداث مؤسفة وقتل واغتصاب ولهذا فهو يخشى على أهله وأنه

كان يتمنى أن يقدم لنا عونا أكثر من هذا .. شكرناه وطلبنا منه أن يوضح لنا طبيعة المنطقة التى نحن بها ، قام بشرح واف لتلك المنطقة حيث أخبرنا أننا فى منطقة تسمى جبل المغارة وهذا الجبل من منطقة وسط سيناء وهو جبل ضخم المساحة ويعيش المئات من البدو بداخله حيث تتسع قمتاه لعدة كيلومترات كما تنتشر به آبار المياه العذبة والتى أنشأتها الحكومة المصرية كما يوجد به منجم فحم جبل المغارة وقد أنشىء حديثا وتكثر به التجارة بين أبناء تلك المنطقة ولهذا فستجدون حياة وحركة وعونا ولكن أبعد من هذه المسافة لا أعلم لأن معلوماتى ضئيلة ولكن الأهم هو أسلوب التعامل مع البدو فقد حدث من عدة أيام مشاكل بين بعض البدو "والدفعة" وكادت أن تؤدى إلى اشتباك مسلح ولكن شيوخ القبائل تدخلوا لحل تلك المشاكل وكان السبب الرئيسى فيها هو عدم احترام "الدفعة" لعادات البدو سواء بالسخرية من نسائنا أو مغازلتهن.

كنا نستمع له ونحن فى دهشة بأن زملاء لنا سبقونا إلى هذا المكان منذ عدة أيام وحمدنا الله أننا لم نؤخذ بذنبهم وخطئهم .. أكمل الرجل الكريم حديثه بأنه فى حالة الاحتياج إلى العون فعليكم التوجه إلى مجلس الرجال حيث سيساعدكم البدو بما يملكون مع عدم إثارتهم أو محاولة مضايقتهم وإذا تقابلتم مع نساء وأردتم عونا فيجب أن يكون حديثكم معهم كالتالى"صباح الخير أو السلام عليكم يا مستورة .. وين مجعد الرجال؟" ستعرفكم بمكان تجمع الرجال وقد لا تجد الرجل موجوداً فأمامكم حلان عدم محادثتهن أو أن أحدكم يتوجه إليهن يحادثهن بذوق وأدب مبتعداً عنهن ويعرض مشكلته فإذا استطعن مساعدتكم فلن يتأخرن عليكم أو يعتذرن .

شكرناه على تلك الوصايا وهى وصايا قيمة حيث إن أسلوب الحوار هو الذى يأتى بنتيجة المعاملة وقد زودنا بزجاجة مياه مملوءة وترك لنا البطانية لتساعدنا على مواجهة برد الصحراء ليلاً ، طلبت أن أتعرف عليه .. أى أعرف اسمه ولكنه اعتذر ودهشت لهذا فالرجل قام بواجب إنسانى معنا دون أن ينتظر شيئا بل قام به طواعية وهو الذى جاء لى بحماره حتى أمتطيه بعد أن علم من جنودى بأننى مصاب ولا أستطيع السير فسار ما يقارب الثمانمائة متر قدوما ثم مثلهم عودة

وتحمل مشاق استضافتنا بل مشاق أن يذهب برجال قبيلته ليلا ليبحث عن زملائنا .. سألته : لماذا ترفض أن تعطينى اسمك؟ .. صمت قليلا ثم قال إننى أخشى أن تقعوا أسرى فى أيد اليهود وتعترفون علينا وهم الذين يطلبون منا بمكبرات الصوت عدم مساعدتكم بل والإبلاغ عن أى ضباط يتعرفون عليهم ولهم مكافأة ولهذا فأنا لا أريد الوقوع فى شرهم وهم قوم فاسدون .. شكرته وقدرت موقفه ولكن الرجل جاء إلى هامسا قائلاً: عبدالله سويلم .. اسمى عبدالله سويلم من قبيلة .. لا أتذكر اسم القبيلة وكان الغرض من التعرف عليه هو محاولة شكره بإبلاغ المسئولين فى القيادة بما قام به معنا .. ودعنا بعد أن وجهنا إلى الوجهة السليمة.

سرنا فى داخل قمة جبل المغارة وقد عاد إلينا جزء من عافيتنا فقد جربنا حالة العطش والجوع وفهمنا إلى حد ما بعضا من دروب سيناء كما أننا كنا مزودين بمياه تكفينا يوما لو أحسن ترشيدها وكان هذا قرارنا بأن نتعامل مع تلك المياه بأنها ليست متوافرة معنا ولا نقترب منها إلا بعد أن يضنينا العطش أو نعثر على بئر مياه.

حدث ما توقعه عبدالله سويلم حيث كانت كل لقاءاتنا مع البدو تبدأ بالنساء وقد علمنا شفرة التعامل معهن وهذا الأسلوب فتح قلوبهن للإجابة والنصيحة .. سألنا إحداهن عن مكان لبئر به ماء فوجهتنا الفتاة إلى مكان البئر وارتوينا من الماء البارد وغيرنا الماء الذى أثرت فيه حرارة الشمس .. هناك بجوار البئر شاهدنا بدويا منظره وشكله يثير الخوف والريبة ، سألنا عما نحتاجه فتطوع الجويلى موضحا له بأننا لا نعرف دروب الصحراء وكل ما نبغيه هو الوصول الى قناة السويس .. همهم الرجل قليلا ثم تحدث قائلا: أمهلونى بعضا من الوقت حتى انتهى من ملء أوعيتى بالماء ، كانت أوعية كثيرة يضعها على جمله المجاور له .. جلسنا بعيداً حتى ينتهى من عمله وذلك لإفساح المكان للبدويات اللائى يحضرن لملء أوعيتهن .. كان الرجل يراقبنا من حين لآخر وقد أوجسنا خيفة من تلك النظرات خصوصا ما قاله لنا عبدالله سويلم منذ ساعات بأن اليهود يرغبون فى أسر الضباط وخصوصا القادة الكبار.. مازال يراقبنا ونحن نراقبه وحدث

توتر من على بُعد بيننا وبينه وعدم راحة نفسية حتى انتهى من عمله فجاء إلينا يسير الهوينا متسائلاً عن المكان الذى نريد الوصول إليه ..سألته وما الفارق بين مكان وآخر.. وضع شيئا فى فمه تحت لسانه وعلمنا فيما بعد أنها قطعة أفيون وبعد أن مصمص شفتيه قال : إن كل مسافة ومنطقة بحساب أى أن كل منطقة لها أجر .. سأله مصطفى .. أتنوى أخذ أجر منا لمساعدتنا فيما نريد؟ .. نظر الرجل إليه نظرة الصقر إلى فريسته "مكملاً حديثه" كل حاجه عندى بالمصارى "وعلمنا بعد ذلك ان كلمة المصارى هى النقود وذلك بلغة العرب فى الشام والجزيرة العربية" تركنا لحالنا وعاد قريبا من البئر جالسا تحت ظلال شجرة توت .. أى والله فوق الجبل وشجرة توت خضراء يانعة وبجوارها بئر المياه والبدو ذهابا وإيابا قادمون لهذا المكان من أجل المياه.

دار حوار بيننا وبين هذا الرجل بالنظر ، فهو يريد منا مالاً ونحن نريد منه عوناً يساعدنا على ما نحن فيه وأن نعود لوطننا وبلادنا .. بعد قليل جاء رجل آخر يجالس هذا البدوى بجوار البئر وتحدثا وهما يدخنان ثم نظرا إلينا وقد أصبحنا كالعبيد فى السوق ننتظر من سيأتى ويتعطف علينا لشرائنا واستمرار عبوديتنا .. شعرت أن هؤلاء القوم ليس لديهم الصراحة أو الجدية فقلت لجنودى لماذا نقف أمام هذا الشخص ننتظر منه العون ، أقترح أن نكمل سيرنا وسنقابل من هو أحسن منه حالا فلقد تعدينا مرحلة الخطر وها نحن من حولنا الناس والماء والزرع والحيوانات فلا داعى للخوف أو الاندفاع نحوه حتى لا يبيع ويشترى فينا خاصة أننا لا نملك مالا .. لم يعارض أحد منهم الاقتراح وتركنا المكان سائرين إلى أى جهة المهم أن نبتعد عن تلك المنطقة حيث انتصف النهار والشمس عمودية وهذا الشخص جالس دون أى اهتمام بنا والرجل لم يتركنا لحالنا ولم يخبرنا بما استقر عليه ذهنه فى كيفية المساعدة وما ثمنها ومن أجل هذا تحركنا ولأى جهة.

لحق بنا الرجل الجالس معه وعرفنا بنفسه ، مسئول عن آبار المياه فى المنطقة حيث إنه يتبع شركة تعمير الصحارى التى تنشئ آبار المياه ، تطرق فى الحديث إلى ماهو المطلوب من فلان .. وذكر اسمه "مسعد" فأوضحت له إننا نطلب

مساعدته فى الوصول إلى قناة السويس وهو لم يعطنا جوابا شافيا .. صمت قليلا ثم قال: إن المشوار من هنا إلى قناة السويس طويل وملىء بالمخاطر وقد حدثنى فى هذا الأمر حيث إنه يرغب فى مساعدتكم وتوصيلكم إلى أقرب منطقة أمان من القناة بعيداً عن أعين اليهود الذين يقومون الآن بقتل كل الذين تقع أعينهم عليه حيث اكتفوا بالأعداد الهائلة من الأسرى ولم تعد طاقتهم تتحمل عدداً أكثر كما أنهم يقولون فى إذاعتهم إنهم بعد أن انتصروا وهزموا الجيش المصرى واستولوا على كل سلاحه فخطتهم الآن القضاء عليه وخاصة القيادات والضباط محللين ذلك بأن مصر يمكنها استعواض سلاحها فى ظرف عام ولكن إعداد قادة يحتاج أعواما بل عقوداً وهذا هو ما يريدون العمل عليه فى الفترة القادمة.

إذاً فلا أسرى الآن إما أن تنجو بنفسك أو تكون من الهالكين .. حضر البدوى أثناء النقاش مع الشخص المسئول عن آبار المياه وأوضح أنه مستعد لأن يساعدنا فى المرور بمنطقة آمان يصل طولها أكثر من خمسين كيلومتراً وبعد تلك المنطقة لا خطورة من اليهود كما تتوافر المياه والناس موجودة بكثافة ومن أجل هذا أريد مبلغ مائة جنيه منكم جميعا .. نظرنا إلى بعضنا البعض فهذا المبلغ كبير جدا حيث يحصل الجندى على أقل من ثلاثة جنيهات شهريا كما أننا لم نتسلم مرتبات هذا الشهر وكل ما معنا عدة قروش .. اعتذرت بأن هذا المبلغ كبير ونحن غير مستعدين لدفعه حاليا فإذا أراد مساعدتنا لوجه الله نكون شاكرين .. رفض طلبنا قائلا : إنه لا يريد مساعدتنا من الأصل وإنه إذا أراد أن يساعد أحدا لوجه الله فهم اليهود وليس المصريين وأشاح بيده جهتنا مما دفع الجندى فراج إلى سحب أجزاء سلاحه وهذا معناه إنه سيطلق عليه النيران ويقتله ويضيف أعداء جدداً لنا حيث سيبحث عنا البدو ويخبرون اليهود الذين نشروا جواسيسهم فى كل مكان.

نهرت الجندى طالبا منه إعادة الأجزاء وتأمين سلاحه ثم وجهت كلامى للبدوى ومن معه .. شكراً ومع السلامة ، اصطحبت جنودى سائراً فى اتجاه آخر.. كان لتصرف الجندى فراج أثر فعال لخوف هذا الأعرابى من مجموعتنا

وقد تحدث مع عامل الصيانة وأخبره أن تلك المجموعة يتنازعها الإجرام وأنه من الممكن تتبعه وقتله فى الطريق إلى منزله أو الهجوم على أسرته وقتلهم جميعا مع إمكانية الإبلاغ عنك وعنى شخصيا لما قلته فى حق اليهود ضد المصريين وهذه خيانة والحكومة فى مصر مثل الجريح الذى يضرب هنا وهناك ..احترس يا أخ العرب.

اضطرب البدوى وجاء فى أثرنا مهرولا قائلا : لا تؤاخذونى على ما قلت لقد كنت أمزح معكم ولكننى مستعد لأن أساعدكم ولكن حاولوا مساعدتى أنا الآخر فانا أعول عائلة كبيرة من زوجتى وخمسة من الأبناء بالإضافة الى والدى وأخى الأصغر "على" .. أجبته نحن لا نرفض إعطاءك مقابلاً لكن المشكلة أننا لم نتسلم مرتباتنا .. هز رأسه قائلاً: أعلم هذا لقد قصف القطار ومات بعض الضباط المسئولين عن المرتبات وقامت بعض عصابات من البدو بنهب تلك الأموال .. أعلم ما حدث.

تدخل الجويلى فى الحديث وسأل الرجل أيمكنك أن تأخذ شيكا .. أسعده هذا وأنه سوف يحصل على مبلغ يسعده ويتمناه ، نظرنا جميعا إلى جويلى والذى أخرج حافظة نقوده وأخرج منها شيكا بمبلغ يزيد عن أربعمائة جنيه وصادر من وزارة الحربية ، كان المبلغ كبيرا مما دفع الرجل إلى السرور والابتسام بأنه شيك مضمون وكبير القيمة وصادر من الحكومة ، غادرنا لينهى ملء أوعيته.

واجه جويلى أسئلة كثيرة منا عن الشيك حيث أخبرنى بأنه من مستحقاته باليمن وأن موعد صرفه حدد بعد عام أى حرر الشيك فى بداية يوليو عام ١٩٦٦ والصرف فى بداية يونيو عام ١٩٦٧ وليس له نهاية صلاحية ، قدمنا الشكر إليه ولكنه قال إن أرواحنا أهم من هذا الشيك رغم أنه كان ينوى أن يستغل عائده فى بناء بيت صغير له ولزوجته وطفليه.

اقترحت عليهم بأن نبلغ السلطات فى مصر بفقد هذا الشيك ولهذا يجب علينا أن نكتب رقم الشيك "المسلسل" .. أيدنى الجميع وأنه من غير المنطقى ولا المعقول أن ندفع ثمنا غاليا لهذا البدوى نظير مساعدة إنسانية لبعض الأفراد من

جيش البلد ، وللتغلب على عدم وجود قلم وورقة اقترحت عليهم أن نقف بالأقدمية وكل واحد منا يحفظ الرقم بالترتيب , فلو فرض أن رقم الشيك هو "623712" فأصبح الرقم الخاص بى هو رقم ٦ ثم التالى كان فراج فأصبح رقمه ٢ وهكذا وقد أعجبت تلك الفكرة زملائى الجنود.

بعد قليل حضر الرجل المسئول الفنى عن آبار منطقة جبل المغارة ناقما على الأعرابى حزينا على حالنا بأن ندفع له بهذا المبلغ الكبير ولولا أنه مسئول عن الآبار لتركها عدة أيام وقام بمرافقتنا إلى القناة دون مليم متسائلا " إيه اللى جرى يا عالم دا إحنا مسلمين" اندفع الجويلى وأخبره بأن حضرة الضابط قرر أن نخدع الرجل وقص عليه ما اتفقنا عليه وكل منا يحاول إيقاف الجويلى عن استمراره فى السرد دون جدوى ، أظهر الرجل تقديره وسعادته لهذا الاقتراح ، غادرنا إلى البئر ، بعد قليل جاء البدوى معتذرا عن عدم تنفيذ الاتفاق لأن الشيك قد يضعه فى موقف حرج بأنه سطا عليه من صاحبه ويحول إلى المحكمة العسكرية ، حاول الجويلى معه ولكن الرجل قال من أجل خاطركم ح أخد ساعات يدكم جميعا .. حاولت معه الفصال حتى ولو بقاء ساعة واحدة ولكنه رفض ، رضخت لرغبته بناء على موافقة جنودى الذين وافقوا على التفريط فى ساعات يدهم وهى الأحدث من ساعة يدى والتى أحضروها من اليمن قبل وصولهم الى مصر فى العام الماضى.

أنهى الرجل ملء أوعية المياه وتحرك معنا ونحن فى أشد حالات السعادة لأننا عثرنا على دليل سيرافقنا إلى بر الأمان ويبعدنا عما واجهناه من صعوبات الطريق .. كان الرجل يتحدث فى كل الأمور حيث إنه من النوع الذى يقولون عنه أن لسانه "فلتان" وكان قبيح الألفاظ ولا يستحى ان يسب البعض ممن يعرفهم بألفاظ نابية كما كان يتباهى بأنه من معاونى تجار المخدرات فى سيناء وأنه يستأجر فى بعض الحالات لقتل الآخرين .. فى البداية كنت أصدقه ثم تطور إلى الازدراء ثم تطور الأمر إلى أن الرجل يريد أن يدخل إلى قلوبنا الخوف منه بعد ردة فعل فراج عليه بالسلاح .. وقد دفعنى هذا إلى التشدد معه بعد أن كنت

أهادنه أولا .. جنودى يسمعون وينظرون إلى ثم فى النهاية آخبرتهم بإشارة منى بأنه "رجل مكار والعوبان" وغير واضح ويجب أن نحترس منه.

المنطقة أعلى جبل المغارة لم أشاهدها من قبل وكما سبق وذكرت بأننى كنت أعتقد بأن الجبال مرتفعات ثم من الجهة الأخرى هبوطا مثل الحوائط فى العمارات ولكن بطريقة متدرجة ولكن ما شاهدته فى سيناء أن الجبال شاهقة الارتفاع ضخمة فى مساحتها قاتمة الألوان وخاصة بين البنى الغامق والأحمر بدرجاته والأسود كما أن بها أماكن يكثر بها الألوان التى تستخدم فى الصبغة والدهانات حيث نشاهد ألوانًا زرقاء أو ألوان بنية أو خضراء وغيرها من الألوان .. أما منطقة جبل"المغارة" فكانت مساحتها ضخمة ولا أعرف مدى المساحة ولكننى أعتقد أنها لا تقل عن عشرين إلى ثلاثين كيلومترا مربعاً وهى المسافة التى سرناها برفقة هذا البدوى .. وهناك عائلات تسكن وتعيش فوق الجبل ومساحات مسطحة وبعض المزروعات مع الرعى وخاصة الأغنام والماعز.

بعد مسيرة ساعتين مع هذا الرجل توقف فى نقطة قائلا: يا دفعة .. من هذا المكان حتى الجهة الثانية من الطريق المرصوف أنا غير مسئول عنكم .. عايز تاخدوا بالكم إننا قريبون من المنجم واليهود موجودون بالداخل يسرقون كل معداته وينقلونها منذ عدة أيام ولأجل هذا إذا شاهدوكم معى سيقتلوننى ولذا أريد منكم الاحتراس حتى تشاهدوا الطريق المرصوف وبأقصى سرعة من قبل الطريق حتى انتهائه من الناحية الأخرى تنتظروننى وأنا هنا جالس أشاهدكم وأدعو الله لكم بالسلامة.

امتحان آخر فى سلسلة متاعبنا .. سرنا باحتراس وبالطبع أنا فى المقدمة وجنودى خلفى بمئات الخطوات حتى إذا حدث مكروه يكون من نصيبى كان هذا فكرهم منذ بداية الانسحاب كما أنه إذا قبض علىّ اليهود فأصبح أنا الضابط وهم ليس لهم علاقة بى وهكذا دفعت الظروف التى نمر بها إلى تصرفات غير عادية .. لم نشاهد اليهود بعد ولكننا كنا نسير فى حذر.. وقد شعرنا أننا اقتربنا منهم حيث سمعنا أصوات عربيات مجنزرة وجاء طفل يجرى جهتنا يخبرنا بأن نحترس لأن اليهود موجودون على الطريق ومسلحون .. واصلنا سيرنا حتى

كشفنا الطريق الأسفلت من بداية باب المنجم حتى الجهة المعاكسة لمسافة بعيدة دون ملاحظة أى شىء بالطريق.

أشرت إلى جنودى باتباعى وأنه فى حالة إطلاق الرصاص فلابد من الاحتماء بالأرض وعدم تكملة الجرى لأن هذا معناه هلاكنا جميعا وطلبت منهم السرعة وعدم التوقف حتى نصل إلى منطقة نحتمى بها وأن نحافظ على سلاحنا حتى لا يسقط منا أثناء الجرى بوضعه متقاطعًا على ظهورنا ..وقفنا جميعا على خط واحد وقلوبنا تدق وتضرب ضربات مرتفعة الصوت .. ها نحن نعلم أن أعداءنا قريبون منا وسنحاول المرور من خلالهم فى وضح النهار.. أشرت بيدى وأسرعت الخطى وأنا لا أشاهد أحدا من جنودى بجوارى لكنى وضعت هدفا أمامى أعدو فى اتجاهه حتى لا أضل طريقى أو أتعرج أثناء الجرى .. كنت أشعر أننى أجرى بسرعة كبيرة وخاصة أن أحدا من الجنود لم يصل إلى قربى أثناء العدو .. وقد اعتقدت أنهم جبنوا او أنهم انتظروا حتى أصل ويطمئنوا على أنفسهم ولكن كل تلك الاعتقادات كانت خاطئة حيث إنهم يجدون فى أثرى ويطيرون من على الأرض كأنهم طيور كما قال لنا البدوى بعد ذلك.

قبل الوصول إلى الطريق المرصوف وهو مكمن الخطر توجد بطريق عدونا مقابر وتلك المقابر قريبة من الأرض وغير مُعدة بالطوب مثل الموجودة بمصر والمدن الكبرى ولكن أثناء العدو لاحظت تلك المقابر فجأة فكنت أحاول القفز من فوقها ولكنى لم أستطع الالتفاف من حولها لأن لى هدفا أعدو فى اتجاهه وكان من سوء حظ الجندى جويلى الذى كان يجد فى أثرى أن ارتطمت قدماه بمقبرة فدفع بكل ما فيها خارجها من شدة ضربات أقدامه والسرعة التى يعدو بها وكل ما شعرت به أننى شاهدت عظاما تتطاير قريبة منى وجمجمة بشرية تتدحرج أمامى وكاد هذا أن يتسبب فى سقوطى بتلك السرعة وأنا أعبر الأسفلت وبعد عدة أمتار شعرت وأنا أهوى من ارتفاع وأسقط مثل أى شىء يسقط من ارتفاع وخلفى جنودى تباعا يتساقطون حتى اكتمل عددنا ونظرنا إلى مكاننا فوجدنا أننا نقع أسفل سطح الطريق بمسافة لا تقل عن عشرة أمتار " ارتفاع ثلاثة أدوار" ولم يدر بخلدنا أن خلف هذا الطريق جرفا منخفضا بتلك الطريقة وحمدنا الله أنه

كان من الرمال فلو كان صخريا لهلكنا جميعا .. أسفل هذا الجرف شاهدنا شيئًا مثل الكهف وأثناء ذلك سمعنا أصوات المجنزرات وأعقبها سماع طلقات رشاش .. إذًا كُشف أمرنا وعلموا مخبأنا لذا فنحن من الهالكين فاضطربت أعصابنا، طلبت من الجنود أن نختبئ فى هذا الكهف لفترة .. اختبأنا بالكهف ولكن الجنود الإسرائيليين ترجلوا من عرباتهم المدرعة ووقفوا على حرف الجرف ينظرون لأسفل.

قال أحدهم: إننى أعتقد بأن الجبناء المصريين فروا بسرعة ولكن زميله أخبره بأنه لا يشاهدهم فى مسطح الأرض المفتوحة أمامهم وهذا يدل على أنهم مختبئون بأسفل تلك المنطقة ولهذا طلب من زميله أن يتوجهوا إلى عربتهم المدرعة لتفتيش المنطقة بحثا عن بعض الجبناء والتسلية بقتلهم. كان الاثنان يتحدثان اللغة العبرية التى كنت أجيدها وبصوت مرتفع .. ولهذا كان الخوف والاضطراب يعترينى ولم يكن الجنود أحسن حالا منى لأنهم يسمعون أشياء ويشاهدون تعبيرات وجهى وانفعالاتى ولكن من فضل الله أن زميلهم فى العربة المدرعة نادى عليهم طالبا منهم التوجه إلى القيادة بأقصى سرعة .. تمازح الجنديان كل مع الآخر ..

شاؤول ..لقد ضاعت منى فرصة التسلى بقتل أكبر عدد منهم .. إننى أحب الصيد

ديفيد ..فى إجازتنا بعد الحرب يمكننا التمتع بقتل بعض الضوارى المنتشرة هنا ..

شاؤول ..لا لا الضوارى أرقى من هؤلاء المصريين الأنجاس.. إن الكلاب والثعالب أحسن وأرقى منهم .. إننى أشكر الرب أن أتاح لى فرصة ذهبية لأقتل أكبر عدد منهم .. كنت أضحك وأنا أدير المدفع الرشاش ليحصدهم .. إنه خير عمل فعلناه لصالح البشرية كما يقول الحاخام أبراهام .. اقتلوا كل مسلم أو مسيحى تشاهدونه .. أى اقتلوا كل المصريين وبدون تحديد عمر أو جنس.

دار الحديث بين الجنديين " شاؤول وديفيد" وأثر ظلهما أمامنا من تأثير أشعة الشمس عليهما .. هذا هو عدونا ونحن قابعون فى تلك الحفرة المختفية وقلوبنا

تدق بين ضلوعنا كأنها أصوات مدفعية كنت أسمع أصوات قلوب المجاوزين لى مباشرة بالإضافة إلى ضربات قلبى بين ضلوعى ليس خوفا منهم ولكن خوفا من تمثيلهم بجثثنا مثل ما أخبرنا بعض البدو فى هذا اليوم .. إنهم ليسوا أعداء ولكنهم مجرمون حقيقيون .. إن الحيوانات المفترسة تمتنع عن مهاجمة أى فريسة بعد أن تشبع ولكن هؤلاء ليس لشبعهم حدود هكذا قال الله عنهم إنهم يقتلون النبيين بغير حق .. هم قتلة البشر أنبياء أو غير أنبياء .. إنهم مثل الافاعى والعقارب التى تهاجم للضرر وبدون سبب .. هؤلاء المجرمون والذين ذهبنا لقتالهم ولكنهم انتصروا علينا بدون حرب مثل ما ينتصر قزم على مصارع بعد أن هجم عليه أثناء نومه أو مرضه.

أعاد زميلهم الصراخ على مسامعهم ليلبوا نداء القائد بالتوجه إليه فوراً وكان هذا إنقاذا لنا من عند الله لأنهما لو وصلوا إلينا لفتحوا رشاشات العربة المدرعة وقتلونا فى الحال بين ضحكاتهم وسعادتهم .. اقشعر بدنى بالتحدث بالقتل لغرض القتل .. صحيح أن هذا عملنا ولكنه لمنع العدو من قتلك ولو أعلن استسلامه أو أصيب فيصبح هذا دليل على خروجه من المعركة ولكن قتله لمجرد التسلية فهذا ضد كل الأديان والأعراف .. كنت أنظر إلى جنودى وأشاهد آثار الفزع على وجوههم وليس هذا عليهم فقط بل على أيضا فهم المرآة العاكسة لى وما ينتابهم ينتابنى أنا الآخر فنحن بشر والحياة غالية وكما يقول الله عز وجل "كتب عليكم القتال وهو كره لكم" .. صدق الله العظيم .. ولكن هذا ليس انتقاصا من شجاعتنا ولكن الانتحار هو المرفوض.. ولقد كنا مستعدين لهم وقد جذب كل فرد فينا أجزاء سلاحه استعداداً لمعركة يائسة ولكنها مفروضة علينا وقتل أو إصابة فرد منهم أحسن عملاً بأن نتركهم يفعلون بنا كما يفعل الجزار بالأغنام.

تلاشت الظلال وبعدت الأصوات وخف هدير المحركات للعربات المدرعة وتنفسنا الصعداء وقمنا بتأمين السلاح حتى لا يصيبنا ونحن نسير ، طلبت من زملائى الجنود إذا أتى هذا الرجل الكريه وسألنا عن حالنا وماذا كنّا سنفعل مع اليهود فعلينا أن نخبره بأننا كنا ننتظرهم حيث سنقضى عليهم فور ظهورهم أمامنا .. كان هذا واضحا أمامى لأننى شعرت بأن هذا الرجل لابد أن يشعر بأننا

أقوياء وسوف نستخدم سلاحنا ضد أى معتد علينا سواء كان إسرائيليا أو مصريا حيث شعرت من أحاديثه بعدم الود وأن انهزامنا أمام أعدائنا أسعده أو على الأقل نظر إلينا بأننا ضعفاء مثل جيشنا .. كان لابد من أن نقاوم أى تعد أو خروج على حياتنا وكرامتنا خاصة من أهلنا فى سيناء فيجب أن يكونوا البلسم والسند ولا يجب أن يصبحوا جناحا داخليا لأعدائنا.

مر الوقت بطيئاً ثقيلاً ونحن نريد أن نغادر هذا المكان والذى اختبأنا فيه خاصة ان رائحته كانت نفاذة وبها الكثير من أوساخ وفضلات الناس الذين كانوا يستخدمونه كدورة مياه لهم .. فالروائح النفاذة والهوام من الحشرات ومنها الذباب الذى ينتشر فى الصحراء ومن أين لا أعلم ، قدحت ذهنى لا أعلم من أين يأتى هذا الذباب اللعين فى تلك المنطقة القاتلة المهلكة ، مجرد وصولنا لأى مكان نشاهده فى أثرنا .. كانت فكرة قدح الذهن هذه عالقة بذهنى وفكرى بعد أن استقبلنا الرجل الكريم أمس وأعاد إلينا بسمة الحياة والأمل الضائع فى النجاة بأرواحنا لأنه فى الأيام السابقة على ذلك كنا لا نستطيع التفكير وقد أصابنا ُعقم عقلى فريد وغريب ومفاجئ وكنت أشعر بأن شيئا داخليا فى رأسى من الداخل يلعب فى عقلى مثل أى إنسان يريد أن يهرش لتقرح أصاب جلده ، لكن هذا كان بالداخل وكان بعض الجنود يخبروننى بأن شيئا يقرص فى رأسهم من الداخل وكنت أضحك معهم وأقول وأنا كمان أشعر بأن عنكبوت أو نملة تقرص بداخل رأسى وبالتالى إذا فكرنا فى شئ نجده طار منا ولا نتذكر ما كنا نفكر فيه وإذا أردنا أن نعطى رأيا فى شئ نشعر بأننا لا نستطيع حتى استكمال المسير أو الوقوف حيث لم نستطع إبداء الرأى وكان هذا مبعث ألم لنا فكنا جميعا صامتين غافلين لا رأى ولا مشورة فأما التقليد مثل ما يفعل الباقون أو السكون والجلوس استسلاما للدغات الذباب الذى كان يفعل بنا كل شئ فتجده فى الأذن والأنف والفم وعلى يديك وكان شيئا عاديا أن تجد البعض منا فاتحا فمه والذباب يدخل ويخرج وكأنه وجد له عشا أما العيون التى قاربت على أن تقفل فكان يقوم بلسع العيون التى تؤلم والجندى لا يستطيع أن يفعل شيئا حتى مجرد أن يُهش تلك الحشرات ولا يستطيع أن يقاومها .. أما كرمشة الجلد الخارجى

وتورم الشفاه وحرق جلد الوجه والاصفرار العام للبشرة فكلها أمور لم نكن نراها شيئا غريبا حتى حالات الانهيار الجسدى لم نكن نشعر بأنها غريبة لأننا ننظر لبعضنا البعض وكأنما ننظر فى مرآة فترى مثل الذى نشاهده أمامنا وبعد كل هذا نرى الموت قادما إلينا ثانية بعد أن شعرنا بأننا هربنا من الموت المتعدد الأطراف والأعداء المختلف الجنسية والنوعية نراه أمامنا على بعد أمتار قليلة.

مضى علينا أكثر من ساعة ثم شاهدنا الأعرابى على أحد الأجناب يسير خلف جمله بعد أن يأسنا من حضوره وقررنا الانتظار إلى أن يأتى الليل ونكمل مشوارنا معتمدين على أنفسنا .. وقف الرجل يتلفت يمينه ويساره حتى شاهدنا وشاهدناه ثم أشار إلينا بالتوجه إليه ولهذا طلبت من أحد الجنود أن يذهب إليه حتى لا نفاجأ بكمين يقضى علينا ، رفض الجندى وأيده زملاؤه الذين أقنعونى بأن هذا عمل الضابط وليس الجنود وأننى قادر على التصرف وهم الجنود المساكين لا يعرفون ما يعرفه الضابط .. لم أغضب فهذا فعلهم معى منذ بدأ الانسحاب الاختباء ودفع الضابط ليكون كبش فداء أو يكون طوق النجاة .. تحركت بثقة واحتراس فى نفس الوقت سلاحى بجانبى فى جهة الأعرابى حتى يخشى أن يكون هناك أعداء فسوف يُقتل قبلى ولكن الرجل لم يهتم وهذا أعطانى انطباعا بأن كل الأمور على ما يرام .. وصلت إليه فابتسم ابتسامة الشيطان مع وجهه القبيح وقدم التهنئة لى أنا والدفعة على سرعتنا ونجاتنا من هذا الكمين الذى كاد ان يقضى علينا ، أشرت إلى جنودى فحضروا دفعة واحدة ولم يحترزوا مثل ما نبهت عليهم قبل ذلك ، فيهرعون سويا أو يختبؤن سويا وعلى كل حال هذه هى الحرب.

سرنا خلف الرجل فى رمال ناعمة تدفع بقدمك للأمام خطوة فتعود بك نصف خطوة وهكذا كان السير صعبا لم نتعود عليه فى مصر ، كانت مناطق غرود رملية أو رمال متحركة بفعل الهواء والرياح وهى ناعمة جدا وغير متماسكة ومن أصعب الأماكن سيراً فى الصحراء ، تحدث الرجل عما سيقدمه لنا من ألوان الطعام من ضمن اتفاقية توصيلنا إلى أقرب مكان آمن لقناة السويس وحصوله فى المقابل على ساعات اليد الست نظير قيامه بهذا العمل .

تؤذن الشمس بالمغيب عن ذلك اليوم الفريد سواء لأننا نعيش ونتكلم وبطوننا بها طعام منذ الصباح أو المياه التى معنا أو على حمولة الجمل الذى كان يحمل مياها كثيرة موضوعة فى عبوات بلاستيك وقِرب (جمع قربة) مصنوعة من جلود الماعز ، نسير خلفه ننفذ تعليماته ثم فاجأنا بنفس السؤال الذى توقعته .. هل أصابكم الخوف والرعب من الجنود اليهود وهم يقفون على رأس التل الذى قفزتم من فوقه .. لقد كنت مختبئا مع جملى وبعض البدو نتبعكم خوفا مما سيحدث لكم.

أجابه عامر سريع الاندفاع قائلاً: ربنا أنقذهم من أيدينا ..لقد أخذنا وضع الاستعداد وكنا ننوى قتلهم بمجرد ظهورهم أمامنا .. لكن حظهم كويس .. وقف الرجل ينظر إلينا بدهشة قائلاً: سلاحكم شغال .. بُيضرب بارود .. أجابه : تحب تشوف وأسرع بجذب الأجزاء فصرخ الرجل طالبا العفو وأن يتركه لعياله فأمسكت بيده ناهرا إياه أن يعود لمثل تلك الفعلة ثانية .. تأكد الرجل للمرة الثانية أن هؤلاء الرجال قتلة ومندفعون وأنهم فى أى لحظة سيفتحون نيرانهم على أى شخص يحاول مضايقتهم أو الاعتداء عليهم.

أراد أن يجذبنا إلى صفه بفتح خط من المهادنة والملاطفة قائلاً: بأنه مستعد لتوصيلنا إلى ما نريد دون الحصول على أى شىء .. أجبته بضيق وعنف بنبرة صوتى ..بلاش كل شوية تتكلم .. اتفقنا وخلاص.. أما إذا كنت لا ترغب فى .. قاطعنى قائلاً: بالله عليك يا شيخ ما تدور هذا الحديث .. أنا خدامكم من غير شىء .. وصلنا إلى منزله أو قصره الذى أسمعنا عنه الكثير طوال ساعتين أو أكثر وقد غربت الشمس ولم يتبق سوى بعض الضوء المتبقى بعد الغروب .. المنطقة رملية بها خيمة بدوية مشكلة الألوان من أصواف الإبل وبعض قطع قماش وأطفال صغار يلعبون ونصفهم السفلى عار وبعض الماعز والأغنام وجملان ورجل عجوز وصبى فى العاشرة من عمره .. أصاب الجميع الذعر بعد أن شاهدوا رب الأسرة وبصحبته بعض الجنود المصريين فهذا معناه الاعتداء عليهم ولكن الرجل طلب من زوجته أن تُعد طعاما لضيوفه وأن تحضره إلى "مجعد"الرجال..

توجهنا خلفه لنشاهد مجعد الرجال الذى كنا نسمع عنه ولم نره وكان فى اعتقادنا أنه مثل المنضرة فى ريف مصر المكونة من حجرة كبيرة وبها كنب بلدى وترابيزات وتفرش الأرض بسجاد أو حصير حسب قدرة كل شخص أما "مجعد" الرجل هذا فعبارة عن أربعة قوائم من جريد النخيل ومحاطة من أعلى بأربعة قوائم أفقية من الجريد ومغطاة ببعض الجريد وسعف النخل ولا تزيد مساحتها عن متر ونصف فى متر ونصف ومفتوحة من كل الجوانب .. مخصصة لحجب ضوء الشمس فقط وجلسنا أرضا فوق الرمال الناعمة ..حضرت زوجته تحمل طبقاً كبيراً من الصاج المطلى باللون الأبيض به طعام لا نعرف نوعه كما أن زوجته عندما تسير أو تحضر لا نعرف إذا كانت قادمة بوجهها أو بظهرها كله ملفوف وأشياء لا نعرف عنها شيئا فى مصر .. الطعام المقدم ردىء الطعم مقارنة بطعام البدوى الذى أنقذنا بالأمس ولكننا لسنا فى وضع الاختيار أو الانتقاء لأن الرجل أحضر ما يأكلونه وهذا ليس بذنبه ولكن المشكلة كانت فى وضع الأطفال أياديهم فى الطعام حيث لا يعترفون بالملعقة وسقوط بعض بقايا طعام من أفواههم بالطبق . تذكرت ظهر اليوم الخامس والمصارعة على بعض نقاط البول ..لنشكر الله .. اكلنا قليلا لأننا كنا نرغب فى الوصول إلى منطقة آمنة وبعيدة عن هذا الرجل الذى توجسنا منه خيفة من هيئته أولا ثم من تصرفه معنا وكدنا أن نلقى حتفنا بداخل المقابر.

أعدت زوجته الشاى .. تناولوا جميعا الشاى باستثنائى وقد اعتذرت بأننى لا أرغب فى تناوله ليلا.. ومن منا نحن المصريين لا يرغب فى كوب من الشاى وفى ظروفنا تلك.. كنت ما أزال متوجسا من هذا الرجل وقد هاجمنى خوف حكايات جدتى من أمنا الغولة والتى هاجمتنى ذكراها أمس أيضا .. كنت أعتقد أن الرجل قد يضع منوما فى الشاى وبعد أن نغط فى النوم يقتلنا أو يسلمنا للإسرائيليين ويحصل على سلاحنا والذى لم يهدأ طوال الطريق بأنه يريد قطعة من هذا النوع ومستعد لدفع مبلغ كبير ثمنا له .. شعرت بالخوف أن نذهب فى نومنا ويفعل بنا أى شىء ولهذا رفضت شرب الشاى حتى يكون أحدنا يقظا وإذا طلبت من أحد جنودى أن يمتنع عن شرب الشاى بدلا منى فقد يرفض أمام عائلة الرجل وهذا

شيء سيىء وما مقدرته على التصرف لو حدث ما يدور بفكرى ، لن يستطيع التصرف عندما يشاهدنا جميعا نغط فى النوم وأصبح بمفرده أمامهم ، كان قرارى صائبا رغم خيبة حدسى بما فكرت فيه ولكن المثل يقول"سوء الظن عصمة وُحسن الظن ورطة ."

جلسنا حوالى ساعة أخرى ننتظر أن يبدى الرجل استعداده للسير ولكنه مازال جالسا والوقت يمر علينا ولا يشعر بقيمة هذا الوقت بالنسبة لنا .. سألته : أنت مستعد للسير معنا وتنفيذ ما اتفقنا عليه .. اعتدل فى جلسته قائلاً: أيوه .. نادى على شقيقه علىّ فحضر فقال له : جاهز يا خوى؟ .. أجابه الصبى الصغير جاهز وتأكد من أن شقيقه قد ملأ القربة مياهًا وأنه يحمل معه بعضا من أرغفة الخبز.

نظرت إليه قائلاً: إحنا اتفقنا إنك تطلع معانا مش الواد الصغير أخوك .. اعتذر الرجل بأنه علم بأن بعض الدفعة قتلوا جملين بالقبيلة المجاورة وشربوا دماءها وهى ترعى فى الصحراء وأنه يخشى أن يترك زوجته وأباه العجوز بمفردهما والأطفال أمام هجمات الدفعة .. جلست أفكر ماذا أفعل؟ ألغى الاتفاق او أستمر وليكن على بدلا من شقيقه ..ناولناه ساعات يدنا الست وتحركنا مع علىّ ونحن نشفق على هذا الطفل من السير بنا تلك المسافة.

رحلة مع على بك الصغير

نحن الآن بعد العاشرة مساء وهذا التوقيت الذى نظر كل واحد فينا إلى ساعته يودعها قبل أن نقوم بتسليمها إلى"مسُعد" الرجل الذى اتفقنا معه و الشقيق الأكبر لعلى. .تحرك بنا الصبى ونحن نقول فى أنفسنا سينام منا هذا الطفل فى الطريق والليل وظلامه الدامس يغلف المنطقة ، لم يمض على سيرنا أكثر من عشر دقائق إلا وكان الصبى قد سبقنا ونحن نلهث خلفه طالبين منه أن يقلل من سرعته وينصحنا بأن نسرع ونشد حيلنا حتى لا تدركنا الشمس صباحاً فى الطريق وتؤثر على سيرنا ولكن كيف نسير بأسرع من هذا خلف الصبى الذى كان يرتدى الجلباب وشبشب"زنوبة" فى قدمه العارية ويحمل قربة ماء وبعض أرغفة خبز ونحن الرجال العسكريون لا نستطيع اللحاق به وأصبح الموقف خطيراً فإذا فقدنا هذا الدليل وفقدنا أثره ماذا نفعل؟ معه الماء والخبز والأهم أنه يعرف الطريق وقد ابتعدنا عن مكان القبيلة ولا نستطيع العودة لشقيقه ثانية نخبره بأن شقيقه تركنا فى وسط الصحراء والذى كان يتباهى بها أمامنا قائلاً: حتخدوا طريق "جبال البرص" الجبال هادى ما يجدر يجرب منها اليهود ولا يعرفوا لها طريج منطجة أمان وبالله عليكم ما تعوجوا على وخليه يخلص مهمته ويرجع

لداره بسلام.. إذًا نحن نسير فى منطقة خطرة ليس بها ماء ولا إنسان وسنهلك إذا خدعنا هذا الدليل.. طلبت منه أن يخفف حمله وأن يعطى أحد الجنود القربة والخبز ليحملها عنه لكنه رفض.. سألته بألا يبتعد عنا كثيراً وطلبت من الجويلى خفيف الحركة أن يتبعه مثل ظله حتى إذا ابتعد عنا أوقفه حتى نصل إليهم ، فعل هذا وكل نصف ساعة تقريبا يتوقف الاثنان حتى نصل إليهما.

التعب والإرهاق غلبنا على أمرنا ورغبنا فى أن نستريح من عناء السير وأن نحصل على شربة ماء وقسطا من الراحة ولكن عليا رفض قائلا بأن هذا سيضر بنا كثيرا وعلينا قطع المسافة كلها حتى العاشرة صباحا. سأله أحدنا وما هى تلك المسافة؟ قال حتى بيت خالتى القريبة من الأمان خمسين كيلومترا.. هتفنا جميعا خمسون كيلو!! لماذا لا نقسمها على ثلاثة أو أربعة أيام ولكنه رفض بأنه وعد والده وشقيقه بأن يعودهما مساء الغد.. أن هذا الطفل سيسير مائة كيلو فى أربعة وعشرين ساعة.. بحسبة بسيطة لو لم يسترح سيسير حوالى أربعة كيلومترات فى كل ساعة. شعرنا أننا صغار أمام هذا الطفل وأمام لياقته البدنية حتى فى أشد حالتنا الصحية لا نستطيع أن نسير تلك المسافة وبهذه الطريقة المستمرة ولكنها منطقتهم وحياتهم التى تعودوا عليها.

أخيرا أذعن على لرجائنا بأن نستريح ساعتين أو ثلاث خاصة أننا علمنا منه أنه لم يتبق سوى ساعتين على ظهور أشعة الشمس.. إننا نسير منذ العاشرة تقريبا ونحن الآن فى الرابعة صباحا.. ست ساعات سيرًا فى تلك الرمال الناعمة ليلاً وفى الظلام ولا نعرف الطريق ولا نعرف إلى أى مكان نسير إنها غُربة مستمرة سواء فى الحياة أو فى السير.. الصبى كان يعرف طريقه فى الظلام وينحرف يمينا وفى بعض الأحيان ينحرف يساراً ثم يساراً.. ونحن لا نعرف شيئا ولقد سلمنا قدرنا لهذا الطفل.

أوينا إلى الأرض ندفن أجسادنا المنهكة فى الرمال حيث لم تكفنا البطانية وكانت مثار مشاكل بين الجنود بعضهم البعض كما كان لتأثير رطوبة الصحراء أثر على أصواتنا حيث درجة البرودة شديدة وقد أعيانا السير ونحن لم نستعيد

بعضا من عافيتنا حيث كنا نعتقد غير ذلك ولكن مجهود الأيام السابقة ومسافة العدو قريبا من منجم الفحم استهلكت جزءاً كبيراً من طاقتنا ثم السير خلف الصبى بتلك السرعة الكبيرة والتى لم نتعود عليها قبل ذلك أو بعدها كل هذا جعلنا نغط فى نومنا ونحن خالى البال أن يهرب هذا الصغير من مساعدتنا.. لم نشعر بالوقت ولكننا شعرنا بأشعة الشمس تضرب عيوننا المسهدة المرهقة فاستيقظ احد الجنود وأيقظ الباقين فى عجلة من أمره ليخبرنا بأن الصبى هرب وتركنا بدون مساعدة وقد حمل كل الزوادة معه.

جلسنا نضرب كفا بكف وأن الله كلما أعطانا أملا سحبه منا وها نحن نرقد فى منطقة جبال البرص الذى قال عنها البدوى إنها خطيرة وأننا إذا عبرناها تكون باقى المسافة أحسن حالا أمامنا سواء أمنا من هجمات اليهود أو لوجود عشائر بدوية كثيرة لوفرة آبار المياه فى تلك المناطق.. ماذا نفعل؟

جلسنا القرفصاء حانقين لما حدث كلٌ منا يؤنب نفسه وزملاءه على عدم مراقبته ونحن رجال ستة يهرب منا هذا الصبى الصغير.. صاح أحد الجنود ينادى عليه لكن دون جدوى.. قررنا مواصلة المسير متكلين على الله الذى لا ينسى عباده.

بعد أن سرنا عدة خطوات فوجئنا بوجوده نائما وبجواره قربة الماء.. شعرنا بسعادة غامرة وأسرعنا نحوه نوقظه ، استيقظ الصبى بملامحه الطيبة البريئة وناولنا بعض كسرات الخبز وشربنا الماء المثلج من أثر برودة الليل.. للحقيقة أن طعم المياه فى القربة رائع إلى أقصى درجة.. وقف الصبى ينتظرنا حتى ننتهى من طعامنا الجاف البسيط وشربة الماء. أصبحنا أكثر نشاطا.. الساعة جاوزت العاشرة صباحا تقريبا وهذا هو توقيته حيث يعلم التوقيت من أثر ظل الإنسان على الأرض سرنا خلفه لنكمل مسيرة الليل ونحن أحسن حالا فقد حصلنا على حصة من النوم كما أننا نشاهد طريق السير ونعلم إلى أى جهة نحن سائرون وقد اطمأن حالنا بأن الدليل الذى يصحبنا إنسان مخلص وأخبرنا قبل السير بأننا سرنا أثناء الليل أكثر من نصف الطريق أى حوالى ثلاثين كيلومترا وأنه لم يتبق سوى عشرين كيلوا مترا وطالبنا بالشدة والعزم قبل أن تقوم الشمس بعملها..

نسير خلفه بنشاط والجميع يحدوهم الأمل بان نصل إلى بغيتنا وإلى طريق مفتوح يصل بنا إلى بر الأمان إلى قناة السويس.

جاوزت الساعة الثانية ظهراً وقد أنهكنا السير تحت أشعة الشمس الحارقة وقرب مخزون المياه من النفاذ والمياه المتبقية أصبحت ساخنة وغير محببة المساغ والإعياء باديا علينا باستثناء الصبى ، طلبنا منه الخلود إلى الراحة وكان هذا تعبيره (نخلد للراحة) وصلنا إلى منطقة بها المئات من الإبل الضخمة التى ترعى بمفردها ومنظرها يثير الخوف وهى أشبه بحيوان الديناصور الأسطورى وأخبرنا أنها تتبع بعض القبائل وتعود بعد الرعى إلى القبيلة ولا يستطيع أحد الاقتراب منها لأنها تهاجم من يقترب منها.. أصابنا الخوف من تلك الحيوانات التى لم يكن لنا بها خبرة قبل ذلك.. اختار مكاناً مهجوراً من قاطنيه عبارة عن بعض الأعشاش المصنوعة من جريد النخيل وكانت الرياح جافة ساخنة وأهم ما لفت نظرى قبل أن ينتقى كل واحد منا عشه لينام بها أنه قال إن تلك المنطقة كانت تعيش بها خالته وأنه كان يأتى من داره الذى كنا به بالأمس إلى هذا المكان ليستلف لأمه "المنخل "استوضحنا منه.. تقصد المنخل الذى ينخل الدقيق أجابنا أيوه مُنخل الطحين. .نظر كل الى الآخر بدهشة أن يقطع تلك المسافة لكى يحضر منخلا لأمه.. توارينا داخل الأعشاش والأنفاس الحارة القاتلة مازالت تهاجمنا.. نمنا والعرق الغزير يتفصد من جباهنا وأجسادنا.. لا نعلم المدة التى استغرقناها فى النوم ولكن النوم فر من عينى بسرعة من شدة الحرارة وذهبت أبحث عن جنودى وعن الدليل واستطعت جمع الجنود ولكن للمرة الثانية نفقد الدليل.. ما هذا يا ربى؟ كل فترة نجد معضلة أمامنا.. صاح البعض مناديا عليه وأخيرا ظهر من أين؟.. الله أعلم.. قام الصبى مرهقا هو الآخر من درجة الحرارة المرتفعة وسار أمامنا متعبا مترنحا وقد أسعدنا هذا بأن أصبح مثلنا لأننا كنا نخجل من نشاطه وكسلنا.. توقف برهة قائلاً: لقد اقتربنا.. لم يتبق إلا عدة كيلومترات.. سأله أحدهم.. كم تقريبا؟ فنظر يمينا ويسارا قائلاً: من ثلاثة إلى أربعة كيلومترات وأشار بيده فى هذا الطريق.. سرنا خلفه ونحن أشد نشاطا فلم يتبق على نهاية تلك الرحلة قصيرة الزمن طويلة المسافة إلا عددا محدودا من الكيلومترات.. سار بنشاط مودعا الوخم الذى أصابه خاصة أن درجة الحرارة

بدأت فى اللين وقد تغير الحال وهبت بعض النسمات الرطبة المنعشة.. مازلنا نسير خلفه إلى أن توقف مشيراً إلى خط البصر أمامنا مباشرة قائلاً: تلك أشجار النخيل هدفنا.. أصبحت المسافة اقرب وفى حدود الكيلو متر الواحد. شعرت بإنهاك فى قواى بعد أن اطمأن قلبى على هدفنا فساروا جميعا بسرعة وأبطأت فى السير سواء من الإرهاق أو لشعورى بالطمأنينة.. ألاحظهم على بعد مئات الأمتار، جلست قليلا أستعيد أنفاسى وعافيتى ثم أكملت سيرى وأنا مازلت خائر القوى وقد ضايقنى هذا وأقول فى نفسى بعد أن اقترب منا الهدف هكذا تخور قواى ، يجب على أن أصمد حتى أصل إليهم لأننى لو تأخرت أكثر من هذا فسيقبل الليل بعد ساعة.. أريد أن أكون معهم وأن أكون قريبا من الماء خاصة أننى شعرت أن حلقى قد جف واحتاج الماء وندمت لتأخرى وأقول إنهم الآن أمام بئر المياه ، أنهم محظوظون ولكن مازالت قواى تخور أكثر فأكثر خاصة أننى صعدت تلا من التلال الكثيرة التى كنا نجتازها صعودا وهبوطا وفى نهاية صعودى لهذا التل المرتفع جلست لاهثا أستعيد قواى وأنا متخوف ومضطرب مما وقعت فيه فى نهاية مشوارى ولكن بعد جلوسى فى نهاية قمة المرتفع شاهدت قطيعًا من الخراف والماعز ولكن أهم ما شاهدته ولفت نظرى وأنا على بعد أقل من مائة متر من ذلك القطيع البدوية التى كانت ترعى تلك الأغنام حيث إنها كانت فى وضع غير طبيعى حيث رفعت ملابسها لتجفف به عرق وجهها وهى لاهية عن أن يراها أحد فى هذا التوقيت.. الفتاة تتمتع بمسحة من الجمال.. فسيقانها بيضاء ومستقيمة.. إنها مثل سيقان ممثلات السينما. أغمضت عينى لفترة وندمت على أننى سمحت لنفسى بأن أشاهدها فى هذا الوضع وهى آخذة الأمان ، بعد فترة قليلة فتحت عيناى وقد عادت إلى وضعها فقمت سائراً متجها نحوها حيث إنه اتجاه البئر الذى كان يسير إليه جنودى ، شاهدتنى ووقفت تنتظر قدومى وهى فى حالة انتباه بكل جوارحها وعندما اقتربت منها ألقيت عليها التحية "السلام عليكم يا مستورة "أجابت تحيتى بمثلها وابتسمت بكل ملامح وجهها الجميل المعبر.. الفتاة صغيرة السن فى حدود العشرين من عمرها وجسدها ممشوق وبيضاء ولكن أشعة الشمس قامت بعملها معها وأصبح لونها

برونزيا وبه بعض الاحمرار وملامحها صغيرة وجميلة.. نظرت إلى قائلة: "تشرب"؟

سألتها : هل معك ماء؟.. نفت ذلك وهى تقول معى لبن ماعز وهو أحسن من الماء.. وافقتها حتى أحصل على جزء آخر من الراحة.. كانت تحتفظ بعبوة صفيح وقامت متجهة نحو إحدى الماعز والذى كان واضحا أن ضرعها كبير وحلبت أمامى الماعز وأحضرت لى علبة الصفيح لأشرب منها. كانت الكمية التى أحضرتها تقترب من اللتر.. شربت وأنا مستعد لأن أرجع ما فى معدتى من هذا اللبن الذى لم أتذوقه من قبل ولكن من أول جرعة تأكدت من صدق حديثها فهو أحسن طعما من الألبان التى نشربها وتعودنا عليها كما أنه ذو طعم حلو أى به كمية من السكر.. أخذت جرعة كبيرة شاكراً لها هذا الصنيع ثم سألتنى ستلحق بإخوانك إلى البئر؟ فأجبتها بالإيجاب.. قالت: سنسير سويا وهكذا أمضيت المسافة الباقية برفقتها ورفقة الماعز والأغنام وكلبها الذى معها.. وصلنا إلى البئر حيث وجدت جنودى جالسين بعيداً عنه وبجوارهم "على" والذى بادرنى بأنه سيعود إلى داره فسألته هل نحن قريبون من قناة السويس؟ فضحك الصبى قائلاً : إنكم على مسافة لا تقل عن مائة وعشرين كيلو.. تلقيت هذا الخبر كالصاعقة واستنتجت لماذا الجنود يجلسون هكذا وهم فى حالة من الحزن والضيق.. ثم استطرد الصبى قائلا: نحن عدلنا فى مسار طريقكم لأنكم كنتم فى المحور الأوسط والذى به اليهود بالإضافة إلى المحور الجنوبى أما المحور الشمالى فلا يهود به وكل ما تم هو تصحيح الوضع بالعودة إلى ذلك الطريق والذى ستسلكونه وكل ما به من البدو والمياه المتوافرة حتى قناة السويس.

رضخنا لما قاله لنا سواء عن قناعة أو غير ذلك ، توجه أحد الجنود لملء زجاجة المياه التى زودنا بها الرجل كريم الخلق الذى أنقذنا فى أول مرة.. لكن أحد البدو نهره طالبا منه الابتعاد حتى تنتهى النساء من الحصول على احتياجاتهن وهذا شىء منطقى ومعقول ولكن من غير المنطقى أن يتحدث معه بتلك الفظاظة المؤلمة على النفس.. بئر المياه ليس مثل الآبار التى شاهدناها من قبل بل عبارة عن طلمبة مياه مثل الموجودة بالقرى داخل مصر ويقوم من يريد

الحصول على الماء بتحريك اليد فتخرج المياه من باطن الأرض وهذا دليلٌ على أن المياه الجوفية فى تلك المنطقة قريبة من سطح الأرض. كانت المنطقة غريبة على مشاهدنا.. عبارة عن واد منخفض به طلمبة المياه وتحيط به بعض أشجار النخيل وبعض الحشائش الضخمة الناتجة من تسرب المياه من الطلمبة أثناء التشغيل ثم مرتفع من الأرض الرملية به العديد من أشجار النخيل وبعض منازل البدو التى هى أحسن حالا عما شاهدناه فى منطقة جبل المغارة حيث يقترب شكلها من منازل الفلاحين بداخل الوادى مع بُعد المسافات بين المنازل لسعة مساحة الأرض.. انتهت النسوة من الحصول على المياه فتقدم الجندى لملء الزجاجة حتى نروى عطشنا ولكن البدوى أشاح بيده فى وجه قائلاً.. بعد..غور غادى.. بعد ما الغنم تشرب وتروى.. أصابنا الضيق والتوتر فالرجل يحاول إهانتنا وما ذنب أشخاص يحتاجون الماء للشرب وملء الزجاجة والذى لن يستغرق أقل من دقيقتين وبعدها نجلس حتى يسقى كل سيناء.. جلسنا ننتظر على مضض حتى ينتهى من سقاية الأغنام وكان الرعاة يحضرون ويعودون لسقاية الأغنام والماعز والجمال وما لهذا من احتياج لوقت وملء أوعية للمساعدة فى أن تشرب تلك الدواب بسهولة.. مضى على الغروب أكثر من ساعة ونحن جلوس ننتظر أن يصدر هذا البدوى أوامره العليا بأن يسمح لنا بأن نقترب من الماء لنرتوى ولكنه لم يفعلها.

لم يعد هناك أغنام ولا بشر فى احتياج الطلمبة وبقينا ساكنين حتى نعزز أنفسنا ويطلبنا حتى نعيد جزءاً من كرامتنا المهدرة على لسانه الوقح لكنه لم يفعل هذا بل ان أحد جنودى نبهنى بأنه يفك رأس الطلمبة حيث سيأخذها معه وبالتالى يمنعنا من الشراب.. فارت الدماء فى رأسى وشعرت أن هذا الإنسان الهمجى يجب أن يلقن درسا قاسيا هو ومن على شاكلته.. حركت عتلة الأمان لسلاحى وجذبت الأجزاء وأطلقت دفعة نيران جهة الرجل فخرجت أصوات الطلقات محدثة دويا حوله فسقط أرضا صارخا طالبا النجدة وبدون أن يطلبها هب البدو قادمين على أصوات تلك الطلقات شديدة الصوت فى جوف الليل الساكن.

وقفوا أمامنا وهم يشاهدون هذا الجلف الغبى يرقد على الرمال دامعا بعينيه نادما أنه منعنا من الحصول على المياه وشاهد القوم رأس الطلمبة بيده وهنا

فهموا السبب فيما حدث.. بكل صوت خشن وعنيف صرخت بهم.. المياه أرسلها الله من الأرض للجميع ولا يجب أن يمنعها أحد عن محتاج إليها وإذا لم تكن لك ديانة ولم تفهم تعاليم الإسلام فعلى الأقل احترم الإنسانية وأنت أيها التافه القذر تتحكم فى جنودى مانعا عنهم المياه.. أى تصرف لمثل هذا هو الرمى بالرصاص لأى إنسان لا يقدر قيمة الجندى ونحن فى حالة حرب والجنود محتاجون المياه.. أحذركم ثانية بأن أى تصرف مثل هذا معنا أو مع جنود آخرين هو قتل عدد منكم بلا رحمة.. وبنفس طريقتهم أمرتهم.. بعدوا.. بعدوا .. غوروا من أمامى (فى الحقيقة لا أعلم كيف تصرفت على هذا الوضع وأنا المتحكم فى أعصابى منذ ثورة الدمنهورى حين طلب منى الانسحاب) كنت أضحك مع جنودى على هذا التصرف حيث قال أحدهم.. ثار الجمل!!

بطبعى لا أميل إلى العنف ولكن فى مثل ظروفنا تلك شعرت أن البعض من أبناء سيناء كانوا كارهين للمصريين وكأننا نحتلهم وجاء الخلاص على يد الإسرائيليين.

بعد هذا جلست أفكر لماذا هذا التصرف سواء من هذا البدوى أو من مسعد شقيق على الذى رافقنى خلال رحلة الخمسة والخمسين كيلو بجبال البرص؟ لابد أن هناك شيئا سيئا فى علاقتنا مع البعض منهم وهذا ليس تعميما فمنهم الكثيرون ممن هم على خلق ووطنية ولكن لا يجب ان يكون التعاون بهذه الطريقة بين جيش مهزوم يحتاج العون فى تلك الصحراء الضخمة القاتلة وأبناء المنطقة حتى لو لم نكن من بلد واحد ولكننا على الأقل جيران.

كانت الإجابة على سؤالى هذا على لسان أحد الشيوخ من البدو حيث قال لى بعد هذا الحادث ، هذا ما نجحت فيه الحكومات المتعاقبة قبل الثورة وبعدها وهو إشعارنا نحن البدو أنكم لستم من داخل الوادى وكأننا من دولة أخرى ولهذا كانت الحكومة تضع نقاط جمارك قبل قناة السويس من الشرق.. وتوجد منطقة فى القنطرة شرق تسمى الجمرك وبها رجال الجمارك كأنك قادم من خارج الحدود.. كما كان لأبناء الوادى هم الآخرون عبء فيما حدث مثل الاستهانة بهؤلاء الناس

والتقليل من قيمتهم مثل ما كان يحدث مع أبناء الصعيد قبل ذلك.. سياسة استعمارية فاسدة.

غادر الجميع المنطقة بعد أن قام هذا الإنسان الهمجى ردىء اللسان بإعادة رأس الطلمبة إلى مكانها كما وبخه أحد المشايخ قائلاً: له لم نفعلها من قبل ونرفع رأس الطلمبة كيف تفعلها الآن وأمامنا الدفعة يحتاجون مياهاً.. لقد ظلمتنا قبل أن تظلم نفسك واعتذر الرجل بالإنابة عن القبيلة.

شربنا وارتوينا ونحن سعداء بأن وصلنا إلى تلك المنطقة وبها طلمبة مياه.. يا للحظ الحسن، كما كان لرد الفعل العنيف جهة هذا الهمجى وما فعله بالجنود أكبر الأثر النفسى بأنه لا يجب أن نهادن من يضايقنا ويغلقوا أمامنا باب الرحمة التى خلقها الله ويعثها إلينا.. لا يجب أن نستكين وعليهم أن يعلموا أن هؤلاء الرجال من جيش مصر وأنهم ليسوا أذلاء بعد أن ترامى لهم هذا الإحساس بأننا مساكين نحتاج العون.. إن كل ما نحتاجه هو المياه وتلك مياه الدولة ونحن من أبناء تلك الدولة ولا جباية أو فرض سلطة لأحد على المياه.. أسعدنا هذا الرد والذى جاء بنتيجة فعالة وأنه لو تم هذا التصرف معه منذ الوهلة الأولى والتى أهان فيها الجنود لوقف الجميع احتراما ولكن التغاضى والمساومة تأتى بنتائج غير صحيحة وعكسية.

شاهدنا اثنين من البدو قادمين فى اتجاهنا حاملين شيئا ما فى أيديهم وقد تبين أنهما شيخا القبيلة اللذان وجها لومهما إلى بطل إبطال الطلمبة وشخص آخر قدما التحية ووضعا أمامنا طعاما وهم يقدمون اعتذارهم للمرة الثانية.. اعتذرت عن قبول الطعام وقبلت اعتذارهم عما حدث من ابن القبيلة المخطئ تحدث أحدهم قائلا: إن الطعام شىء آخر وهو من صفات أهل البادية ومن مروءة العرب وأنه لا مجال لعدم قبوله لأن هذا سيسىء إليهم وتصبح القبيلة كارهة لنا نحن الدفعة.. شكرناه وقبلنا الطعام وغادرنا بوعد بإرسال الشاى إلينا.. كنا جوعى فهذا هو الطعام الذى نتناوله منذ ما يقرب من ثمانية وأربعين

ساعة لأن بعض كسرات الخبز الذى وزعها علينا فارس "صحراء البَرص على بك الصغير" لم تكفنا.. تقدمنا للطعام بيد ثابتة فالله يرزقنا من فضله ويسخر عباده لتقديم العون لنا.

كان الطعام طيبا وكمياته تزيد عن حاجتنا رغم الظروف التى كانت تخيف البدو من انقطاع الإمدادات من مصر بعد الحرب.. بعد قليل أحضر الرجال الشاى وجلسوا معنا نتسامر ونتحدث فى كل شىء باستثناء الحرب ولكن التركيز الأكبر كان منصبا على جمال عبدالناصر الذى شعرنا من خلاله مدى عشق هؤلاء البدو له، كانت كل حياتهم عبدالناصر يمجدون أعماله الوطنية فى مصر والعالم العربى ثم يزيدون من المعلومات التى لا نعرفها عن المساعدات العينية مثل التموين وحفر آبار المياه وإرسال القوافل الطبية لعلاجهم فى أماكن تواجد القبائل فى الصحراء بل القوافل البيطرية لعلاج الأغنام والجمال ثم تشجيع أبناءهم بل وبناتهم على التعليم بمجانية التعليم وإعطاء مكافآت مادية للمتفوقين منهم.

أسعدنا هذا المديح فى حق هذا الرجل وانتهت جلسة المصالحة وتبين لنا أن قول الشاعر العظيم أحمد شوقى فى قصيدته الرائعة" سلو قلبى " والتى تتغنى بها أم كلثوم كان فى محله :

وما نيلُ المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال إذا كان الإقدام لهم ركابا

إن كل ما حدث أثناء تلك الليلة من الشراب والطعام والشاى والمؤانسة والاعتذارات هو رد فعل لمبدأ القوة التى يفهمها الصديق قبل العدو.. تلك هى المرة الأولى التى نتعامل فيها مع أناس خارج الحقل العسكرى ومن ثقافة وفكر غير الفكر داخل الوادى هذا الفكر المنعزل الذى يعتمد على شيوخ القبائل والمبادئ المستمدة من الدين الإسلامى والجذور العربية تختلف بكل المقاييس والنتائج عن القوانين الوضعية والعادات التى توارثناها جيلا بعد جيل.

تفهم الجنود الرسالة وأيقنوا أنها البديل لعدم التعاون وعلق الجندى عطية قائلاً: لماذا لم نتبعها مع هذا البدوى "مُسعد" والذى أرسل شقيقه الصغير معنا أمس وحصل مقابل ذلك على ست ساعات يد لا تقل قيمتها عن أربعمائة جنيه "الدولار يساوى ٣٥ قرشًا "ماذا فعل لكى يحصل على هذا المبلغ وماذا فعلنا لندفع كل شىء نملكه، إننا لم نقم بتهريب مخدرات أو شىء ممنوع سنكسب من ورائه فيكون الطمع فينا بالدفع طالما ستكسب فعليك بالدفع.. ماذا كان سيضيره أن حضر معنا وعاد مثل أخيه.. إن شقيقه كان يقطع هذا المشوار من أجل أن يحضر منخلا لأمه من عند خالته. كان يعتبرنا منخلا!!... فعلا كان يجب التعامل معه بتلك الطريقة لأن هؤلاء القوم إذا شعروا إننا لقمة سائغة سيطيحون بنا ويعرقلون سيرنا ولن تكون المهادنة عملا طيبا ذا عائد مفيد لنا.

صباح اليوم التالى أخذنا حاجتنا من المياه وتركنا المكان حتى لا نجلس مثل الشحاذين هذا يحضر طعاما وذاك يحضر خبزا خاصة أن الظروف أثناء الحرب تؤثر على المواد الغذائية.. تركنا المكان رغم معارضة بعض الجنود لهذا التحرك.. الماء موجود والظل موجود تحت الأشجار المنتشرة والطعام موجود، أوضحت لهم وجهة نظرى والتى أقنعتهم ولسان حال كل منهم يقول هذا هو المضمون فلا وقت للكرامة ضد الجوع والعطش.

ابتعدنا عن هذا المكان الرائع الجميل بما فيه من نعم حباها الله بها وأنعم عليهم بواسطة تلك الطلمبة البدائية البسيطة التكوين، أقيم مجتمع كبير من البشر والأشجار والأهم الأنعام.. تلك الحيوانات الرائعة والتى كلها خير من ألبان.. وزبد.. جبنة.. لحوم.. أصواف.. جلود.. إنجاب المثيل لها كما انها تحمل الإنسان والأمتعة من مكان لآخر.. كل هذا بدون تكلفة كل ماهو المطلوب بعض الماء وتسير الحياة طبيعية حيث تنبت الأرض من أعشابها وتأتى تلك الحيوانات تتناول تلك الأعشاب وتسمد الأرض.. والحياة تسير.

شعرنا أن نصف اليوم الذى قضيناه فى تلك المنطقة كان رائعا جميلا وها نحن نودعه للمجهول فلا معلومات لدينا وكنا نسير والله هو الهادى والمستعان وقد أسرعنا الخطى حتى نقترب من أى بقعة جديدة نستريح أسفل أشجارها

ونجد الماء والراحة.. أما الطعام فكان فى نهاية رغباتنا رغم شدة الاحتياج إليه.. مازلنا نواصل السير واقترب منا وقت العصر دون العثور على أى بادرة جديدة وقد تسلل اليأس والضيق بالجنود واقترح احدهم ان نعود لتلك القبيلة ونعيش هناك حتى نعثر على أحد يرشدنا إلى الطريق السليم.. وجد هذا الاقتراح تأييدا كبيرا من الجنود. سألتهم : من منكم يعرف طريق العودة إلى تلك القبيلة؟ ترددوا والبعض نفى كيف يعود؟

عزبة الشياطين

توارت أشعة الشمس وتوارى معها أملنا فى العثور على أى بادرة أمل .. كنا فوق تل من الرمال وآخر ضوء لهذا النهار سيزول ويعم الظلام الدامس وإذ بنا نشاهد آثار أشجار النخيل على مدى البصر أعتقد أنها كانت على مسافة كيلومترين من مكاننا ولكن اللافت للنظر أن تلك البقعة الخضراء كانت بجهة الشمال حيث يقبل من جهتها هواء الشمال المنعش القادم من جهة البحر .. حقا لقد تعلمنا من رحلتنا هذه ما لم نتعلمه طوال حياتنا السابقة.

كانت سعادتنا لا توصف فبدون مساعدة عثرنا على منطقة خضراء بها مياه وزرع واحتمال بشر .. ولكننا تذكرنا حديث شيخ القبيلة الذى استضافنا أمس حين نبهنا عند الاقتراب من تلك المناطق خاصة أثناء الليل بأنه من الواجب علينا أن نحترس لاحتمال وجود يهود بها فيطلقون النار علينا فورا .. أو احتمال وجود "ولاد حرام "من قطاع الطرق والمهربين وغيرهم من الفاسقين وهؤلاء احتمال أن يطلقوا عليكم النار.. فكونوا حذرين وامنعوا الحديث واقتربوا من جهة الجنوب لا من جهة الشمال حتى لا تحمل الرياح أصواتكم وروائحكم والشمال هو من جهة

البحر ويكون شمال يدك وأنت ناظراً جهة قرص الشمس صباحا وليلا فى اتجاه النجم اللامع "النجم القطبى أو كوكب الزهرة"

تذكرنا حديث هذا الرجل الطيب الذى يعلم الكثير من المتغيرات والمستحدثات أثناء الحرب ويشعر بحداثة أعمارنا وجهلنا بقواعد اللعب فى الصحراء وأن كل ما تبغيه هو العودة لمصر ولهذا لا نضع قيوداً على تصرفاتنا معتقدين أن الجميع أبرار مخلصون .. أثناء السير ليلا فى اتجاه ما رصدناه من النجم القطبى لنسير عليه تلك المسافة حتى نصل لتلك الواحة الخضراء هبطنا منحدرا وجلسنا نتذكر حديث الرجل أمس .. ها نحن ندخل على هذا المكان المجهول ليلا ونحن لا نعرف شيئا عنه ولهذا فإن احتمال وجود شىء مضاد لمصالحنا أمر طبيعي .. كان الرأى إما الانتظار للصباح حتى يصبح كل شىء واضحا وإما أن نغامر ونتجه إلى تلك الواحة مع الاحتراز وعدم إحداث اى صوت ونكون قريبين من بعضنا البعض.

بهدوء تسللنا فى اتجاه الواحة وقد مضى من الليل أكثر من ثلثه فالساعة تقترب من الحادية عشرة مساء بالتقريب حيث لا نملك أداة للوقت ولكن بمرور الأيام تعودنا أن نحسب الوقت والزمن .. وصلنا إلى المرتفع والذى تقع خلفه الواحة بعد أن سرنا بحذر حوالى الأربعين دقيقة .. كان اتجاهنا للواحة من جهة الجنوب كما علمنا من شيخ القبيلة فلا تحمل موجات الهواء أصواتنا وحركتنا ويفاجئنا من يتربصون بنا .. كنا نضحك من تعبيراته ومن سيتربص بهؤلاء الجنود المنسحبين بعد هزيمة جيشهم سوى الإسرائيليين .. ولكننا تنبهنا إلى أن العدو قد يكون أشخاصا آخرين ولماذا لا يكون هناك حذر وترقب حتى نتجنب ما يكرهنا عليه الآخرون خاصة ليلا.

نحن الآن فوق قمة التل الرملى الذى يشرف على الواحة ونشاهد من مسافة لا تقل عن خمسمائة متر أنوارا منبعثة من عدة مشاعل وفوانيس تعمل بالكيروسين ونيران مشتعلة للطهى ورائحة شواء مع ضحكات منبعثة لرجال يتخللها أصوات نسائية ضاحكة بأصواتهن الناعمة الحادة .. مازلنا رقودنا على بطوننا نستطلع هذا المنظر الذى لم نشاهده طوال الأيام السابقة ولكننا سمعنا صوتا قريبا لرجل وامرأة يتحدثان همسا وكان حديثهما بألفاظ نابية تتخللها

كلمات جنسية بذيئة .. ومما يقولان سمعنا ما كان جديدا على مسامعنا منذ بدء رحلتنا.

أرهفنا السمع أكثر فأكثر فأضحت الأصوات ظاهرة واضحة وتيقنا أن الرجل والمرأة فى وضع جنسى ساخن من الأصوات المتبادلة بينهما .. عُدنا للخلف قليلا حتى لا يسمعنا أحد وكان من رأى الجندى فراج أن نهاجمهما ونقضى عليهما أما الآخرون فقد انتقدوا ذلك بأن الله حليم ستار ومصطفى ابن الإسكندرية أبدى إعجابه بهذا قائلا " أيوه يا جدعان حاجه تفتح النفس .. والمرسى أبو العباس الولية دية باين عليها نتانة ميه ميه" طلبت منهم غلق باب المناقشة رافضا الهجوم عليهما ليلا لأن هذا ضد الدين والأخلاق فتضايق فراج من هذا قائلا: إيه يافندم .. يعنى حنتستر عليهم .. طلبت منهم الصمت ، صعدنا للأمام وبعد قليل انتهى ما بينهما وهما يتبادلان عبارت الثناء كل على الآخر.. كل هذا كان جديدا على مسامعى ولم أسمع أو أشاهد مثل تلك الأفعال .. تحركنا جهتهم وكان من خلفهم مصطفى وعامر بينما جلست بعيدا فى الأمام ومعى جويلى المندفع وتحرك إليهم عطية وفراج شاهرين أسلحتهما بعد أن جاءهم من خلفهما صوت يطلب منهما عدم إحداث اى صوت وإلا سيطلقون عليهما النار.

سكن الرجل وانهارت المرأة باكية لما سمعته ورأته حيث إنها لم تكن زوجة ذاك الرجل وهربت أثناء انشغال الأسرة بالهرب إلى الصحراء وتقابلت مع هذا البدوى الذى كان يحاول التقرب منها .. كانت قصة دنيئة نسمعهما منهما ، كان يحق شرعا جلدهما ورجمهما .. لكننا لم نفعل لظروف الحرب وثانيا كان الظلام شديدا ولم نعلم ما حدث .. هل هو حادث زنا أو حب فقط ، لم يكن هناك ما يؤكد علاقتهما.

اخبرنا الرجل أنه يعمل "ناضورجى "يتبع القبيلة أو بمعنى أصح تجار المخدرات بسيناء وأن هذا وكرهم .. سارا أمامنا ونحن خلفهما موزعون على خطين بفاصل خوفا من مهاجمتهم لنا ومعروف عن هؤلاء القوم سطوتهم وجبروتهم فى مثل تلك الأمور.

وصلنا إلى مكان تجمعهم وشاهدناهم فرحين سعداء يحتفلون بما أنجزوه فى تلك الأيام من تجارتهم فلا قانون فى سيناء والبلد فى حالة فرقة وكل الأجهزة

تحركت إلى قناة السويس ومن تبقى منهم أسروا بمعرفة اليهود .. وقف الرجل والمرأة أمامهم وهما فى حالة من التوتر والمرآة متخوفة فسألهم زعيمهم عن سبب تركهم لمكانهم ، لم أترك لهما مجالا أو فرصة للإجابة فظهرت إليه يحيط بى جنودى طالبا منهم عدم التحرك أو استخدام السلاح لأننا وحدة منسحبة ولا يقل عددنا عن ثلاثمائة فرد وينتظروننى خلف التل وكل ما نحتاج إليه بعض العون من الطعام والماء وكيفية الاتجاه الصحيح لسيرنا .. كنت أتوقع مقاومة منهم ولكنهم كانوا أكثر ذكاء وشجاعة حيث طلب زعيمهم من معاونيه جمع بعض الإعانات لمدنا بها عارضا إرسال بعض أتباعه للسير معنا ولكنى شكرته حتى لا يحدث لهم مكروه ويتعرف عليهم اليهود ويأتى بضرر لهم وهم الباقون فهى أرضهم .. أسعد هذا الرجل وشعر أننا نشعر بهم ، أكملت حديثى بأن كل ما عرفته عنهم لا يعنينا من قريب أو من بعيد لكن الذى يهم هو المساعدة وعدم الغدر بنا.

هتف زعيمهم بأنكم من الآن إخوة لنا وقد أتى معاونوه بما طلبه منهم وكانت كميات كثيرة من الطعام ولوحظ من ضمن ما يحتفظون به هو تعيينات الجيش الجافة والمحفوظة من علب لحوم وخضراوات تابعة لشركة قها ومكتوب عليها حظر بيع لأنها تخص القوات المسلحة كما شاهد بعض جنودى أكياس "أجولة" لأوراق مالية تتبع المنطقة العسكرية الشرقية.. لقد سرقوا كل شيء.

حصلنا على ما نريد وحصلنا على الوصف لطريق السير والمعالم التى ستقابلنا فى الطريق والبُعد عن الأماكن الخطرة التى ينتشر بها اليهود كما قصوا علينا بعض مآسى الحرب وقتل الإسرائيليين للأسرى المصريين والتمثيل بأجسادهم، أوضح زعيمهم بأنه علينا أن نسلك الطريق الأوسط أو الجنوبى لأن اليهود حضروا منذ الأمس إلى الطريق الشمالى وأقاموا عددا من الكمائن لقتل المصريين، رغم أنهم تجار مخدرات إلا أننا شعرنا بأنهم ذوو قلوب رحيمة ومتأثرون بما حدث لجيشنا ناعين حظهم الذى سيوقعهم تحت الاحتلال مرة أخرى مثل ما حدث فى حرب ١٩٥٦ راجين من الله أن ينهيه بأسرع ما يمكن.

تبين لنا أن هؤلاء الرجال رغم أنهم يتاجرون فى المخدرات ومعرضون للمخاطر إلا أنهم يصطحبون عددا كبيرا من النساء وهن بالقطع لسن بزوجاتهم

ولا بأقربائهم نظرا لما بدى من تصرفاتهن من خلاعة وميوعة وما ظهر من لباسهن ومن أجسادهن ولم تكن تلك عادات البدو بسيناء التى نعلم عنها. كما كانت المرأة تترك هذا الرجل لتذهب لتجالس آخر ضاحكة معه مائلة بجسدها أو صدرها نحوه مما دفع بزعيمهم إلى طلب الاحتشام أمام الدفعة قائلا إن هؤلاء الرجال يحاربون بالإنابة عنا فلا أقل أن نقدم لهم الاحترام الواجب.. قام الرجل مودعا مصافحا لنا شاكرا لكل ما قيل من إننا لن نبلغ أحدا عنه لأن هذا ليس من شأننا وقد كان لهذا تأثير قوى عليه .. تركنا المكان ونحن مازلنا على حالة الاحتراز حتى ابتعدنا وعاد السمر والضحك وخلاعة النساء لتكتمل المنظومة "مخدرات ونساء عاريات باغيات"

ابتعدنا عنهم مسافة آمنة ونقفُ برهة نتصنت لنستمع حتى لا يرسلوا أحدا خلفنا فيقضوا علينا فى الحال وهم قوم ليس لهم أمان ولكنى أعتقد أنهم خشوا منا عندما علموا أنه يتبعنا جيش قوامه ثلاثمائة رجل بأسلحتهم وهم يعلمون ماذا يحدث فى مثل تلك الظروف حيث سيجتاحهم الجنود مدمرين كل شىء ممزقين أجسادهم بأسلحتهم .

أمضينا ليلتنا سعداء بما حققناه من نصر بالحصول على الطعام وشعرنا بأن للقوة قيمة وهيبة ومالنا ونحن نستجدى بعض البدو لكى نشرب شربة ماء وهم لنا رافضون كارهون ولكن السلاح جعل الجميع يقدرون وضعنا ولهذا ازداد تمسكنا بسلاحنا بعد أن جال فى خاطرنا فى الأيام الأولى من الانسحاب إلقاء سلاحنا والتخفف من حمله وحمل الذخيرة خاصة فى حالات العطش المهلكة والتى ألمت بنا جميعا. حمدنا الله لتراجعنا عن هذا الخاطر ليس حُبا فى سلاحنا ولكن من يدافع عنا لو حدث لنا مكروه أثناء السير.. إذًا فلنحافظ على سلاحنا.

صباح اليوم التالى شمرنا عن سواعدنا لنظافة السلاح والذخيرة من بعض الشوائب وخاصة ذرات الرمال التى تتسرب الى داخل أجزاء السلاح مهما حافظت عليه، كل فرد فينا اقتطع جزءا من الفانلة الداخلية لهذا الغرض .. شعرنا جميعا أننا فى معركة وقد دفع هذا بالجندى مصطفى إلى أن يصرخ قائلا: أيوه يا جدعان لو نعملوا عصابة ونقطعوا الطريق على تجار المخدرات ..

يا مرسى .. حنلموا فلوس يامه ونعيشوا كويس.. أضحك هذا زملاءه ، لكن ابن الصعيد تلقف هذا التصريح قائلاً: إيه رأيك يافندم إننا نقوم بعمليات عسكرية ضد ولاد الرفضى اليهود الملاعين .. يعنى لو ربنا كتب لنا السلامة نرجع كده من غير ما نكون عملنا حاجة .. الله يرحمه سيادة العقيد قائد الكتيبة فضل فى الموقع لوحده ومعاه الجندى المراسلة حنفى وتانى يوم انسحابنا عرفنا أنه استشهد بعد ما قتل أكتر من اتناشر مجرم من اليهود .. أى والله الواد حنفى لما حصلنا بالليل حكى الحكاية دية حتى كان جايب معاه محفظة سيادة العقيد اللى ادهاله وهو بيطلع فى الروح علشان يوصلها لبيتهم وكان بيضحك ويقول أخدت بتار اخوى ، عرفهم بكده يا حنفى.. قول لهم إن مصطفى توفيق قتل من اليهود كتير .. هما كام يا حنفى؟.. يجيبه: اتناشر قتيل غير المتعورين .. وأنا رايح أقابل ربنا لوقدرت تدفنى يكون جزاءك عندالله.. وخرجت أنفاسه .. جميعا فى خشوع لذكرى قائدنا الذى ظل رافضا الانسحاب وكلف رئيس العمليات الرائد صلاح عثمان بتولى القيادة الذى كان رافضا الانسحاب فقد كان من الرجال ذى المعدن النفيس. أمره بتولى القيادة وظل العقيد مصطفى محمد توفيق ابن الإسكندرية وقائد الكتيبة ٣٥٢ مشاه من اللواء ١١٦ يحارب بمفرده متحملاً مسئولية عدم تنفيذ الأوامر بالانسحاب .. إنهم رجال أشداء حيث يقول الله تعالى فى شأنهم :

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (صدق الله العظيم)

(٢٣) سورة الأحزاب

شكرت جنودى على روحهم العالية والتى هى أساس الجندية والعسكرية المصرية ولكن لكل معركة ظروفها وقد صدرت إلينا الأوامر بأن نعود لغرب القناة وننضم إلى باقى القوات حتى نستعد لمحاربة العدو .. أراد البعض المقاطعة ولكنى رفضت هذا طالبا منهم تنفيذ الأوامر والتعليمات التى هى أساس الجندية وعلينا التمسك بسلاحنا من أجل أن ندافع عن أنفسنا ضد أى معتد مهما كان .. سواء كان يهوديا أو بدويا وأنا المسئول أمامكم عن إصدار تلك التعليمات .. الآن ترتب

الحراسة حتى الصباح كل فرد ساعتين ويجب أن يكون متيقظا حتى لا ننام جميعا ويأتى علينا الصباح وقد ذبحنا كالأغنام.

أشرق صباح يوم جديد ومعنا الأطعمة والمياه وزودنا باتجاه سيرنا وعلينا الانحراف جنوبا حتى نبتعد بقدر الإمكان عن كمائن اليهود ومن الجنوب نسلك "ممر متلا" حيث بعد عبوره نكون على مسافة ستين كيلومترا من السويس أما تلك المنطقة فاليهود أحضروا بها قوات لقتل كل الدفعة المصريين..

لقد تغير تكتيك شقيق على بك الصغير من الاتجاه شمالا حيث الغرود الرملية التى تجعل اليهود غير قادرين على اختراقها بالدبابات او العربات المدرعة ولن يبقى أمامهم سوى الطائرات .. إذًا سنعود ثانية الى وسط سيناء (حوالى سبعين كيلومترا) ثم بعدها نتجه جنوبا ثم الانحراف غربا إلى جهة قناة السويس .. أعتقد أنها مسافة كبيرة .. يقاطعنى الجندى عطية قائلاً "ماهو يافندم البُعد عن الشر غنيمة وإحنا عايزين طريق سالك وبعيد عن مكان أولاد الأبالسة دوول .. وشيخ العرب قال من مكاننا لحد ممر متلا حوالى يومين ونص ورجع قال يعنى ميه وعشرين كيلو"

أيدت كل الأصوات أن نتجه جنوبا حسب وصف الطريق الذى اقترحه زعيم عصابة تجارة المخدرات واستشهد الرجل بأن هذا طريق رجاله لتهريب المخدرات لتجنب البوليس المصرى أو قوات حرس الحدود إنه طريق آمن رغم طوله بعض الشيء لكن المهم لنا أمان الطريق .. واصلنا سيرنا وحل وقت العصر فجلسنا أرضا وتحت أشعة الشمس حيث لا نخيل ولا أشجار وتناولنا طعامنا من المعلبات المسروقة من الجيش وبعض المياه وحصلنا على قسط من الراحة ثم أكملنا سيرنا فى الاتجاه الذى قرره كبير مهربى المخدرات .. أقبل الليل وكنا فى دوامة من الفكر هل نكمل مشوارنا أو نستريح ليلا ونسير نهارا .. كلاهما صعب ومر.. فالسير ليلا يحتاج إلى دقة نظراً لتغير أماكن النجوم .. لابد أن تغير اتجاه سيرك بواسطة النجوم كل نصف ساعة حتى لا نضل الطريق نظرا لدوران الأرض حول نفسها فتصبح علاقة النجوم مع الأرض متغيرة بناء على هذا الدوران.

أما السير نهارا فهو أحسن حالا من جهة الدقة ولكن أشعة الشمس وحرارتها تلهب الرءوس والأجساد النحيلة الضعيفة ولكننا تشجعنا بأننا قد تمرسنا على السير وعلى مقاومة العطش .. قُرب منتصف الليل حصلنا على راحتنا ولم نستيقظ إلا بعد انتشار أشعة الشمس فى المكان .. تناولنا الطعام القليل وشربة ماء وواصلنا السير فى اتجاه جنوب سيناء وما حدث أمس حدث هذا اليوم مع انعدام رؤية الأماكن الخضراء أو بدو. لا حياة إطلاقا حتى إننا لم نسمع أصوات طائرات العدو وهكذا شعرنا إننا نسير فى منطقة لا تتبع سيناء أو أن نهايتها محتومة بالضياع والتوهان بالصحراء الشاسعة .. اتبعنا منهج الأمس بأن حصلنا على راحتنا بعد منتصف الليل ولكن ما زاد عن الأمس هو التوتر الذى صاحبنا لما نحن فيه معتقدين أننا إما ضللنا أو أن هذا الخارج على القانون تاجر المخدرات أراد بنا سوءا.

استيقظنا مبكراً صباح اليوم التالى حيث ألم بنا العطش نظراً لأننا تناولنا "بولوبيف" دسم وتحيط به طبقة من الدهن ولم نملك تسخينه وأكلناه هكذا بدون وضعه على النار مما أشعرنا بالعطش أثناء الليل ولاحظت أن جميع الجنود ظلوا يطلبون المياه حتى قبيل الفجر وبالتالى نفدت كل المياه وشعر الجميع بالظمأ ودفعنا هذا إلى عدم النوم حتى وقت متأخر.

كانت مفاجأة الصباح أننا سرنا حتى وصلنا قريباً إلى الطريق الأسفلت أى الطريق الأوسط وهكذا سرنا قرابة السبعين كيلومترا وأثناء جلوسنا إذ نشاهد سيارة جيب صفراء اللون قريبة منا قاطعة الطريق الأسفلت متجهة إلى منطقة قريبة منا ولكن أحدا بداخلها لم يشاهدنا مما دفع بالجندى عامر إلى أن يقف ملوحا لهم بالوقوف "قائلا يا دفعة" معتقداً بأنها تتبعنا فجذبه أحد زملائه محذرا بأنها ليست لقواتنا ولحظتها انطلقت من داخل السيارة بعض الطلقات فى اتجاهنا لكن الجندى فراج كان أسرعنا استجابة حيث أطلق دفعة نيران على السيارة الجيب والتى انفجرت بسرعة وتطايرت أجزاءها فى كل مكان حتى أن بعض محتوياتها وصلت إلينا واكتشفنا أنها تحمل أغذية للجنود عبارة عن عبوات "علب كرتون" وبكل علبة عدد من أرغفة "الكايزر" وأنابيب صغيرة بها جبنة

ومربى كما زودت ببعض من الخيار والطماطم الطازجة وعلبة تفتح مثل علب السردين .. أى تفتح بفتاحة ملتصقة بها وهى نوعان .. إما مياه للشرب أو نوع آخر من علب البيرة.

لقد فرجها الله علينا فأسرعنا جهة السيارة المنفجرة نبحث عن بقايا من تلك الأطعمة وكانت العبوات كثيرة بالمنطقة المحيطة بالسيارة ، شاهدنا جثة الجندى الإسرائيلى ممزقة ومحترقة من أثر الانفجار الذى تبين أنه نتج من إصابة فراج لخزان الوقود بعدة طلقات أدت إلى انفجارها كما سمعنا أنات وبالبحث عن صاحب هذا الصوت تبين أنها لمجندة إسرائيلية كانت بالسيارة ومصابة وتطلب العون .. كيف سنعاونها؟ تركناها ونحن نلتهم الطعام ونشرب البيرة أو المياه.

كان واضحا أن إصابة الفتاة شديدة لأنها اندفعت بقوة الانفجار من السيارة الجيب واندفعت بسرعة كبيرة فى الهواء وسقطت أرضا وكانت تلك المنطقة صخرية وبها بعض الكثبان الرملية تغطى أجزاء منها ولكن المجندة وقعت أرضا فوق الصخور وتبين أن إصابتها فى الرأس وإحدى اليدين لأن الدماء مندفعة منهما بغزارة ونحن لا نملك شيئا لإسعافها وكان الجوع والعطش قد بلغ منا مبلغا كبيرا فانهمكنا فيما نحن فيه.

كنا نشعر أننا مقبلون على خطر ما فمن غير المعقول أن تتحرك سيارة للشئون الإدارية وتعمل بمفردها ولابد أنها كانت فى مهمة قادمة لإحضار المؤن للقوات بتلك المنطقة ولم نكن نميز أى قوات بسبب الشمس الساطعة وعدم وجود نظارات ميدان تساعدنا على ذلك كما كان لإهمالنا عنصر الأمن هو العامل الحاسم فى مشاكلنا التى تقابلنا فكل ما نريده هو وجبة طعام وبعض الماء لنعوض ما استهلكناه فى الأيام الماضية بعد مغادرتنا عزبة الشياطين التى كنا بها لكنى شاهدت رمز قوات المظلات الإسرائيلية على باب السيارة المحترقة وهذا أكد لى بأن قوات مظلات قريبة منا وهى من ضمن القوات الإسرائيلية شديدة البأس فى قتالها.

أسرعنا نتناول ما نستطيع من طعام وشراب ولكن لم نهنأ على ما نحن فيه إذا شاهدنا سيارة جيب عسكرية إسرائيلية قادمة فى اتجاه السيارة التى مازالت

النيران مشتعلة بها بعد أن قسمها الانفجار إلى عدة أقسام تطايرت بعيدا عن بعضها البعض .. تركنا الطعام ورقدنا فى وضع الاستعداد. كانوا ثلاثة أفراد وتبين أن أحدهم ضابط لما هو على كتفه من علامات الرتب العسكرية اقتربوا أكثر وهم موقنون أن سبب احتراق السيارة الجيب هو عمل عسكرى ضدهم ولهذا فقد كانوا مستعدين لنا وعندما اقتربوا منا وميزوا موقعنا فتحت الرشاشات التى لديهم فى اتجاهنا ومازالت السيارة قادمة بسرعتها وهنا فتحنا نيرانا فى اتجاههم .. ست بنادق كلاشنكوف فى اتجاه هدف متحرك فى اتجاه الساعة (١٢) وهو الاتجاه المقابل لنا مباشرة .. الدفعة الثالثة من النيران انقلبت السيارة على جانبها بعد انفجار كاوتش السيارة الأمامى واندفع أحدهم خارج السيارة مضرجا بدمائه جثة هامدة لا يتحرك بينما قفز الضابط من داخل السيارة مسرعا يحاول العودة للخلف ويطلق النيران فى اتجاهنا ولكن دفعة أخرى من النيران أسكتته وسقط صريعا بعد عدة أمتار أما الثالث فقد تبين أنه قتل وأنه كان السبب فى انقلاب السيارة حيث فقد الاتزان بعد أن فارق الحياة .. أصبحت المنطقة بها أربعة قتلى إسرائيليين وجريح على وشك الموت ولهذا أسرعنا بالفرار نغادر المكان لأننا نعلم أنهم يراقبوننا وسوف يحضرون لأخذ قتلاهم وقتلنا والتمثيل بنا.

هبطنا بسرعة من فوق قمة التل الصخرى لنجد واديا فسيحا من الرمال وأقل ارتفاعا من التل بحوالى عشرة أمتار. انهالت علينا قذائف مدافع الهاون القاتلة فقد رصدوا موقعنا وكانت تلك القذائف تلاحقنا خاصة أننا كنا فى منطقة مفتوحة والانفجارات تتوالى حولنا ونسقط على الأرض تجنبا لآثارها القاتلة أما القنابل التى كانت تسقط على قمة التل الصخرى فكانت تُسمع لها أصوات انفجارات شديدة ومدوية والشظايا تتطاير من حولنا ويصاحبها صخور ملتهبة.

لقد أصبحنا مثل ست نملات فى وسط صينية ضخمة والقذائف تنهال علينا من كل جانب .. البحث عن مكان نختبئ به هو أملنا الوحيد حتى لا نصبح لقمة سائغة لتلك القذائف القاتلة.. نبهنا أحد الجنود إلى أنه فى الجانب الآخر يوجد ما يشبه الكهف أسرعنا بكل ما أوتينا من قوة نلتمس به الحماية والأمان مما

نحن فيه ووصلنا إليه ولكننا فوجئنا بعدو آخر لم نتوقع وجوده .. شاهدت كلبا يقف على باب الكهف ولكن أحدهم أخبرنى بأنه "ذئب" أنثى ذئب ومعها العديد من صغارها وقد أفزعتها الانفجارات فوقفت على باب الكهف فى حالة من التوتر التام ونظرت إلينا ونحن أمام فتحة الكهف وقد أظهرت أنيابها وهى تعلو صارخة بعواتب الذئب المخيف لبنى الإنسان .. مازالت الانفجارات تلاحقنا وأصبحنا أمام خيارين كلاهما أصعب من الآخر. فإما أن نبقى فى هذا المسطح المفتوح لقمة سائغة لقنابل الأعداء تمزقنا أو ندخل الكهف ويمزقنا ذلك الذئب الهائج .. تخيرنا الحل الثانى فمن الممكن قتلها أو تصيب أحداً منا وينجو الآخرون. تقدمنا واستعد الجويلى لإطلاق النيران عليها والأم فزعة على أبنائها.

عادت الأم بظهرها واضعة ذيلها بين قدميها الخلفيتين واتجهت لأبنائها وهى مازالت فى حالة استعداد ونامت فوقهم تحميهم.. كان عددهم ستة من الجرو الصغير الذى يقارب فى الحجم حجم قطة متوسطة العمر وأشبه بالكلاب الصغيرة وكان باديا عليهم أنهم مازالوا فى مرحلة الرضاع من حركاتهم الغير متزنة وأصواتهم الصغيرة رفيعة النغمة .. نامت الأم فوقهم لتحمى صغارها آخذة شكل هلال حولهم والصغار بداخل هذا التجويف .. أسرعنا بالدخول إلى الكهف وجلسنا نلهث ونرتجف بجوار الذئب ولا نعلم ماذا سوف يحدث لنا؟ لقد أصبحنا بين اثنين من الأعداء، فقد تقوم الأم فجأة وتهجم علينا وتمزقنا أو يحضر اليهود بعرياتهم المدرعة لقتلنا وذبحنا ونحن لا نستطيع الوقوف أمامهم سوى دقائق والمعركة محسومة النتائج من قبل وقوعها.

؛أصوات الانفجار مازالت تتلاحق بعضها يقترب من مكان الكهف والبعض مبتعد.. يقومون بعملية تفتيش بنيران المدفعية لعلهم يصيبوننا أو نرفع راية التسليم لهم .. أنظر إلى الكهف فأجد أن مساحته صغيرة للغاية فارتفاعه لا يزيد عن المتر وعمقه ثلاثة أمتار وواجهته حوالى متر ونصف ويرتفع عن منسوب الوادى الرملى الذى كدنا أن نلقى حتفنا فيه بحوالى المترين وبداخله بعض الرمال الناتجة من الرياح التى طمرت تلك الصخور وغطتها بالرمال ولكن الأساس هو

أن المنطقة صخرية حتى آننا كنا نسمع أصوات الانفجار فوق سطح هذا الكهف وتحدث هزة عنيفة وأصوات مؤلمة لآذاننا.

مازلنا جلوسا ننتظر قضاء الله وقدره وليس فى وسعنا شىء نفعله غير أننا مستعدون للقتال وأجزاء السلاح جذبت للخلف وكل ماسورة بها الذخيرة لتندفع فى اتجاه آى قوة تحضر للفتك بنا حتى لو كانت دبابات. فلن نستكين وسنقاتل إلى آخر طلقة مثل ما كنا نقرأ عنه فى الشعارات وقد تفيد الشعارات فى بعض الأحيان وما هو البديل ان نموت شرفاء شجعانا بدلا من أن نموت باكين متوسلين لهم ولن يجدى معهم هذا التوسل لأن القوى يحترم القوى الآخر .. وهم من ذلك الطراز الذى يخشى العنيد المقاتل .. مازال العرق الغزير يخرج من أجسادنا مع نبضات قلوبنا المرتفعة ليس خوفا ولكن من المجهود الذى بُذل فى الجرى والعدو لنبتعد عن القذائف القاتلة.

مملكة الذئاب

مضت أكثر من خمس عشرة دقيقة على وضعنا الحالى وبدأت نفوسنا تستعيد وعيها وقل نبض القلوب ونحن على علم تام أن اللقاء لم ينته بعد مع هؤلاء الأوغاد قتلة الأنبياء ومازالت الأم الحنون الذئبة ترتجف محتضنة صغارها وقد فكرت مثلنا ماذا تفعل وليس أمامها سوى خيارين كلاهما مر فإما أن تخرج خارج الكهف وتأخذ صغارها وتعرضهم لهذا الدمار التى تشاهده أو تبقى مع أعدائها من بنى الإنسان وقد اختارت الحل الثانى مثلنا ولعلها شعرت أننا مثلها ضعفاء أمام عبقرية القتل التى اخترعها الإنسان وكما قال رب العزة "إنه كان ظلوما جهولا" صدق الله العظيم.

لا أستطيع فى غمرة تلك المأساة التى لحقت بنا والتى تتمثل فى أن حياتنا أصبحت على كف عفريت وأن موعد الإعدام بالجملة فى هذا الكهف والذى سيصبح مكانا للذبح والسلخ كلنا أمام بعض أو كلنا سويا إلا أننى أذكر حكمة الله فيما كنا فيه ونحن فى هذا الوضع المؤلم الذى لم نتعرض له قبلا وما كانت عليه الحالة بين الأم وصغارها وهم ممسكون بحلمات ثديها يمتصون الغذاء الذى وهبه الله لهم ليحيوا كما يحيا الآخرون فتتشاجر الصغار وتتعارك على ثدى الأم والذى

يفقد حلمة يبحث عن أخرى فيجد أخاه ممسكا بها فيحاول أن يكون هو صاحب النصيب وهكذا شجار وعراك والموت أقرب إليهم من حبل الوريد أما الأم فهى مازالت ترتعد وتزيد من احتضانها لصغارها كلما مر الوقت وكأنها تعلم ماهو القادم لكل هؤلاء الذين يعيشون فى هذا المكان الواحد.. أعداء لبعضهم البعض أصدقاء عندما يكون العدو واحد ونهايتهم واحدة بدون ترتيب أو تمهيد لكى نعيش سويا.. إنها يد القادر وحكمة الله فى مخلوقاته.

نسمع صوت طائرة هليكوبتر تفتش المكان وتقترب منا وتطلق عدة دفعات من نيرانها ثم تذهب الطائرة وتعود ثانية وعند هذا يندفع الجندى جويلى الذى تدرب على العمل فى فصيلة الرشاشات الثقيلة المختصة بضرب الطائرات المنخفضة يتحرك هذا الجندى الشجاع من تلقاء نفسه ويطلق خزنة بندقيته فى اتجاه الطائرة حيث كان أحد القناصين اليهود بالطائرة يطلق نيران مدفعه الرشاش.. الذخيرة ُتصيب هدفها بدقة فقد شاهدنا الجندى الإسرائيلى متدليا من الطائرة بعد أن مزقت النيران صدره تماما من بندقية جويلى والدماء تتساقط أرضا والطائرة تسرع لإنقاذه ولكنه قتل وسقط سلاحه من يده أمامنا مباشرة ومازال معلقا بالسير الذى وضعه حول جسده.

كل شيء قد حدث وننتظر ردة الفعل القاسية ، أشرت إليهم بعدم الاندفاع لمثل تلك الأفعال التى لا ُتحمد ُعقباها بينما الجنود فى منتهى السعادة أن استطاع زميلهم أن يقوم بهذا العمل الناجح وليكن ما يكون ، هذا هو شعورى الداخلى أيضا ولكننا كنا فى مأزق شديد الصعوبة لأننا محاصرون داخل هذا الكهف فلقد تأكدوا الآن من وجودنا ولابد لهم أن يأخذوا بثأرهم منا.. لم يدم الحال عدة دقائق فحضرت طائرة هليكوبتر أخرى تتقدم بنفس الاتجاه ونفس المسافة وأطلقت صاروخا فى اتجاهنا وقد انبطحنا جميعا أرضا عدا الجندى عطية والذى شاهدته يضع يده على وجهه ولم نشعر سوى بصوت الانفجار واندفاع رمال ساخنة ملتهبة على ظهورنا وصوت صراخ عطية وصوت عواء الذئبة الأم وابتعد صوت الطائرة.

أفقنا بعد أن تلاشى الغبار لنجد أن النيران المتصاعدة والرمال الساخنة قد ألهبت ظهر يد عطية ، صرخ عامر متسائلاً: أين الذئبة وصغارها؟ اندفعنا الى مكانها حيث كانت الرمال قد أطمرتهما بأسفلها وبسرعة كشفنا الرمال من فوق الأم وصغارها ولكن الرمال الملتهبة ألهبت ظهر الأم فلم نجد شعرها وجزءا من جلدها فقد احترق ورائحة حريق الشعر والجلد تغشى أنوفنا ، عثرنا على الصغار الستة على قيد الحياة حيث حمتهم أمهم بجسدها مانعة تلك الرمال المشتعلة أن تصل إليهم وجذبنا الصغار وهى مازالت متعلقة بحلمات ثديها ترضع منه وهى لا تعلم ما حدث للأم التى مازالت على قيد الحياة تتلوى من الألم وهنا تفتق ذهن مصطفى بأن يضع عطية بعضا من ماء البيرة على يده لتخفيف الألم ، فعل هذا وعطية يصرخ ألما ثم عاد بعد فترة وشعر بالراحة وقد انخفض مستوى الألم الذى كان يعانى منه وأصبحت يده محترقة مثل ما يقلى الإنسان دجاجة فوق الزيت ، أعجبتنا الفكرة لننفذها على الأم التى كان لحمها أسفل جلدها ظاهرا وجسدها ينتفض.. صعد صوتها عاليا وأخافنا نحن البشر وقد أسرع صغارها إليها بحاستهم حيث مازال نظر الصغار ضعيفا لا يقوى على الإبصار الواضح وهى تلتهم حلمات ثديها ولم تمض فترة قصيرة إلا وعادت الطائرة مرة ثانية واستطعت أن أتميزها.

الطائرة تابعة لقوات المظلات الإسرائيلية وهم الجنود الأشد قسوة فى قتالهم حيث يقاتلون تحت عقيدة أننا المصريين كفار.. تطلق صاروخا أخطأنا أو قل أخطأه الله فلم يدخل إلى الكهف بل ارتطم بصدر الكهف من أعلا محدثا دويا هائلا وإذا بصخور كثيرة تتساقط لتقفل فتحة الكهف إلا من فاصل بين الصخور فى حجم طبق فنجان القهوة لنشاهد ما يحدث بالخارج ويساعدنا على التنفس أيضا.

سمعنا عقب انفجار الصاروخ انفجارا آخر لكنه أبعد قليلا عنا وسُمع فى أعقابه أصوات طائرات هليكوبتر عديدة وأصوات محركات عربات وصراخ رجال ونحن لا نعلم شيئا فقد دفنا فى هذا المكان ونحن أحياء ومازلنا ننتظر منهم الخطوة التالية ولكن مر الوقت ونحن لا نرى ولا نشعر بغارات جوية علينا حيث

كان الهرج خارج المنطقة وبدأت أصوات الطائرات تقل رويدا رويدا حتى تلاشت وأعقبها انخفاض لأصوات العربات الجيب وأصوات البشر الذين كانوا يتحدثون العبرية والإنجليزية فى آن واحد واستطعت آن أميز منها بعض الكلمات وخاصة كلمة انجليزية (That is enough) ذات إذ انف" ومعناها هذا يكفى.

ساد المنطقة هدوء تام ولم نعد نسمع سوى صوت الذئبة الأم وشجار الصغار، اقترح احد الجنود أن نروى ظمأ هذا الحيوان المسكين من أجل صغاره بل وأن نقدم لها الطعام فقام أحدهم بفتح علبة بولوبيف ووضعها أمامها ولكنها لم تنظر إليه وقام الآخر بفتح فمها وصب فيه مشروب البيرة وهى غير قادرة على شربه ولكنها شربت جزءا منه عنوة بعد أن صب الجندى المشروب فى فمها الواسع.. مازالت الذئب تعوى وصوتها داخل الكهف يحدث أثرا نفسياً سيئاً فهو ليس بالمحبب وما نشاهده من خلال الضوء المتساقط من الفتحات الصغيرة من خارج الكهف وخلال الفواصل بين الصخور التى أغلقت فتحة الكهف والتى لا تستطيع أنثى الذئب وهى سليمة بأن تخرج منه لصغره فأيقنا أننا هالكون لا محالة وكيف نحرك تلك الصخور وكل صخرة أقرب فى الحجم من النصف متر مكعب وهى صخور عديدة وكثيرة.

اقترب المساء وقلت الرؤيا ونحن جالسون هكذا وأيقن الجميع أن نهايتنا حتمية فى تلك المقبرة وكيف سنخرج منها ومن سيحضر ليفك أسرنا ، كيف سيفك هذا الأسر برفع تلك الأثقال الضخمة التى سقطت فوق بعضها البعض لتحدث حائطا صلبا أشد قسوة من الخرسانة المسلحة.

نظر كل فرد فينا إلى الآخر يتذكر كيف سيكون عليه الحال وماذا يحدث للمتوفى بعد أن يغلقوا عليه باب المقبرة وماذا لو حدث ودبت فيه الروح مرة ثانية؟ كيف يستغيث وكيف يستطيع أن يفتح المقبرة وقد شيدت بالطوب والأسمنت؟ لقد أصبحنا مثل المتوفى لكن المتوفى أحسن حالا لأن روحه صعدت إلى ربها ولم يعد أمامه سوى عذاب القبر.. إذًا فسيكون الأمر معاكسا معنا حيث سنعانى من عذاب القبر أولا ثم تصعد روحنا إلى بارئها.. بدا التوتر يصاحبنا خاصة بعد أن لاحظنا خمود حركة الذئبة وبعد قليل حركت قدميها بسرعة

وخرجت روحها وأصبحت جسداً محروقا بجوارنا ، بعد هذا بقليل بدأت صغارها تصدر أصواتا رفيعة والتى تشابه أصوات الكلاب الصغيرة وتسير على غير هدى بيننا وإذا تعثرت فى إصبع أحد منا فتقوم بمصه اعتقاداً أن هذا ثدى الأم.. تأثرنا لهذا الشعور الإنسانى ونحن نشاهد صغاراً رُضع حرمت من حنان ورعاية أمهما وأنها ستلاقى حتفها مثلنا.. اقترح أحدهم أن نطعمهم بقليل من "البولوبيف" وحاولنا ولكن الصغار امتنعت عن تناوله ، ماذا نفعل فقد نسينا همنا أمام ماهى فيه وكأن هذه الصغار من بنى آدم ولكن الله طلب منا الرحمة بالحيوان وخاصة هذا الضعيف وانفرجت أسارير الجندى الجويلى عن قص روايات من بلدتهم بالريف عن أن أمثال تلك الحيوانات بأنها ملائكة وقد نمتنع عن إطعامهم فتظهر على حقيقتها وتسخطنا قرودا فضحك زملاؤه من تلك الرواية وعلق عليها مصطفى قائلاً:.. أيوه.. ارجع إسكندرية وأنا قرد.. يا مرسى أبو العباس وبدلا من اسمى مصطفى حنون حيبقى اسمى مصطفى ميمون.. ضحكنا لهذا التعليق.

عم الظلام وهاهو الليل يقبل ونحن مدفونون فى تلك المقبرة بدون حركة ونقضى حاجتنا فى نفس المكان وبداخل ملابسنا وبجوارنا أنثى الذئب التى قضت نحبها تاركة ستة من صغارها بجوارنا يصرخون من الجوع وفقد الأم ، من حين لآخر تذهب الصغار إلى جسد الأم يلعقونه ويقفزون على رأسها ويلعبون بذيلها يريدون أن تبادلهم اللعب والحب الذى تعودت عليه ولكن لا حياة كما أنها تحاول لعق حلمات صدرها دون فائدة فتعود إلينا صارخة وقد ألم بها الجوع.

كان هذا المنظر وتلك التصرفات تؤثر فى مشاعرنا وأحاسيسنا ونحن على هذا الحال لا أمل لنا فى النجاة وحتى إذا فرج الله كريتنا هل نضمن ألا نجد اليهود فى انتظارنا خارج هذه المقبرة اللعينة ليمزقوا أجسادنا بأسلحتهم بعد ما اصابهم منا حيث قتلنا ستة منهم بالإضافة الى المجندة التى هى أقرب إلى الموت منها للحياة.

تفتق ذهن أحدنا بأن يضع إصبعه فى علبة البلوبيف وتلعقها الصغار وقد أتت ببعض النتائج حيث تبادل هذا مع باقى الصغار التى كانت تأتى له صارخة

طالبين جرعة أخرى.. اقترح أحدهم أن نضيع وقتنا فى السمر والحديث حتى يمن الله علينا بالفرج أو اللقاء معه بأن يدلى كل شخص منا بحكاية تقطع السكون المطبق علينا والظلام الممسك بأعيننا والهواء الفاسد على صدورنا من الروائح التى بدأت تنبعث من الكهف سواء لما تم إخراجه من بطوننا أو من عدم تجديد الهواء كما أن البكتريا بدأت عملها فى أمعاء وجسد أنثى الذئب.

بدأ الجندى جويلى الحديث وهو من أبناء الريف بمحافظة الفيوم حيث قال:

فى إحدى أمسيات الصيف وأثناء رى أرضنا الزراعية وكان الرى يتم ليلاً حسب تقسيم فترات الرى بين الفلاحين وزراعة الأرز تحتاج مياها كثيرة كنت اساعد أبى ومعى إخوتى الثلاثة ، طلب منى أبى أن أذهب لآخر الأرض لتتبع المياه حتى لا يعوقها مانع من أن تذهب إلى باقى أحواض الزرع التى نرويها وبعد ان أنهيت مهمتى وبينما أنا عائد فإذا بى أشاهد ذئبا أمامى، وقفت وتسمرت فى مكانى وأنا أحمل فأسى وفكرت فى طلب النجدة من إخوتى وأنا أعلم أن الذئب سريع الحركة وقد يهاجمنى فى أى لحظة، قلت فى نفسى سوف أستعد له حتى إذا هاجمنى اضربه بفأسى ضربة قوية قبل أن يحدث بى إصابات وبينما أنا على هذه الحال سمعت صوت ذئب آخر يعوى من على مسافة فأجابه الذئب الذى أمامى بنفس طريقته فى العواء.

هنا قاطعه أحد الجنود قائلاً: لماذا تقلد عواء الذئب وأنت تقص حكايتك إن صوته يخيف أى إنسان ، أجابه جويلى بأنه لم يصدر أى صوت خلال قصته واستمر جويلى يكمل قصته فإذا بنا نسمع نفس صوت عواء الذئب مرة أخرى ، طلبت منه عدم تكرار هذا فنفى الجندى ذلك وسألت الجميع من منكم أحدث هذا الصوت لأننا كنا فى ظلام دامس.. نفى الجميع بأن أحدا منهم قلد صوت الذئب ولكن المفاجأة أن الصوت كان لذئب حقيقى يقف أمام الكهف يعوى بصوت مرتفع يتردد صداه بين جنبات الجبال المحيطة بنا فى سكون.صحراء سيناء الصامتة ليلاً، إذاً هناك ذئب حقيقى ، اضطرب البعض منا ثم عاد إلينا الهدوء وتذكرنا ساعتها أننا نحمل سلاحا نستطيع قتل العديد من الذئاب.

وبينما نحن نتحاور إذا بنا نشعر بحركة تجرى بين أرجلنا. لقد كانت الذئاب الصغيرة وكان اعتقادنا بأنها خائفة ولكن هذا لم يحدث فكلما أمسكنا ببعضها لنحاول حمايتها وإشعارها بالأمان بيننا نجدها تتركنا وتحدث أصواتا رفيعة الصوت لعواء الذئب خاصة عندما يقترب الذئب الخارجى من الصخور وبصوت أقل ضجيجا يحدث أصواتا مثل الأصوات التى تحدثها الكلاب عندما يضربها أحد.. ساورنا إحساس بأن هناك شفرة ما بين الذئب بالخارج وتلك الصغار وقد أفتى أحدنا بأن الصغار تعتقد بأن هذا الصوت هو صوت أمها ولذلك فهى تحاول الرد عليها ولكننا أخطأنا لأن الصغار تذهب لأمها وتحدث حركة معها وتحدث أصوات صغيرة تدل على ما يحاول الذئب الكبير أن يفعله.. هى أصوات أقرب إلى البكاء.. كان هذا هو فارق الأصوات التى وصلت الى آذاننا ونحن فى هذا الظلام الدامس. توقفنا عن الحديث حتى لا تأتى سيرة شىء آخر ويحضر مثل ما حضر الذئب على السيرة تلك التى كان يتحدث عنها الجويلى.

شعرنا بأن هناك حركة مستمرة من ذئاب كثيرة خارج الكهف وكان اعتقادنا وما يزال أنها قادمة لافتراسنا وكنا نتمنى منها أن تحاول فك هذا الحصار عنا ونحن جاهزون لها ولكن هذا لم يحدث.. أمضينا تلك الليلة ونحن على هذا الوضع نسمع أشياء ولا نعى ما يحدث خلف الجدار من الصخور البازلتية السوداء كما كنا نشعر بأن أشياء تسير على أجسادنا أو أيادينا وفى الغالب كانت فئران وسحالى.. أمضينا تلك الليلة بين عواء الذئاب خارج الكهف وردود من الصغار معنا حتى انبلج الصباح وضربت الشمس بضوئها القوى المنطقة فانعكس على الرمال الصفراء الناعمة فعم الضوء علينا بالداخل ولكن هالنا وجود تلك الذئاب الكثيرة خارج الكهف وهذا شىء غير مألوف أن تظهر الذئاب نهاراً حيث إن نشاطها كله يكون أثناء الليل.

شاهدنا ذئابًا كثيرة بالخارج وهى تحاول أن تجد ثغرة تنفذ منها إلى الداخل ولكن دون جدوى مع ما يمثله هذا من أنات ضعيفة صادرة منها وخاصة من أحدهم ذلك الذئب الضخم الذى يصدر أصواتًا تعكس أن هناك شيئا يعانيه

مشاركا باقى الذئاب وقد اقترح أحد الجنود آن نقذف "بجرو" من الصغار للخارج حتى نرى ماذا سيحدث له ولكن الباقين رفضوا هذا متعللين بأن تلك الذئاب ستفترس الجرو الصغير فى الحال ولكن أشد ما كان يدهشنا هو تصرف الصغار حيث يحاولون التوجه إلى مصدر الصوت بمحاولة تسلق الصخور فلا تستطيع وتقع أرضا بجوارنا، آخذت بفكرة إلقاء الجرو الصغير إلى الخارج لاختبار الذئاب حيث اقترحت عليهم أن نقطع جزءا من جسم الذئب الأم المتوفاة ونقذف به من الكوة التى نشاهد منها تلك المشاهد ونرى ماذا سيحدث ، اجتمع رأيهم بأن الذئاب ستتقاتل من أجل تلك القطعة فأجبتهم بأننا لن نخسر شيئا فلقد ماتت الأم وعلينا التجربة فترددوا وأخيرا تشجع فراج ابن الصعيد وأخذ بالسونكى وقطع ربع الذئب الخلفى وقذف به من الكوة وهنا اجتمعت كل الذئاب حول ذاك الجزء ولكن المدهش أن أحدا من الذئاب لم يقترب من تلك القطعة لالتهامها كما كنا نتوقع ولاحظنا أن الذئب الضخم الذى يحاول النفاذ إلى داخل الحفرة وقف ينظر إلى تلك القطعة محدثا أصوات ضعيفة مثل ما سبق وقلت كصوت كلب ضربه أحد ضربا مبرحا فيجرى صارخا.. هذا ما حدث والذئب يدور حول ذاك الجزء يعوى باستكانة ثم ينام أرضا واضعا فمه فى الرمال ويقف ويلف حول نفسه ثم تأتى إليه بعض الذئاب تلعق جسده ومازال على هذا الوضع المأساوى الذى شعرنا به نحن بنى البشر.

نحن جميعا مشغولون بهذا المنظر ولا ندرى أيهما هو الصحيح هل جاءت تلك الذئاب لالتهامنا أم جاءت من أجل الأم وصغارها وقد كنت أعلم من مشاهدة برامج عالم الحيوان أن تلك الحيوانات اجتماعية وتعيش فى قطعان مثل الماشية والأغنام.. وأخيرا ما نشاهده الآن ولم نشاهده من قبل بأن الذئب الضخم حفر بمخالبه حفرة ودفع بذاك الجزء المقطوع إليها وأهال الرمال فوقها ونام فوق تلك الحفرة يحدث أصوات البكاء والألم التى تصدر عن الكلاب بعد ضربها أو إيلامها.. زاد تأكدنا أن الأم تنتمى لهذا القطيع وقد يكون الذئب هو الأب وذهب لإحضار طعام وعاد ليجد أن جحره قد تم تدميره ولم يعثر على الصغار وأمها وهذا ما دفعه لطلب النجدة بهذا العواء المتتالى والذى حضر على إثره العديد من

الذئاب من باقى القطيع كما أن همساته من خلف الصخور للصغار فهمت منها تلك الصغار أنه أبوهم وهو يحدثها بما لا نعلمه وفوق كل ذى علم عليم.

قررنا التضحية بأحد الصغار بدفعه للخارج وأثناء تلك المناقشات وجدنا ذئبا آخر يقف بجوار الذئب الأول ولكن الملاحظ أن ذاك الذئب كان أنثى حيث ظهر ثديها وحلماتها مما يدل على أنها أم ترضع جراءها لسقوط تلك الحلمات وبروزها مثل ما نلاحظ كلاب الأمهات ويتعاطف معها الناس بأن تلك الكلبة أم ترضع ويعطيها البعض طعاما من أجل صغارها التى ترضع.. اقتربت الأنثى تهمهم بصوت خفيض وقد أيقظ هذا نشاط الصغار أكثر من السابق.

تشجعنا بأن نقذف بالصغير لهم ونرى ماذا سوف يحدث خاصة بعد حالة القلق التى شابت الصغار كلما حضرت تلك الأنثى مقتربة من الصخور تهمهم بأصوات تدفعها للانفعال ومحاولة الوصول لها.. مد مصطفى يده بأحد الصغار من الفتحة إلى الخارج دافعا بالصغير الذى تدحرج على الصخور وكنا نسمع صوته وصراخه ونراقبه فى نفس الوقت ، حضرت الذئاب جميعها بعد أن أطلق الذئب الكبير عواءه الشديد وتجمعت حول الصغير ونحن نتوقع أن تلتهمه ولكن خاب ظننا ونجا الصغير حيث احتضنه الذئب الكبير لاعقا جسده الهزيل والذى كان يسقط على جانبه من كل لعقة يلعقها له ثم أمسكت به أنثى الذئب من رقبته وتدلى من بين فكيها ونامت فاردة أرجلها تاركة الصغير يبحث عن حلماتها ويصرخ ويرضع منها من شدة فرحته..

صفقنا لنجاح التجربة.. إذًا كل هذا العدد جاء لإنقاذ الأم وصغارها.. أرسلنا بالثانى وما حدث للأول حدث له ونحن نشاهد الصغيرين يرضعان بنهم من صدر الأم البديلة كل هذا والصغار الموجودة معنا لا تكل عن البحث من مخرج ولا تهدأ وتصعد قليلا ثم تسقط بالداخل وتصرخ من سقطاتها.. اكتمل عددهم بالخارج ستة من صغار الذئاب وانضمت ام ثانية للأولى للمعاونة فى إرضاع الصغار وتدفقت الدموع من أعيننا جميعا لهذه القدرة الإلهية وسعادتنا لا توصف متمنيين من الله أن نحذو حذوها وتفرج كربتنا.

مضى على وجود الصغار ما يقرب من الساعتين مع عائلاتها وفراج يصف لنا كل ذئب وذئبة قائلا: هذا خالها وذاك عمها والأخر جوز عمتها وهكذا مما ادخل البهجة والسرور إلى قلوبنا.. انتهت الصغار من طعامها ونامت فى أحضان الأمهات البديلة بجوار هذا الثدى الذى انزل الله له طعامه الذى يحييه ويمدها بالحياة ويمنع عنها الموت جوعا.

نلاحظ الآن أن كل ذئب التقط صغيرا بين أنيابه ويسير به والصغير لا يتألم وكل مسافة ينزله ثم يعود فيحمله أو يحمله ذئب آخر حتى توارت عن أعيننا وانتهت تلك الملحمة الإلهية فشعرنا بنصر كبير لما تحقق واثقين أن الله لا ينسى مخلوقاته وان الله سيجزى كل إنسان بما يستحقه.

أسندنا ظهورنا للخلف وقررنا عدم تناول الأطعمة المحفوظة التى حصلنا عليها من تاجر المخدرات وزملائه ، هذا هو نهار اليوم التالى لوجودنا فى تلك المقبرة الجماعية ولم يجد جديد فلا أصوات محركات خارج الكهف ولا نشاهد أثرا للبدو يسيرون فى تلك المنطقة وقد أيقنا أن مهرب المخدرات قد أرسلنا إلى التهلكة وقد أثار هذا غيظنا وحنقنا وخاصة فراج الذى قرر إذا شاء الله وأنقذنا فسيعود لهم مفرغا خزنة بندقيته فى أجسادهم ، رغبت فى أن أعيد الاتزان النفسى لنا جميعا بأن رُب ضارة نافعة ولولا حضورنا هنا ما قتل هذا العدد من الأوباش اليهود ولقد تمنيتم أن نقوم بمعركة قبل أن نموت أو نعود لوطننا حتى نثبت لأنفسنا أننا مقاتلون ونثأر لشهدائنا.

أعادت تلك الكلمات المشجعة روح التفاؤل إليهم وتبادلنا الأحاديث العادية والبعض يغنى بعض أغانى شعبية يتقنها حتى يمر الوقت علينا إلى أن يظهر الله إرادته الأخيرة وقد نفدت كميات المياه والبيرة وهكذا أضيف إلى نفاد الطعام المياه ولم يتبق سوى السبب الرئيسى الأول فى حياة البشر وهو الهواء الذى ازداد فساداً وقلت كميته وأصبحنا نسمع أصوات تنفسنا مثل ما يتنفس الإنسان الذى بذل جهدا فيسمع صوت الشهيق والزفير.

تحدث عامر قائلاً: اننى سأقابل ربى سعيدا بعد ما أنجزناه أمس مع هؤلاء الأندال.. لماذا انسحب الجيش؟ لو أن كل جندى من جنود الجيش فعل مثلنا لقتلنا

كل الجيش الإسرائيلى.. لو أن كل جندى قبل أن يقتل قتل عدوا منهم لهزمناهم وتبقى نصف جيشنا لكن أن نهرب أمامهم هكذا ونجعلهم يسوقوننا مثل الخراف التى يسوقها الجزار إلى السلخانة فهذا الخطأ بحد ذاته.. يؤيده البعض ويعارضه آخرون قائلين: هل كنت تتوقع أن يكون الباقون شجعانا مثلنا.. لا تحكم على الآخرين فلقد شاهدت العديد ممن ساروا معنا ثم ركنوا إلى كهوف الجبل ليلقوا حتفهم عطشا بينما نحن قاومنا حتى أنقذنا الله.

أقبلت الليلة الثانية علينا وازداد عطشنا وألمنا وخاصة أننا لا نستطيع فرد أرجلنا لصغر مساحة الكهف مع صعود رائحة تحلل الذئب بجوارنا.

تغفو عيوننا ونستيقظ ثم نغفو وهكذا نوم بطىء متقطع غير مريح لأن كل عوامل الضغط النفسى واقعة علينا وما هو شعور الإنسان الذى يعلم أنه هالك فى هذا المكان وقد أثر هذا فى عطية حيث خرجت منه أصوات حزينة يناجى ربه قائلاً: ليه يا ربى تفعل هذا بنا؟ إننا لم نخطئ وإذا أخطأنا فالكثيرون قد أخطأوا ولم تعاقبهم.. أتفعل هذا بنا لأننا نؤدى الخدمة العسكرية بغرض الدفاع عن الوطن.. إذا كنت قد حكمت علينا بأننا كفرة فهذا غير صحيح أما إذا كان ديننا الذى نتمسك به هو دين غير صحيح فنحن لا نعلم ماهو الدين الصحيح.. نجنا وأخبرنا بالدين الذى نسير عليه ونحن سوف نتبعه قاطعه جويلى قائلاً:

ستكفر بالله.. اخرس ولا تفتح فمك.. كلنا ميتون هكذا يقول الله.. وإذا بالجندى عطية يشيح بيده منهاراً أين الله الذى تتحدث عنه؟ لو كان ربا كما تقولون ما تركنا هنا.. كيف نعبد ربا لا ينقذنا؟ ازدادت الأمور تعقيداً وارتفعت أصواتنا وخاصة عطية وجويلى الذى كان الجدال والنقاش مازال قائما بينهما وعندئذ ازداد تهور عطية واندفاعه مقررا أن ينهى حياته بإطلاق عدة رصاصات على رأسه ويستريح من هذا الألم الذى يعانيه منذ وصولنا إلى سيناء.

صرخت فيه آمرا بأن يهدأ ولا داعى لكل هذا فنحن فى مركب واحدة ولكنه قاطعنى صارخا مثلى "أنت ملكش عليا أوامر.. فاهم وإلا والله أضربك بالنار قبل ما أموت نفسى". .أجبته أنا عارف مليش أوامر عليك ولا على أى حد هنا كلنا

ظروفنا منيله بستين نيله لكن آنت لما تضرب نفسك بالنار معناها منتحر.. طيب ليه؟ مش يمكن ربنا اللى آنت زعلان منه يفرجها علينا زى ما فرجها من أسبوع فى جبل المغارة.. مش بتسمع إن فيه دعاء بيقول"لا تقنطوا من رحمة الله".. أنت لما تضرب نفسك بالنار حتموت ونموت معاك على طول لأن اليهود حيسمعوا صوت ضرب النار وييجوا بسرعة يخلصوا علينا.. شفت ربنا أنقذ الدبابة الصغار إزاى.. هوه اللى أنقذهم مش إحنا لما بعت لهم أمهات يرضعوهم ويحافظوا عليهم.. اهدأ يا عطية وبكره ترجع بلدك وتقول ياه أنا عملت كده إزاى؟

طلبت منه سلاحه فناوله لجاره حتى وصل إلى وطلبت من الجميع التأكد من تأمين السلاح مع نزع الخزن حتى لا يخطئ أى فرد فينا ويطلق النار بطريق الخطأ فنموت جبناء وفطيس.. ساد صمت قاتل لم يتحدث أحد ولم ينبس أى فرد بكلمة وكأننا جميعا قد لاقينا الله عز وجل. .استمر هذا الحال حتى اقترب الفجر حيث ظهرت بوادر ضوء خفيفة داعين الله أن يرفع مقته وغضبه علينا.. كنت غير هياب للموت فكل نفس ذائقة الموت.. والموت يأتى فجأة ولا يشعر به أحد ولكن ما كان يثير النفس هو وضعنا هذا.. إننا نعيش فى مقبرة حقيقية رغم أننا إحياء مازال فينا نفس يخرج ويعود بأمر الله.

كعادته هذا المؤمن العابد الصالح "جويلى" شاهدناه مصليا عابداً ربه وبعد أن أنهى صلاته قال لنا.. أرجوكم بكل رحابة صدر وإيمان بالله وبأننا لمنتصرون على ما نحن فيه أن ترددوا خلفى هذا الدعاء.. رفع يده إلى السماء وهو شبه منحنى إلى الأمام لصغر ارتفاع سقف الكهف قائلا " : الله لا اله إلا أنت.. جموع الجنود نردد خلفه.. سبحانك إنى كنت من الظالمين. . نردد خلفه" آمين يارب العالمين.. ويكمل حديثه بعد دعاء سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت الذى تلاه قائلاً : سأطلب منكم أن يقوم كل فرد بالصلاة ولو ركعتين ويدعو الله فى سره ولو عايز يعاتب الله فلن يضره شيئا.

تحرك الجنود كسلاً بلا أمل لديهم يحاولون التيمم وكيف نتيمم ونحن مغروسون فى أوحالنا وأقذارنا فلا مجال للحركة. استراحت نفوسنا وعم الضوء بخارج الكهف وتبادلنا الذهاب إلى تلك الكوة الصغيرة لنرى ونشاهد أى شىء ولا

نرى ما يدل على ان بتلك المنطقة حياة حتى الغربان التى كانت تهاجمنا فى جبل المغارة لم نعد نراها بعد ذلك.. ما زلنا جلوسا بوضع القرفصاء الذى أدى إلى كساحنا ولا نستطيع أن نفرد سيقاننا أكثر من بضع سنتيمترات وكل ينظر إلى الآخرين ليرى ويشاهد انعكاسات ما نحن عليه حتى يعلم ماهو بالنسبة له.

من أسوأ الأشياء التى أثرت فى حالتنا النفسية والمعنوية عدم مرور الوقت.. كان الوقت بطيئاً ثقيلاً ونحن الشباب الذين نجرى ونمرح هنا وهناك يكتب علينا هذا الحبس القاتل انتظاراً إلى أن تحين ساعة كل فرد فينا وكان هذا أيضا من بين الأمور التى تثقل على النفس بأن يتصور وفاة زملائه وهو مازال على قيد الحياة وحوله خمس من الجثث الإنسانية الصديقة وقد فارقت الحياة وينظر إليهم ويشاهد ما يحدث لأجسادهم وهى تتحلل عالما بأنه ستأتيه ساعته وسيكون مثل ما شاهد لكن بعد أن يملؤه الهلع وقد تنتابه لوثة عقلية.

إن مجرد التفكير فى هذا الوضع بأنك ستبقى حيا بمفردك بعد وفاة أصدقائك لهو من أشد حالات الإنسان عذابا وألما.. كما كان لوضعنا فى هذا الحبس حتى الموت ونحن محرومون من الطعام والشراب حتى النظافة الشخصية حرمنا منها وقد أصبحنا مثل الحيوانات الأخرى التى تخرج فضلاتها فى نفس مكان إعاشتها.. حتى الحركة لا نتمتع بها تجمعت كل آلام الدنيا علينا (العطش.. الجوع.. الحبس حتى الموت.. عدم الحركة.. القذارة الشخصية.. الروائح الكريهة.. ثم الأهم نعمة التفكير).

القادر

أشرق صباح اليوم الثالث ونحن فى تلك المقبرة ولم نعد نملك من أسباب الحياة سوى هواء قليل فاسد.. بعد الدعاء الذى قام به جويلى ثم صلاة كل فرد فينا بما نحن عليه من ابتلاء واختبار تحسنت حالتنا النفسية نسبيا وقد انفرجت أسارير عطية معتذراً لنا ومقدما اعتذاره لى قائلاً: لو كانت المساحة تسمح أنى آجى لحد عندك أبوسك كنت عملتها ودفع هذا الجميع لأن نزداد سعادة وسرورا وقد أضحكنا ابن الإسكندرية مصطفى حين قال: أنا عندى فكرة.. إيه رأيكم لو كل واحد فينا يقول على حكاية حصلت له بس تكون فيها نوع من الكرامات أو أى حاجه عن الدين اللى بنكلم عنه علشان ربنا يساعدنا وهو كمان نتسلى فى نفس الوقت..

اعترف مصطفى بأنه سرق مبلغا من المال أثناء عمله كصبى نقاش بالإسكندرية وفى اليوم التالى توجه إلى الشقة التى سرق منها المال فتقابل مع سيدة عجوز طلبت منه أن يأتى لها فى الغد لينهى لها بعض التشطيبات السريعة وآخبرته بأن لديها أمانة تحتفظ بها لبعض اليتامى وهى تخشى أن يأتى "ابن حرام" ويسرق ما لديها. .لم يغمض له جفن تلك الليلة وعلم بأنه ابن الحرام الذى

سرق جزءا من تلك الوديعة الخاصة بالأيتام.. صباح اليوم التالى توجه لهذه السيدة وقام بعمله وانتهز فرصة انشغالها وآعاد المبلغ المسروق لمكانه.

صفق زملاؤه له لأمانته وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

توالت الاعترافات بكل ذنب ارتكبه كل واحد فينا وكلها تدور فى إطار بسيط لا يعدو شقاوة الصبية ولم تصل أعمارنا إلى الثامنة عشرة وقد أخبرنى أحدهم بأن الله سيساعدنا لأننا قاومنا الأعداء كما أنك قمت بمساعدة المسجون عليوة لكى يذهب ويطمئن على والدته التى ماتت بعد وصوله لها بعدة دقائق ودعت الله لك، شعرنا بشىء أثلج صدورنا وقد اقتربنا من الله بأفعالنا واعترافاتنا وأن الله قادر على إزالة الغمة التى ألمت بنا.

أقبل ظلام الليلة الثالثة بعد أن قطعنا شوطا طويلاً من نهار اليوم الثالث ولا جديد فالسكون المطبق وحالة ترقب الموت القادم وقد أعد كل فرد فينا عدته لاستقباله وقد أصبحنا ننتظره كانتظار صديق أو زميل.. هكذا كنا أقرب إلى الموت منه للحياة.. لفنا الليل بسكونه المخيف ولم تزد تلك الليلة عن سابقتها إلا فى انتشار الديدان المنبعثة من جسم الذئب أما روائحها فأصبحت شيئا عاديا ولم يعد هناك ما يثير التقزز أو الاشمئزاز.

قُبيل الفجر هب عطية مذعوراً من نومه ونحن لا نرى ولا نشاهد ما حدث له ولكنه قال : الحمد لله.. الحمد لله.. خير يارب اجعله حقيقة.. تنبهنا جميعا وقد سأله أحدهم.

- خير ياعطيه فيه حاجة ؟ أجاب :

- خير..اللهم ما اجعله خير.. شفت رؤيا.. جانى راجل عجوز ولابس لبس الإحرام وماسك عصاية فى أيده تساعده على المشى وقال لى ربنا حيفك كربتك آنت وزمايلك.. والله يا ابنى أنا كنت مشغول فى العمرة لكنى كُلفت أنى أجيلكم وأقولكم تعملوا إيه.. احفروا فى الرمل تحت الصخر يتحرك وربنا يفرجها وتتحرروا.. "وبشر الصابرين" وأنتم صبرتم، متنساش احفروا فى الرمل.. انتعشنا جميعنا وهاهو ملك يحضر لزميلنا ليخبره ببشرى الخروج من سجننا هذا

والطريقة التى نخرج بها، أراد البعض الحفر ولكنى أشرت إليهم بانتظار ضوء الصباح حتى نرى ما نفعله.

لم يمض وقت طويل حتى ظهرت تباشير ضوء اليوم الرابع بسجننا هذا، المكان ضيق لا يسع أن نقوم جميعا بالحفر فارتفاع أقل من متر وعرض متران ونصف وعمق إلى الداخل ثلاثة أمتار لكن على هيئة رأس مثلث لا نستفيد منه.. استقر الرأى على أن يخرج من خدمة الحفر أنا وعطية والذى مازالت يداه تؤلمه من الرمال المشتعلة التى أصابته وأصابت الذئب الأم.. أما عن باقى الجنود (جويلى وفراج وعامر ومصطفى) سيتولون الحفر.. بدأ الحفر حوالى الثامنة صباحا حتى الثانية عشرة ظهراً "تقريبا وبدون ساعة نحدد الوقت" كنا نجمع الرمال جهتنا أى بالداخل وقد أثر علينا بأن ضُغط المكان وقلت مساحته.. وخارت قواهم بعد أن وصلنا إلى عمق حفر كبير دون جدوى وشعرنا بالاختناق حيث أزاحت الرمال كميات الهواء التى نتنفسها. بقينا على وضعنا هذا وازدادت سوءا بكميات الرمال التى فوق أجسادنا وبثقلها الكبير.

قل الضوء بالخارج وهذا يدل على أن الشمس توشك على المغيب.. هل سندخل فى يومنا الخامس ونحن على هذا الوضع الذى لا علاج له إلا من عند الله الذى بشرنا به منذ سويعات بأننا خارجون وأن الله بشرنا بفك أسرنا.. تندر الجميع من الحلم أو الرؤيا التى رواها لنا عطية وقد علق البعض بان رؤيا المتبولين والمتبرزين على أنفسهم لا تنفع وهنا علق آخر هذا معناه أننا جميعا لن تنفع أى رؤيا لنا وبين الضحك والقفشات التى كانت بمثابة وداع لآخر أيام حياتنا القصيرة وقف عطية وهو شاب نحيف قصير القامة ووزنه قليل جداً كما أن صوته مثل حجمه وقف ضاحكا وقال إيه رأيكم أعمل زى "شمنون" وقد استفسر منه مصطفى عن هذا الاسم هل هو اسم المعلم صاحب المصبغة اللى يعمل فيها فى حى باب الشعرية ولكنه نفى ذلك قائلاً يا أخى الواد شمنون بتاع دليلة.. أضحكنا هذا الاسم وصحح له البعض بأن الاسم الصحيح هو «شمشون». وقف عطية وهو يمثل دور شمشون ويقول يارب:

افتح باب رحمتك ويدفع بيديه الضعيفة الصخور فإذا بها تنهار أمامنا وتتساقط من فوق الجبل كأنما هناك أمواج عنيفة دفعتنا بأن نرتمى بعضنا فوق بعض حتى نمنا فوق الذئب المتحلل.

اندفع الهواء نقيا منعشا وبعد أن تأكدنا أن الله فك أسرنا انتابتنا حالة من البكاء الضاحك، كلٌ منا يبكى مبتسما ثم تبادلنا القبلات ونحن جلوس وبقينا على هذا الحال ما يقارب الساعة ثم تنبهنا إلى أننا نريد الخروج، خرجنا من الكهف والكوة التى فتحها الله علينا لا تزيد مساحتها عن النصف متر، طلبت من فراج أن يتخلص من ملابسه ويتسلق تلك الصخور السوداء ويراقب العدو، كان اختيار فراج لأنه أسمر اللون فيصبح قريب اللون من تلك الصخور.

بعد جهد ومشقة استطاع فراج أن يتخلص من الكساح المؤقت الذى لازم ساقيه وقد تخلص من ملابسه وتسلق قمة الهضبة الصخرية واستمر ما يقرب من الثلاثين دقيقة وكانت الشمس قد غربت ولم يتبق سوى عشر دقائق ويعم ظلام دامس.. كنا أثناءها قد خرجنا أمام الكهف نفرد سيقاننا ونستعد للسير عليها ونفك عنها هذا الكساح المؤقت.

عاد فراج يخبرنا بأنه لا أثر لأى قوات وأنه استمر فترة طويلة حتى نكون آمنين أثناء تحركنا.. لكنه أخبرنا بخبر أسعدنا جميعا حيث قال:

ألا تذكرون الانفجارات التى حدثت بعد أن أطلقت الطائرة الهليكوبتر الثانية صاروخها الذى أغلق علينا باب الكهف وسمعنا بعدها انفجارات وجلبة وضوضاء.. أيدنا قوله حيث قال لقد انفجرت الطائرة فوقنا واحتمال أن الصاروخ بعد انفجاره بالصخور ارتدت منه شظايا قاتلة دمرت الطائرة والطيار ومساعده لأننى عثرت على أحذيتهم ممزقة والطائرة تفحمت تماما.

خبر سعيد آخر فى خلال نصف ساعة.. لقد قتل اثنان آخران من هؤلاء الحثالة أبناء قتلة الأنبياء والمرسلين لقد وصلت قتلاهم بأيدينا أو بسببنا إلى سبعة واحتمال الثامنة قد لاقت حتفها متأثرة بجراحها الخطيرة.

حدثتهم قائلا : أيها الرجال الشجعان هيا نعود إلى المحور الشمالى ولنستعيد طريقنا السابق الذى ضللنا عنه أبناء الحرام مهربو المخدرات وعلينا السير طوال الليل حتى نبتعد عن تلك المنطقة.

لم يتردد أحد ورصدنا النجم القطبى الذى يرمز إلى جهة الشمال وسنبدله كل ساعة حتى لا ننحرف معه أثناء السير.. استمر سيرنا من الثامنة مساء إلى أن ظهرت بوادر أشعة شمس هذا النهار.. إنه اليوم الخامس بدون مياه أو طعام وكان قدرنا أن نبقى هكذا حتى آخر لحظة.

كان سيرنا قويا مندفعا بعد أن تحررنا من ذلك الحبس الذى كلما تذكرته ارتعدت فرائصى وأنا أفكر فى نفسى ومن حولى.. جلسنا نستريح قليلاً وأصبحت الشمس تخرج كل صباح لتحرقنا نحن الستة بنيران أشعتها وحرارتها الملتهبة.. تحيرنا بعد أن تحررنا.. ماذا نفعل؟ نستريح أو نكمل؟ كلاهما صعب فالراحة معناها هلاك تحت أشعة الشمس بدون داع كما أن السير أيضا لا طائل منه حيث لا طاقة لنا ولا فكر، كيف نستطيع أن نتدبر أمورنا لقد عدنا إلى الدائرة الأولى التى وصلنا إليها بجوار جبلى الحلال والمغارة حتى أن عقولنا أصبحت بدون فائدة وأدى هذا إلى نسيان أسماء كثيرة بل بعض أسماء البعض منا بل فى بعض الحالات كنت أفكر وأتساءل قائلا أين أنا وماذا أفعل هنا ومن هؤلاء الناس حولى وهل أنا مستيقظ أم نائم؟ كل هذا لدرجة نسيان الطعام والشراب لأنه كان شيئا خارج قدرتنا.

قدرنا أن نسير مترنحى الجسد والرأس ولكن أحدنا أشار بيده ؟؟ زرع نخل خُضرة.. آه ميه.. ميه.. آه.. سرنا فرادى ولم نؤمن المكان كما فعلنا سابقا والمسافة المتبقية على وصولنا لمنطقة النخيل حوالى اثنين ونصف كيلو تقريبا وصلنا إليها بعد العصر.. أى من الثانية عشرة إلى بعد الرابعة.. أكثر من أربع ساعات نسير ثم نقع أرضا وهكذا وكل يسير بمفرده ناظرا إلى النخيل يمتع نظرته الأخيرة قبل أن يقابل ربه.. أخيرا وصلنا إلى منطقة النخيل وكانت مساحتها بسيطة وارتمينا أرضا تحت ظلالها وبعد فترة تسكع كل فرد فينا يبحث عن مياه دون جدوى.

استند كل منا على جذع شجرة صامتاً ناظراً إلى ما بين يديه.. وأخيرا تحرك جويلى إلى إحدى أشجار النخيل القصيرة وقطع جريدة وقشر جزءها الأسفل وقام بمص ما فيها كأنه يمص قصبا.. أسعدته الفكرة فأشار إلينا بأن نقتدى بما فعل.. فعلنا مثله وشعرنا بارتواء قليل مع حلول ظلمة الليل واتبعتها البرودة التى قللت من شدة حاجتنا إلى الماء. حصلنا على قسط من النوم فى هذا المكان على هذا الوضع بعد أن عفا الله عنا وأخرجنا من ظلمات هذا الكهف إلى الحياة.

مجرمو الحرب

قضينا الليل بطوله وهذه هى الليلة الأولى بعد أن من الله علينا بالفرج وأنقذنا من محبسنا الذى كنا سنهلك فيه ويصبح مقبرتنا ونهايتنا الحتمية، كنت أتذكر الأيام الأربعة الماضية وأنا لا أصدق ما حدث سواء من معركتنا مع الجيش الإسرائيلى وما أحدثنا به من إصابات تعدت السبعة قتلى وتدمير طائرة هليكوبتر وسيارتين جيب وإصابة مجندة هالكة لا محالة فى ذلك.. أو مما رأيناه من مملكة الذئاب وتعاطفها وتراحمها فيما بينها أو من دفننا أحياء وحالتنا المزرية ونحن نخرج أوساخنا بداخل ملابسنا والتى جفت ومازالت عالقة بنا نبحث عن شربة ماء ثم ننظر إلى نظافتنا الشخصية.. لقد ودعنا الإنسانية فى رقيها ورقتها ونحن أحفاد الفراعنة الذين قلبوا المنطقة رأسا على عقب سواء من قوتهم العسكرية أو من تقدمهم العلمى المذهل ثم يأتى علينا الزمن لنعود إلى بدائية الإنسان الأول.. ماذا جناه شباب ذلك الجيل ليصبح هذا حالهم؟.. كل دول العالم تحارب وتنتصر أو تهزم ولكن لماذا يحدث هذا لجنودنا يقتلون إما غدراً أو رميا بالرصاص أو بقنابل الدبابات والطائرات وإما هالكين فى جوف الصحراء التى لا ترحم من لا يعرفها ولا كيفية التعامل معها.. مازلت جالسا أغفو قليلاً وأستيقظ كثيراً وأنا أشاهد جنودى مابين مستلق أرضا أو من يبحث عن طعام أو شراب..

أى طعام وأى شراب نحن لا نختار ولكننا نرغب فى سد رمقنا بشربة ماء وقطعة خبز حتى نظل أحياء طالما لم يأت موعد لقائنا بالله.

من حين لآخر أشاهد جنديا يقوم بقطع جريدة نخيل خضراء ليقشرها بالسونكى ويمتص ما بها من عصيرها حتى يجفف حلقه الملتهب ويدفع بقليل من هذا السائل إلى داخل جسده الذى مازال فى احتياج إلى الماء.. كان واضحا أننا وصلنا إلى حالة من الإعياء شديدة حتى لو توفر الطعام والشراب فسوف نحتاج عدة أيام حتى نستطيع استعادة عافيتنا ومقدرتنا على السير ومواصلة مشوارنا الذى بدأناه منذ خمسة عشر يوما تقريبا.

أشرق الصباح كأنه صباح جديد علينا ولأول مرة منذ أربعة أيام نشاهد المنطقة المحيطة بنا ونفرد سيقاننا ونأخذ جرعات هواء كاملة منعشة.. جاءنى الجنود مستفسرين فيما نحن قادمون عليه فأخبرتهم بأفكارى.. السكون فى تلك المنطقة حتى نستعيد قوانا، استفسروا من أين الطعام والشراب؟ أوضحت لهم أن قليلا من عصير جريد النخيل حتى يكشف الله عنا الغمة أما من جهة الطعام فسنأكل مثل ما تأكل الضوارى.. أى شىء قابل لأن يصبح طعاما سنأكله.. شاهدنا سحلية تجوب المكان قريبة منا فأشرت إلى فراج فاندفع إليها قابضا عليها فقلت هذه وجبة أحدكم، امتعض البعض ولكننى قلت إذا لم تكونوا قادرين على استساغتها كطعام فلا بديل عن ذلك ومن منا كان يعتقد أنه فى يوم من الأيام سيشرب البول الآدمى أو ينام فوق فضلاته.. إنها الظروف الحاكمة.

أعطانى فراج السحلية فقبضت عليها وخنقتها وقطعت رأسها ثم تناولتها أمامهم وهم ينظرون إلى ما بين مندهش أو رافض لما قمت به، لم يكن طعمها مستساغا ولكن ماذا أفعل؟ وللأسف فإن السحلية توقفت فى البلعوم ومازالت تحرك ذيلها فقد تسرعت بابتلاعها ولم أفعل مثل ما تعلمت فى مدرسة الصاعقة فقد كان يتم شيها على النار وكيف نعد نيرانا ونحن لا نملك أى عود ثقاب.. شعر جنودى بحالتى وحضر أحدهم يدق على ظهرى بقوة حتى سقطت السحلية فى معدتى.. أخيرا سقطت بعد أن تركت جدار البلعوم مستخدمة مخالبها والتى كنت أشعر بها وشعرت أنها مشكلة كبيرة كيف أستخرجها أو أبتلعها لكن الله سلم،

ناولنى أحدهم جريدة أمتصها كى تساعدنى على هضمها.. شاهدوا عدداً من السحالى فانهمكوا قنصا واحدة وراء الأخرى حتى تجمع عدد منهم وكل سحلية تقتل وتقطع رأسها وقد جمعنا عدد منها.. تساءلت.. من منكم يستطيع إيقاد نار؟ فتنبه فراج وأحضر السونكى وقطعة صغيرة من الصخور المنتشرة وبعض سعف النخيل الجاف وما أكثره، حاول عدة مرات بحك السونكى بالحجر والذى يُحدث شرراً ولكنه لم يفلح فى إيقاد النار.. حاول مرة أخرى ونجحت المحاولة فهتفنا لنجاحنا فى عمل أى شىء ولو مثل الإنسان الأول وجمعنا السحالى ووضعناها وسط تلك النيران وقد خرجت رائحة الشواء وكل يمد يده ليحصل على واحدة فيدفع بها إلى فمه وخلفها يمتص بعض سيقان جريد النخيل الأخضر.

عصراً شعرنا أننا أقل تضوراً مما كنا عليه من الجوع والعطش.. الجنود يتجولون بين النخيل لعل وعسى أن يشاهدوا شيئا ينفعنا فيما نحن فيه وحاول البعض حفر بئر مياه ولكن جويلى أخبرهم أن المياه هنا مستواها مرتفع وأن النخيل لا يحتاج مياهه من الأرض مباشرة حيث يحصل عليها من السماء سواء من الأمطار أو من قطرات الندى التى تسقط على قمة النخلة فالشراب هنا عكسيا مثله كمثل أشجار الموز.

هبط علينا الليل وقد تحسنت حالتنا المعنوية والنفسية والصحية فقد أكلنا والمعدة لا ترى الطعام فأى شىء ستتقبله طالما أنه غير سام وما حدث بالأمس حدث هذا المساء، نتكلم ونتحدث بحرية ويلفنا أمل بالحياة والسير إلى اتجاهنا مع الاحتراس حتى لا نقع فى الشرك مثل ما حدث مع مهربى المخدرات.. اليوم التالى هبطت بعض الغربان تنعق أمامنا نظرنا لبعضنا البعض وكانت الإشارات المتبادلة الصيد لأكبر عدد منها وقد تم اصطياد ثلاثة بعد جهد كبير.. ذبحت ونظفت بالرمال بديلا عن الدقيق وأصبح الغراب مثل حمامة كبيرة وأشعلت النيران بنفس أسلوب اليوم السابق وطهيت الغربان وتناولناها كأننا نتناول حماما محشيا بالفريك فى أحسن محلات القاهرة وبعدها تناولنا عصيرنا الميمون.

كان منظراً مضحكا وكل واحد منا ممسكا بقطعة من الجريد الأخضر وبصوت مص مرتفع بغرض الحصول على أكبر كمية من السائل.

استمر حالنا على ما نحن عليه ثلاثة أيام وغدا اليوم الرابع وقد آثرت فينا الراحة مع الوجبات الدسمة من السحالى والغربان وقررنا التحرك غداً لعلنا نصل إلى بر الأمان بعد أن أُرهقنا من كثرة مص جريد النخيل.. كانت المشكلة المؤلمة لنا هى قذارتنا رغم أنه فى اليوم التالى لراحتنا خلعنا ملابسنا وفركنا فضلاتنا التى جفت على أجسادنا ولكن مازال شعورنا بالقذارة يؤثر على راحتنا النفسية فاحتياجات الإنسان ورغباته بعد الماء والطعام هى نظافته الشخصية.

ظهرت شمس اليوم الرابع فى هذا المكان الصحراوى والذى كانت كل ميزته هو الظل واتقاء حرارة وضوء الشمس الحارقة. .تحركنا عاقدين العزم على التوجه لمكان نستطيع العيش فيه ولن نبقى هكذا نعيش على جريد النخيل وأكل السحالى والغربان.. سرنا بثقة وعزم واستقامت أجسادنا وتبادلنا الضحكات والكلمات والقفشات وكل يعيد على الآخر ما حدث فى الأيام الأخيرة فى منطقة المحور الأوسط وأن الله ساعدنا ووقف بجانبنا رغم ما عانيناه من إرهاق بدنى ونفسى.

مازلنا سائرين.. بعد الظهيرة شاهدنا بدويا يركب جملا فأشرنا إليه فحضر الرجل متخوفا منا خاصة عندما شاهد سلاحنا.. نزل من على جمله وأخرج لنا قربة ماء يحملها معه فشربنا وارتوينا وسألناه عن أقرب مكان نخلد فيه للراحة وشرب الماء.. أشار بيده لطريقنا الذى نسير فيه قائلاً: ساعتين أو تلاتة سيرا وتصلوا إلى منطقة كذا.. وذكر الاسم وسألنا من أى مكان نحن قادمون فأخبرناه من جهة المحور الأوسط فتهلل وجه الرجل قائلا: أنتم كنتم مع الدفعة اللى ضربوا اليهود هناك.. والله يا أخى شىء عظيم أنكم دخلتم على اللواء الإسرائيلى المظلى وضربتوهم !! نفيت ذلك وكان هذا رجائى إلى جنودى بألا يتباهوا بما فعلوا حتى لا تصل المعلومات إلى اليهود بعد انتشار جواسيسهم وعملائهم فى سيناء، شرح لنا الرجل أن مجموعة من الجيش المصرى قتلت عشرة إسرائيليين وأسقطت طائرتين وكان سعيدا بتلك الأخبار فسأله مصطفى: من أين علم بتلك الأخبار؟ فقال: إن البدو عندما يتقابلون يقص بعضنا على بعض ما حدث فى المنطقة التى أتى منها، شكرناه وأعطيناه قربته ونحن سعداء بتلك

الاخبار التى انتشرت لمعركتنا مع أبناء الأفاعى كما علمنا أن طريقنا صحيح إلى المنطقة التى نسير فى اتجاهها.

غربت الشمس ولم نصل لهدفنا فجلسنا فى مكاننا لعلنا نصل لأى منطقة فى الصباح ولكننا لاحظنا بعض الأضواء والنيران المشتعلة على مسافة ليست ببعيدة.. اتجهنا لتلك المنطقة وخشينا دخولها حتى لا تكون وكرا للشياطين من مهربى المخدرات أو المجرمين.. أمضينا ليلتنا بالقرب من تلك المنطقة ونحن نشعر براحة فقريب منا يعيش بشر ومعهم الماء والطعام وقبيل الفجر أيقظنى أحد الجنود ليخبرنى بأن تلك المنطقة بها دبابات وأعتقد أنها دباباتنا.. صمت ولم أتحدث وأرهفت السمع لعلى أخرج بأى بيانات وقد تأكدت من أنها دبابات مصرية وإسرائيلية.. الدبابات المصرية محترقة والجنود الإسرائيليون يستعدون لمغادرة المكان أسرعنا بالاختباء بين الرمال ولم يتبق منا شئ ظاهر سوى وجوهنا.. كنا متأكدين أن الدبابات لن تأتى فى اتجاهنا لوعورة المنطقة مما يؤثر على سيرها.. قبل الظهيرة انقطعت أصوات المحركات والجنازير فخرجنا من مواقعنا نتحسس الأخبار فنظرنا حولنا فلم تكن هناك أى إشارة عن اليهود.. قررت الانتظار حتى المساء للتأكد من خلو المنطقة منهم.

بعد الغروب اتجهنا إلى المنطقة ونحن فى حالة انتشار ولا نسير متجمعين حتى لا يفتحوا نيرانهم فجأة فيقضوا علينا جميعا، وصلنا إلى قلب المنطقة والتى تحيط بها أشجار النخيل، شاهدنا دبابات مصرية من نوع (ت٣٤) وهى دبابات قديمة كانت تحارب بها روسيا فى الحرب العالمية الثانية وجمعت تلك الدبابات وأعطتها لمصر وكان المرء يشاهد آثار رقع حديد لتلك الدبابات التى دمرت وأعيد إصلاحها ليرسلوا بها إلى المساكين المصريين.

السكون مُطبق على المنطقة والجنود يبحثون فى كل مكان عن الطعام والشراب غير مبالين بوجود ألغام فى المنطقة يتركها اليهود لقتل البشر ولكن أحد الجنود أتى إلىّ مسرعا مضطربا طالبا منى مرافقته وأنا أسأله عما يريده منى فطلب منى التوجه فقط برفقته كان واضحا أنه شاهد شيئا مريبا أو مخيفا وهذا باديا من توتره وهو يحدثنى. . وصلنا إلى المكان الذى توقف عنده وكان

باقى الجنود يسيرون فى أعقابنا.. ثم تحدث قائلا: سمعت صوت واحد مصرى يطلب العون وهو يحتضر وخفت أن تكون روح واحد من الشهداء.. جلسنا فى تلك المنطقة فوصل إلى سمعنا من ينادى «حأموت...عايز أشرب... حأموت» استطعنا تحديد مكان الصوت ووصلنا إليه وهناك عثرنا على جندى أو قل بقايا جندى مدفونة فى الرمال. حاولنا إخراجه ولكنه صرخ صرخة ألم شديد.

الليل سكون ونحن لم نشاهده كما أننا لم نعثر على مياه.. تحرك جنديان يبحثان عن المياه فى المنطقة لإسعاف هذا المسكين الذى كان يحتضر بينما يحدثنا ويخبرنا بأنهم من الكتيبة (......) دبابات وبعد قتال مع العدو فى تلك المنطقة أسر المتبقى وعددهم ثلاث عشرة منهم أربعة ضباط وقد عذبونا بأسوأ ما يكون وفى النهاية ربطت أيدينا ووضعت خلف ظهورنا ورصونا صفا وسارت علينا الدبابة ونحن مازلنا أحياء ولقد قتلنا جميعا ولم يتبق سواى «أشرب ميه.. ميه».

نجح الجنود فى العثور على بعض مياه متبقية من الجنود الإسرائيليين وقدم أحدهم المياه للجندى المحتضر وكنا جميعا فى أشد الاحتياج إلى المياه.. شرب وشكرنا وتحدث قليلا بصوت خافت وأخيرا صمت صوته وأطبق السكون فقام أحدهم يحدثه ويهزه ولكنه كان قد رحل إلى جنة الخلد.. جلسنا قريبين منه وقد أصابتنا الدهشة من روايته ولم نصدقها كيف يكون هذا؟ ونحن لم نسمع فى أى حرب حدث مثل ما يحدث الآن ولكن مع اليهود فكل شىء قابل لأن يحدث.

أمضينا ليلتنا فى ذلك المكان ونحن لا نعرف هل قضى ثلاثة عشر مصريا نحبهم على أيدى هؤلاء الأعداء وكنا يقظين لاحتمال عودتهم ولهذا انتشرنا على ثلاث مجموعات كل اثنين سويا مع منع الحديث حتى لا يسمعنا أحد ويهجم علينا اليهود فجأة.. أشرق ضوء الصباح ونحن نتمطع لنزيل أثر الكسل والخمول من أثر تلك الأحداث وقررنا دفن الجندى.. ذهبنا إلى مكانه وهالنا ما رأيناه.. ثلاثة عشر مصريا قتلوا تحت جنازير الدبابات.. انطلقت الدموع غزيرة من عيوننا ولو شاء الله وحضرت أى قوة إسرائيلية أثناء ذلك لدخلنا معهم فى معركة انتحارية نقتل ما نستطيع ونُقتل أيضا.. كان الثأر لهولاء العُزل من السلاح هو أهم ما

نفكر فيه.. نشاهدهم مربوطى الأيدى من الخلف وقد هرستهم جنازير الدبابات وتهتكت أجسادهم النحيلة تحت وطأة هذا الثقل الذى يصل إلى ما يزيد على خمسين طنا من الحديد الصلب.. نكشف عن وجوههم المغروسة فى الرمال لنشاهد علامات الفزع بادية عليهم وكلهم فاتحو الأفواه صراخا من الألم الذى لحق بهم.

جلسنا أمامهم عند رأسهم وكلٌ منا ينظر إلى الشهداء باكين لا نعرف كيف التصرف؟ كانت المحنة شديدة علينا نحن الصغار الضعاف وشاهدنا ما ينتظرنا فكل يوم يأتى بجديد ومن يقع تحت الأسر سوف يلقى هذا المصير.. مازلنا نحاول استيعاب ما نشاهده ونراه ولا نستطيع التفكير وكيف نتصرف وقد هالنا ذلك وأخيرا استجمعنا قوانا لدفن هؤلاء الشهداء واستغرق هذا وقتا طويلا فقد بحثنا عن منطقة منخفضة لدفنهم وقابلتنا مشكلة كبيرة فى ذلك فإذا جذبنا شهيدا من أقدامه على الرمال حتى منطقة الدفن المختارة ينخلع الجزء المسحوب منه الشهيد ويظل مرتبطًا فقط بالجلد.. لقد تفصصت مفاصلهم عن بعضها البعض ولهذا أشرت إلى الجنود بأن كل ثلاثة منا يحملون شهيداً فكنا نجمع الأرجل واليدين على صدره وأصبح مثل اللفافة أو كمية من الملابس المكورة وجمعناهم بهذا الشكل مع محاولة عدم النظر إليهم خاصة الوجه الذى ارتسمت عليه كل علامات الفزع المرعبة التى تدفع بدموعى حتى الآن كلما تذكرت هذا الموقف.. كانت تلك العملية شاقة علينا.. لا أستطيع استيعاب ما حدث.. لقد ألهتنا المفاجأة وعملية الدفن عن إظهار شعورنا وتخطينا الأثر النفسى الرهيب الذى واجهناه لأول مرة فى حياتنا.. بعد جهد مع النفس والبدن استطعنا أن نجمعهم وأهلنا عليهم الرمال بعد أن صلينا عليهم صلاة الجنازة ونحن مازلنا بوضعنا وحالتنا من عدم الطهارة والنظافة.. رجعنا إلى مقر جلوسنا أسفل أشجار النخيل نفكر بأن خلف هؤلاء عائلات وأحباب وكان بينهم كما قال الجندى قبل استشهاده أربعة من الضباط أحدهم برتبة المقدم.. جلسنا صامتين واجمين ومن حين لآخر تخرج منا زفرات الضيق والألم لهذا الذى حدث لهم ونتذكر ما كنا عليه من عدة أيام عندما دُفنا أحياء ولكن الله وقف معنا ووقف مع هؤلاء أيضا أن أعطاهم صك الشهادة ليدخلوا الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين.

وجدنا قليلا من الماء فحصل كل فرد فينا على عدة جرعات قليلة تبل عطشنا وقررت التحرك من هذا المكان البائس وما شاهدناه لن يمحى من ذاكرة من شاهده وعاصره.

تحركنا شمالا على أضواء النجوم نهتدى بها وقد قطعنا شوطا لا بأس به وكان الصمت هو حالنا وخمدت الضحكات التى كنا نتسلى بها من حين لآخر وبعد منتصف الليل حصلنا على قسط من الراحة لنكمل مشوارنا الذى لا ينتهى وما البديل أمامنا.. أقبل علينا ضوء الفجر فقمنا نتحرك بكسل وخمول وسرنا حوالى اثنين كيلومتر فشاهدنا مجموعة من أشجار النخيل رقدنا لنستوضح المنطقة حتى تأكدنا أن بها بدو وعائلات وهرج ومرج وأصوات حيوانات من ماعز وخراف وأصوات أطفال.. تحركنا إليهم راجين من الله أن يكونوا أرأف حالاً بنا.. وقفنا بعيدا بحوالى مائة متر حيث إن البعض يُجزع من مشاهدتنا وحتى نتأكد أنهم قد علموا بوجودنا ولكننا بدلا من أن نذهب إليهم حضر أحد الشباب إلينا مرحبا عارضا تقديم المساعدة الممكنة لنا وسعدنا بلقائه فطلبنا منه بعض الماء لأننا لم نشربه منذ عدة أيام. .أخذنا الرجل من أيدينا متوجها إلى قبيلته أو هذا التجمع وأجلسنا فى مكان مختار تحت أشجار النخيل وغاب فترة ثم عاد حاملاً معه إناء نظيف به ماء فشربنا وارتوينا وكانت حالتنا تدل على ما أخبرناه به ثم ترك الإناء بجوارنا، بعد قليل حضرت فتاة فى العشرين من عمرها وأخذت الإناء وأعادت ملئه وأحضرته لنا متمنية لنا شرابا هنيئا فأسعدنا ما قالته وعاد الرجل الكريم حاملا صينية مثل صوانى العشاء بالريف مملوءة بالخيرات من طعام شهى وخبز طازج قائلاً: املأوا بطونكم الخاوية أبناء بلدنا الأعزاء وبعد قليل سأحضر لكم الشاى شكرته وأنا أخبره بألا يرهق نفسه وتكفى تلك الجرعات من المياه الطازجة الباردة التى أنعشتنا ولكنه رفض ذلك موضحا أننا ضيوفهم جميعا.

تناولنا طعامنا الهنىء والسعادة تلفنا من اللقاء وما بعد اللقاء.. أحضر الرجل برادا للشاى مُعد وجاهز وحاملا أكوابا زجاجية وجلس معنا يكرم ضيافتنا ولحق به بعض أصدقائه وأقاربه كل يرحب بنا ونظر الرجل إلى يدى المربوطة وإلى عطية واحمرار يده الشديد وفك رباط يدى بهدوء وقد هالنى أن الجرح ازداد

سوءًا وأسرع ليحضر مطهراً ولكنه لم يعثر عليه وقد أسعفته قريحته بأن أحضر وابور جاز وأحضر صابونه وبعض الماء وغسل الجرح وقال انظر إن جرحك كان على وشك التلوث لوجود هذا وأشار فإذا هى ديدان.. أى والله ديدان ترعى فى يدى كأننى مت وتلك الديدان تحلل جسدى، وضع عدة نقط من فتحة النفس بالوابور فنزلت قطراته فوق الجرح مؤلمة والديدان تقفز خارجه وتموت وبعد أن تأكد أن الجرح ملىء بالكيروسين جففه وذهب وأحضر قطعة بيضاء من طرحة زوجته معتذراً بأنه لا يوجد لديهم شاش وقطن ولكنه قال إن قطعة القماش ستقوم مقام الشاش وربط الجرح بعناية وأنا أشعر أن شيئا كان بيدى وذراعى يؤلمنى وشعرت بأن الآلام التى كنت أشعر بها بذراعى بدأت تقل ثم توجه إلى عطية وقد تأكد أن جرحه سطحى وليس خطرا مثل حالتى ودهنه بكريم من كريم السيدات التى يستخدم فى الزينة.

كان واضحا المستوى الاجتماعى والمادى الذى يميز أبناء تلك القبيلة وأخبرنى أنهم من منطقة بئر العبد وأنهم هربوا بعد علمهم بدخول الإسرائيليين العريش خوفا من شراستهم حيث إنهم قوم لا دين ولا حياء عندهم.. شكرناه طالبين منه أن يشكر كل من تقدم لمساعدتنا ولكنه رفض أن نغادر المكان قبل أن نتناول طعام الغداء أخبرته أننا حصلنا على قسط كبير من الطعام وأن موعد الغذاء مازال بعيدا ولكنه صمم على هذا مكرراً قوله أننا ضيوفهم فجلسنا نستريح ونحن نقارن مابين أبناء البشر فهم مثل الماء حيث يقول الله عز وجل «هذا عذب فرات وذاك ملح أجاج»..

نحن فى ضيافة هؤلاء القوم أبناء الكرم والشهامة ولا تمضى ساعة إلا ويحضرون لنا الشاى وبجواره بعض الفطائر الحلوة ولكن أهم ما لفت نظرنا أنه طلب من جميع العائلات الحضور فى صحن المنطقة ونحن نشاهدهم من على مسافة مائة متر تقريبا.. ثم تحدث قائلاً : يا أهلى وعشيرتى هنا مجموعة من الدفعة أبناؤنا أبناء مصر فى احتياج لعوننا وأنا أقدم هذا رافعا طبقا أبيض كبيراً قائلاً : هذا الطحين من عندى.. أين مساهمتكم؟.. ونشاهد السيدات يندفعن مقدمين أشياء للطعام لا نعرفها ولكن كل واحدة تقول وأنا أقدم هذا

لإخوتى المصريين.. وهكذا اجتمع القوم على مساعدتنا وقامت النساء بعجن الدقيق وإشعال النيران والخبيز ورائحته تتصاعد والبعض يقوم بأعمال أخرى وقبل انتصاف النهار أحضروا صينية العشاء ممتلئة بالخيرات مثل الصباح بل وأكثر والرجل يعتذر لظروف الحرب التى منعتهم من أن يقدموا المساعدة الواجبة لنا.. تناولنا طعامنا ونحن لا نصدق ما يحدث ومشتتو الفكر مابين هؤلاء والمهرب الذى دفعنا دفعا لجنود الأعداء لولا أن الله سلم لكنا فى عداد الشهداء.

حمدنا الله على نعمته وكنا نرغب فى أن نغتسل ولكننا تحرجنا لوجود نساء كثيرات بالمنطقة وفتيات رائحات غاديات وكل حركتهن قريبا من البئر ونحن نريد خلع ملابسنا وغسلها ونظافة أجسادنا.. شكرناهم جميعا متمنيين لهم حُسن الإقامة وسرعة العودة إلى بيوتهم، أعطونا باقى الطعام مع إمدادنا بعبوة بلاستيك مملوءة بالماء.. سرنا ونحن نحمل كل ذكرى طيبة وقلوبنا تلهوج بالثناء لهم داعين الله أن يعوضهم جزاء صنيعهم هذا.

غادرنا المنطقة ونحن نشعر أننا نغادر مكانا عزيزاً علينا اختفينا عنهم واختفوا عنا وسرنا نكمل مشوارنا وبعد ساعتين وجدنا منطقة نخيل فارغة وبها بئر مياه أسعدنا هذا وتحيرنا لو خلعنا ملابسنا وغسلناها سيقبل الليل ببرودته ولن نستطيع أن نبقى هكذا عراة طوال الليل نتحمل الصقيع ولدغات البعوض الكثيرة.. طلبت تأجيل هذا إلى الصباح.. وفى الصباح استيقظنا ونحن أحسن حالا فلقاء الأمس الطيب ونفحات الطعام الكثيرة المتنوعة أعطتنا جرعة من النشاط والحيوية.

حوالى العاشرة صباحا تحللنا من ملابسنا وكل واحد منا حمل الماء من البئر مانعا السباحة فيه لأنه مصدرا للشرب ولا يجب علينا أن نعكره بقذارتنا الكثيرة انهمكنا فى غسل ملابسنا ونحن عراه وطلبنا من الله أن يسترنا وأن لا يحضر أحد ويرانا خاصة البدويات.. وقد علم الله بما نريد فلم نشاهد أحدا يقترب من هذا البئر وقد جفت الملابس ودعك الرجال أجسادهم بالرمال بديلا لليفة والصابون وقد أتى هذا بمفعوله.. ارتدينا ملابسنا ونحن نشعر بالانتعاش والراحة وأدينا صلوات كثيرة لنعوض أيامنا السابقة ولنشكر الله على نعمته.

أمضينا ليلتنا بجوار البئر نأتنس به ونتزود بالمياه ونقضى حاجتنا ومعنا عبوة نحصل منها على المياه للطهارة وأصبحنا مثل الإنسان الراقى وقبيل الفجر قررنا التحرك.. سرنا حوالى عشرة كيلومترات وشاهدنا أشجار النخيل والبدو أسفلها وسبحان مغير الأحوال بمجرد دخولنا على أول بدوى وهو جالس يستمع إلى نشرة أخبار السابعة صباحا زغر لنا الرجل صائحا : بعدوا.. بعدوا.. ابتعدنا ونحن ما نزال نراقبه وقد شعر الرجل أننا نريد الاستماع إلى النشرة فأغلق الراديو ودخل خيمته لاعنا هذا الصباح الذى استقبل فيه وجوها كريهة.. رغب فراج فى أن نلقنه درسا ولكننى طلبت منهم عدم إبداء العداوة ويكفى لقاء الأمس ليمحو خطايا اليوم.. سرنا إلى الجهة الأخرى من البئر وعبرنا تلك القبيلة سائرين فى اتجاهنا الذى لا نعلمه.. واصلنا السير ومكثنا ثلاثة أيام لا نرى أى أشجار للنخيل ولا نشاهد أى بدوى وهكذا يوم عسل وأيام مريرة علقم.

اليوم الرابع منذ لقاء الأحبة من أبناء قبيلة الشهامة والكرم وقد نفدت المياه التى بحوزتنا منذ يومين والجهد قد أرهقنا والتعب أضنانا والشمس لفحت وجوهنا ثانية ولا ماء معنا ولا طعام لأكثر من يومين وفى اليوم الخامس منذ تناولنا طعامنا واليوم الثالث بدون ماء أو طعام شاهدنا قبيل الظهر مجموعة أشجار نخيل على مرمى البصر فاتجهنا إليها وقد بلغناها بعد الظهر.. تقابلنا مع رجل عجوز ذى لحية كبيرة واعتقدنا أنه شيخهم وكان الرجل يتوضأ ممسكا بإناء به ماء ويصب على نفسه وتقع المياه فى حوض من الصاج.. نصف برميل طولى.. ألقينا عليه السلام فأشار بيده تركناه حتى أتم وضوءه وبعدها توجه إليه عطية وهو رفيق الحال سائلاً إياه العون وقد استفسر منه الرجل ماذا تريد يا بنى؟ قال له بعض الماء وأى طعام ولو كسرة خبز.. أشار له الرجل بأنه سيذهب ويحضر لنا الطعام والماء جلسنا ننتظر حضوره وماهى إلا دقائق وشاهدنا الرجل ممسكا ببعض جريد نخيل جافة وألقاها أمامنا ونحن نعتقد أن الطعام سيحتاج النيران فإذا به يقول هذا هو طعامكم وأشار إلى حوض الماء الذى كان يتوضأ به وقال وهذا هو شرابكم.. اندهشنا ولم نكن نتوقع أن يقول لنا أحد مثل ذلك وعندما سأله مصطفى مستنكرا قوله.. إيه اللى بتقوله يا شيخ؟.. أجابه كما سمعتم أنتم

لستم أحسن من الإبل والأغنام كلوا واشربوا وغادرونا.. تركنا وانصرف وأراد جويلى جذب أجزاء سلاحه فمنعته وقلت هل نغضب الناس على المروءة إنه تربية جوع ولا يعلم شيئا عن كرم الرجال والمروءة.. غادرنا المكان ونحن كارهون لأى طعام أو شراب بل كارهون الحياة التى تدفعنا لهذا الذل والقهر النفسى.

عدة كيلومترات وشاهدنا منزلاً وبجواره بئر مياه وبعض المزروعات وثلاثة أطفال يأكلون من طبق ممتلئ بامية خضراء.. وقفنا ننظر إليهم، بامية فى الصحراء.. شاهدتنا الأم فحضرت مسرعة واصطحبت أطفالها ودخلت بهم المنزل ثم عادت وهى تصيح فى وجهنا.. ماذا تريدون ألا يكفى ما حدث لنا من وراء أعمالكم.. أجابها جويلى قليل من الماء والطعام.. أشارت إلينا: الماء أمامكم اشربوا وبعدوا.. كانت رسالتها قاسية وعنيفة وأعطيناها العذر فهى سيدة صغيرة وتخشى على أطفالها وبعد عشر دقائق فتحت باب منزلها وهى تقول بصوت عال.. دفعة تعالوا كلوا وغوروا من هنا.. رمت الطبق الذى به بعض بقايا البامية الخضراء بجوار حائط منزلها ولا أعرف لأين اتجهت مشاعرى، شعرت كأننا كلاب ضالة ويرمى لها ببقايا الطعام.. هكذا عوملنا لقد كرهنا الطعام وغادرنا المكان تاركين المنطقة لاعنين هؤلاء القوم رغم أن منهم الكثير من أصحاب الخلق الكريم.

العودة لنفس المكان

بعد أن شربنا من هذا المكان وملأنا وعاء البلاستيك الذى معنا من الماء شاهدنا بعض السيدات يجلسن حول شىء ما مثل الفرن كانون عبارة عن حجرين من الصخور وبينهما فاصل وفوق الحجرين قطعة من الصاج على هيئة إسطوانة "قصعة من التى تستخدم فى حمل الأسمنت للبناء" ويتم إشعال النيران مستخدمين سعف النخيل ويقومون بخبز الدقيق بعد أن أصبح عجينا بوضع الماء عليه وخلطهما سويا.. وقفنا بعيدا نشتم تلك الرائحة المحببة إلى نفوسنا وتشبعنا عن بُعد بتلك الرائحة وما أن تحركت أمعاؤنا راغبة فى الطعام على رائحة الخبز.. شاهدتنا السيدات ولم يبالين بنا ونحن نجلس بعيدا عنهن ولا نستطيع الاقتراب خوفا وخجلا من أن يسمعونا كلاما سيئا على نفوسنا ولكن فتاة شابة نظرت إلينا وإلى زميلاتها وحدثتهن وكان باديا من أسلوب الحديث أنه قد حدث خلاف على أمر ما ولم تبال الفتاة الصغيرة فأحضرت بعض الأرغفة الساخنة وقدمتها لنا ونحن نشكرها بلسان حالنا وتركتنا عائدة وقد غبنا عن أنظارهن وذهبنا قريبا من بئر المياه نقتطع بعضا من تلك الأرغفة ونتناولها ونبتلعها بقليل من الماء.

فى المساء واصلنا السير فقد أنعم الله علينا بالماء وبعض أرغفة الخبز التى سوف تستمر معنا عدة أيام بإذن الله.. سرنا بكل همة ونشاط ونحن سعداء بما أنجزناه اليوم خاصة بعد المقابلة السيئة من السيدة أم الأطفال صاحبة طبق البامية.. كانت تلك المعاملة تؤثر فينا إلى درجة كبيرة فنحن لم نقابل بمثل تلك الفظاظة قبل دخولنا المعركة ولم يتعرض أحد منا إلى ذلك أبدا وكنت أتذكر أبى عندما كنت طفلا فى العاشرة كان يرسلنى إلى أسرة رجل فقير بالطعام فى شهر رمضان وكان الطعام بكميات وأنواع وأصل إلى داره قبل الآذان بقليل حتى يظل الطعام ساخنا وطازجا ثم أعود إلى منزلنا والشوارع فارغة والجميع يتناولون إفطارهم وأنا صائم وأمعائى تحدث أصواتا من الجوع والعطش وكان رمضان أيامها فى شهر مايو من عام ١٩٥٥ ثم أتذكر أيضا العاملين فى أرضنا الزراعية وهم يأكلون ويمرحون سواء أثناء جنى محصول القطن أو ضم الأرز أو حصد وتخزين القمح.. أى نحن من بيت كرم.. كما كان جنودى هم الآخرون يتذكرون مآثر عائلاتهم على الآخرين رغم انخفاض مستواهم الاجتماعى.. كما أن أسلوب الامتناع عن مساعدتنا يتم بأسلوب سيىء وفظ وليس هادئا أو بالحسنى.

تحركنا للسير وسرنا مسافات طويلة وقد اقترينا من ضوء الفجر.. جلسنا للراحة وغلبنا النعاس فرحنا فى نوم عميق.. استيقظنا على صوت طائرة ففزعنا ولكنها كانت بعيدة عنا وعلى ارتفاع كبير.. نظرنا حولنا فوجدنا منطقة نخيل لا تبعد إلا بحوالى اثنين كيلومترا.. توجهنا إليها للحماية من شمس النهار المؤلمة وها نحن نشاهد النخيل على بعد مائتى متر.. واصلنا السير حتى دخلنا إلى المنطقة وجلسنا نستريح قليلا ولكننا شعرنا أن تلك المنطقة ليست غريبة عنا وتجولنا بها فشاهدنا الدبابات المدمرة وأماكن المقبرة الجماعية للشهداء التى داستهم الدبابات الإسرائيلية أحياء. انتابنا خوف شديد لاحتمال أن يعود اليهود ثانية كما أن تلك المنطقة ليست بها مياه ولهذا قررنا أن نغادرها مساء نفس اليوم إلى مكان آخر.

مساء هذا النهار تركنا المكان متجهين لنقطة أخرى عازمين العمل على تصحيح مسارنا فلقد عدنا من حيث أتينا وهذا يدل على تخبطنا فى اتجاهات

السير وإننا ندور حول أنفسنا وضاعت منا ثلاثة أيام هباء وبذلنا مجهودا لا داعى له ونحن فى أشد الحاجة للراحة منا للمجهود لما نحن عليه من ألم وضعف أثر على قوانا ونحن راغبون فى النوم لما نعانيه من إرهاق كان باديا على الجميع.

واصلنا التحرك عازمين على أن نبدل زاوية سيرنا كل نصف ساعة بدلا من الساعة وبهذا نقلل الخطأ الذى وقعنا فيه.. استمر سيرنا حتى منتصف الليل ولم نستطع استكمال الليل بطوله ورقدنا فى أماكننا كما تعودنا بالعراء واستيقظنا ضحى اليوم التالى قبل أن تحرقنا أشعة الشمس، واصلنا التحرك بعد أن تناولنا بعض كسرات الخبز وقليلا من المياه التى قلت كمياتها وأصبحت لا تكفى حتى المساء.. شاهدنا حطام طائرة ميج ٢١ مصرية وبعدها بحوالى كيلو متر شاهدنا حطام طائرة ميراج إسرائيلية.. إذًا كانت هناك معركة جوية.

سرنا نهاراً لتقليل الخطأ فى الاتجاه رغم حرارة النهار.. واصلنا السير ولا جديد ولا يعكر صفونا إلا الخوف من فقدان الاتجاه والدخول إلى مناطق صحراوية جافة وفقد المياه أو مفاجأة اليهود لنا ولكن كل هذا كان مُستبعدا لأنه لم يحدث إلا صدفة فى منطقة المحور الأوسط ولو أن الجندى لم يلوح لهم لما شاهدونا ولما حدث صدام معهم ولكن على أى حال هذا الصدام أثبت أننا رجال مقاتلون ولسنا ضعفاء كما تبادر إلى ذهن كل جندى وضابط أسرع فى الانسحاب بطريقة ارتجالية زادت من الخسائر بينهم.. هبطنا من المرتفع إلى الوادى فشاهدنا كتيبة دفاع جوى (مواسير) محترقة بالصواريخ والنابالم ومازالت بعض الجثث المحترقة فوق المدافع " وتلك المدافع من النوع المحمل على شاسيه دبابة ومزود بمسورتين" كان التحلل قد أتى على جزء من أجسادهم والرائحة النفاذة تلهب الأنوف.. حاولنا دفنهم ولكن تعذر علينا ذلك نظرا لحالة أجسادهم الهلامية غير المتماسكة.

تركنا المكان معتذرين عن واجب إنسانى وقبله واجب دينى فإكرام الميت دفنه.. نحن الآن فى المساء وتناولنا كسرات الخبز الباقية بعد أن جفت وابتلعناها بالماء المتبقى ونحن فى انتظار أن يمدنا الله بفضله وعونه ورحمته.. حصلنا على راحة منتصف الليل وأكملنا سيرنا لليوم الثالث بعد أن تركنا آخر منطقة للبدو الذين

أمدونا بالخبز.. ثلاثة أيام لتصحيح خطأ السير.. واصلنا السير تحت درجة الحرارة المرتفعة وقد أضنانا الجوع والعطش رغم عدم مرور أربع وعشرين ساعة على آخر طعام وشراب.. شعرنا بنسمات هواء رطب هبت علينا والتوقيت حوالى عصر ذلك اليوم، تشجعنا فى السير لنصعد تلا فنشاهد واحة خضراء ولاحظت أن الجميع يسرعون إليها وطلبت منهم عدم الاندفاع فاستجابوا وتحركنا بيقظة وحذر إلى أن تأكد لنا أنه لا توجد قوات للعدو بتلك المنطقة.. بحثنا عن الماء بين الأشجار فلم نشاهد أى علامات ولكننا شاهدنا بعض الطيور المحلقة فى السماء تهبط فى الجانب الآخر من الأشجار.. اتجهنا إلى مكان هبوط تلك الطيور وشاهدنا الكثير منها والذى يختفى ثم يعود طائرا وصلنا إلى مكانهم فرأينا كهفا ساقطا هابطا لأسفل بممر حوالى خمسة عشر مترا بزاوية ميل ثلاثين درجة ثم بئر مياه تحت الصخور المحيطة به وهى من نوع الحجر الجيرى مثل أحجار المقطم أو التى تبطن بها الترع فى الريف المصرى.

هبطنا لنحصل على كفايتنا من الماء ومنظره الذى يسُر العين والقلب لا ينازعه أى إحساس أو شعور آخر أنه شىء عال القيمة إنها الحياة.. ارتوينا وحصلنا على مياه لإزالة الأوساخ عن وجوهنا ثم أعدنا ملء العبوة التى معنا تاركين هذا الكنز الرائع واتجهنا إلى منطقة النخيل وجلسنا على أطرافها قريبا من البئر حتى نستأنف سيرنا بعد ساعة عند هبوط الظلام.. كان مكان راحتنا خلف مجموعة من أشجار النخيل القصيرة المتشابكة والمرتفعة عن الوادى الذى به أشجار النخيل وأثناء جلوسنا إذ نفاجأ بسماع صوت محرك دبابة.. تحيرنا واضطربنا ننظر حولنا فى تلك البقعة المكشوفة ولكن هالنا دخول الدبابة إلى منطقة النخيل التى نستظل بها، ظلت الدبابة تتحرك حتى توقفت على مسافة مائة متر أو اقل قليلا من مكاننا.. ملأ الرعب قلوبنا وأصبحنا فى مصيدة فتلك الدبابة قادرة فى ثوان قليلة على القضاء علينا ونحن بدون سلاح يستطيع مقاومتها والمسافة قريبة ونحن فى مرتفع فأى حركة سوف نُكشف على الفور حتى الصوت فلو عطس أحدنا أو سعل فسوف يودى بحياتنا.. حبسنا الأنفاس رقدنا جميعا على وجوهنا وراقبنا تنفسنا وشهيقنا خوفا من أن يسمعونا.. كان أهم ما لفت نظرنا والدبابة

قادمة بأن خلفها حبل مربوط به عدد من الأسرى المصريين وتزحف بهم فوق الرمال ولا أعرف من أين ولكن ما شاهدناه بمجرد وقوفها أن بعض أفرادها غادروها ولم يتبق سوى فرد واحد يقف فى البرج لحماية زملائه.. توجه الثلاثة وكان من بينهم فتاة وأعتقد أنها ليست من طاقم الدبابة لكنها رافقتهم للتشفى بما سوف يفعلونه بالأسرى.. توجهوا إلى الأسرى خلف الدبابة طالبين منهم الوقوف بعضهم غير قادر فاستعملوا معهم القسوة ركلا بأحذيتهم ولقد استطاع الوقوف أربعة دفعوا بهم أمام الدبابة وربطوا أذرعهم خلف ظهورهم ودفعوهم للانبطاح أرضا استعدادا لهرسهم كما حدث مع الشهداء السابقين وشاهدنا آثار تلك الفعلة الشنعاء قبل هذا.

لازمنا التوتر والانفعال ونحن نريد إنقاذهم وننتقم لما حدث لإخواننا الآخرين ولكننا كنا أضعف من أن نقوم بأى عمل فسلاحنا ضعيف والذخيرة المتبقية قليلة جدا فقد استهلكناها فى معركة اللواء المظلى الإسرائيلى ولم يتبق حسب آخر حصر لذخيرتنا سوى اثنتى عشرة طلقة بندقية.. وزعت علينا بالتساوى لنحافظ بها على حياتنا وكنا نتمنى أن نعثر على ذخيرة لتلك الأسلحة.

مازلنا راقدين خائفين ومتوترين ولا نتصور أن يُقتل أخوتنا أمامنا ويمثل بأجسادهم.. أما الإسرائيليون.. أحدهم بالدبابة واقف فى البرج وهذا هو أخطرهم علينا لأن أى حركة ضدهم سيدير مدفعه قتلا فينا فى خمس ثوان والآخر يقف على رءوس الأسرى المصريين وهم يصرخون من الألم لدعك رءوسهم بالرمال بقدمه والجندى الثالث والفتاة فى حالة حب من قبلات وتلميس متبادل على أجزائهما الحساسة. .أخبرت فراج وجويلى بإطلاق النيران على الجندى بالدبابة.. طلقة.. طلقة.. أى الضرب فردى وضبط عتلة الزناد على الوضع الفردى لتوفير الذخيرة المتبقية نظراً لأنهم أدقنا جميعا فى التصويب أما عامر وعطية فسيطلقون نيرانهم على الجندى الذى يعذب زملاءنا ويقف على رءوسهم.. أنا ومصطفى سنطلق النيران على الفتى والفتاة وقد تخلصا من ملابسهما السفلية وناما سويا فوق الرمال والجنديان الآخران يشجعانهما وهما ينظران إليهما بتلذذ وسعادة.

بكل حذر وهدوء اتخذنا أوضاعنا استعدادا للضرب ولن يفتح الباقون نيرانهم إلا بعد أن يطلق جويلى وفراج نيرانهما على هدفهما حتى إذا خاب تصويبهما نساعد بباقى الذخيرة حتى لو لم يتبق رصاصات لباقى زملائه ونقوم بقتلهم بالسلاح الأبيض.. طلقتان خرجتا مسرعتين ليلقى الجندى الموجود ببرج الدبابة مصرعه فى الحال وواضح هذا من جسده المتدلى على برج الدبابة فقد خرجت الطلقتان إحداهما فى رأسه والثانية برقبته أردته قتيلا فى الحال أما الثانى فأسرع يجرى لكن طلقة أصابته فى قدمه سقط قريبا من الدبابة واختفى خلفها.. أما الحبيبان.. فالجندى حصل على طلقة واحدة سقط على الأرض قتيلا ووفرنا الذخيرة أما الفتاة فقد صرخت قائمة تجرى بدون ملابسها فلحقتها رصاصة فى مؤخرة رقبتها دفعت بالدماء من فمها وأنفها وقد سقطت جثة هامدة دون إحداث أى صوت.

لاحظ مصطفى أن الجندى المصاب تسلق الدبابة ويريد الدخول إليها ليحل محل زميله القتيل ويستخدم أسلحتها ولكن زميله القتيل كان موجودا بالبرج وأثناء محاولته إخراج جثة زميله من البرج حتى يستطيع أن يدخل إلى جسم الدبابة ليفتح أسلحته علينا أطلق عليه عطية رصاصة سقط على أثرها قتيلا من فوق الدبابة على الأرض.

أسرعنا بفك وثاق الأسرى الأربعة الذين سمعوا بالمعركة دون أن يشاهدوها، وقفوا يقبلوننا شاكرين ونحن ننظر إليهم وإلى حالتهم المزرية من التعذيب فقد تقطعت أفرولاتهم وخاصة من جهة الصدر وآثار الدماء تملأ وجوههم وصدورهم الشبه عارية أما وجوههم فكلها رمال وكذا أفواههم تملؤها الرمال من آثار السحل وسير الجندى اليهودى فوق رءوسهم بحذائه.. قدمنا الماء إليهم، نظفوا أفواههم وأسنانهم ثم تناولوا شربة ماء وكان باديا عليهم العطش والإرهاق أما الأسيران الآخران خلف الدبابة فلقيا مصرعهما من أثر النزيف الذى حدث لهما من سحلهما وقد شاهدنا منظرهما والدماء تغطى أجزاء من الجسد خاصة الصدر والرأس.

عرفنا أقدم الأسرى الذين فُك وثاقهم بنفسه وبزملائه بكل هدوء رغم ما به من إصابات قائلا (رائد / وليم شفيق قائد الكتيبة (.....مدرعة) والملازم أول/......... واثنين من ضباط الصف هما.......,.......) من نفس الكتيبة التى اعدم منها ثلاثة عشر فردا وداست فوقهم الدبابات من عدة أيام وأخبرنا القائد أنهم بعد أن نجحوا فى تدمير العديد من دبابات العدو تدخل الطيران المعادى الذى قذفهم ودمر بعض الدبابات.

طلب منا أن نغادر المكان لأن هناك دبابتين باقيتين سوف تحضران باقى الأسرى وعددهم سبعة.. يعيد الرائد وليم رجاءه أرجوكم ابتعدوا عنا حتى لا تكونوا عبئا وتصابوا معنا.. أحاول أن أقنعه بأن يرافقنا فى رحلة العودة إلى القناة، نظر إلى بدهشة قائلاً: ماذا تقول؟.. ألم تدخل معركة خاسرة أنت وجنودك القلائل من أجلنا.. نحن أولى منكم بالدفاع عن الباقين ثم ودعنا وقفز فوق الدبابة ولحق به الباقون وأخرج جثة الجندى القتيل من البرج وقذف به أرضا ودخل إلى داخل الدبابة وأدار موتورها وتحرك بها لاختيار مكان يستتر به.. أسرعنا بمغادرة المكان ونحن فى دهشة، كيف نصبح عبئا عليهم.

تحركنا إلى أين لا نعلم ولكننا سمعنا أصوات دبابات قادمة فأسرعنا إلى داخل بئر الماء رغم خطورة ذلك ولكن المنطقة مفتوحة والدبابة والطائرة الهليكوبتر قادرتان على الإمساك ولو بعصفورة فى تلك الأماكن المفتوحة.. وصلنا إلى بئر المياه ومن هناك كان يمكن تتبع ما سيحدث بين الدبابة التى يقودها الرائد وليم وبين الدبابتين الإسرائيليتين القادمتين.. دخلنا إلى البئر تاركين جويلى مستترا بجوار البئر من الخارج ليعلم ما سيحدث ويخبرنا.

وصلنا إلى حافة مياه البئر والظلام دامس بداخله فتحسس مصطفى عمق البئر فوجد انه لا يزيد عن المتر وسار فيه ونحن خلفه.. كان مثل بحيرة صغيرة لا يزيد قطره عن أربعة أو خمسة أمتار ونحن فى منتصف البئر شاهدنا كهفا أعلى المياه فصعدنا إليه وكان فسيحا ولا يقل طوله عن خمسة أمتار وعرضه متران وكان مخفيا عن نظر القادم للداخل.. دقائق قليلة ونحن فى الكهف سمعنا أصوات انفجارات واشتباكات ورشاشات.. لقد بدأت المعركة ثم بعد قليل تدخلت

طائرات الهليكوبتر ومازالت أصوات الانفجارات تصل إلى مسامعنا، حضر الجويلى مسرعا مستفسرا عن مكاننا نظرا للظلام الذى حل بالمنطقة فأرشده زملاؤه حتى وصل إلينا مبتلا مثل حالنا وأخبرنا بصوت هامس عما حدث.

قال: شاهدت دبابتين قادمتين فى اتجاه الدبابة التى قتلنا طاقمها.. بادرت الدبابة التى بها الرائد وليم وزملاؤه بقذف إحدى الدبابتين بالنيران فانفجرت فى الحال وقد دفع هذا بالدبابة الثانية لإطلاق النيران على الأسرى المصريين السبعة الذين لاقوا مصرعهم فوراً وكانت الدبابة المصرية قد استعدت لتلك الدبابة فقذفتها فانفجرت هى الأخرى وهنا حضرت طائرتان هليكوبتر فأطلقتا صواريخهما على الدبابة فى نفس الوقت التى أطلقت دبابة الرائد وليم نيران رشاشها على الطائرتين فانخفضت إحداهما لتفادى النيران فاصطدمت بنخلة فانفجرت واشتعلت بها النيران لكن الطائرة الأخرى دمرت الدبابة وبها الأربعة المصريين الذين كنا قد أنقذناهم.. سعدنا من تلك الأخبار رغم أن أحد عشر مصريا لاقوا حتفهم ولكن الواضح أنها كانت انتصارات كبيرة فلقد دمرت ثلاثة أطقم دبابات بعدد اثنى عشر فردا والطيار ومساعده فتكون المحصلة أربعة عشر بالإضافة إلى ثلاث دبابات وطائرة هليكوبتر.. انتشرت فى المنطقة الطائرات والعربات المجنزرة تمسحها لعل هناك آخرين ساعدوا فيما حدث حتى وصلوا لبئر المياه وقد سمعتهم يتحدثون "بالعبرية" بتدمير البئر ولكن الآخر طالب بتسميم البئر حتى يموت كل من يحاول أن يشرب من مياهه ثم قذفوا فيه بعدة قنابل يدوية لم تؤثر فينا لأننا كنا مختبئين فى مكمن حصين وتلا ذلك أن قذفوا بشىء مثل علبة فأحدثت صوتا ورائحة لفترة وتركوا المكان عائدين إلى وحدتهم.

ظللنا فى مخبئنا متخوفين من حضورهم ثانية أو انتظارهم لنا خارج البئر.. بعد منتصف الليل شعرنا بحركة على مدخل البئر ثم صوت حيوان يتجشأ ولقد تميزنا الحيوانين فهما ذئبان جاءا بعد أن حصلا على وجبة ليشربا كمية من المياه.. الذئب الأول شرب مباشرة أما الثانى فبعده بقليل وأثناء شراب الذئب الثانى عوا الذئب الأول بصوته وانقلب فى الماء وعندئذ أسرع الثانى يعدو ولكنه سقط فى مدخل البئر وهذا أكد لنا أن اليهود قد سمموا البئر.

ساد صمت مطبق فى المكان ومع هدوء الليل لم نسمع أى أصوات لمحركات أو انفجارات خارج البئر.. ولكن من تجاربنا السابقة تأكد لنا أن حضور الذئاب إلى البئر دليل على أن منطقة البئر آمنة لأن الذئاب لا تستطيع الاقتراب مع وجود قوات قريبة منا ورغم هذا تطوع فراج ومعه مصطفى للخروج باحتراس لمعاينة المنطقة وتسللوا مرورا بمياه البئر وخرجوا إلى خارجه ومكثوا بعضا من الوقت وعادوا ليخبرونا بأن المنطقة آمنة وأنه لا توجد أضواء أو حركة خارجية.

تسللنا إلى خارج البئر ولفحتنا برودة الليل مع بلل نصفنا السفلى فشعرنا بالبرودة تسرى فى أجسادنا.. سرنا عدة كيلومترات حتى ابتعدنا عن مكمن الخطر لكننا شعرنا بالإرهاق والبرودة ويجب علينا التخلص من ملابسنا المبتلة ولهذا وجهت سؤالى.. ما رأيكم أن نستريح ونخلع ملابسنا السفلية المبتلة وندفن أجسادنا فى الرمال حتى الصباح ونترك ملابسنا المبتلة فى العراء حتى تجف.. وافقوا على هذا متمنيين ألا يأتينا اليهود ونحن عراة.. ترحمنا على الشهداء الذين ماتوا سحلاً خلف الدبابة أو من قاموا بالمعركة.. قلت لزملائى الجنود.. فعلا الخبرة عليها عامل مهم.. لو بقينا بجوارهم لكنا قُتلنا بدون أن نفيد بشىء لقد كان الرائد وليم بعيد النظر سديد الرأى.

نفذنا خطتنا داعين الله ألا يهاجمنا اليهود بهذا الوضع وخاصة أنه لم يتبق معنا سوى رصاصتين فى البنادق وقد أعددت نظاما للخدمة حتى يكون هناك فردان متيقظان مع عدم التحدث حتى لا تسمع أصواتنا وتصل لأعدائنا.. كل فرد منا تخلص من ملابسه المبتلة ونشرها بجواره ودفن جسده فى الرمال الدافئة فأدخلت السعادة والراحة إلى أجسادنا المرهقة.

دخلنا فى نوم عميق.. ظهر نور الصباح ليوم جديد راجين من الله ألا نقابل اليهود حيث إن ما تم معهم كان بغرض الدفاع عن زملائنا الأسرى ولم يكن من المعقول أن نظل مختبئين ونشاهدهم يقتلون هؤلاء الأسرى وما تم بسبب اقتحامهم لمكان تواجدنا.. فى الصباح أصبحت الملابس أكثر جفافا والطقس أكثر دفئا مما ساعدنا على تحمل الملابس وأكملنا السير.. سرنا بعزم وهمة ونحن نراقب المنطقة حتى لا يحدث شيئا يعكر صفو انسحابنا خاصة انعدام الذخيرة.

منتصف النهار شاهدنا مجموعة من النخيل وباحتراس كالسابق تحسسنا المنطقة فتأكد لنا عدم وجود أحد بها فاتجهنا إليها ولم نكن فى حاجة لمياه فالمياه مازالت معنا من البئر الذى سممه اليهود أمس، ما لفت نظرنا هو وجود شىء أسود اللون بين النخيل ودائرى وعلى شكل قرص ودائرته فى حجم الطبق متوسط الحجم.. نظرنا إليه ثم سألت فراج وهو جندى المشاة والذى كان معى لحظة تهور العسكرى الدمنهورى، والذى أراد الانسحاب مهددا بفتح نار بندقيته فى اتجاهنا.. فراج ألا تعتقد أن هذا الشىء هو خزنة الرشاش الخفيف فأجاب على الفور.. فعلا خزنة رشاش خفيف والكل يمنى نفسه بأن يكون بها بعض من الذخيرة وآخرون يؤكدون أنها فارغة وإلا ما كان صاحبها قد تركها فى وسط الرمال.. طلبت من اثنين أن يتجها إليها بحذر ويدفعان ببعض الحصوات والأحجار جهتها حتى نضمن ألا يكون بأسفلها لغم أعده اليهود لمن يحاول الحصول عليها.. نفذ الجنديان هذا ولم يتم انفجار وتحركت علبة الرشاش قليلا من أثر قذفها بالأحجار.. عندئذ توجها إليها وحملاها وهما عائدان سعداء حيث يهزها أحدهم قائلاً: إنها ثقيلة مما يدل على وجود ذخيرة بها.

كان استنتاجهما صحيحا فبعد فتح غطاء خزنة علبة الشريط وجدنا أنه ممتلأ بالذخيرة ويسع مائة طلقة وهى من نفس عيار البندقية التى معنا (٧,٦٢ × ٣٩) وأكثر من نصف تلك الذخيرة من النوع الخارق الحارق.. جلسنا ننظف الذخيرة والسلاح مما علق بها من قاذورات ورمال مستخدمين بعض قطع من الفانلات الداخلية وبعد الانتهاء من نظافة السلاح والذخيرة وزعتها عليهم بالتساوى وأصبح كل سلاح به سبع عشرة طلقة وهكذا ضمنا جزءاً مهماً من الأمان فى طريق سيرنا للهدف الذى نعرفه ولكننا لا نعرف كيفية الوصول إليه.

واصلنا السير فشاهدنا دخانا أبيض ينبعث من خلف التباب فاتجهنا صوبه وهو ليس بدخان انفجارات وليس دخان إعداد طعام لليهود حيث يتناولون طعاما محفوظا.. لابد أنه لمجموعة من البدو.. سرنا فى اتجاهه وبعد مسيرة الساعة تقريبا شاهدنا مجموعة من العشش الجريد وبعض البدو بجوارها وقد لاحظونا ولوحوا لنا بالاتجاه إليهم وأسعدنا هذا الاستقبال عن بُعد.

وصلنا إليهم وألقينا تحيتنا فردوا بأحسن منها وطلب أحدهم السلام على شيخهم وهو رجل كبير السن يبدو عليه علامة الصلاح وقوة الشخصية فأمر مساعديه بإعداد الطعام للدفعة وسبقه إعداد قهوة عربى.. كل شىء يُعد وأنت جالس يحمص البن ويصحن يدويا والنيران مشتعلة دائما ويوضع إناء القهوة وهو كبير الحجم نسبيا ويوزع فى فنجان "بيشه" مثله موجود بمصر.. فنجان أبيض بدون ودن وبدون طبق متسع الفتحة من أعلى أكثر من الأسفل.. تناولنا القهوة وتلا ذلك احضار عدة أرغفة خبز ساخن مُعد بنفس طريقة القهوة.. إعداد العجين حسب الطلب ثم فرده على قطعة صاج بأسفلها النيران مثل التى شاهدناها منذ عدة أيام.. كان معنا فى نفس توقيت الضيافة جنود من حرس الحدود.. هم من أهالى النوبة شديدى السمرة والوجوه مكتنزة الحجم أكثر من المصريين ولهم علامات «عدد من الشرط الطولية بأعلا الخدين» وهم قوم طيبو القلب وحسنو النية وكنا نأكل معهم وجنودى يسرقون الخبز ويضعونه تحت ثيابهم وقد شاهد هذا أحدهم فتوترت أعصابه وتحدث مع زملائه بلهجة أو لغة لا نعرفها وهنا طلب أحدهم من شيخ العرب أن ينبه على هؤلاء الدفعة الامتناع عن سرقة الطعام فأضحك هذا الرجل العجوز والذى أشار إلى معاونيه بإحضار المزيد من الخبز حتى لا يغضب أبناء النوبة، أسعدهم هذا بينما طلبت من جنودى الكف عن هذا العمل مذكراً إياهم بما كنا نعانيه فى مقبرتنا وما كنا نذكره من الاعتراف بالسرقة، أثر فيهم هذا وأخرجوا الخبز من ثيابهم ووضعوه أمامنا وهنا أشار لهم الشيخ بأخذه ثانية مبتسما لهؤلاء المشاغبين. .أشار الرجل إلى لأجلس بجواره واقترب منى يحدثنى قائلاً:

أنت ملازم.. فأجبته بنعم.. أخبرنى أنه لم يشاهد ضابطاً صغيراً إلا ومعه جنوده وأنه كان يتمنى أن يقدم لنا مساعدة أكثر من ذلك ولكنه لا يستطيع لأن فى رقبته أشخاصا مهمين مطلوب أن يوصلهم إلى بورسعيد بأمان.. أمسك بيدى ودخلنا عشة جانبية وفتح فاصلا بسيطا بين سعف النخيل وهالنى الأعداد الموجودة بالداخل من كبار الضباط الذين جمعهم بمعرفة رجاله وتخوفت أن يكون قد أسرهم وسيسلمهم للإسرائيليين لكنه أفادنى بأنه يؤمن عودتهم إلى مصر..

ولهذا فهو مُتخم بهذا العدد وسألته كيف يعيدهم؟ ضحك من سؤالى قائلاً: هذه بلادنا ونحن نعرف كل شبر فيها ومعى رجال قبيلتى والحقيقة كل ليلة أرسل بمجموعة إلى بحيرة البردويل وهناك ينتظرهم لنش المخابرات ليقلهم إلى بورسعيد.. أمسكنى من كتفى قائلاً: أرجو ألا تبوح بتلك المعلومات لأحد حتى جنودك وإذا وصلت بالسلامة وسوف تصل إن شاء الله أرجو أن تخبر المسئولين فى بورسعيد بأننا فى أشد الحاجة للمواد التموينية التى انقطعت منذ أسبوع.. وخاصة الدقيق والسكر.. أجبته إن شاء الله تصل رسالتك لهم وهم لها ملبون.. علمت منه أن الإسرائيليين يجدون فى أسر القادة للقضاء عليهم حتى تصبح مصر بدون قيادات عسكرية وأنه يمكن لمصر استعواض خسائر السلاح لكن خسائر القادة صعبة للغاية وقد تمتد إلى عشرات الأعوام حتى تستطيع إعداد كوادر أخرى وبالتالى تنتهى مشاكلهم مع المصريين. .لقد قام هؤلاء البدو بعمل مجيد بالتعاون مع المخابرات المصرية.

شكرناه مودعين كما نصحنا بأن نسلك هذا الطريق والاحتراس من اليهود خاصة فى مناطق النخيل التى تكون مصايد للدفعة الطالبين للراحة مع التحذير إذا لاحظنا شيئا لامعا فوق مياه أى بئر أو حيوانات نافقة أو «دفعة» أى جنود موتى بجوار هذا البئر.. فهذا معناه أن البئر مسمم وابتعدوا عنه فورا.. ولا تغتسلوا منه.. شكرناه سائرين وقد حصلنا على بعض أرغفة الخبز الذى تكرم وأهدانا إياها وقد ملأنا العلبة البلاستيك بالمياه النظيفة.

قبل المغيب بساعتين ودرجة الحرارة خف لهيبها وكذا ضوء الشمس قل لمعان ضوئها ونسمات هواء بارد تدغدغ أجسادنا الهزيلة مع ارتفاع لروحنا المعنوية بعد أن شاهدت عددا من القادة يُعدهم الرجل للعودة لأرض الوطن لتولى القيادة استعدادا للحرب مع إسرائيل فلن تدوم الهزيمة إلى الأبد مهما طال زمانها فلابد أن يكون هناك ثأر ولابد أن نعيد أرضنا التى سُلبت منا بدون حرب رغم أخطائنا فيها وليس العدو أو الآخرون حسب ما كنا نسمع من البدو بالخيانة والتآمر بين كل من روسيا وأمريكا.

كان مبعثنا لهذا هو ما نقوم به من أعمال رغم أنها فرضت علينا ولكننا نجحنا فى أن نصيب العدو وها نحن قد شاهدنا فى مرحلتى القتال معهم مقتل أكثر من عشرين جنديا وتدمير عدد من الدبابات والسيارات الجيب وطائرات الهليكوبتر وبدون قيادة كبرى.. وما هى قيادتى وأنا الضابط الصغير عديم الخبرة والقيادة.. كنت أتذكر لو تواجدت قيادة معنا لكنا فعلنا المعجزات!!!

واصلنا سيرنا حتى اقترب الليل وحل الظلام ونحن مازلنا نسير حتى شاهدنا أضواء خافتة على بُعد.. مازلنا نواصل السير حتى اقتربنا من ذاك المكان والذى تأكد لنا أن به بدو وعائلات وهذا نابع من أصوات الماعز والأغنام والأطفال ورائحة الخبز المطهى.. إذًا لننتظر حتى الصباح بدلا من الدخول عليهم ليلا غيلة فيحدث لهم إزعاج وقد ترتاع النساء والأطفال فيقابلوننا بما هو أسوأ مما حدث قبل ذلك وكما يقول المثل الصباح رباح والنهار له عينين.. إذًا فلننتظر حتى الصباح فالإبصار أفضل من عدمه.

لقاء غير متوقع

هذا يوم جديد فى رحلة العودة التى لم تنته متاعبنا فيها منذ بداية الانسحاب فى يوم السابع من يونيو وكان يوم أربعاء لقد أمضينا ثلاثة أسابيع بين كر وفر ومتاعب وآلام ومخاطر على حياتنا سواء جوعا وعطشا أو دفننا أحياء أو بين مخاطر لقاء العدو سواء من هجماته علينا أو مخاطر أن تنفجر فينا ألغام قابعة تحت الرمال كما أن أجسادنا أرهقها التوتر واختلاف درجات الحرارة بين الليل والنهار وأضواء الشمس المبهرة نهارا أو الظلام الدامس ليلا ولو أضفنا سوء لقائنا ببعض البدو وأسلوبهم الجاف فى منع المساعدة عنا لوضح أمامنا أننا مازلنا نعانى.... حتى الشهداء من سلاح المدرعات والذين اضطررنا إلى الدخول فى معركة لإنقاذهم من دبابة العدو ونحن غير مستعدين لها كانت كلماتهم لنا " اتركونا حتى لا تكونوا عبئا علينا ".. كنا نشعر فى أحيان كثيرة بضآلتنا أمام الآخرين وكأنهم يتكبرون علينا أن نعيش أو أن يكون لنا رأى أو صفة أو أن نطلب الطعام والشراب حتى شيخ القبيلة كان مكلفا من قبل المخابرات المصرية بالبحث عن القيادات وإنقاذهم وإحضارهم إلى مصر معززين مكرمين ولا داعى للفكة أو التوافه من الجنود وصغار الضباط لأنهم ببساطة ليست لهم قيمة فى العسكرية

المصرية أو فى إعادة تسليح الجيش.. أنهم غير مهمين.. لا نحتاج لهم.. إذا أرادوا العودة فلا يضر وإذا ضاعت حياتهم للأسباب السابقة فلن نضار أيضا.. غلبنا هذا الإحساس ولم نشاهد أو نرى من يقول لنا أهلا بكم أين أنتم، إن الدولة تحتاج لكم وسنساعدكم فى العودة والمحافظة على حياتكم بل لقد دفعنا كل ما نملكه من ثروة قيمة وهى ساعات يدنا التى نستخدمها من أجل أن يدلونا على طريق آمن ونحن نكمل سيرنا.. كنا مشتتين بين المحافظة الشخصية على حياتنا والقيام بواجب وطنى غير مفروض علينا فى دخول معارك مع العدو وقد ترك المتخصصون وكبار القادة تلك المعارك سواء طواعية أو تحت ضغط تلك المعارك.

إذًا فلنكمل سيرنا لعل الله يفتح باب الأمل أمامنا وينقذنا من عثرتنا وكربنا إنه نعم المولى ونعم النصير. « .. وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان». تحركنا إلى منطقة النخيل وكانت الساعة حوالى السابعة صباحا والقوم قد أفاقوا من نومهم ويستعدون مثلنا ليوم آخر يرى ما سيتم فى أحوالهم لتلك الحرب التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل.. بادرنا البعض بالتحية وآخرون بلوى رءوسهم إلى الجهة الأخرى قائلين فى السر صباح مش حيعدى علينا.. إيه اللى حدف المصايب دول علينا.. كنا نشعر بما يريدون قوله بدون حديث فالوجوه تحكى وتقص ما يعتمل فى نفوسهم ونحن ليس أمامنا سوى الاستجداء مع العزة وكيف يتقابل الضدان فى هذا.. كيف أستجدى وأنا عزيز الكبرياء.. إنها المعادلة الصعبة ولا يؤاخذنى من يقرأ هذا ويقول كيف تقول هذا على نفسك وجنودك.. نعم سأقول ما كنا نشعر به.. كنا نقترب منهم وعيوننا ترسل لهم ما نحن فى حاجة إليه بدون كلام.. والله كان هذا شعورى.. كنا مثل الكلاب أو القطط الهائمة على وجوهها من الجوع والعطش التى تقترب منك تهز ذيلها وتحرك جسدها لتفهمك وتشعرك بما تريد أنه حيوان أعجم لا ينطق ولقد أصبحنا مثلهم.. فإذا تعطف علينا أحد بكسرة خبز وشربة ماء شكرناه بالكلمات وإذا ضايقنا أحد منهم بقوله "بعدوا.. غوروا بعيداً " تضايقنا مغادرين المكان.. ماذا يفعل الحيوان الأعجم سوى ذلك وأعتقد أن الله لو أنطقه لثار وسب هؤلاء القوم ولكننا لم نفعل ولم نُكره أحدا على إطعامنا بل كنا فى حالات كثيرة نترك

الناس بعد أن يظهروا كرههم لنا ويتجاهلوا وجودنا.. تخيل التجاهل لستة من جنود مصر وشبابها فى غياهب الصحراء القاتلة والعدو يطاردهم وقد شاهدنا ما كانوا يفعلون بهم إذا استسلموا ووقعوا أسرى فى أيديهم.. إذًا فنحن فريسة للموت جوعا وعطشا أو قتلنا بدهسنا تحت جنازير الدبابات.

وقفنا بداخل تلك القبيلة ننظر لعل أحدهم يشعر بنا والناس مغيبون عنا أو متجاهلون لنا.. فهذا يأخذ بعض الماء ويذهب بعيدا ليقضى حاجته وآخر يشعل النيران ليعد الشاى وآخر يفتح الراديو ليسمع آخر الأخبار أو أغنية ورجل يتعارك مع زوجته لأنها أهملته الأيام السابقة ولم تعد نفسها لإمتاعه وهى صارخة فيه بأنه مش عايش وشايف الدنيا مقلوبة حولهم إزاى.. كان هذا ما نراه وأمهات مشغولات بطهى وجبة الصباح وأخريات يهندمن من زينتهن وكان واضحا أن أبناء تلك القبيلة ميسورو الحال وأن نساءهم يتمتعن بدرجة عالية من الجمال وجرأة القول والحديث.. كانت النساء قليلات الحياء فى أحاديثهن التى تخصهن كنساء وكان الصوت المعلن للعلاقة مع الأزواج سواء سعيدات أو صاخبات شيئًا عاديًا وكأن رجالهن قد لبسوا ثوب الخنوع وقد سلموا قيادتهم لزوجاتهم.. كان هذا واضحا بعد أن جلسنا قرابة الساعة وكأننا نرتدى طاقية الإخفاء فلم يعرنا أحد منهم أى انتباهة أو يلتفت إلينا.. كنا مثل الناس فى ميدان رمسيس والذين لا يهتمون بذاك التمثال الرائع بعكس السائح الذى يقبل من آخر الدنيا ليشاهد هذا الإعجاز الفنى المهمل إنها العادة التى تصيب الناس بالتبلد.

نتبادل النظرات.. ماذا سنفعل؟.. ذهب أحدنا لإحضار ماء ولم يعترضه أحد.. شعرنا أن الإهمال أخطر من المجابهة واللوم والتقريع وكلمة بعدوا عنا أو غوروا بعيداً.. فجأة جاء رجل يعرض علينا بضاعته ولم يقم على تحيتنا بتحية الإسلام ولا البوذية.. الدفعة عايزين «وكل» يعنى طعام.. أجابه أحد الجنود أيوه عايزين ناكل.. سألنا كم سندفع!!.. أخيرا بعد أن جاء على نفسه فهو يقدم الطعام بثمن.. أجابه : إحنا نحتاج حاجة بسيطة كمساعدة فنحن لا نملك مالا.. أشاح الرجل عنا وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ولكنها من نفس قاموس «بعدوا عنا.. غوروا بعيد».

حضر آخر مع زوجته ممسكا "بجدى أى ذكر الماعز" وقال تشتروا كام رغيف خبز وأعطيكم هذا الجدى هدية فوقه.. سألناه: وكم ثمن الخبز؟ فأجاب خمسة أرغفة خبز بجنيه واحد!!.. تعجبت فهذا ثمن كبير ولا يماثله هذا الثمن إلا فى فندقى سميراميس أو هيلتون النيل.. إنه سعر مرتفع لكن الرجل كان يريد مالا ولا يريد "عنزة" أى معزة.. يحاول الفصال وزوجته هى الأخرى ترغبنا فى الشراء وتجمع آخرون لهذه الحلبة التجارية وقد أصبحنا نقف فى سوق.. هذا ما حدث وكانت تلك المرة الأولى التى نتعرض فيها لمثل ذاك الحدث.. أخيرا توصل إلى اتفاق معنا بأنه سيبيعنا خمسة عشر رغيفا بثلاثة جنيهات أو نحصل على عنزة وخمسة أرغفة بثلاثة جنيهات.. نتداول سويا ونبحث عن المال الذى معنا فقد وجدناه جنيهين وخمسة وسبعين قرشا. .عرضنا عليه الثمن ولكنه رفض قائلاً: هذا ثمن العنزة.. توقفنا عن المفاوضات وماذا سوف نأكل؟ عنزة فقط إننا نريد خبزاً أيضا والعنزة كبيرة على ستة من الرجال وليس لدينا ثلاجة لنحفظ باقى اللحوم.. الرجل وزوجته يتناقشان فى تلك البيعة.

أقبل مصطفى قائلاً: أفندم أريد محادثتك وانتحينا جانبا قائلاً بلاش البيعة دية.. هناك.. وأشار إلى سيدة شابة ترغب فى بيعنا خمسة أرغفة وعنزة بما عرضناه على الرجل ورفضه.. أحدثه وقد التف جنودى حولى بأن الرجل على وشك الموافقة وكلها ماعز وقرايب ولا فضل لعنزة على أخرى والخبز أيضا ولكنهم للمرة الأولى يصممون على رأيهم، قالوها بصراحة تلك أموالنا ولنا الحق فى التصرف فيها. . نرجوك أن تلغى الاتفاق مع الرجل.. عدت إلى الرجل والذى كان يشاهدنا ونحن نتحدث وحولنا باقى الناس فى القبيلة وكان عددهم كبيراً يزيدون عن المائة غير الأطفال والماعز والخراف.. شكرا يا شيخ.. بألغى الاتفاق.. تضايق الرجل ولكن زوجته تحدثت وهى تقول المرة ال.... هيا السبب فى اللى حصل وقامت خناقة ستأتى على أكبر مستوى ونحن نشاهد الردح السيناوى بكل الألفاظ والرجال سلموا مقاليد السيطرة كما سبق ولاحظنا وكل واحد منهم توارى فى خيمته تاركا هذا السامر وقد تعودوا على ذلك. .انتهت وصلة الردح بكل الألفاظ التى يعاقب عليها القانون والتى تثير مشاعر الرجال وتحرك ما يعتمل فى صدورهم للانجذاب للمرأة.

توجهت السيدة أو الفتاة إلى خيمتها بعد أن انتهت من صراعها مع المرأة الأخرى فاتجه إليها مصطفى للاتفاق معها بعد أن رفضت أن أكون أنا المتحدث باسمهم خاصة بعد أن صرحوا لى بأنها أموالهم وهم يختارون ما يشاءون رغم أننى أملك رصيدا فى تلك الأموال بقيمة خمسين قرشا ولكن غالبية الأسهم معهم ولهذا فلهم الرأى الأول والأخير وقد رفعوا الفيتو ضدى.

جاءنى مصطفى ويصحبته جويلى يبلغاننى بأنهم نجحا فى الاتفاق معها على العنزة وخمسة أرغفة خبز بجنيهين وخمسة وسبعون قرشا كما أنها ستزودنا بما نحتاجه للذبح والسلخ وأدوات الطبخ مجانا.. السعر مغر، جاءت إلى السيدة طالبة منى الحضور عند خيمتها حتى تُعد لنا الشاى.. توجهت مع جنودى إلى خيمتها مع ضيق الزوجة الأخرى المنافسة على البيع والشراء.. توجهت الفتاة إلى والدها وهو رجل عجوز ويشبه "مسيلمة الكذاب" تطلب منه عنزة ودقيق لصنع خمسة أرغفة خبز، طلب الأب ثلاثة جنيهات، حاولت إقناعه بالثمن الذى اتفقت عليه معنا فقال لها أنت تعيشين بعيدا عنى ولك حياتك ولى حياتى أنا وزوجتى.. وضعت يدها فى صدرها وأخرجت ربع جنيه لتكمل الثمن.. وهكذا أحضرت «جديًا» كبيرا أفضل من الذى عرضه علينا الرجل الأول وأحضرت الدقيق وطلبت من الجنود التوجه إلى بئر المياه للذبح والسلخ وإعداده للطهى.. أسعد هذا الجنود وسألتهم أتعرفون الذبح؟ فأكدوا جميعا ذلك. .أردت أن ألحق بهم ولكنهم طلبوا منى الانتظار هنا وخاصة أن السيدة أو الفتاة قالت لى ابقِ هنا وهم سيفعلون كل شىء.

دخلت خيمتها وأعدت كوبا من الشاى وأحضرت شلتة صغيرة ووضعتها خلف ظهرى حتى لا أتألم من سند ظهرى على جذع النخلة.. إنه شىء جديد على شخصيا وانفتحت معى فى الحديث وأنا جالس مثل هارون الرشيد غير مصدق ما أنا فيه. .أجلس براحتى وأشرب الشاى ساندا ظهرى على شلتة مريحة بدلا من جذع النخلة القاسى والسيدة أو الفتاة تحدثنى بكل رقة وأنوثة..

السيدة فى الثانية والعشرين من عمرها متوسطة الطول بيضاء جميلة إلى أقصى درجة عيونها السوداء لامعة ببريق لا تعرف ماهو ولكنه دليل على الصحة والسعادة أو الراحة النفسية كما أنها تتمتع بشعر كستنائى طويل ناعم أما صوتها

فهو عذب رقيق كأنه همس رغم أنه منذ دقائق كان هادراً أثناء المشاجرة مع السيدة الأخرى وعرفتنى بنفسها: اسمى رابحة . متزوجة منذ ثلاثة أعوام ولى طفل وأنت؟ عرفتها بنفسى وسألتنى من أى بلد أنت فى مصر فأجبتها من بلدة اسمها الزقازيق.. هتفت الزقازيق.. أيوه.. اسألها: لماذا أنت مندهشة من هذا الاسم؟.. أجابت لست مندهشة بل أنا سعيدة إلى أقصى درجة لأننى أريد أن أذهب إلى الزقازيق.. ضحكت وقلت أهلا وسهلا، قاطعتنى وهى تقول إن زوجى مسجون فى سجن الزقازيق العمومى بعد أن حُكم عليه بسبعة أعوام لتجارته فى المخدرات.. وضعت يدى على فمى.. أخيرا عُدنا إلى تجار المخدرات والمهربين الذين غدروا بنا وكانوا سيوردوننا مورد التهلكة.. قالت سأعقد اتفاقا معك.. سأساعدكم فى الوصول لقناة السويس بأفضل طريق ميسور وآمن لكنه طويل نسبيا. .سألتها وما طوله؟ قالت يحتاج إلى سبعة أو ثمانية أيام وسأوفر لكم مصادر الطعام والشراب نظير هذا أصطحبكم حتى أعبر القناة وتوصلنى إلى الزقازيق لأقوم بزيارة زوجى الذى تركنى بعد ولادة ابنه سليمان بعدة أشهر. أنا تواقة لأن أشاهد زوجى.. صمت وسكنت من هذا العرض المفاجئ.

دخلت إلى خيمتها وفتحت جزءاً من باب الخيمة المواجه لى وأنا جالس وقد تحررت من بعض ملابسها ولم يتبق إلا القليل الذى يظهر أكثر مما يخفى ويثير اللعاب والهواجس. تنحنحت حتى أعيد اتزانى وتنفسى إلى وضعه الطبيعى، نظرت بأحد الأجناب حتى لا تكون عيونى مُسلطة جهتها ولكننى كنت أشعر أن وجهى يتحرك ليعود ثانية مثل أى شئ غيرت اتجاهه بعكس ما خلقه الله فتشعر كأن هذا الشئ يريد العودة إلى وضعه.. مازالت تحدثنى بصوتها الناعم الرقيق.. مقلتليش.. إيه رأيك لما أكون معاكم؟.. حتكون مبسوط ومش ح أخليك عايز أى حاجه.. أى حاجه بتفكر فيها ح تلاقيها جاهزه قدامك.. أفكر بأن الشيطان يريد أن يغزو قلبى وأنا الشاب الصغير الغض الغرير ولم أكمل ثلاثة وعشرين عاما ولم أشاهد حسناء شخصيا جميلة أمامى مباشرة سوى فى بعض الأفلام لكن ظروفى وعمرى لم يضعانى فى مثل تلك التجربة قبل ذلك.

الأفكار الشيطانية بدأت تتسلل إلى جسدى وهى مازالت تتحدث بصوتها الناعم الذى ينزل على جسدى مثل السياط الرفيعة الملتهبة.. إيه مش بتبص

ناحيتى ليه.. زعلان منى.. مخاصمنى.. تلعثمت فى الإجابة وتلاحقت أنفاسى وشعرت أن بجسدى أشياء تتحرك ولا أعرف ما أنا فيه وقد حدث لى دوار البحر ولكنه دوار الإغراء ولم تكن لى تجربة وخبرة فنظرت إليها حتى لا تغضب منى ومن منا نحن الرجال يرفض النظر إلى ما هو جميل ومريح وتهب منه أنفاس الربيع الرطبة.. أقول فى سريرتى البت دى حتخلينى أعمل مصيبة النهاردة وتخلى العرب يدبحونا وتخلى العساكر يتناولوا سيرتى بالعيب وتبقى سيرتى فى كل الجيش على الظابط المنسحب وأحدث عملا غير أخلاقى مع إحدى البدويات.. أصرخ فى داخلى.. عيب عليك.. لم نفسك متخليش واحدة تغويك وأنا ساهم فيما أفكر فيه ووجهى مثل حبة الطماطم الحمراء حضر أحد الجنود ولم أتبين من هو.. يحدثنى وقد لاحظ ما أنا فيه وشاهدها وهى جالسة بداخل الخيمة بتلك الملابس الفاضحة التى كانت السيدات فى مصر يذهبن لشرائها من سوق غزة أو سوريا بالعتبة حيث كانت تهرب لهن.. نظر إلى الجندى ضاحكا قائلاً: ياه يافندم دا أنت استويت قبل الجدى ما يستوى!!.. ضحكت "رابحة" على هذا الحديث وهى تخبره: مع أن النار بعيدة عنه.. مش عارفة لما تقرب منه ح يحصله إيه؟ ضحك الجندى وأخذ شيئا منها لاستكمال عملية إعداد الذبيحة وقال: حضرة الظابط ح يبوش منك على طول وقد لاقى هذا التعليق قبولا وأنا مازلت أنظر إلى الأرض وبنفس جلستى وأريد التخلص من خجلى الذى فضحنى أمام الجندى وأكيد أمام جيران تلك السيدة وأردت أن أنهض لأترك المكان ولكن قيامى كان سيفضحنى ويظهر ما خفى وأنا جالس حيث سيصبح منظرى غير لائق وأنا أسير هكذا.

قررت أن أظل فى مكانى حتى يتم هدوء كل تلك الانفعالات ولكنها مازالت تتحدث وتثيرنى بكلمات لم أعهدها من قبل وانتابنى شلل التفكير والتصرف وجاء جنديان آخران يتحججان بأنهما يريدان شيئا وقد أتيا أصلا ليشاهدا ما وصل عليه حال ضابطهما الهمام وأدركت أن تلك السيدة خطيرة ولن أستطيع تحمل تصرفاتها وما يجب على عمله هو الابتعاد عن سحرها وتأثيرها.. سألتنى أتريد أن أعد لك الشاى فأردت أن أتكلم فتوقف الكلام فى حلقى فاستبدلته بالإشارة وقد أضحكها وأسعدها تأثيرها على شخصى الضعيف.. انشغلت فى إعداد

الشاى تتحرك ذات إلى يمين وذات إلى يسار وعيونى تتحرك معها مثل طفل صغير تلاعبه بشىء متحرك فيحرك عينه فى كل اتجاه تتحرك فيه تلك اللعبة.

تفصد العرق من جبينى وسال على وجنتى وشعرت بسخونة شديدة فى خدى كما أننى من أصحاب البشرة البيضاء أو قل الحمراء.. كنت أشعر بحرارة وجهى وما زلت جالسا مادا ساقى للأمام وظهرى مستند على الشلتة وعلى النخلة التى بخلفى.. أعدت الشاى وأقبلت تقدمه لى وأنا أنظر إلى يدها وأصابعها البيضاء الجميلة حيث كنت أعتقد أن البدويات أو الفلاحات لا يملكن مواطن الجمال فى أيديهن بسبب صعوبة الحياة وأن الجمال هو مقصور على بنات القاهرة والمدن الكبيرة أو بنات الجامعة ولكننى شاهدت ماهو أعظم جمالا ورقة وأصابع رقيقة رائعة وأنا أنظر إلى تلك الأصابع التى تعيش مع الماعز والجمال والأغنام والرمال ولا أصدق لكنها الحقيقة الغائبة عن بعضنا، إنه الجمال الإلهى الطبيعى.. سألتها بعد أن استعدت بعضا من اتزانى: ألا تذهبين للإشراف على جنودى لاحتمال ارتكابهم خطأ.. ضحكت قائلة: لا مانع لكننى أخشى أن يدبحوا أصابعهم بالسكين عندما أذهب إليهم. أعقبتها بضحكة لابد أن تثير أى رجل له أذن ويصله صوتها.. تحركت بدلال وأنا أتابعها ولكننى كنت أعود بنظرى خجلا أن يكون هناك رجال يغضبهم ما أفعله مع ابنة قبيلتهم ولكن شعرت كما قلت أنهم مغيبون وأن كل رجل قابع فى مكمنه أو جالس مع رجل آخر يتحدثان ويتضاحكان وكأننا أصبحنا منهم وهم منا وإنه لا شىء عجيب أو غير مقبول.

بعد أن تركتنى شعرت أننى أستطيع أن أقف بدون أن يكون فى هيئتى شىء لافت للنظر إذا نظر أحد إلىّ.. تحركت تاركا المكان وتوجهت إلى جهة أخرى جالسا بمفردى وحاولت مجاهدة النفس ضد إغراء تلك السيدة التى لن أحصل منها على شىء وإذا حدث كانت كارثتى فى الدنيا والآخرة كبيرة.. أهمها الفضيحة بين جنودى ولن أستطيع أن أرفع رأسى بينهم وأنا الذى استطعت أن أقودهم طوال تلك الأيام السابقة رغم ما ينجم فى مثل تلك الأحوال من خروج على القانون وحدوث اعتداء على بعض الضباط الذين تتصف أخلاقهم بالعنف مع جنودهم فى وقت السلم.. والأهم هو غضبة الله علينا وهو الذى حرم مثل

تلك العلاقة.. ورغم تلك الموانع كان يراودنى هاتف، ما طعم تلك العلاقة وهل هى جميلة وماذا يحدث أثناء اللقاء بين الرجل والمرأة؟ وأنا الذى شاهدت منذ أيام قلائل الجندى الإسرائيلى وهو يجامع زميلته المجندة وكان سعيدا وهى الأخرى سعيدة وزملاؤهم مسرورون من تلك العلاقة.. لم يحدث لى هذا من قبل ذلك ولم يقص على أحد ما هو هذا الشىء الغامض علىّ وما تأثيره وما طعمه وهل هو شىء لذيذ أم لا؟ ولكنى شعرت بأنه شىء خطير من الدقائق التى جلسناها سويا وهى تحدثنى وتنظر إلى نظرات لها معنى ولكنى لم أعرف كيف أجيبها والحمد لله أننى لم أعرف وإلا لو كنت أعلم لكانت كارثة قد أحدقت بى.. مازال تأثيرها يهاجمنى ولذا فكرت فى أن أطردها بصورة أو بأخرى.. ذهبت للصلاة بعد أن تيممت حيث إنها قريبة بجوار بئر المياه وأنا غير راغب فى مناقشتها أو لقائها ولكن الشيطان زينها أمامى أثناء الصلاة، استغفرت الله قائلاً: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. تركت الصلاة. فهذه ليست بصلاة أن أقف فى حضرة الخالق أفكر فيما حرمه علينا.. أجلت الصلاة وقفز إلى ذهنى منظر الأسرى المصريين الذين داستهم الدبابات الإسرائيلية وقد أثر على هذا المنظر رويدا.. رويدا وابتعدت بدون أن أدرى عن الوساوس الشيطانية وشعرت أننى عدت إلى حالتى فقمت أعيد صلاتى وكانت أحسن حالا وعلى ما يرام وقد شجعنى هذا على أن أكثر من الصلاة حتى أقضى ما فاتنى منها وما أكثره ضياعا أثناء الانسحاب.. انتهيت من صلاتى وأنا شاعر أننا وقعنا فى قبضة شيطان رغم مظهرها الملائكى وأن الفكاك منها صعب للغاية وأنه يجب إبعاد تأثيرها بالبعد عنها.

تذكرت سيدنا يوسف عليه السلام وراودنى سؤال: كيف تُذكر آية فى القرآن تتحدث عن مثل هذا؟ إنه شىء عادى أن رجلا لا يريد امرأة أن يبتعد عنها وأيضا فإن المرأة التى لا تريد رجلا فهى تمتنع عليه بسهولة بل وتُسمعه الكلمات السيئة فى حقه وتهينه بعبارة مؤلمة.. لكننى وجدت أنه اختبار صعب للبشر ولهذا ذُكرت فى القرآن لتكون آية وعبرة للخلق على مدى تاريخ البشرية.

سمعت صوتا هامسا قادما من خلفى: الحلو ليه تقلان قوى.. تزعل قوى.. تفرح قوى.. أنا قلبى بيحبك قوى. قوى.. بالطبع نظرت إلى مصدر الصوت وهى

تحدثنى مائلة جهتى وقد ظهر صدرها كاملا أمامى وأنا أحاول أن أغمض عينى ولا ألتفت لأى جهة لكن كل حواسى تجمدت أمام هذا المنظر الخلاب.. شعرت أن نهايتى ستصبح على يديها وأنه لا خيار أمامى إلا من بين اثنين أيهما أصعب من الآخر.. الأول أن أتزوجها أو أقيم معها علاقة ما وليكن ما يكون والأخر أن أهرب.. لكن الهروب أصبح صعبًا فهى قادرة مثل المغناطيس أن تعثر علىّ وتعيدنى إلى ما تريد وضعى فيه سواء من الضغط والتأثير الشديد.. أجبتها "رابحة" تصرفاتك هذه خطيرة وأرجوك أن تبتعدى عنى لأننى أصبحت غير قادر على صدك.. ابتسمت وظهرت أسنانها الجميلة. حتى الأسنان كانت من عوامل الإثارة.. تسألنى برقة ومازال صدرها يتأرجح أمامى وظاهر لونا وحجما ونعومة. وإذا ما ابتعدتش حتعمل إيه؟.. تقدر على بُعدى.. ورينى شطارتك.. أنا اللى باحطه فى راسى لازم أجيبه أو أجيب أجله وتركتنى عائدة حانقة.

حدثت نفسى: يانهار مش فايت: البت بتقول اللى باحطه فى راسى.. يعنى أنا هدف أمامها يعنى يا أسلم أو أهلك.. يادى المصيبة اللى عليك يا أسامة طيب إيه التصرف؟ البت مش معقولة حلاوة وجمال وجنس لكنى مقيد بقانون عسكرى صارم.. يعنى يا سى أسامة كده تسلم قدام ست ولسه حتة عيلة ماهى فى سنك يعنى أنت ضعيف للدرجة دية؟ لا لا هيا فاكره إيه؟

كان تهديدها لى بمثابة الإنقاذ من الأفكار السوداء التى هاجمتنى لمعصية الله. فقد أظهرت لى جزءا آخر من صفاتها وقد ساعدت تلك الكلمات الصغيرة بالتهديد على كل أثر لإغوائى قد مارسته على منذ ساعة وجعلتنى فى دوامة القلق والألم.. لن أستكين بإذن الله.. يارب خليك والنبى معايا، النسوان دول باين عليهم راكبهم إبليس وأنا ليا مقدرة بسيطة وضعيف احمينى من شرور النسوان، مش أنت ربنا برده اللى بتقدر على كل حاجة ماهو أنت وقفت مع سيدنا يوسف وبعد كده سيدنا يوسف بعد أن ضعف أمام الإغراء رأى برهانك ومش رضى بزليخة لكنك لو سيبته كان راح فى خبر كان.. والنبى تخليك معايا وأوعدك حناخد المعزة بعد طبخها ونفر ونجرى من الناس دول وخليهم بعيد عنا.

جاء عطية يحدثنى.. ليه يا فندم قاعد لوحدك؟ رابحة بتقول الأفندى بتاعكم رافع رأسه لفوق ومش عايز يتعرف علينا.. أجبته:

- عطية مش عايز أسمع السيرة دية.. فاهم.. سكت قليلا:

- اللى تقول عليه لكن ملكش دعوة بينا.. أجبته:

- مليش دعوه بيكم طيب.. يالله روح لحالك واشبع بيها. تركنى وانصرف وهو يتمتم بكلمات تعنى بأننى مليش فى الطيب نصيب.. قلت فى نفسى غور آنت والطيب بتاعكم.

جاءنى جويلى يخبرنى أن ريحة الشوربة تفتح النفس وكلها نص ساعة وناكل أكلة محصلتشى من سنين.. لكن أنت قاعد لوحدك ليه يافندم؟ دا رابحة بتسأل عليك وبتقول مش عارف الأفندى زعلان ليه؟ أخبرته وبكل حسم:.

- جويلى أرجوك مش عايز أسمع سيرة الست دية.. إحنا جينا النهاردة علشان ناكل ونكمل مشوارنا.. أجاب:

- أيوه طبعا.. أكمل حديثى قائلا:

- علشان كده مش عايز دوشه ربنا يخليك.. وأنا ح أفضل هنا ولما تحبوا تبعتوا لى حته لحمة أكون متشكر لكم أنا ح أفضل هنا.

جاء عامر يحدثنى منفعلاً:

- إيه يافندم مزعل رابحة ليه؟ صرخت فيه.

- إيه الدروشة دية كل واحد جاى يسأل. هيا من بقية أهلنا واحدة واشترينا منها عيش ومعزة إيه كل شوية واحد يكلمنى عنها.

رفع صوته أمامى:

- إحنا كده مش بيطمر فينا المعروف.. بصوت قوى

- عامر.. انصراف ياعسكرى.. يجيبنى بكل وقاحة:

- إيه إيه.. والنبى سمعنى تانى كلمتك الحلوة.. اصح وشوف أنت فين؟

صرخت فيه:

- امش من هنا فاهم.. مش عايز أشوف وشك.. حضر فراج على صياحنا المرتفع ممسكا بعامر بعيدا عنى.

عاد فراج محاولا تهدئتى مستفسراً عن سبب نقاش عامر الحاد معى ولماذا أغضبت رابحة وهى التى قدمت لنا يد العون ونحن الذين كنا نتمنى أن يساعدنا أحد من البدو. إن السيدة قدمت كل ما تستطيع لدرجة أنها دفعت لوالدها خمسة وعشرين قرشا لتكمل ثمن ما حصلنا عليه من طعام وأنك تتميز بأعصاب هادئة فى أصعب الظروف وأحلكها. حادثنى الشاب بهدوء وأنا أكن له كل تقدير لرجولته وإطاعته لأوامرى وكان صلبا شديد المراس ويشاركه فى هذا جويلى المتدين والشجاع.

أجبته فراج اسمعنى: أنا لا أريد الاستفاضة فى هذا الموضوع السيدة تريد أن تصطحبنا أثناء مشوار انسحابنا وهذا مخالف للتعليمات والأوامر العسكرية.. يقاطعنى:

هذا صحيح لكننا لا نملك الصحراء وأى إنسان يريد الذهاب والعودة له هذا الحق ولن يكون أمامنا أى خيار أن نقول لهذا لا تسير بجوارنا كما أنها ستفيدنا ولا تضرنا.. نظرت إليه:

أهذا رأيك؟.. أجابنى:

هذا رأى الجميع وقد أخبرتهم بما سوف تقدمه لنا من عون سواء الطعام أو معرفتها بأماكن السير وأماكن مصادر المياه.. أجيبه:

أعيدها مرة أخرى.. فراج أنا ألاحظ أن تلك السيدة عيونهَا زائغة علينا وأنها جميلة وقد يدفع هذا بأحد منا لأن يقيم معها علاقة تفسد علينا مشوار انسحابنا وقد اقترينا من نهايته.. يصمت قليلا ويوافقنى الرأى بأنها جميلة وجذابة ولكن أمامنا هدفًا غاليًا وهو العودة إلى مصر لننهى تلك المتاعب التى قاربت على الثلاثة أسابيع وعلى كل حال لنكمل يومنا هنا ونتناول طعامنا ويجب عليك أن تقدر ظروفنا. إننا نعانى من التعب وقاسينا ونريد الراحة ليومين ثم

نكمل مشوارنا وقد تعيد حساباتها فلننتظر ما سوف تسفر عنه الأيام القادمة ولا تقف معاندا أمامها حتى لانخسر كل شيء.. نظرت إليه نظرة الذى عرف كل شيء وما تريده وما فعلته لإثارتى ولكننى لم أبح بهذا له ولا للآخرين محتفظا بهذا السر لأنها فى النهاية سيدة ويجب التستر على بناتنا كما تعودنا فى ريف مصر.

نهض مستأذنا بأنه سوف يرسل بها إلى للاعتذار وإصلاح ما فسد بيننا ولكننى طلبت منه ألا يفعل هذا ولم أكمل كلامى فإذا بها قادمة بصحبة الأهوج عامر معتذرا عما بدر منه وقد أوضح لى أنه كان متعبا وأنه يكرر اعتذاره أما هى فابتسمت قائلة: ألا زلت غاضبا منى؟ ولكن عامر أجاب بالإنابة عنى قائلا:

نحن جميعا لا نغضب منك وعلى رأسنا ضابطنا الشجاع.. غادرنا الرجال لإنهاء إعداد الطعام بينما ظلت رابحة جالسة أمامى وقد استترت بملابسها بعد أن وجدت أن طريق العرى والإثارة قد ضايقنى، بدلع بنات حواء تحادثنى: إيه لسه زعلان.. بلاش الزعل عشان بيجيب جفا وأنا مش بأحب المبوزين.. عايزاك بوشك السمح تضحك وتنبسط ومتحملش هم حاجة.. ابتسمت وضحكت فضحكت سعيدة وهى تقول: أيوه كده افرجها عشان ربنا يفرجها.. شوف أنا حكايتى صعبة خالص ومحدش حاسس وشاعر بيا.

أثارت معى حديثًا شخصيًا عن حياتها منذ فترة المراهقة حتى الآن وتبين لى أنها شديدة التعلق بالرجال وحرمانها من زوجها أثر عليها كثيرا، كان الحديث فاضح المعانى والتعبيرات وخطير أن يسمعه الشباب لأنه يثير الشجون والإثارة، رجوتها أن تقف عند هذا الحد، نظرت إلىّ مليا وامتثلت، استأذنت تغادر المكان.

توجهنا إلى مكان وضع الطعام وكان يبعد قليلا عن خيمتها وتحت ظلال أشجار النخيل. هذا يوما لم نعهده من قبل.. منذ وصولنا إلى سيناء لم يقابلنا يوم مثل هذا وكان هذا هو اليوم الذى تغيرت معه أفكار وأحلام كثيرة ومشاكل متعددة لم نعهدها من قبل.

جلسنا أمام الطعام الشهى وكان عبارة عن شوربة الجدى ولحوم كثيرة مسلوقة مضاف عليها فلفل الأسمر فأنعش شهيتنا لتناول الطعام.. اقترح عامر ألا نأكل حتى تحضر رابحة وقد أيده الجميع وأنا كذلك، ذهب لإخبارها أننا ننتظر حضورها ولكنها اعتذرت عن ذلك وحاول معها وفى النهاية أبدت موافقتها على أن أذهب إليها طالبا منها الحضور لتناول الطعام معنا!! جاء عامر يخبرنى بذلك ويشجعنى على التوجه إليها، رفضت ذلك وتعاظمت الآراء ضدى طالبة منى أن أكون أسهل من هذا فى تعاملى معها فهى سيدة والسيدات غير الرجال فى أسلوب التعامل.. حاولت أن أفهمهم أننى أعلم كل هذا ولكننا أرسلنا لها بأخ لكم وهى لم تعره أى اهتمام بدليل أنها تطلبنى لإحضارها. جنودى أرجوكم لا تدفعوننى لهذا. نظر إلى عامر بكل فظاظة قائلاً:

يعنى مش ناوى تروح تجيبها؟ طيب: رفع الطعام من أمامى طالبا من زملائه أن ينهضوا خلفه لأنهم سوف يتناولون الطعام معها.. ساروا خلفه ما بين مؤيد ومتردد لكن الحقيقة أنهم تبعوه.

شعرت بغصة وإهانة فى قلبى من تلك التصرفات وأيقنت أننى لست فى مجال المقارنة مع رابحة بل أنا اقل درجة عند جنودى منها فهم يطلبون منى أن أطلب ودها حتى تتكرم بالحضور إلى تناول الطعام معنا. زهدت تناول الطعام الشهى والذى أسال لعابنا جميعا منذ دقائق ونحن نستعد لالتهامه. لكن هذا الغبى عامر والذى تبين أن رابحة شددت من تأثيرها عليه أفسد كل شىء. لم يعودوا. جلست فريدا بعد أن رُفع الطعام من أمامى وكانت تلك أكبر إهانة شعرت بها. لقد فضلوها علىّ وبعد تناولهم الطعام سيحضرون المتبقى لأتناوله بعدها. أيها الأحمق عامر. لقد وضعتنى فى موقف أقل احتراما أمام إغراء تلك السيدة الغانية المبتذلة والتى تريد أى رجل يمتعها دون النظر إلى الدين والشرع وزوجها وابنها الصغير. ياه.. الدنيا صعبة جدا وكلما مر الإنسان بها يكتشف ما بها من مساوئ.

مضت أكثر من خمس عشرة دقيقة ولم يحضر أحد من جنودى إلى بقطعة لحم أو كسرة خبز وهم الذين رفعوا الطعام من أمامى. شعرت بأننى يجب على

أن أترك المكان فقد أصبح لا يسعنا نحن الاثنين أنا وتلك السيدة التى سيطرت على جنودى الخمسة في دقائق معدودة لدرجة أن يبيعنى أحدهم رافعا الطعام من امامى.

حملت سلاحى واتجهت إلى الجانب الآخر من المنطقة وهى عبارة عن مجموعة نخيل تبعد عن المنطقة التى نحن بها حوالى مائتى متر وليس بها بئر ماء ولا يذهب إليها أحد كثيرا إلا الذى يريد أن ينفرد بنفسه، جلست أسفل أحد أشجار النخيل ساهما لما أوقعت نفسى فيه وحاسبت نفسى، هل أخطأت ؟ ولم أعرف الإجابة لكن الإجابة الواضحة هى القرآن الكريم الذى حرم الله علينا ذلك، لو لم يكن ُمحرما لفعلت ما تريده وأكثر فمن يكره النعيم والمتعة ولكن إذا تعارضت مع نواهى الله فلابد من الامتناع عنها. إننا لم نبعد بعد عن منطقة دفننا أحياء. لقد نسى هؤلاء الجهلة ما كنا نعانيه ولقد تذكرت آية من القرآن الكريم حيث يقول رب العزة:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ (٨٣)

صدق الله العظيم.. سورة الإسراء

جلست مستنداً بظهرى على جذع النخلة وقد تقلصت أمعائى من شدة الجوع فالمياه متوفرة ولكن الجوع هو سيد الموقف منذ أن فارقنا زعيم القبيلة والمكلف بالحفاظ على القادة العسكريين تناولنا خبزا جافا لمدة يومين ثم بدون طعام يومين آخرين وها أنذا بعد أن شعرت أننى أعيش مثل هارون الرشيد إذا برابحة تأخذهم لصفها وتمنعهم من إطاعتى بل قد تحضهم علىّ ويصبحون أعداء لى وأعتقد أنهم الآن يتشاورون. لقد عزلنى جنودى وأصبحت وحيدا جائعا وسوف يقبل علىّ الليل وما أنا فاعل بدون حماية فنحن عزوة ونحمى بعضنا البعض ولكن إذا هاجمنى ذئب أو مهرب مخدرات ماذا سيكون عليه حالى وأنا وحيد؟ كل هذا وضعته السيدة أمامى لتضغط به علىّ.

حضر فراج وجويلى بعد أن أضناهم البحث عنى وأحضروا معهم قطعة لحم قائلين إنها نصيبى فى الجدى حيث وزعت رابحة اللحم عليهم، استفسرت منهم

أحضرتم لى غذائى بعد أن رفعه عامر من أمامى لكى تتناول رابحة الطعام قبلى وأنا آكل بعدها؟ نفى الشابان هذا مؤكدين أن رابحة رفضت تناول الطعام وقد وبخت عامرا لما قام به معى ولولا حياؤها!!!!! لحضرت إلىّ تطيب من خاطرى لما فعله هذا الأهوج عامر.

جلس الجنديان أمامى حتى أنتهى من تناول طعامى ثم يصطحبانى إلى خيمة رابحة حتى نشرب الشاى وهى تعده ولن تصبه لهم حتى أكون موجودا.. هذا رأى رابحة.. جنودى البلهاء يقولون هذا ولكنها صاحبة الدهاء وما لاقته فى حياتها علمها كيف تتعايش مع العفريت وزواجها من مهرب وتاجر مخدرات، تريد أن توجهنا وتعطينا الأوامر حتى نتعود على هذا.. أرسلوا بالطعام لضابطكم فيحضروه ولن نشرب الشاى إلا إذا حضر ضابطكم فعلى أن أستجيب لها وبالتالى سوف أستجيب لما هو أحلى ويؤيده الشيطان، إذًا فلماذا عذابى معها ومعهم طالما رضيت أن أتلقى الأمر من امرأة بدوية وأن أتساوى مع جنودى فى تلقى الأوامر بل سأصبح أنا الدليل على ذلك؟ إنها تتبع المثل الذى يقول اضرب المربوط يخاف السايب.. وهنا تقول اضرب الرأس تخاف باقى الأجزاء فإذا أصبحت أليفا لها أسير طوع بنانها سيلحق بى باقى الجنود.

وعدت جنودى بأننى سوف أفكر فى هذا العرض بتناول الشاى معهم بعد تناولى لطعامى شاكراً لهم هذا، أخبرونى بأنهم سوف ينتظروننى بجوار خيمتها. جلست أتناول طعامى الذى دفعت ثمنه وأسد رمقى وأستعيد فكرى.

أتناول الطعام الشهى بكل المقاييس فلحم الماعز والجديان من أحسن أنواع اللحوم وكمياتها كثيرة وإعدادها للطهى كان على أحسن ما يكون ولكن النفس كانت غير راغبة فى تناوله لما ألم بى من ضيق ليس نابعا من الرغبة فى إعطاء الأوامر فلقد تعدى الجنود باللفظ على شخصى أكثر من مرة ورفضوا تنفيذ أى أمر أصدره لهم وفى الواقع لم تكن أوامر بل كانت فى صورة اتفاق ورجاء فالحالة هنا لا تسمح بمثل هذا ولكن سرعة التحول خلف السيدة والذى كان ضد مصلحتهم ولا أعلم كيف ولماذا يتركنى هؤلاء الأغبياء رغم استمرارنا معا لأكثر

من ثلاثة أسابيع ونحن نحقق نجاحا بعد نجاح سواء فى المحافظة على حياتنا أو القيام بعمل عسكرى محدود ضد الأعداء أو العمل الإنسانى فى دفن شهدائنا وكنا فى ظروف أصعب من تلك بكثير.

كان هذا أكبر شىء كدر صفو مزاجى عن هذا اليوم والذى كان باديا عليه من بدايته أنه جميل وأننا سنتمتع بالكثير من حب الآخرين وعنايتهم ولكن انقلب الحال وهاهم جنودى رفاق الأمس أصبحوا أعداء اليوم والغد وقد دعوت الدعوة الشهيرة عن رسولنا الكريم....اللهم أعنى على أهلى وأصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم.

انتهيت من تناول طعامى وقد تبقى الكثير من اللحم ووضعتها فى كيس قماش كان جويلى قد أحضره معه لهذا الغرض وبجانبه بعض كسرات الخبز. أعقبت غذائى بشربة ماء ونهضت أكمل طريق عودتى إلى القناة بعد أن شعرت أننا وصلنا إلى طريق مسدود وأنه لا مجال للمساومة أو التردد فيما حدث وكيف يتجرأ الجنود علىّ بتلك الوقاحة ونحن فى بداية تعارفنا بتلك السيدة لهو أمر ينبئ بالخطر.

تذكرت حديثًا لرجل من رجال الدين الكبار يوضح أن النساء هن اللائى يذهبن بالرجال إما إلى المقابر والمستشفيات أو إلى السجون. دائما العلاقة المتشعبة بالنساء تفسد حياة الآخرين نظراً لعنصر المنافسة والغيرة التى تحدث بين الذكور حتى فى مجتمع الحيوانات لا يحدث عراك واقتتال بين الذكور إلا على الطعام أو الإناث. ضحكت لهذا ولقد وصلنا إلى حافة هذا الاقتتال ولهذا اتبعت المثل الذى يقول الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح.

أواصل سيرى ولقد ابتعدت عن تلك البيارة التى بها جنودى حوالى خمسمائة متر وكنت فى كل خطوة أخطوها أشعر أننى أبعد عن تأثير قوى كان مسلطا علىّ. وها هو الليل قد جن وليحدث لى ما يحدث لأى إنسان يسير بمفرده، كنت شاعراً بسعادة كبيرة لاتخاذى قرار الهرب منهم واستكمال سيرى بمفردى لأننى كنت

أشعر فى بعض الحالات بميل لتلك السيدة و ما الذى يمنع أن نسير سويا وأن نتكاتف لتحقيق مصالح نفعية لكل منا وهى بالطبع ليست متعارضة، كان هناك اتجاه لأن أقبل بحلول وسط سواء من تأثيرها علىّ ولا أستطيع أن أنكره أو من ضغط الجنود علىّ والذى كنت فى أشد الاحتياج إليهم بحكم وضعنا كمقاتلين فى جبهة القتال أثناء الحرب.

رحلة مع الشيطان

بعد مُضى ساعتين على هبوط الظلام التمست الراحة عند أول منطقة نخيل ولم يك هناك أى شىء يسبب لى ضيقا بعد أن شعرت بأننى قادر وقوى وأملك إرادتى وأننى استطعت التخلص من هذا التأثير القوى ضدى.. لم تكن هناك خيارات كثيرة، كنت واثقا أن بقاء تلك السيدة سوف يفتح مجالا للجنس والانحراف واحتمال أنها عميله للعدو وتتسلط على القيادات البريئة الضائعة فى الصحراء لتفعل بها ما تريد.

ألم يوجهنا مهرب المخدرات لنقع فى شرك العدو وكدنا أن نهلك ولقد ضيع علينا مايقرب من العشرة أيام بالإضافة إلى مجهود جبار فى السير طوال تلك الفترة والتى تعدت مائة وخمسين كيلو فى جوف الصحراء القاتلة وأشعة الشمس الحارقة بلا ماء أو طعام أو أمان. المهم النية وليس المهم النتائج لأن النتائج كانت بمساعدة الله عز وجل ومهرب المخدرات عندما وجهنا لهذا المكان لم يكن يعلم إننا سنحارب اليهود ونقتل منهم هذا العدد، كانت نيته هى القضاء علينا.. وهذه المرأة هى الأخرى نيتها واضحة وهى الوصول إلى مصر ومقابلة زوجها والطلاق منه وتلك هى رغبتها وهذا خارج خطتنا وكانت نيتها الفوز برجل منا، إنها فى

حالة شاذة صعبة كما أنها لم تخف ما تريد، هذا رأى واضح أما المستتر فهى العمالة لليهود وهذا يكفى. إذًا ففى الحالتين نحن الخاسرون.

على الجانب الآخر كان الجنود ينتظروننى ولقد تأخرت عليهم فذهب أحدهم لينبهنى لتأخرى وأن الشاى قد يبرد ونحن نريد الاستمتاع به وهو ساخن بعد تلك الوجبة الممتعة، لم يعثر علىّ الجندى فأسرع يخبر زملاءه وقد تفرقوا يبحثون عنى فى كل مكان فأخبرهم بدوى بأن من تبحثون عنه ترك المكان سائرا منذ ساعة.

تحطم كل شىء وكل الخطط الموضوعة رأسا على عقب، بالنسبة إلى رابحة ثارت عليهم مؤنبة لهم وخاصة عامر الذى سبته بأقذع الشتائم أن يتصرف مع ضابطه بهذا التصرف ويحمل الطعام من أمامه وهى تخبره بأننا لا نفعلها مع حيواناتنا إلا بعد أن نشعر بأنهم شبعوا، تركتهم غاضبة قائلة لن أسامحكم فيما فعلتموه ولن أرافقكم حتى تعيدوا ضابطكم ونسير سويا، أما الآخرون فقد تهدم البيت على رأسهم ومنهم عامر والذى كان يشعر بسعادة لفترة ما عندما علم بمغادرتى المكان ولكن رابحة أعطته المكافأة التى استحقها وقد خاب ظنه وتحطمت أحلامه بإقامة صداقة وحب معها، والذى خانه التوفيق من ابتسامتها له بأنها تعشقه وترغبه وكان يعتقد أن قائده السبب فى وقف كل مشاريعه وطموحاته، باقى الجنود أيقنوا أنهم أخطأوا باتباع رابحة وعامر وكان يجب عليهم استمرارهم مع بعضهم البعض خاصة قائدهم.

أما بالنسبة لى فقد قضيت ليلتى الأولى بمفردى كما كان النعاس يداعب جفونى محاولا التيقظ والانتباه خوفا من مفاجأة شىء قادم لا أعلم من يكون، وقد كان ذئب اشتم رائحة اللحم واقترب منى وأنا جالس مستندا بظهرى على جذع النخلة وأنا على تلك الحال والسكرة تلازمنى لكنه كان ذئبا حقيقيا وإذا بالذئب يهجم على الكيس الذى به الطعام فتنبهت لهذا وقمت مُسرعا بفتح النيران عليه فلقى مصرعه وارتجفت لهذا خوفا من حضور اليهود على أصوات

إطلاق النيران التى دوى صوتها فى المكان والليل ساكن هادئ ولكن الأمور كانت هادئة وقد سمع جنودى صوت إطلاق الرصاص وتوتروا أن يكون قد حدث لى مكروه من ثلاثى الخطر فى سيناء (اليهود.. المهربين.. الذئاب).

شعرت بحركة قريبة منى ثم سمعت عواء ذئب آخر وقد أثار هذا خوفى وهل سأبقى طوال الليل يقظا أقتنص الذئاب.. إنها راغبة فى طعامى وأنا راغب فى الاحتفاظ به.. جاءت لى فكرة، لماذا لا أصعد إلى أعلى النخلة، والتى كنت أستند عليها وهى من النوع المائل والذى يمكن تسلقه بسهولة، قفزت عليها صاعداً حتى وصلت إلى قمتها مبتعداً عن الأرض بأربعة أمتار كافية لحمايتى من الذئاب ويجب على أن أظل يقظا حتى لا أفقد توازنى وأسقط من فوقها.

قضيت ليلتى بهذا الوضع الشائك حتى بزوغ فجر يوم جديد متعلقا بها كأننى سباطة بلح مقاوما كل محاولة نوم مفاجئة وقد ساعدنى على ذلك استمرار الذئاب أسفل النخلة وهم يشتمون رائحة اللحم التى معى، تعدى الوقت أكثر من عدة ساعات معلقا هكذا.

ظهرت الشمس واضحة ورغبت النزول ولكننى خشيت أن أهبط فأجد الذئاب قابعة فى مكان قريب منى وقد تفتك بى فآثرت السكون فترة وأنا فى وضعى هذا وقد تملكنى الشعور بالتبول من شدة البرد ومكوثى هكذا لقرابة الساعات الست وأثناء تفكيرى فى هذا إذا بى أسمع أصوات محرك قوى وشاهدت وأنا بوضعى هذا عربة نصف جنزير إسرائيلية قادمة فى اتجاه منطقة النخيل لتفتيشها ووقفت بعيداً تراقب المنطقة ثم فتحت نيران رشاشها القوى وكنت أسمع أصوات الطلقات تمر قريبا منى فى الهواء مع تساقط أفرع بعض أشجار النخيل هنا وهناك ثم غادرت المكان إلى جهة أخرى وكادت قدماى تخوناني لولا مساندة الله لى.

ازدادت رغبتى فى التبول أكثر مما سبق من هجوم اليهود المفاجئ وزادت حاجتى إلى هذا أكثر من السابق، مازلت معلقا وأفكر وقد أصبح تفكيرى مضطربا مما حدث فى تلك الليلة السيئة وأخيرا هبطت من فوق النخلة وشعرت

أن ساقى متجمدة من طول فترة البقاء فوقها وتأثير برودة الليل بها.. قضيت حاجتى فى توتر شديد خشية أن يعود اليهود مرة أخرى ولكنى فكرت مثلهم بأنهم يقومون بتفتيش المناطق عن العسكريين المصريين وقد انتهوا من تلك المنطقة ولن يعودوا إليها.

اخترت مكانا به الكثير من أعواد الجريد المتساقطة من نيران اليهود واختبأت بها فاردا ساقى بعد أن علقت كيس اللحم فى النخلة التى كنت واقفا عليها حتى أبعد مثل تلك الحيوانات عنى، رحت فى سبات عميق وقد تواصل نومى حتى عصر ذلك اليوم واستيقظت وأنا أتضور جوعا فأحضرت كيس الطعام وتناولت جزءا منه وقد شممت أن له رائحة ولهذا يجب أن أتخلص منه بسرعة.. بحثت عن مصدر مياه فعثرت على ببارة صغيرة فشربت منها وارتويت وجلست أنتظر فرج الله.

قبل الغروب شاهدت بعض الجنود قادمين فى اتجاه منطقة الأشجار التى أختبئ بها ويرافقهم حمار وبعض من الماعز والأغنام وشىء يلتف برداء أسمر. فكرت هل يكون هم جنودى ولكن من يرافقهم هكذا؟ بقيت مختبئا حتى دخلوا تحت الأشجار وترجلت السيدة من فوق الحمار وتبينتها، لقد كانت "رابحة" وهؤلاء هم جنودى فغمرنى شعور بالفرح أن يعودوا إلىّ ولكننى أدركت أنهم لم يعودوا بل هم سائرون خلفها وأملت شروطها عليهم وهاهم ينفذون ما تأمرهم به.

استلقى الجنود أرضا كعادتنا منذ انسحبنا طوال تلك الفترة المرهقة أما رابحة فقد ساعدها البعض فى إنزال أغراضها من فوق الحمار وإعداد خيمتها وقد سمعت صوتها قويا وليس أنثويا كما كانت تحدثنى. تلك المرة كان كلامها قاسياً وهى تطلب منهم البحث عنى.. يتناقشون معها.. أنتركك هنا بمفردك؟ تشيح بيدها : ليس لكم بى شأن طالما ضابطكم متغيب أيها الأغبياء.. بهذا الوصف الشديد حادثتهم فتركوها مغادرين المكان وعلمت فيما بعد أنهم جلسوا خارج منطقة أشجار النخيل.. فإلى أين يسيرون بالليل فلابد من أنهم سيخطئون المكان وخاصة أنها المرة الأولى التى يسيرون فيها بدونى.

قررت البقاء فى مكمنى هذا حتى الصباح وشاهدت الجنود وهم يتسللون عائدين وقد نبهها كلبها إلى ذلك فقامت مستعدة وتسأل من القادم وأنا بدورى أخذت وضع الاستعداد فقد تحضر ذئاب الأمس ويفترسونها قبل أن يفترسها بنى الإنسان ولكن أحدهم قال إحنا يا رابحة. حضروا وقد اطمأنت السيدة وكذلك أنا. فهم أرحم من الذئاب وقد سألتهم لماذا لم تعودا بضابطكم فاعتذروا بأنه الليل ولا نستطيع أن نرى شيئا وباكرا سنبحث عنه فى كل مكان ولكننا حضرنا لنتناول طعامنا.

منتصف الليل سمعت صوتها مدويا وأصوات ضرب وسب بكل الألفاظ، لقد اقترب منها عامر راغبا بها ودفعها هذا التصرف إلى إيقاظ الجميع وقد تشاجر زملاؤه معه سواء بالحديث أو السباب بل وتبادلوا اللكمات فيما بينهم، هنا قال لهم جويلى عرفتم الآن أهمية قائدنا والذى رافقناه أكثر من ثلاثة أسابيع.. سوف نتناحر هكذا حتى يُقضى علينا ونموت وتأكلنا الذئاب كما شاهدنا البعض منذ أيام.. إن ضابطنا مهم معنا وقد أيده البعض بينما عارض هذا عامر منزلا كل سباب تعلمه فى الشارع فى شخصى بين استهجان زملائه وسباب رابحة له.. هكذا ظهر الانقسام والتناحر بينهم من أول أيام انفرادهم بتلك السيدة وما حسبته وجدته.

على أضواء الفجر الأولى قررت الخروج من مكمنى ومقابلتهم بدلا من سكونى فى وضعى هذا الأمر الذى قد يدفعهم لأن يتقاتلوا مستخدمين سلاحهم الشخصى، ظهرت لهم وأنا فى أشد حالتى الصحية والنفسية سواء من وجبة الطعام الدسمة حيث أكلت كل نصيبى الذى حصلت عليه أو من نومى فترة طويلة أو لشعورى بأنهم فى الاحتياج إلى وتغلبت على إحساسى بعدم أهميتى لهم بما سمعته منهم خلال اختبائى.

نبح كلب الحراسة فنهضوا جميعا من نومهم فشاهدونى أمامهم واندهشوا وفوجئوا بوجودى وكان استقبالهم لى حافلا حيث اندفع إلى جنودى يقبلوننى

ويحتضوننى وقد لحقت بهم رابحة فقبلتنى واحتضنتنى بعنف أمامهم وأنا أحاول التخلص من يديها التى قبضت على خصرى والبعض مندهش من جرأتها والبعض مسرور من هذا اللقاء الساخن.

جلسنا جلسة سعيدة يغلفها المرح والسرور برجوعى إليهم وقررت رابحة إعداد طعام يليق بتلك المناسبة ولهذا قسمتهم مجموعتين. جزء لذبح دجاجتين وطبخهما والجزء الأخر لإعداد الخبز ولهذا زودتهم ببعض الدقيق وقالت لهم اتركونى مع ضابطكم أرحب به وقد أضحكهم هذا والبعض أشار لى بعلامة النصر والتى تجاهلتها وقد أعادت جلسة أمس الأول بوضع شلتة خلف ظهرى لتمنع عنى قسوة جذع النخلة وأعدت الشاى وهى ترتدى ملابسها الشفافة الرقيقة وتجلس أمامى مباشرة دون أن تدارى نفسها داخل خيمتها.

مازالت تحاول بطريقتها السابقة إقناعى بأن ترافقنا إلى قناة السويس وهى تحكى وتزيد وتعيد، تذكرت حديث الجندى فراج معى عندما أخبرنى بأن سيناء ليس لنا عليها أى سيطرة لمن يتحرك إلى هذا المكان أو غيره كما أن البدو يسيرون معنا أو بدوننا فهذه أرضهم يسيرون فيها كما يشاءون ونحن لسنا فى موقع عسكرى أو القشلاق، لقد وضح لى أننى قد جعلتها مشكلة أمامى وما كان على أن أغضب لهذا وقد كان مُحقا لكن أهم شىء تناساه هو تأثيرها علينا نحن الشباب الصغير والذى تؤثر علينا تلك المؤثرات بشكل كبير وقد يحدث شقاق بيننا يؤدى إلى عواقب وخيمة.

تنبهنى بدفعة من يدها.. إيه رحت فين؟ سرحت وعيونك راحت بعيدا عن الحاجة الحلوة اللى قدامك؟.. لا لا لا ده يزعلنى منك كتير.. بقى فيه حد أكون قدامه ويسرح وعينه تبعد عنى.. لا لا لا دى إهانة، أعقبتها بضحكة جميلة الصوت وثغرها الرقيق وأسنانها البيضاء تلمع مضيئة من خلال شفتيها، ابتسمت لها وأنا انظر إلى خلق الله وإبداعه فى هذا الجمال الطبيعى.

عُدت للخلف قليلاً متذكرا الذئاب الصغيرة وجمالها وحنان الأم البديلة عليهم.. ياه على هذا المنظر.. إنها إحدى نعم الله مثل رابحة، فهو الذى خلقها

وسواها، تراجعت قليلا من شرودى من تصرفاتها التى كان فيها شىء من الإباحية والجرأة فى الحديث.. أعطيتها المبرر فهى تعيش مع تلك القبيلة التى لا تستحى من أى قول أو فعل وكان هذا شاهداً وظاهراً فى عراك كل من رابحة وزوجة البدوى الآخر.

حضر الجنود بعد أن انتهوا من إعداد الدجاجتين للطهى كما عجنوا الدقيق وكل ملامح السعادة والابتسامة تعلو وجوههم، هاهم قد التقوا بى بعد فراق أكثر من أربع وعشرين ساعة كما ترافقهم هذه البدوية الجميلة فتؤنس وحدتهم وتقلل من شظف الحياة الصعبة التى يحيونها ومن أين كانوا سيحصلون على طعام لحم الجدى منذ يومين أو الدجاجتين اللتين سيتم طهيهما، فى هذا اليوم شعرنا بأنها أدخلت الدفء إلى قلوبنا وقللت خشونة قسوة الحياة التى ندور فيها والمحصورة بين السير والراحة والبحث عن المياه والخشية من هجمات اليهود، لقد مَن الله علينا بدليل خاص يدلنا على الطريق الصحيح ولن يحصل هذا الدليل على مقابل سوى المرافقة والعبور معنا للشاطىء الآخر من أجل عمل إنسانى يجمع شمل أسرتها هى وزوجها وابنها الصغير.

أعدت رابحة براد شاى وقدمته للجنود وهم شاكرون هذا العطف وما لكوب الشاى من تأثير قوى فى صحراء سيناء القاتلة ووسط كل تلك الظروف الصعبة والقتلى فى كل مكان من حولنا، مازال الجنود منهمكين فى طهى الدجاجتين وإعداد الخبز وهى تطوف عليهم توجههم وتساعدهم وأنا مازلت جالسا مستندا بظهرى على ساق النخلة والشلتة خلف ظهرى وممسكا بكوب الشاى وبجوارى راديو ترانزستور يذيع بعض الأغانى وقريبا منى الحمار والماعز والأغنام يرعون بعض العشب كما تحيط بنا بعض دجاجات تقتات من الأرض والكلب باسط ذراعيه يقوم بمهمته خير قيام.

كنت أنظر إلى كل هذا وأتجول بنظرى ذات إلى اليمين وذات إلى اليسار وأنا غير مصدق لما يحدث حولى.. إنها عناية الله التى تحيط بنا.. جاءت رابحة بعد أن تأكدت أن تلاميذها يجيدون فن إعداد الطعام وأنهم يقتدون بخطاها وهى توجههم وترشدهم إلى كيفية إعداد ما معهم على أحسن ما يكون.

عادت تجلس أمامى وهى مازالت ترتدى ملابسها المحتشمة التى ارتدتها بعد حضور الجنود كأنها تبلغنى برسالة بأن ما تقوم به وما تظهره هو خاص بى فقط وإنه لا يحق لأحد أن يشاهدها بتلك الملابس الخفيفة الشفافة سواى.. تتحدث:

ـ هيه خلاص بقينا حبايب وإلا فيه شوية زعل منى؟ أجيبها بنفس طريقة حديثها:

ـ إيه يا رابحة لا زعل ولا حاجة.. شوفى واسمعينى وياريت تفهمى كلامى وقصدى منه.. تيجى معانا لقناة السويس. .موافق.. هللت وصفقت ولفت هذا انتباه الجنود الذين أسرعوا بالحضور لاستطلاع الأمر وقد أخبرتهم وهى فرحة بان الضابط وافق على مرافقتهم حتى القناة وقد نزل هذا عليهم بسعادة ويسر حيث عادوا من حيث أتوا وقد ضمنوا أن تبقى تلك الفاتنة معهم حتى يصلوا لبر الأمان وقد أشار إلىّ فراج بعلامة التأييد عندما سمع منها تلك التصريحات على لسانى.

– أحدثها : رابحة.. تجيينى..

– نعمين يا عيون رابحة.. بقليل من التوتر أكمل حديثى..

– أرجوك يارابحة تسمعى الكلمتين اللى حاقولهم.. تستند بكوع يدها الشمال على بردعة الحمار بجوارها وتضع رأسها على يدها وهى تنظر إلى مائلة برأسها

– سمعاك يانور العين.. تعيد الكلمات فيعود توترى

– رابحة اسمعينى للآخر.. لقد اتفقنا أنك ح تكونى معانا حتى القناة وده حسب رغبتك.. وإحنا ح نهتم بكل أمورك وحتكونى على راحتك لكن الشىء المهم وتحطيه فى بالك وأكيد أنت شاعرة بيه هو عدم إثارة الرجال.. أنتِ جميلة جدا.. تقاطعنى..

– صحيح يعنى أنت شايفنى كده أمال بتبعد عنى ليه؟.. تحاول الاقتراب منى وقد بدا انفعالها يتحرك.. أفرد يدى اليمين لتكون بينى وبينها

- أرجوكِ اسمعينى وخليكِ فى مكانك.. طيب لما تكون واحدة جميلة وصغيرة مع ست رجالة وتفضل معاهم كام يوم.. تضيف وكام ليلة.. ماشى كلامك.. آه وكام ليلة يارابحة.. ست رجالة بست.. (تقول لفظا فاضحا يخجل الرجال أن يتفوهوا به) آه يارابحة.. نهضت تاركا المكان.. لكنها رجتنى بأن أعود وقد اشترطت عليها عدم مقاطعتى ووافقت.. طيب لما نكون على الحالة دية وأنتِ بتصرفاتك ودلعك ده حيخلى الرجالة يميلون ناحيتك.

أرادت التحدث فتذكرت أننى لا أريد ذلك فوضعت يدها على فمها.. يعنى باقول بلاش الدلع والشخلعة فى لبسك لأن ده بصراحة حيخليهم عايزينك خلينا إخوات أحسن.

نهضت قائلا: هيه أما أقوم أشوفهم بيعملوا إيه.. تركتها وذهبت لجنودى أجالسهم ونمزح سويا وقد انتهوا من إعداد الخبز ولم يتبق سوى الدجاجتين وقد تركوهما فوق النار على بقايا الحرارة التى انتهت حتى يتم النضج ببطء ليكون طعمها ومذاقهما أحسن وأفضل.. حادثتهم: الآن أنتم متفرغون وليس وراءكم عمل تعالوا خلفى وذهبنا إلى أحد الأجناب نتحدث ورابحة تتابعنا بعيونها وآذانها مصغية لأى كلمة تستطيع التقاطها فهى تعلم أنها ستكون مثار حديثنا الآن.

بادرتهم بقولى: أولا أرجو ألا ينفعل أحد وينسى نفسه إننا مازلنا فى جيش والجيش إما فى معسكرات أو فى أرض العمليات وقوانينه فى أرض العمليات أشد صرامة وقسوة.. هذا أولا.. أما ثانيا إن كل واحد فيكم يتصرف بطريقة ما فهذا يدل على تربيته فى بيته بين أبيه وأمه ولهذا يجب عليكم مراعاة عدم التصرف الأهوج مع الآخرين.. قاطعنى عامر.. (بتقصدنى).. أجبته أقصدك فعلا وما فعلته أمس الأول ليس من الأدب والذوق فى شىء وأنا قائدك لا أستطيع أن أفعل معك ما فعلته معى.. تدخل جويلى معريا أن عامراً شعر بخطئه أمس.

أكمل حديثى: أهم ما فى لقائنا اليوم أننى وافقت على اصطحاب رابحة معنا إلى القناة وهذا سببه أننى رأيتها معكم هذا الصباح وقد كان أمامى خياران.. إما

أن أترككم وأسير بمفردى وإما أن أوافق ونسير معا ولقد اخترت الخيار الثانى ولنضع قانونا ونظاما لهذا.. نحن شباب ونحب الجنس الآخر.. من منا لم تهف نفسه نحو فتاة جميلة راغبا فى حبها والتنزه معها.. أعتقد كلنا لأن هذه خلقة الله فينا ولكن أن ننغمس فى الرذيلة فهذا مرفوض لأنه ضد الدين أولا وضد قانون الجيش ثانيا ومن أجل هذا أرجوكم الاحتراس فى التعامل مع رابحة لأننى أشعر أنها ترغبنا جميعا، هذه السيدة صغيرة وقوية ومندفعة وكيف لسيدة أن تجعلنا نعصى الله وهل لو أرادها واحد منا وهى غير راغبة فيه هل يمكن أن يقنعها؟ ضحك مصطفى مشيرا إلى عامر بأنه فى الليل تسلل إليها وصرخت مستنجدة وضربته كام كف على وجهه. . ضحك زملاؤه وعامر خجلان ناظرا لأسفل.. (قلت كده كويس يعنى عرفنا اللى هيه عيزاه حتعمله واللى إحنا عايزينه وهى مش موافقه عليه مش بتعمله).. كل واحد ينتبه أنه بالغواية حتخليك تعصى ربنا.. شوف بقى هيه أهم وإلاَّ ربنا؟.. والست حلوة يعنى خليكوا بعيد عنها ومتقربوش منها كلام من بعيد وبالليل مش عايزين نكرر حكاية عامر.. وأنا شاعر بعامر وأنها ملخبطة كيانه.. ضحك قائلا: - أى والله يافندم باموت فيها.. أجبته:

- اصبر كام أسبوع حتروح لجوزها وتطلب منه الطلاق والقانون حيديها الطلاق وأبقى أجوزها واعمل اللى أنت عايزه فى الحلال.

عدنا إلى وضعنا قبل هذا الاجتماع ونظرت إلى نظرة كلها استفسار متسائلة:

- إيه كنتم تتكلموا عنى وكنت بتقولهم إيه؟ أجيبها

- كنت أوصيهم بك والمحافظة عليك وعلى ابنك

- بتضحك وتتقور عليا يا أسامة طيب إن ما وريتك.. شوف مش حخليك تنام وحخليك تلف فى مكانك زى ما تكون عندك حمى.. حافرجك.. إيه.. دا أنا رابحة.. أجبتها:

- إيه يابت قلبتيها غم كده ليه.. سألتنى:

- علشان أنت مخبى عنى اللى قلته عليا وعلى كل حال حاعرفه وكلهم حييجوا يبوسوا إيدى ويقولوا لى. تضايقت من تعبير بوس الأيادى ولكنه مناسب لثقافتها ورغباتها الكامنة فى الرجال.

تناولنا طعامنا الممتع الشهى وشربنا الشاى وحلينا بالنظر إلى تلك الساحرة المرافقة لنا وحصلنا على غفوة ما قبل العصر.

قبل حلول الظلام استعد الجميع حسب إرشاداتها للسير حيث سيكون تحركنا ليلا حتى نتجنب حرارة الشمس كما أنها أكدت أن وجود اليهود هنا شىء نادر وغير متوقع.. سرنا وهى دليلنا وقد أعفانى هذا من مراقبة الطريق ومتابعة سيرنا هل هو صحيح أم لا.. طلبت من فراج أن يكون قريبا منها على قدر الإمكان لحمايتها وإبعاد عامر الذى أراد أن يثبت لنا أنه رجلها الأول وإنها محجوزة له، بالفعل كان فراج قريبا منها ولم يضايقها هذا وهى التى تعلم بأننى أرسلته لتلك المهمة وإلا كنت طلبت منه الابتعاد عنها مثل ما أوجه كلامى لكل من مصطفى وعامر وعطية الذين يلهثون لينالوا نظرة حب وعطف منها.

بعد منتصف الليل وصلنا إلى بيارة بها نخيل ومياه وظلال وسنمكث باقى الليل لنستريح حتى غروب شمس اليوم التالى لكننا كنا ننجز مسافة طويلة فى زمن قصير مقارنة بما كنا نفعله فى السابق كما كان جويلى مسئولا عن متابعة سير الأغنام والماعز ويساعده فى هذا الكلب المخلص الأمين وكانت تحتفظ بقفص تضع به أفراخها وكل أمتعتها تضعها على الحمار كما أعدت شيئا صغيرا لحماية طفلها وان يكون محمولا فوق الحمار بأمان.

أصبحت مشكلة الليل أمامنا كبيرة حيث يأتى الليل والكل ينام يريد الراحة ولكن النوم تطرده اليقظة والتوتر. .كنت أشعر بأن شيئا ما يقرصنى كأنه نمل أو براغيث وهذا غير موجود بالجبل وكنت أتلوى على نيران مؤلمة محاولاً النوم وأنا .شاعر أننى محتاج له ولكن دون جدوى.. كان تأثير السيدة علينا قويا مرهقا ولقد وصلنا إلى مرحلة العذاب والألم ومحاولة تقليل هذا الألم، والذى كان علاجه شيئا من اثنين: إشباع الرغبة التى تفتحت بعد مشاهدتنا لها وسماعنا لأحاديثها وكلامها الناعم الساحر والذى كان به من الإيماءات الجنسية الكثير والتى تثير الرجل حتى لو كان عجوزا فهو صادر من حواء وما لهذا الحديث والإشارات والغمزات وكسرة العين وفتحها كل هذا يثير من لا يثار وفى ظروف تجمعات الرجال أو بُعدها عنا وعدم مرافقتها لنا.

مر اليوم الثالث لكن حالتنا ازدادت سوءا ليس من قلة الطعام بل إننا نعيش ونأكل بأحسن ما يكون وأحسن من طعامنا قبل الحرب ولكن السُهد والعذاب النفسى ومقاومة الدوافع الشيطانية كان رهيبا. كان من الطبيعى أن نشاهد البعض طوال الليل جالسا لا يستطيع النوم أو متقلبا على جميع الجهات مثلما كان يحدث لى وقد تأكد لى أن ما قالته رابحة حدث عندما هددتنى بأنها ستجعلنى لا أعرف كيف أنام وسأكون مثل المصاب بالحمى.. لقد تحقق تهديدها.. تركت مكان نومى وذهبت لأجلس بعيدا عن مكان تجمعنا ولاحظنى بعض الجنود فلحق بى واحد تلو الآخر وجلسنا لبحث حل لحالتنا خاصة بعد أن اعترف كل واحد فينا بما يكابده من ألم بخصوص بعدم رغبته فى النوم مع الدوافع المتزايدة فى رابحة والتى كانت مثل السيف المسلط على رقابنا جميعا، كل يبث شكواه خاصة عندما علم أن الآخرين مثله يشعرون بما يشعر ويتألمون كما يتألم ويفكرون فيها كما يفكر هو، إذا هو ليس بالشىء العجيب أو الشاذ.

ينظرون إلى معتقدين أننى أعلم أكثر منهم قد أكون أعلم أكثر فى مجال تخصصى وعملى ولكن فى الأمور العامة والمتشابكة قد يكونون أفضل حالا منى ولكننى أشرت إليهم بأن تلك الحالة تثبت أن تلك المرأة مثل الشيطان، البعض أيدنى والبعض اعترض على كلامى قائلا: كيف تصف هذا الملاك الجميل بهذا الوصف؟ أجبتهم لكم الحق فيما تقولون ولكنها الحقيقة أن الشيطان لن يأتى إليك على شكل مخيف لابد أن يتسلل إليك بشىء رقيق ناعم، لماذا ذهب الشيطان إلى أبينا آدم وطلب منه أن يأكل من شجرة التفاح التى قال لهم عنها إنها شجرة الخلود؟ لأن الله منع آدم وحواء من الاقتراب منها ليس لأنها مسممة أو ضارة لكن ليعودنا جميعا نحن عبيده على تنفيذ الأوامر الناهية، كل من هذا ولا تأكل من ذاك مثل حالة تلك المرأة تريدنا ورغبتها صارخة وقد بدى عليها الانفعال والشهوة لأى منا دون مستجيب لها وكل هذا مغلف فى قالب جميل ومن ذا الذى يستطع مقاومتها خاصة من كان فى مثل حالتنا.

سؤال.. هل نحن الآن أحسن حالا أو قبل هذا عندما دفنا أحياء؟ قبل أن تجيبوا فكروا فى حالتكم فى الفترتين، كانت الإجابة مدهشة فإن الجميع أكدوا

أن حالتهم الصحية والنفسية أثناء وجودنا بالكهف أحسن حالا عما نحن عليه الآن، طرح أحدهم سؤالاً: لماذا يا فندم نحن الآن أقل مستوى ونلاقى تعبا وألما لم نقابله فى بداية انسحابنا وعراكنا؟

أجبته.. هذا هو أخطر ما فى الموضوع ألا تتذكرون قصة سيدنا يوسف عليه السلام.. امرأة جميلة زوجة عزيز مصر أى رئيس الوزراء لأقوى وأعظم دولة فى تلك الفترة وتطلب من خادمها أن ينام معها وتقفل الأبواب وتقول مافيش غيرى ه غيرك.. لكنه فى النهاية يرى شيئا وهذا الشىء يقول عنه القرآن برهان ربه والشيوخ يفسرونها على أنها الجنة أو النار أو أى شىء لكنه شاهد علامة تقول له ابعد عن الحرام.. تركها ثم قال أنا عايز أروح السجن.. ويسأله أصحابه مش معقول كده يا يوسف أنت عبيط ومش بتفهم تسيب الملبن ده والحلاوة دية وعايز تروح الكركون.. يقول لهم إن السجن والكركون أحسن من اللى هيه عيزاه.. هيا بتطلب منى إنى أخالف ربنا.. تصوروا الحكاية وصلت لحد فين وإحنا لما نقول لما كنا مدفونين كنا أحسن علشان كنا قريبين من ربنا.

أسعدالجنود سماع قصة سيدنا يوسف ودفعت بعضهم للهدوء ومراجعة النفس ولقد كان واضحا أننا نعانى من أصعب شىء قابلناه فى سيناء أثناء الانسحاب، فالطعام والشراب تحملناه خمسة أيام ولكننا هنا لم نستطع تحمل أربعة وعشرين ساعة إثارة وانفعالاً.

انتهت جلستنا وتوجهنا لنومنا وقد هيأ لنا الله من أمرنا رشدا فغلبنا النعاس بعد أن اكتوينا بنيران السهد والأرق والفكر، مساء اليوم الرابع لوجود رابحة بيننا وكل واحد فينا يتفرس جسدها وخياله يهيم فى اتجاهات لا يعلمها سوى الله وهى على كل حال خيالات فاسدة وتبعث على الرذيلة.

توجهت إلى البئر للاغتسال والوضوء ثم الصلاة، كان موعد صلاة المغرب قد حان، وقفت أصلى وقريبا منى البئر وأنا فى حالة الانكسار والعبادة أمام الله، حضرت رابحة وتحررت من ملابسها بالكامل لتحصل على حمام منعش، تحيرت وأغمضت عينى عما أشاهده ولكنى كنت أسمع أصوات غنائها وما تصدره من أصوات معبرة عن متعتها بالماء ثم وجهت لى الحديث قائلة: بعد ما تصلى

حصلنى على البير، غيرت من اتجاه القبلة حتى لا أسمع ولا أرى فسمعت صوتها ففتحت عينى فوجدتها وقد ارتدت ملابسها ولهذا أنهيت صلاتى المرتبكة المترددة.

جاءت لى وهى مُقبلة وأنا متخوف منها لأننى سأقع فى الهاوية وشعرت أننى هالك لا محالة فكلها فتنة وجمال وسحر وهيام وعطر فواح بديع الهمسات رائع النسمات أما صوتها فهو عذب رقراق مشيتها نغم حالم فوق الأرض اقتربت منى وهى تناجينى بأصوات تثير الشجن وتحيل العجوز شابا يتحرك ويقدم ويضحى بكل شىء أمامه فى سبيل أن ينال حبها وقلبها متمتعا بدقائق قليلة، وضعت يديها حول عنقى وهى تحدثنى قائلة «وبعدين وياك مش ناوى تلين؟ أنا عيزاك ومسكتنى من سترة أفرولى بأصبع واحدة تسير للخلف وأنا أسير معها بسلاسة وهدوء واتجهت بين أشجار النخيل وعادت إلى وضعها السابق تحتضننى بلهفة وأنا حتى الآن تابع لها ولست متبوعا أنا خبر لمبتدأ اسمه رابحة.. أخيرا احتضنتنى بعنف وشغف ووجدت نفسى ولأول مرة أحتضنها وقد تركت كل هواجسى السابقة محدثا نفسى هيا موتة وإلا اتنين. وأنا على هذا الحال ونهتز لنسقط أرضا لنسقط فى حافة الهاوية أيضا شعرت وأنا أضع يدى على ظهرها الناعم أن ثمة شيئا مثل الشوك يؤلم أصابعى ففتحت عيناى وأنا مازلت أحتضنها فإذا بى أشاهد ظهرها الأبيض الجميل بلون بنى غامق وبه شعر كثيف كأنه ظهر غوريلا وهنا لم أتمالك نفسى ولملمت نفسى بسرعة البرق وعادت دمائى إلى داخل جسدى وهبطت كل انفعالاتى صارخا ومبتعدا عنها وهى مازالت تقف مذهولة بعد أن أصبحت قاب قوسين أو أدنى أن تصل إلى بغيتها ونتوقف هكذا، تنبهت على صوت صراخى مبتعدا عنها عائدا إلى الخلف بظهرى لأسقط أرضا وأنا مازالت خائفا دافعا يدى للأمام لأحمى نفسى من هذا الشىء المخيف، تغير شكلها هى الأخرى واحمرت عيناها وتهدل شعر رأسها وتجمدت قسماته وأصبح لونها أصفر باهتا صارخة قائلة: غور يخرب بيت أهلك، أمسكت ببعض الرمال من على الأرض وقذفتها فى وجهى وهى تعيد سبابها لى ثانية وتضيف أنت راجل وسخ ورحمة أمى أنت راجل مخصى!!!

تركتنى عائدة إلى خيمتها وقابلها جنودى مستفسرين عن سبب صراخى حيث خشوا أن يكون إسرائيليون متواجدين هنا ولكنها كانت مثارة وفى حالة سيئة وجلست معهم باكية دامعة بأننى حاولت عند البئر اغتصابها ولكنها قاومتنى ودفعتنى مما أصابنى فى رأسى وهذا ما دفعنى للصراخ وهى التى كانت تثق بى دائما حيث كنت أخبرها بأننا أخوة ولكنه استغل ضعفى وعدم وجود رجل يحمينى.

اندفع عامر قائلا لها أنا هذا الرجل وأنا سأحميك من أى إنسان حتى لو كان ضابطى وأستطيع أن أقتله ونتخلص منه فى الحال، هدأت من روعه وسار معها تستند على ذراعيه حتى خيمتها ودخل إليها وقالت له: أنت راجلى دلوقتى مش حاوصيك تحمينى وتخاف عليا.. خلاص!!!

حضر إلى جنودى عند البئر يخبروننى بما حدث من اختلاق أكاذيبها والتى لم تنطلِ عليهم ولكنها انطلت على الأهوج عامر والذى ظل جالسا أمام باب خيمتها كالكلب الذليل.. استفسروا منى عما حدث ولم أخش أن أقول فكما لم يخش يوسف أن يفصح كنت أنا الآخر وقد اندهش الجنود الأربعة وأنا أقص عليهم قصة ظهرها الذى يشبه الغوريلا. أعيد ترتيب أوراقى أمامهم ونحن نقترب أنا وهى من بعضنا البعض أناجى ربى أن يرفع كربته عنى وأنا فى أشد حالات انفعالى تذكرت الآية القرآنية ولم أقرأها فقد كانت ظروفى صعبة للغاية ولكننى سمعتها بداخلى وهى تُعاد على مسامعى قال الله تعالى:

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)

بعد أن تذكرت تلك الآية الكريمة شعرت بأننى أمسك شوكا على ظهرها وفتحت عينى فوجدت ظهرها مثل ظهر الغوريلا أو الجاموسة ومقوس وخشن ومخيف. أخبرت جنودى قائلاً هذا هو البرهان. إنه برهان ربنا ورب يوسف. إنه شاهد شيئا سوء يخيفه أو يبعده عن هذا الخطر. تساءل أحدهم يعنى ده ربنا يعمله مع أى حد يكون عايز من ربنا يحميه. أخبرتهم أيوه مظبوط وقلت لهم أنتم

فاكرين لما جينا نهرب وندخل الكهف اللى كانت فيه الذئبة وأولادها. الطيارة الأولى ضربت صاروخ جه فى الرمل وتانى صاروخ جه فوق الكهف، الفاصل بين الصاروخين أقل من مترين، لكن لو أى صاروخ كان جه فى الكهف كان إيه حصل؟ نظروا لبعضهم البعض وأحدهم قال كنا بقينا كفته.. ضحكت وقلت لكن ربنا حمانا وهنا برضه ربنا حمانى وخلوا بالكم هية ناوية تاخد واحد فينا وحتقسمنا وتفرقنا.

عُدنا إلى مكان الخيمة وقد اخترت مكانا بعيدا واقترب مصطفى من الخيمة فسمع أصواتا جاء على آثارها مسرعا ليخبر زملاءه وهم بالتالى جاءوا يخبروننى بأنهم سمعوا أصوات عامر بداخل الخيمة وتدل تلك الأصوات على أنه يعاشرها الآن وماهو الحل معهما؟

لقد نجح الشيطان بأن يوقع بأحد فرساننا. لقد سقط الفارس عامر إلى مستنقع الرذيلة والفحشاء، نظرت إليهم قائلا لاحل ولنترك الفاسقين ولتعلموا أنهما سيزدادان فُجرا وبَغيا ولن يحاولا التستر والاستغفار إنهما خالفا الله. اتركوهما والله هو الذى سينزل بهما عقابه.

خمد جميع الرجال فلم يعد أحد يفكر فيها سواء لأنها أصبحت عشيقة لرجل آخر أو لأنهم استاءوا منها عندما شاهدوا عامر فى خيمتها أو مما فعلته معى وكذبها عليهم بأننى حاولت الاعتداء عليها وهم الذين يعلمون أنها منذ الوهلة الأولى وهى تحاول أن تتصيدنى، الجميع نيام هادءون أما العروسان فقد أنهيا مهمتهما بنجاح وأقول إنها نجحت وأوقعت المغفل عامر.

لقد تعمدا أن يجلسا خارج الخيمة فى وضع وشكل غير لائق. عامر عار من نصفه الأعلى وهى نائمة على صدره وتداعبه وهو يداعب شعر رأسها.

مضى يومان على تلك العلاقة الآثمة وقد كان تأثيرها واضحا علينا حيث شعرنا أن المكان أصبح نجسا كما امتنع كل من جويلى وفراج عن محادثتهما أما أنا فكنت العدو رقم واحد لهما ولهذا انقسمنا. هما الاثنان فى جانب ومصطفى وعطية فى جانب. وانا وجويلى وفراج فى جانب وهكذا قسمتنا إلى ثلاثة أقسام

ومنعت التعامل بيننا فهما يأكلان ويشربان بعيدا عنا بل يحاولان أن تكون علاقتهما ونومهما سويا أثناء جلوسنا بالخارج حتى تؤثر على مشاعرنا وأحاسيسنا وبالطبع كنا نترك المكان ولن نكون فى يوم من الأيام من مواخير الرجال الذين يحمون العاهرات.

تحركنا ليلا كعادتنا ووصلنا فى الصباح إلى منطقة جديدة وهى منطقة نخيل وقد تحسن الطقس حيث كنا نشعر بنسمات هواء رطب تهب علينا ونحن جلوس تحت أشجار النخيل اشتممنا رائحة نفاذة وكريهة وقد استطلع أحدهم الأمر فتبين أنها لبعض جثث الذين قتلوا منذ عدة أيام وكان باديا على أجسادهم الانتفاخ وبعضها انفجرت جثته وفاحت الرائحة الكريهة.

جاء جويلى يخبرنى بأن البئر مسمم وقد شاهد آثار زيت لامع على سطح الماء وقد تبين أن هؤلاء المساكين كانوا ضحايا تلك العملية الخبيثة من أعمال اليهود، اقترح فراج أن ندفن هؤلاء عصرا، طلبت منهم الاحتراز لأنه طالما أن اليهود قذفوا بسموم فى تلك البئر فاحتمال وجود ألغام أفراد وارد وعلينا الاحتراز.

قضينا تلك الليلة كما سبقها ونحن نراهم فى بغيهم سائرين وبجوارنا من الجانب الآخر الجنود الذين قضوا نحبهم ولم يدفعهم هذا إلى التأمل أو احترام هؤلاء الشهداء، نقل مصطفى خبرا عنهم بأننا اقتربنا من القناة وأن المسافة المتبقية لا تزيد عن عشرة كيلومترات، لم نصدق ما نسمع هل من المعقول أننا قد أصبحنا على مسافة سير حوالى ساعتين ونصل إلى بر الأمان وإلى أهلنا، طغت الفرحة علينا وانتعشت طموحاتنا وقضينا ليلتنا كلٌ يخبر الآخر بما ينوى أن يفعله عندما يصل إلى عائلته وأسرته.

صباح اليوم التالى كان عامر قد بدا منتعشا ورابحة تعانقه أمامنا وتسأله على فين يا حبيبى فيجيبها: أوصل لحد الشهدا أقرأ عليهم الفاتحة وقد تنبه جويلى صارخا فيه. .فتحتك مش مقبولة.. فيجيبه ليه بتقول كده يا معفن يا ابن المعفن (بصوت عال وجهورى).. أجابه من غير شتيمة أنت نجس لازم تتطهر.. تدخلت

رابحة فى الحديث حتى لا تحدث مشاكل بين كل من عامر وباقى الجنود حيث قالت: حبيبى عامر زى الفل.. روح يا حبيبى.

مازلنا جالسين، بعد قليل جاءنى فراج يخبرنى بأنه شاهد عامر وهو ينزع ساعة أحد الشهداء ويضعها فى جيبه، اتجهنا بأبصارنا إليه لنشاهده وكان واضحا أنه يفعل هذا ويقلب كل شهيد باحثا عما يملكه ولم يترك أحدا إلا وحصل منه على شىء ما، أنهى سرقته للشهداء وهو ينظر إلينا سعيدا بغزواته، عاد ثانية حيث تذكر شيئا، عدنا إلى حوارنا.

فجأة سمعنا صوت انفجار شديد وصرخة غير مكتملة وقفنا نستطلع الأمر، لغم أفراد كان موجودا بين الجثث وداس عليه عامر فقتله فى الحال تاركا جثته بجوار من سرقهم ومعه مسروقاته يقابل بها الله يوم القيامة حاملا ندما لن يغفر له وما فعله من الزنا الذى حرمه الله.

خرجت رابحة على صوت الانفجار وشاهدت جثة عامر ممزقة فصرخت وتعالى عويلها وألمها وهى تناديه: مين حيربى ابنك اللى فى بطنى؟ أنا مكتوب على أربى ابن أبوه فى السجن والتانى أبوه مات، يا خيبتك يا رابحة، وولولت كثيرا ونحن مشغولون هكذا، فإذا بنا نسمع صوتا آمرا:

ولا حركة.. نظرنا جهة المتكلم.. صرخ جويلى: إسرائيلى.. رحنا فى داهية.

صرخ فيه صاحب الصوت قائلا: اسكت ياغبى، وقفنا ورفعنا أيدينا لأعلى علامة الاستسلام، كان هذا الشخص ضابطا مما يضعه من علامات على كتفيه وكان برفقته بعض الأفراد بزيهم العسكرى وهم يحملون المدافع الرشاشة، لقد ضاعت أحلامنا التى كنا قد بدأناها منذ شهر، أخيرا بعد أن أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من القناة سوف نقع أسرى، بكى بعض الجنود لسوء الحظ والبعض لم يستطع التعبير عما بداخله، شاهدت صورا سريعة أمام عينى من ذاكرتى لما حدث لزملائنا وهم قتلى وتركوا بالصحراء تنهش بأجسادهم الضوارى، هذا هو حالنا بعد أن شعرنا بأننا قد نجحنا فى طريق انسحابنا، أنظر

إلى هذا الضابط محاولا معرفة ما يخبئه القدر على يديه، تساءل بصيغة آمرة: فيكم ضباط؟ فأشاروا جميعهم جهتى.. جاء الضابط وكان برتبة ملازم أول مصافحا لى وعرفنى بنفسه وخلفه ثلاثة من ضباط الصف يحملون بالإضافة إلى أسلحتهم بعض الشنط والأكياس.

لا أعلم السر فى اختيار ضابط بتلك المواصفات لكى يقبل إلينا فى جوف صحراء سيناء فى ظروف تلك الحرب القاسية، الضابط أوروبى الشكل والملامح، وجه أحمر طويل القامة ذو عيون خضراء وشعر أصفر ناعم وقد اعتقدنا بأنه إسرائيلى حتى بعد حديثه معنا ولكن اطمأن قلبنا لمن حوله من مساعديه وهيأتهم المصرية الواضحة كما أنهم لم يقتلونا أو يأسرونا.

أخبرنى الضابط أننا على مسافة اثنى عشرة كيلو من القناة وأنكم سوف تسيرون إلى القناة، ثم زودنا ببوصلة وربط عليها درجة السير ثم أخبرنا بأن نسير على تلك الزاوية حتى نعبر الطريق الترابى وبعدها نبدل الزاوية إلى درجة أخرى أعلمنى بها ثم قال بالزاوية الجديدة ستسيرون جنوب الملاحات بشرق القناه ومسافتها حوالى ثلاثة كيلومترات وعلى الضفة الشرقية ستجدون عمال قناة السويس فى انتظاركم للمساعدة ثم نظر إلى رابحة متسائلا: ماذا تفعل تلك السيدة هنا؟ إن وجودها خطر؟ أخبرته أنها راغبة فى العبور للغرب لزيارة زوجها فأشار لها بأن تتبع أحد رجاله موضحا له بأن يصطحبها إلى نقطة عبور المدنيين.

غادر هو ومرافقوه المكان بينما ظل أحدهم ينتظر اصطحاب رابحة إلى المكان الذى أمره أن يدلها عليه، تعاونا جميعا فى جمع أغراضها ومازالت باكية وكنا أكثر منها حزنا على ما آل إليه مصير عامر بعد قضاء شهر معنا كان من أصعب وأطول وأعظم شهور حياتى حتى الآن، لقد كانت تلك الفترة مجيدة فى حياتنا حيث كان تصرفنا وشجاعتنا تدفع بنا إلى الفخر والاعتزاز.

سرنا مستخدمين البوصلة بالزاوية الجديدة وتركنا رابحة بعد وداع سريع فاتر فمازالت حالتها سيئة ومازالت الدموع تنحدر من عيونها الجميلة وجثة عامر

ملقاة فى العراء لا نستطيع الاقتراب منها لخطورة المكان وانتشار الألغام ورغم هذا فكان الوداع مؤثرا لأنه حدث فجأة بعد حادث مصرع عامر بساعة على الأكثر.

تحركت مع جنودى الأربعة ولقد أصبحنا خمسة بعد أن فقدنا واحدا من زملائنا وكان اتجاه تحركنا مرصوداً على البوصلة وسرنا بجد ونشاط يحدونا الأمل أن نصل إلى هدفنا قبل العصر، قطعنا ثلاثة كيلومترات فى أرض ثابتة وبها الكثير من نباتات الصحراء وواصلنا تقدمنا وعبرنا الطريق الترابى الذى نبهنا إليه الضابط الذى قابلناه والذى عرفنى بنفسه وأهم ما لفت نظرى فى حديثه أنه ضمن مجموعة من قوات الصاعقة لجمع الشاردين.. هكذا اسم تلك المجموعة تعمل فى شرق القناة وتمد يد العون للجنود والضباط المحتاجين سواء طعاما أو شرابا أو علاجا مبسطا ثم توجههم إلى أقرب نقطة إنقاذ وعبور.

بعد عبورنا الطريق الترابى بأقل من كيلومتر سمعنا أصوات محركات دبابة فاختبأنا خوفا على حياتنا، شاهدنا بعد قليل دبابتين تحرسان لورى ضخم لنقل وقود بنزين الدبابات.. كانت فرصة سانحة لأن المسافة كانت قريبة منا لا تزيد عن ثلاثمائة متر ونحن فى المرتفعات وهم فى منخفض الوادى الذى به الطريق والمسافة بين الدبابة واللورى لا تزيد عن خمسة وعشرين مترا.. تبادلنا النظرات وسألت عن ذخيرة خارق حارق وتبين أنها مع عطية ولكنه فى التصويب أقل دقة من جويلى وفراج رغم أن الهدف كبير وسهل إصابته.. تبادل الجنديان خزن الذخيرة وبسرعة أطلق فراج عدة دفعات على فنطاس لورى الوقود دون جدوى فاستبدل التصويب على تنك بنزين اللورى التى كانت كفيلة بإحداث ما كنا نرجوه فى ذات اللحظة التى أدارت لنا الدبابات مواسير مدافعهم وقامت بإطلاق أول قذيفة ولكن القدر لم يمهلهم فقد انفجر التنك وتبعه الفنطاس متطايرا بالحرائق الرهيبة والتى شعرنا بحرارتها من على تلك المسافة فاشتعلت الدبابتان واستطاع بعض الجنود الفرار منها والنيران مشتعلة بملابسهم وكنا لهم بالمرصاد غير عابئين بالرحمة وكيف نكون رحماء على قوم يدهسون جنودنا تحت دباباتهم أحياء.

داخلنا إحساس بالفخار بعد نكبتنا فى عامر وما حل به وشعرنا أننا أخذنا بثأره وثأر الثلاثة عشر ضابطا وجنديا من رجال المدرعات الذين ماتوا أمامنا ولقد تذكرت الرائد وليم شفيق الذى قاد الدبابة الإسرائيلية بعد فك أسره هو وجنوده وما قام به من تدمير دبابتين للعدو وإسقاط طائرة هليكوبتر قبل أن ينال الشهادة هو ومرافقوه.

لقد قضينا على عشرة من جنودهم الآن بالإضافة إلى دبابتين وفنطاس وقود.. أسرعنا نعدو حتى ننجو بأنفسنا وكانت المنطقة التى نحن بها منخفضات ومرتفعات وكودى حشائش خضراء وبذلك كانت صالحة للاختباء والحماية بعد قليل ترامى إلى أسماعنا أصوات دانات مدفعية تصب غضبها فوق رءوسنا وكان قذفهم غير محدد لأنهم لم يحددوا من قام بتلك الضربة الموجعة، حضرت طائرة هليكوبتر لتحدد الأهداف واختبأنا حتى انتهت من دورتين فوق رءوسنا.

استمرت تلك المناورة بيننا وبينهم حوالى الساعة بعدها هدأ الموقف وواصلنا سيرنا فى اتجاه هدفنا دون أن نبدل زاوية سير البوصلة فقد نسينا هذا العمل بعد أن وقعنا فى تلك المعركة التى تعتبر الثانية لنا بعد معركة تحرير الرائد وليم وزملائه وأن نكون البادئين لها. حيث كانت المعركة السابقة مفروضة علينا.

سقطنا فى منطقة الملاحات وكانت مياهها الراكدة تصل إلى ما فوق الركبة وفى بعض الأماكن إلى الوسط، تلك منطقة سهل الطينة وهى تقع جنوب شرق بورسعيد وهى عبارة عن منطقة بها طمى النيل بكميات كثيرة لوجود فرع قديم للنيل بها وبعد حفر قناة السويس تدفقت المياه المالحة للمنطقة واختلطت بالطمى وأصبحت بركة طينية واسعة المساحة وقد فعلت المياه الراكدة بها كل شىء حيث الروائح النفاذة بها مثل رائحة آبار الصرف الصحى فى اللون والرائحة.. كلما نسمع صوت طائرة ننزلق بأجسادنا حتى رأسنا فى تلك البركة اللعينة واستمر وضعنا على هذا الحال ثلاث ساعات وقد أهلك الملح جلودنا وخاصة منطقة الوجه التى كانت معرضة للشمس دائما حيث إننا نسير فى اتجاه الغرب وكانت الشمس حينئذ مائلة غربيا ولم يكن يظهر شىء منا غير عيوننا.

أرهقنا المسير فى تلك الملاحات اللعينة وخارت قوانا وكيف لا تخور والإنسان يقطع مسافات قليلة فى زمن طويل مع مجهود مرهق. مازالت الطائرة الهليكوبتر تأتى من حين لآخر تريد كشف مكاننا ونحن نختفى أسفل طينة الملاحات حتى نكاد نختنق سواء من عدم وجود هواء أو من تلك الرائحة النفاذة. كما أننا حينما ننزلق إلى أسفل لا نرى شيئا فكله ظلام وما هى الطينة الممزوجة بالملح وليست مياه مثل مياها البحر.

كانت الطائرة ترسل ببيانات تواجدنا للمدفعية التى تقصف المكان وكان من حُسن الحظ أن سقوط القنابل القريب منا ينفجر بصوت مكتوم دون تأثيره علينا مانعا الشظايا من الوصول لأحد منا، أعيتنا قدرتنا والشمس مازالت تلهب جلودنا وعيوننا دامعة من أشعتها الشديدة، وقعنا فى حيرة شديدة فنحن لا نستطيع أن نُكمل سيرنا ولا نحن قادرون على العودة إلى خارج الملاحات، كانت مصيدة قاتلة لنا جميعا وبدأت أصوات الأنين تخرج ثانية تعيد أيامنا الماضية اليوم الخامس بدون مياه قبل أن نقابل البدوى كريم الخلق وأيام أن كنا مدفونين مع الذئبة القتيلة فى الكهف.

أصبحنا على وشك الهلاك ولا أمل أمامنا للنجاة وأنا بدورى مثلهم غير قادر على السير وكف يدى اليمنى يؤلمنى من أثر الملوحة عالية التركيز ولا أستطيع أن أهدأ من إحباطهم وخاصة أن صبيحة هذا اليوم كان حزينا فلقد فقدنا إنسانا عزيزاً علينا استمر معنا أياما طويلة وصعبة ومات بطريقة مؤلمة ومازال صدى صرخته وصوت انفجار اللغم فى آذاننا وما أعقبها من عويل رابحة.

توقف بعضنا عن السير وقال عطية: خلاص إحنا مكتوب علينا الموت فى الملاحات وأنا بدورى أشد حزنا منهم فلقد نسيت فى غمرة الاشتباك مع الإسرائيليين أن أبدل زاوية سير البوصلة كما أخبرنى ضابط الصاعقة الهمام، لكن الله سلم ونحن على هذا الحال وبدأت أشعة الشمس تقل من حدتها استعدادا للغروب بعد ساعة تقريبا وعدم تسليطها على وجوهنا فاستطاعت أعيننا الحزينة البائسة أن تشاهد أشجار غرب القناة وكان هذا دافعا قويا لنا

فأسرعنا السير وفى كل خطوة نخطوها لا نتقدم بأكثر من عدة سنتيمترات من أثر الملاحات وتماسك الطين بأجسادنا الضعيفة.

الحمد لله.. قلناها جميعا عندما وصلنا إلى منطقة الرمال شرق جسر القناة وشاهدنا المياه الزرقاء التى كنا نحارب من أجل أن نصل إليها منذ أربعة أسابيع وها نحن قد وصلنا بعد تلك الأيام العصيبة فى حياتنا وبعد أن فقدنا إنسانا عزيزاً علينا استمر معنا طوال تلك الرحلة بشرها وليس بخيرها سوى بعض الأعمال الشجاعة التى دُفعنا دفعا للقيام بها.

طلبت من جنودى التكتم فيما يتعلق بموت عامر وإننا سوف نبلغ عن وفاته كشهيد فله من الأسرة الكثير وهو رب لعائلة فلا نريد كما يقول المثل "موت وخراب ديار".. وافقونى على هذا الرأى ونحن لم ننسه رغم تصرفاته معنا ومعى بالذات فى الفترة الأخيرة ولكنى أعطيته العذر، فمن هو الشاب الصغير الذى يستطيع مقاومة رغبة امرأة صغيرة وكدنا جميعا أن نصبح من ضحاياها كما حدث مع عامر.

شاهدنا عمال هيئة القناة وهم الأبطال الحقيقيون، إنهم رجال شجعان وأبطال يستحقون التحية من الجميع فأسرعوا إلينا باللنش الذى حملنا إلى الغرب بعد أن أهدوا كل فرد فينا خيارة تبلل فمه وأمسكناها بيدنا التى يغلفها طين الملاحات ولم نعبئ بتلك القذارة فقد بلغت القلوب الحناجر من الجهد والعطش والخوف ودفعنا بتلك الهدية القيمة إلى أفواهنا دون أن نقطع بدايتها أو نهايتها الصلبة نسبيا فنحن ليس لنا الخيار.

القارب يتجه إلى الشاطئ الغربى للقناة ونحن لا نصدق ما نشاهده ونراه ونشاهد مبنى محطة السكة الحديد أمامنا مباشرة ونشاهد بعض الأشجار وخطوط التليفون الواصلة بين بورسعيد والإسماعيلية وننظر يمينا ويسارا ونشاهد مياه القناة الزرقاء وكأنها تخاطبنا (حمد الله على السلامة. .لقد تأخرتم كثيرا لكنى أنتظركم.. وهنيئا لمصر بعودتكم وسوف تستقبلون بما يليق بأبطال مثلكم) بعد لقاء دافئ سواء بالأحضان أو القبلات ودون النظر إلى القذارة التى غطت أجسادنا وملابسنا حيث كانت هيأتنا مزرية وغريبة المنظر..

عبارة عن كتل من الطين مثل تماثيل صنعت بالطين الصلصال ولم تهذب بعد وتغطى أجسادنا وملابسنا وتفوح منها الروائح الكريهة التى تماثل روائح مياه الصرف الصحى ونتحرك بصعوبة دون تركيز.

***

النتائج:

٢٨ يوما انسحاب، وصولنا بأسلحتنا إلى الضفة الغربية لقناة السويس

١- خسائر العدو: ٨ جنود فى معركة اللواء المظلى، تدمير عربتى جيب واحتراق هليكوبتر

٢- معركة الشهيد وليم: مقتل أربعة جنود والتسبب فى تدمير ثلاث دبابات وطائرة هليكوبتر ومقتل عشرة إسرائيليين

٣- معركة فنطاس الوقود: مقتل عشرة واحتراق دبابتين وصهريج وقود

٤- خسائرنا.. استشهاد الجندى عامر

نتجه الآن للشاطئ الغربى لنحصل على مكافأة أعمالنا !!!!!!!!!!

***

ملاحظة:

بعد عودتى إلى القاهرة بعدة أشهر التقيت مع أحد الضباط المتخصصين فى الطبوغرافيا العسكرية "الخرائط" وشرحت له على الخريطة طريق انسحابنا.. طلبت منه قياس تلك المسافة.. قام بعمله ليتبين لى أننا سرنا مسافة تزيد عن ٩٥٠ كيلومترًا !!

• الجزء الثانى

الإستعداد لجولة جديدة

حُسن الاستقبال بالعودة

أقلنا القارب بمساعدة عمال الهيئة إلى الشاطئ الغربى للقناة وقد ساعدونا على النزول منه فأعضاؤنا تيبست وأعصابنا ازدادت توترا وحالتنا الصحية على أسوأ ما يكون فمجهود السير ثلاث ساعات فى تلك الملاحات صعبٌ للغاية، طوال الأربعة الأسابيع الماضية لم نعان أثناء سيرنا مثل ما عانيناه فى منطقة الملاحات، ولكى نسير كنا نرفع أقدامنا من داخل البركة اللزجة بصعوبة وندفع بها إلى الأمام كما أن منظر تلك الملاحات الشاسعة ذات اللون الأبيض من كثرة ما بها من أملاح وانعكاس أضواء الشمس على سطحها قد أثر بالتالى على نفوسنا بالألم واليأس.

كنا نستقل القارب وهو يمخر صفحات مياه القناة ذات اللون الفيروزى الرائع ونقترب رويدا رويدا من الجهة الغربية للقناة ويحدونا الأمل باستمرار انتصارنا على هذا المجهول القاسى الذى تعرضنا له وماذا سيكون عليه حالنا واستقبال المصريين والمسئولين لنا.. أكيد سيكونون فى منتهى السعادة والبهجة بعودة هؤلاء الخمسة من جحيم لم يشعر به سوى الذين لاقوا مرارته وتعذبوا بما لم يقابله إنسان سواهم، كما أننا عائدون بسلاحنا ونقدم أنفسنا لهم ورهن إشارتهم.

أخيرا وصلنا إلى الجانب الغربى للقناة وكان هناك عدد من الناس فى استقبالنا ملوّحين لنا ونحن فى وسط القناة ومازالوا يلوّحون وبمساعدة عمال الهيئة الذين حملونا على أذرعهم فلم يكن باستطاعتنا أن نصعد إلى خارج القناة تاركين اللنش وقد ربطه العمال استعدادا لاستقبال آخرين قادمين تباعا.

نحن وقوف فى مبنى محطة سكة حديد "الكاب" والتى تطل من الجانب الشرقى على القناة.. ومن الجانب الغربى على طريق ضيق مرصوف ثم ترعة توصل مياه النيل إلى بورسعيد كما تحيط بها بعض الأشجار.. يا لها من سعادة.. استقبلنا طبيب ومعه بعض المعاونين وهم يرحبون بنا طالبين منا التوجه إلى مسئول المخابرات أولاً ثم بعد هذا سيفحصوننا ويقومون بالعلاج اللازم لأى مشكلة صحية نشكو منها.

حضر شخص يرتدى الملابس المدنية ليعرفنا بنفسه.. إنه يتبع لمكتب المخابرات الحربية وأنه سيتسلم منا سلاحنا وجلس على ترابيزة صغيرة من المخصصة للمدارس ومعه دفتر يدون الأسماء به ويكتب أمام كل اسم ملاحظاته.. يشير.. وأنت وهو مازال ممسكا بقلم جاف فى يده وينظر لأحدنا فيتقدم عطية ليخبره ببياناته من الاسم الرباعى والدرجة (جندى.. عريف.. رقيب.. وهكذا..) ومعه زميل له نفس الهيئة بجسم قوى وسمين ويبلغه بالملاحظات (فقد مزيته السلاح وفرشة النظافة _ بصوت مرتفع.. تخصم على المتسبب !!) ثم يشير بقلمه اللى بعده.. بنفس الطريقة السابقة وهكذا حتى بلغنى وترتيبى فى آخر المجموعة وعرفته بنفس البيانات وعندها قال حمد لله بالسلامة يا فندم.

لم يقلها لجنودى.. وكأنهم لا يستحقون منه تلك الكلمة البسيطة. خصم علينا جميعا القطع الصغيرة المرافقة للأسلحة، حزن الجنود ولكنى هونت عليهم بأنها بسيطة، عدة جنيهات وجزاء بالحبس، هذا أهون من خصم دبابة أو مدفع أو طائرة !! سمعنا صوتا جهورى قويًا صادرًا من داخل المكتب.. «خلصت مع أولاد.....» قال لفظا نابيا سباب بالأم «يا عبدالقوى؟ أشار له عبد القوى وهو واقف. .خلاص يافندم وأشار على كتفه بما يعنى بوجود رتبه عسكرية، كان رد فعل صاحب الصوت بالداخل.. إيه ياعنى خليه يورينى نفسه هو كمان.. هنا طلب

عبد القوى منا التوجه إلى مكتب القائد.. سيادة الرائد/أحمد.. منتظركم.. معاهم يا عثمان (وأشار بيده وهو ممسك بقلمه لزميله عثمان).. سار عثمان أمامنا ونحن نتبعه ونترنح ونرتعد من البرودة التى تسرى فى أجسادنا من البلل والمياه اللزجة والطين الذى يغلفنا حيث كانت جميع ملابسنا متسخة ولونها مابين الأسود والبنى والأزرق كما أن ملامحنا لا تظهر مما علق بها وغطاها الطين الذى طمس أنوفنا وآذاننا وكل شىء لا يظهر منا إلا عيوننا الباردة التعسة لتلك الكلمات التى صدرت من سيادة الرائد وهو قابع بداخل المكتب.

دخلنا المكتب الذى هو فى الأصل مكتب ناظر محطة السكة الحديد، الرجل فى حوالى الثالثة والثلاثين من عمره أبيض الوجه مكتنز الجسد يرتدى قميصا حريريا نصف كم وبيده ساعة رولكس وأمام مكتبه علبة سجائر كنت وولاعة لسجائره وطفاية ويسحب أنفاس سيجارته بجانب من شفتيه.

– أيوه مين فيكم اسم الله عليه الظابط ؟.. أشرت له بيدى

– أيوه يافندم: صاح بصوته القوى

– عرف نفسك زى ما تعلمت يا شاطر.. ترددت قليلا ثم قلت:

– ليه الكلام ده يافندم؟ كلمنى لو سمحت بالطريقة العسكرية.. وكأن ثعبانا لدغه فنهض من مقعده وهو يشير إلىّ بأصبع السبابة قائلاً:

– أنت يا حتة عيل حتعلمنى أكلم إزاى؟ نهاركم أسود النهاردة، حضر الطبيب ودخل علينا طالبا منه ألا تكون أسئلته بتلك الطريقة مراعاة لظروفهم فهم فى حالة سيئة منذ شهر أو يزيد، نظر إليه باستخفاف قائلاً:

– اتفضل بره وشوف شغلك أنا مش بأدخل فى شغلك وأنت ملكش وجود هنا. خليك فى القطن والشاش بتوعك. خرج الطبيب صاغرا مستنكرًا هذا يردد:

– والله ده حرام.. يعيد الرائد:

– كنتم فين كل المدة دية يا ولاد الجزم؟ قاعدين تلعبوا فى سينا وسايبين البلد تضرب تقلب.. هنا حدثه الجندى عطية وهو ضعيف الصوت والبنية بالإضافة

إلى ما قاسيناه من تعب فى الساعات الأخيرة ومازال جسدنا يرتعد من البرد والألم لما حاق بنا من مُلوحة منطقة الملاحات.

– إيه يا فندم الكلام ده.. نازل شتيمة فينا.. إحنا برضه ولاد ناس ومعانا ظابط زميلك.. لم يكمل حديثه إذ قام الضابط من على مكتبه قائلاً:

– إيه يا عبدالقوى جايب لى ولاد الكلب دوول وعليهم جلة "روث البهائم".. تكلمت وأنا محاولاً كظم غيظى.

– إيه الكلام اللى يفور الدم ده. بلاش غلط واحترم نفسك. نظر إلى قائلاً:

– أنت بتشتمنى ياله. رفع يده يريد صفعى فأمسكت يده فنظر إلىّ قائلاً:

– يخرب بيت أهلك.. كده وسخت قميصى.. طيب.. هنا دفعه عطية ولكن الرائد صفعه على وجهه فارتمى على أثرها أرضا صارخا من الألم فاندفع مصطفى ابن الإسكندرية يسبه بأقذع الشتائم فاتجه إليه ولكن الجندى عاجله بضربة رأس فى وجهه صرخ على أثرها فحضر معاونوه وأوسعونا ضربا وركلاً ونحن غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا ولم ينتبه أحد من الموجودين إلى كنكة القهوة على وابور السبرتو المشتعل وأرضية المكتب من الخشب فاهتزت وسقط وابور السبرتو محدثا صوتا واشتعلت النيران بالمكتب وهنا اندفع عمال هيئة قناة السويس للدفاع عنا وقد طالتهم بعض اللكمات فسددوا بمثلها وأكثر وقد أصبحت الحجرة ساحة قتال مستخدمين كل ما يستطيع الإنسان أن يتشاجر به بين الصياح والسباب لهم ولمن أرسلهم لهذا المكان وقد شاهدت المعركة وأنا مُلقى على الأرض بينهم وبين معاونى هذا الرائد الذى لم يحترم آدميتنا وشاهدته أيضا وهو ملقى على الأرض والدماء تغطى وجهه بينما يحاول البعض السيطرة على النيران التى اشتعلت بأرضية الحجرة من أثر سقوط وابور السبرتو.

توالى سقوط معاونيه فرداً فرداً وانتهت المعركة بسقوط عشرة من المصريين جرحى أنا وجنودى الأربعة والرائد ومعاونيه من ضباط الصف الأربعة أما طبيب النقطة فكان يصرخ ساخطا ناقما على هذا الضابط واتصل بوحدة الشرطة العسكرية من التليفون الملحق بالنقطة الطبية.

تعاون رجال هيئة القناة لمساعدتنا لنقف على أرجلنا ولكننا كنا عاجزين عن ذلك فأجلسونا فى مكاننا مستندى الظهر إلى الحائط ونحن مازلنا نرتجف مما أصابنا ومن برودة أجسامنا المبللة. أما الرائد فقد وقف مهددا متوعدا الجميع بأنه سوف يدخلهم السجن وقد أطلق بعض عمال الهيئة أصواتا بأفواههم تدل على الاحتقار له ولمن سيخبرهم متوعدينه بالانتقام منه لأنه خائن لوطنه.

بعد قليل حضر ملازم أول من الشرطة العسكرية ومعه بعض جنوده والطبيب يوضح له ما تم من اعتداء مجموعة المخابرات على هؤلاء التعساء «مشيرا إلينا» على حد قوله ونحن مازلنا بوضعنا المأساوى نرتعد برداً وألما لما حاق بنا ولم يمض على وجودنا نصف ساعة منذ عودتنا من سيناء بعد ثمانية وعشرين يوما. تحدث ضابط الشرطة العسكرية قائلاً:

ده موضوع كبير ثم طلب من أحد معاونيه أن يتصل بقيادته لاسلكيا ليخبرهم بما حدث فى محطة "الكاب" ولكن الرائد نهره طالبا منه أخذ رجاله من هذا المكان وتركهم فورا ولكن الضابط أخبره بأن هذا عمله المكلف به وهو يقوم بتأديته ولا داعى للمزايدة وتوسيع رقعة المشاكل.

توالى حضور عمال الهيئة على ضابط الشرطة العسكرية للإدلاء بأقوالهم ومندوب الشرطة يسجل كل شئ ولكن أهم شئ قيل على لسانهم بأن ضابط المخابرات سب هؤلاء قائلاً: كنتم فين يا ولاد الكلب يا جيش عبد الناصر الجبان (الحقيقة لم أسمع تلك الجملة) وقد أيده زملاؤه ومندوب الشرطة يخبرهم بأنهم سيوقعون على تلك الأقوال الخطيرة وهم يبدون استعدادهم بأن يدلوا بها أمام أى إنسان أو محكمة والرائد أحمد يصرخ فيهم.

حرام تكدبوا.. ولكنهم لم يعيروه أى اهتمام وهنا سبهم ثانية وشتمهم بأفظع الكلمات وقد أراد الرجال الهجوم عليه مرة أخرى ولكن رجال الشرطة العسكرية منعوهم من ذلك وقد صرح الضابط موجها كلامه لضابط المخابرات كل ما قلته أمامى سأشهد به وهنا لم يتمالك رجل المخابرات أعصابه فسبه هو وقيادته.

جاء أحد أفراد الشرطة العسكرية ليخبر ضابطه بأن الحاكم العسكرى لمحافظة بورسعيد اللواء فريد طولان طلب منهم إرسال الرائد إليه فى المدينة لمقابلته على الفور وأن قيادة المخابرات الحربية سترسل من يحل محله وقد كان موجودا أثناء كل هذا ممثل الاتحاد الاشتراكى فى بورسعيد الذى أدلى بشهادة مطابقة لعمال الهيئة، طلبنا الطبيب للعلاج وقد هدأ الرجل من روعنا وتسلم إشارة تليفونية من قيادته بأن الحاكم العسكرى طلب من قيادة الرائد إيقافه عن العمل ووافقت قيادته وسيحول إلى تحقيق فورى وقد أسعدنا هذا رغم ما ألم بنا من جراح فى أجسادنا ونفوسنا.

كتب الطبيب تقريره والذى يثبت فيه أننا أصبنا بكدمات فى الوجه والجسد وتسلخات فى أماكن كثيرة وأنهم فى احتياج للعلاج بالمستشفى وقد أرفق هذا التقرير مع كل ما قام به ضابط الشرطة العسكرية من تقرير وأسئلة الحاضرين وقد أبدى هو وجنوده تعاطفا معنا مستنكرين ما فعلة رجال المخابرات. حضر إلينا بعض رجال الهيئة بكمية من البرتقال نظرا لعدم وجود أطعمة معهم فشكرناهم ونحن مازلنا فى مرحلة عدم الوعى حيث تسببت أفعال وتصرفات رجال المخابرات الحربية معنا فى محو ذاكرتنا عما قمنا به من أعمال وبطولات يجب عليهم الافتخار بها، تكلم مصطفى باكيا: تصوروا نبدأ الانسحاب بالضرب على قفانا وبالشلاليت عند جبل لبنى وننهى الانسحاب بالضرب بالشلاليت وعلى القفا، إيه يارب إللى مستنينا؟

ملاحظة:

مارس ١٩٦٨ تم محاكمة رجال المخابرات وعوقب الضابط بالاستغناء عن خدماته والطرد وباقى العاملين معه من ضباط الصف بالطرد والحبس

* * *

حضر أتوبيس للجيش والذى يقل العائدين قادما من مدينة الإسماعيلية مرورا بكل نقاط جمع الشاردين وكنا آخر من سيقلهم لأنها آخر نقطة وبعدها

بورسعيد.. ركبنا الأتوبيس وقد جفت ملابسنا فوق أجسادنا وبدأت القاذورات العالقة بنا تتساقط وشعرنا أننا أقل وزنا عن ذى قبل مما كنا نحمله من الملاحات.

أما مندوب الاتحاد الاشتراكى الذى تعاطف معنا مثل الآخرين فقد كان المرافق لنا إلى بورسعيد وقد حصل الرجل على بعض البيانات من جويلى سريع الحديث والذى لا يستطيع ربط فمه وقد قص عليه كل ما فعلناه والرجل يستمع سعيدا ولهذا وقف يحيينا ويتحدث عن أمجادنا بعد أن ضخم من خسائر العدو وضربها فى رقم عشرة وهكذا انقلبت الحقيقة إلى كذبة لأن هذا لم يحدث وكنت فى حالة من الدهشة والاستغراب من أين حصل على تلك المعلومات الخاطئة محاولا تصحيح كلامه وكان يغطى على كلماتى بأنه لا داعى لإنكار أعمالكم المجيدة مقررا أنه سيكتب هذا فى تقريره الذى سترسله أمانة الاتحاد الاشتراكى فى بورسعيد إلى الأمانة المركزية بالقاهرة موصيا بترقيتنا إلى الدرجات الأعلى وكل هذا الكلام بين تصفيق الجنود الآخرين الذين لا نعلم عنهم شيئا.

توقف بنا الأتوبيس أمام إحدى المدارس الثانوية للبنات ببورسعيد وغادرناه إلى داخل المدرسة وبرفقتنا مرشدين من العلاقات العامة بالمحافظة والشئون المعنوية للقوات المسلحة، أرشدنا البعض إلى حجرة لنستريح بها وهى فى الأصل فصل دراسى أفرغ من محتواه وفُرشت أرضيته ببطاطين الجيش ذات اللون الرصاصى وشاهدنا بعض الجنود بتلك الحجرة كما حضرت بعض فتيات المدرسة وهن فى أعمارهن الصغيرة وبملابس التربية العسكرية التى كانت مقررة فى المدارس فى تلك الفترة عارضات على الجنود المساعدة فى كتابة خطابات لعائلاتهم أو كتابة أى شكوى أو مظلمة يرغبون فى إيصالها للمسئولين، جلست كل فتاة بجانب جندى ممسكة بورقة وقلم لتسطر خطابا من الابن العائد بعد غيبة لإبلاغ سلامه إلى أهله مطمئنا إياهم على أحواله.

حضر مندوب الاتحاد الاشتراكى الذى رافقنى من الكاب إلى المدرسة متسائلاً: "أنت فين يا كابتن؟ بادور عليك فى كل مكان، تعال معايا علشان تروح مكان تجمع الظباط". ودعت جنودى على أمل باللقاء فى وحدتنا ورافقت مندوب

الاتحاد الاشتراكى الذى كان دمث الخلق ووطنى كريم ويراعى شعورنا خاصة بعد ما ألم بنا من مأساة الكاب على أيدى رجال المخابرات الحربية. هبطنا إلى حوش المدرسة فأستوضح عن السيارة التى ستقلنى مخبرا إياهم بأن ضابطا موجود هنا على سبيل الخطأ ولابد من انضمامه لمكان تجمع الضباط حسب التعليمات ولكن أحدهم أخبره بأن السيارة الجيب أرسلت إلى مهمة عاجلة ويمكننى أن أنتظر فى ضيافتهم إلى أن تعود السيارة وتقلنى إلى المبرة.

شاهد تلك المحادثة شاب فى مقتبل العمر وقد تطوع مستفسراً عن الخدمة التى يستطيع أن يقدمها لنا فأخبره مندوب الاتحاد الاشتراكى بأن ضابطا (يشير إلى) موجود هنا على سبيل الخطأ ونريد إيصاله إلى مبرة أبناء الشهداء لينضم إلى باقى الضباط حيث إن مكان تجمعهم هناك. أبدى الشاب استعداده لأن يقوم بتلك المهمة حيث يمتلك سيارة خاصة. قدموا شكرهم لمروءته وأخبرنا أحدهم بأن الطبيب " (....) مشيرا جهة الشاب" يدرس بالسنه النهائية بكلية الطب وقد حضر متطوعا لخدمة الجنود مثل الكثير من زملائه. ودعنى كل الموجودين متمنين لى الوصول بسلامة الله.. أفسح لى الشاب الطريق متقدما خطوات ليرشدنى إلى سيارته وكانت من نوع (تاونس) مكشوفة (سبور) مثل الموجودة فى أفلام أحمد رمزى.. وفتح لى الباب بكل ذوق رفيع وأدب جم وعرفنى بنفسه.

يقود السيارة فى شوارع بورسعيد النظيفة قليلة الزحام وأنوار المدينة تتلألأ والناس يسيرون قادمين عائدين وتبدو عليهم النظافة وحُسن الملبس وقد شعر الشاب أننى أنظر إلى هؤلاء بسعادة ودهشة ولهذا أبطأ من سرعة السيارة حتى يعطينى الفرصة للمشاهدة والاستمتاع بتلك المناظر التى أعجبتنى وهفا إليها قلبى بعد حرمان من الحياة الإنسانية أكثر من شهر ونصف، أوقف سيارته أمام محل مزدحم برواده من الشباب ونظر إلى متسائلاً: «تحب تشرب حاجة ساقعة؟ هتفت فى داخلى ياه.. أين بائع العرقسوس الذى كنت أتخيل ظهوره من خلف الهضاب والجبال محدثا أصواتا بصاجاته وينادى على بضاعته (خمير يا عرقسوس.. إشرب المتلج يا خمير) ثم يعقبها بطرقعة الصاجات» مازال الشاب

ينظر إلى منتظرا جوابى على سؤاله وقد غفوت عنه سارحا فى تأملاتى السابقة. أجبته:

«آه أشرب حاجة ساقعة» ابتسم معيداً سؤاله:

إيه النوع اللى تحب تشربه؟ سكت وصمت ولا أعرف أى الأنواع فكل شىء أصبح سرابا فأيقظنى قائلا.."إيه رأيك فى شوب منجة".. سرح خيالى.. ياه.. منجة.. أجبته:

آه منجة.. اتجه إلى المحل وأحضر شوب منجة كبير الحجم وأعطانى إياه قائلاً:.."اتفضل حضرتك".. آه على الخلق الرفيع النابع من المنشأ.. أمسكت بالكوب الزجاجى الذى لم أره منذ أكثر من شهر ولمست برودة الثلج التى لم أشعر بها قرابة الشهر والنصف إلا ليلا فى صحراء سيناء الشاسعة. إن كل شىء هنا له طعم ومذاق مختلف. ارتويت وأعدت له الكوب شاكرا. عاد وقاد السيارة قائلاً:

«عندك مانع ألف معاك فى البلد شوية تشوف الناس؟ أنا شاعر أنك عايز تلف وتشوف الدنيا". أشرت إليه بالموافقة. كنت أشعر كأننى طفل رافقه أبوه للنزهة بعد شفائه من مرض ألم به وأقعده بالمنزل أياما عديدة وهاهو يكافئه فرحا بسلامته وشفائه بتلك النزهة الجميلة. توقف الشاب أمام محل "آيس كريم" وقال لى بصوت رقيق الإحساس والمشاعر «إيه رأيك أجيب لحضرتك "آيس كريم" نظرت إليه وقد بدأت الدموع تجرى فى عينى لفرط حُبه وصدق مشاعره الطوعية مع مقارنتها بما لحق بنا من إهانة وسب وضرب من زملائنا فى القوات المسلحة على أيدى رجال المخابرات الحربية».

تركنى مسرعا ليحضر لى «أيس كريم» ولكن دموعى كانت أسبق من حضوره وشاهدنى الناس الذين يقطعون الطريق وقد لفت نظرهم منظرى وهيئتى التى تدل على عجزى وسوء حالتى وقذارة ملابسى وشعرى الملىء بالقاذورات من آثار الملاحات، توقف البعض ينظر إلى ويتساءلون عما أصاب، هذا الشاب من ألم وعن حالته وما سبب بكائه، حضر الشاب الطبيب ليخبرهم بأنه

عائد توا من سيناء وقد قضى أوقاتا عصيبة هناك وأنتم تلاحظون حالته وقد تعاطفوا معى وسمعت سيدة تتحدث: «يا حبيبى يا ابنى.. يا قلب أمك عليك.. يا ترى أمك عاملة إيه دلوقتى؟».. لقد تذكرت الآن أن لى أما تحبنى وتنتظر عودتى ولى أب وإخوة كلهم فى شوق إلى رؤياى كما أنا فى شوق إلى رؤيتهم.. مازالت دموعى تتفجر من عيونى كتفجر مياه عين ساخنة وأحاول أن أغلق تلك العيون أو أن أمنعها من البكاء دون جدوى وقد وجد الشاب أننا فى وضع سيئ فقد التف الناس حولنا وكل دقيقة يزداد العدد على هذا الجندى الذى يبكى بكاء مستمرًا ولهذا قاد السيارة مبتعداً عن الناس ووقف قريبا من قاعدة تمثال دليسبس قائلاً «هنا أروق وأحسن وفرج عن نفسك وإذا كنت شاعرًا بألم قوللى وأنا أساعدك فنظرت إليه والى هيئته ونظافته وأنظر إلى ملابسى وما عليه حالى والأفكار والخواطر تتزاحم فى عقلى الصغير الذى لم يبلغ الثالثة وعشرين عاما. ماذا حدث لى؟ ماهى جنايتى وجرمى لأصل إلى كل ما وصلت إليه الآن؟ أخرجنى من أفكارى التعيسة قائلا: "ولا يهمك كله حيتغير ويتبدل بس أنا مش عارف إيه اللى خلاك تبكى بالشكل ده أكيد فيه حاجه حصلت؟ قهر نفسى.. حاجة من النوع ده.. بكاؤك بيقول كده.. ممكن تقولى وإلا سر؟

أخبرته بقصة ما حدث لنا فى الكاب بعد عودتنا واستقبال رجال المخابرات وقد اندفع الشاب هو الآخر فى بكاء حار وأنا أحاول تهدئته دون جدوى وتكلم ويهذى ولكن ما عرفته من بعض ما قال: ليه إحنا بنعمل فى بعضنا كده؟ والله حرام.. ده شكل وإلا منظر بهدلة وشتيمة وضرب.. الله ينتقم منهم وقد هدأت نفسى بسرعة وانقطع تدفق الدموع بعد أن كاد الشاب ينهار هو الآخر ويلحق بى. اعتذر عما بدر منه قائلاً: لكن غصب عنى أعمل إيه ماهى حاجه تفرس وتجنن».

وصلنا إلى المبرة واستقبلنا البعض فلاحظوا دموع عيوننا نحن الاثنين فهدأوا من روعنا مؤكدين لنا بأننا سنقوم بمعركة وننتصر فيها.. ودعنى صديقى المجهول أو الملاك المجهول صاحب المروءة والأريحية والذى قلل من تأثير بركان الضيق الذى جثم على صدرى منذ وصولنا إلى الضفة الغربية لقناة السويس.

اتجهت إلى داخل المبرة وهناك قابلنى طاقم من الأطباء والمرضين فاحصين حالتى وقد هالهم ما أنا عليه سواء من الإصابة السابقة بيدى اليمنى أو الإصابات التى حدثت عصر هذا اليوم وكان يغلب عليها التسلخات سواء فى الوجه أو الجسد والكدمات التى بالوجه من آثار اللكمات التى تعرضت لها مع جنودى أما جسدى فكانت به الكثير من الكدمات من الشلاليت التى حصلنا عليها من مساعدى ضابط المخابرات.

طلب الطبيب مشاهدة قدمى فأخبرته أننى منذ شهر لم أخلع حذائى ولم أغير جوربى ولم أستحم ولكنه لم يبال بكل ما قلته له، لسوء الحظ لم أستطع خلع حذائى أو الخروج أنا منه !!!.. طلب من أحد مساعديه قص الحذاء بالمقص وقد علمت بعد ذلك بأن لهم تجارب سابقة بخصوص ذلك وفعلا قص المساعد جلد الحذاء وقد ظهر جوربى بلا لون ورائحته تزكم الأنوف ولكن الشىء اللافت أن قدمى كانت منتفخة، قص الشراب أيضا وعندما شاهدت قدمى تملكنى الخوف فلقد أصبحت مثل المرضى بداء الفيل كانت ضخمة وتهتز إذا تحركت كأنها بالونة ممتلئة بالمياه. أخبرنى الطبيب بأنه سيقوم بعمل فتحة فى كل قدم لإخراج المياه التى بها من عناء السير لمسافة ولفترة طويلة.

قطع فتحة فى باطن قدمى لم أشعر بها ولكنى شعرت والمياه تصفى فى حوض صغير معد لذلك، كانت آلاما شديدة كأنها شطة حامية ألقيت بداخل قدمى وقد اخبرنى بدون أن أشتكى بأننى سوف أشعر بـ.. كذا.. وكذا.. وهذا شىء طبيعى وسيزول بعد ساعة.

أخبرنى الطبيب بأنه سيفحصنى بعد أن أحصل على حمامى وهنا تسلمنى أحد رجاله بالمبرة وتوجهنا إلى حجرة المهمات فتسلمت أفرولاً جديداً وفوطة وجه وغيار داخلى وصابونة وجه وشراب وحذاء كاوتش. كل تلك الأصناف ذات الأحجام الكبيرة والتى لا تناسب مقاسى ولكنها أحسن مما أنا عليه.

صعد بى المرافق إلى حجرة كبيرة بها بعض الضباط الذين إذا شاهدتهم تشعر للوهلة الأولى بحالتهم من العيون الزائغة والحركات العصبية من حين

لآخر، أشار لى المرافق قائلا هذا سريرك وحضر نوبتجى العنبر ليخبره بأن الضابط "أسامه الصادق" منذ الآن يصرف له كل شىء أسوة بزملائه وأن هذا السرير خصص له وودعنى بينما اصطحبنى النوبتجى إلى الحمامات تاركا لى الاستحمام براحتى وطالبا منى خلع ملابسى المتسخة ووضعها فى هذا البرميل وأشار إلى برميل صاج موضوعا فى منطقة الحمامات.

أنا بداخل الحمام لأحصل على أول حمام لى منذ شهر ونصف الشهر تخلصت من ملابسى الرثة التى وصفها طويل اللسان ضابط المخابرات «بالجلة» تخلصت من ملابس الجلة وفتحت الدش وأنا غير مصدق لما أنا فيه والمياه تندفع فوق رأسى وتحيط بجسدى وأنا مازلت فى حلمى الكبير وأقول هل عُدت وقابلت هؤلاء القوم؟ هل تناولت مشروب المانجو الساحر وأكلت آيس كريم؟ هل أنا هنا وأحصل على حمامى وسأبدل ملابسى التى لم تعد قذرة فقط ولكنها أصبحت شيئا آخر؟ كنت متخوفا بأن يكون هذا حلما مثل ما حدث لى فى اليوم الخامس وهجوم أسراب الغربان على جسدى فى محاولة لافتراسى وأنا ما زلت حيا.

مررت بالصابونة على جسدى وأنا أشعر بأن جواليص طين وقاذورات تندفع إلى البلاعة وأقول فى نفسى ستسد البلاعة مما علق بى من قاذورات كان يجب على أن أقف بحديقة المبرة وأن يحضر الجناينى بخرطوم المياه ويرشنى به حتى أتخلص من تلك الشوائب العالقة.

انتهيت من حمامى وجففت جسدى واستبدلت ما كنت أرتديه بملابس جديدة. صحيح أن الملابس الداخلية فضفاضة وواسعة لكنها نظيفة ولبست الأفرول برائحته المميزة للقماش الجديد حيث تكون كرائحة النشا. ألقيت بكل أوساخى فى هذا البرميل واحتفظت برتبتى العسكرية القماش رغم قذارتها. اتجهت إلى الحجرة الكبيرة ومنها إلى السرير جالسا فوقه مستندا بظهرى ناظرا أمامى ومن حين لآخر أنظر إلى جيرانى الذين ينظرون إلى وكأننى شىء غريب عليهم. السكون مُطبق على الجميع لا حديث ولا ضحكات.

حضر مندوب المبرة ليخبرنى أن الطبيب فى انتظارى. ساعدنى المندوب فى الهبوط للدور الأسفل حيث كنت غير قادر على السير الطبيعى مثل باقى الناس لما ألم بقدمى من فتحات فى باطنها. استقبلنى الطبيب مرحبا وأعاد الكشف على جسدى بالكامل وعالج جروح يدى وكدمات ظهرى ووجهى ولكنه أخبرنى بأن التسلخات وآثار اللكمات ستظل باقية لعدة أيام وستُمحى بمرور الوقت، طلب منى نزع ملابس الجزء العلوى، فعلت هذا وتفحص جسدى وكان فى دهشة ثم طلب من مساعده عمل أشعة لى ووزننى على الميزان، سمعت المساعد وأنا أقف فوق الميزان يحدث الطبيب ٣٤كيلو ٨٠٠ جرام. نظر إلى الطبيب وقادنى جهة المرآة متسائلاً: إزاى أنت عايش لحد دلوقت.. دا العضم والجلد يدوب ده وزنهم، أنا فى دهشة طلب منى النظر فى المرآة لم أكن أتوقع بأن تلك حالتى، جميع العظام واضحة تغطيها كساء من الجلد، عظام القفص الصدرى واضحة ويمكن لأى شخص أن يقوم بعدها، الكوع والركبة عبارة عن كورة من العظم مغطاة بالجلد، حزنت لحالى ولم أكن أشعر بأننى وصلت إلى تلك الحالة الصحية المتأخرة.

وجهنى بعد هذا لطبيب الأسنان الذى فحصنى وأزال بعض الجير المتراكم على أسنانى وضروسى من جراء الحرمان من الطعام فترات طويلة ثم طلب من أحد مساعديه مساعدتى فى العودة إلى سريرى. جلست على سريرى وحضر مندوب الطعام ليقدم لكل سرير صينية وعليها بعض السندوتشات من المربى والجبن والزيادى وكوب شاى مُحلى باللبن.

حضر المسئول عن العنبر ليخبرنا بأن الوقت قارب من العاشرة وعلينا الانتهاء من الطعام حيث ستطفأ الأضواء فى العاشرة حسب التعليمات. أتناول طعامى دون شهية فكل شىء غريب على سواء نوعية الطعام أو نظافتى الشخصية أو السرير المريح الذى أنام عليه، كلها أمور مخالفة لما عشت عليه فى ايامى السابقة كما أن المحيطين بى أدخلوا الخوف والرعب إلى قلبى من نظرات عيونهم الزائغة.

أثناء تناول الطعام سار أحد الضباط بين "الأسرة" مرتديا بيجامة مثل الباقى بخلافى مستفسرا من كل واحد عن اسمه ورتبته وهو غير مسئول عن

ذلك بل هو نزيل مثل الباقى. جاء الدور على. وحينما علم بأننى ملازم رفع صوته مناديا مندوب العنبر وجاء الرجل مسرعا وتوترت أعصابى ولا أعلم سببًا فى هذا وأشار إلى المندوب قائلا له:

إزاى يا مغفل تجيبوا زبالة «يشير إلى» زى ده وتخلوه ينام معانا، أسرع المندوب ليخبره بأننى استحممت وغيرت ملابسى، عاد وقال كل الموجودين هنا ضباط كبار رائد فأعلى تقوم تجيبو المفعوص ده ويبقى رأسه برأسنا. هزلت وبقت ميغه.. خده بره من هنا.. وقف المندوب وهو شخص مدنى ينظر إلى وأنا أنظر إليه وإلى المجنون الذى يتحدث وقد أيده بعض زملائه وكان أحدهم أقل اندفاعا فقال"مش معقول كده.. ظابط صغير زى ده تشوفوا له حته تانية.. ونظر لزملائه مستفسرا.. مش كلنا رائد فأعلى. أشاهد من يزوم مؤيدا وآخرين يهزون برأسهم دلالة على الموافقة.

تحير المندوب ويعيد حديثه: دى أوامر وتعليمات الحاكم العسكرى كل الظباط فى المبرة وماقلش حاجة عن حكاية الرتب. أعمل إيه دلوقتى؟ يصيح هذا المجذوب: اتصرف مش ممكن يبيت هنا.. هأ.هأ.. خلاص. عيلت. كنت أسمع وأشاهد وأنا مازلت جالسا والسندوتش فى يدى ولقمة واحدة قضمتها فى فمى وقد توقفت عن المضغ والتصرف منتظرًا ما يقرره هؤلاء القوم فى شأنى وعقلى تائه ولا أعرف إيه حكاية الظابط الصغير اللى عامله دوشة وألم مع كل من أقابله منذ لقائى فى بداية الانسحاب عند جبل لبنى حتى الآن حتى الصول عبد الراضى رحمه الله استكبر على شخصى الضعيف أن أقود الجنود فى بداية انسحابنا وعين نفسه قائدا أعلى لمجموعة المنسحبين المنهزمين. صرخ الرجل مشيرا إلىّ «أنا ومندوب العنبر» أنتم لسه قاعدين قوم فز أنت وهوه.

فجأة سمعنا صوتا قويا مثل الانفجار، هنا صرخ من بالعنبر جميعا قائلين غارة وارتموا تحت الأسرة يرتجفون صارخين من طائرات العدو، وجدت نفسى وحيدا فى العنبر ومازلت جالسا فوق سريرى ولم أتحرك لسبب لا أعلمه، ولكن لاحتمال المهاترة التى حدثت أمامى وبخصوصى أو أن حكاية الغارة لم تكن شيئا جديدا على شخصيا، تنبهت لما أنا فيه وهم جميعا مختبئون تحت الأسرة وكلهم

أرفع منى منزلة ورتبة كما يتوهمون وكيف لا أتصرف مثلهم فهم أصحاب العلم والخبرة وأبناء الملائكة أما أمثالى الذى خلقه الله لكى يشعر كل من يقابله بأنه شيء تافه فلا قيمة له، تركت ما فى يدى وأنا أنظر للمندوب الذى كان ينظر أن الحق بموقعى تحت السرير أسوة بهم والرجل مبتسم مشيراً إلى عقله بما يعنى أنهم مساكين. صاح المندوب قائلاً :

انتهت الغاره.. ترك القادة الانبطاح أسفل الأسرة وعادوا إلى مواقعهم

علمنا بعد هذا أن صوت الانفجار الذى اعتقد الجميع بأنه غارة جوية إنما ناتج من ارتطام البرميل الصاج الذى يحوى المهملات من ملابسنا القذرة وبعد أن فرغه عامل النظافة وأعاده إلى مكانه لم يضعه برفق على أرضية الحمامات ولكنه سقط منه أرضا فأحدث ذلك الصوت المدوى الذى أخاف القادة الكبار. عاد إلى القائد الرافض لوجودى وهو يصدر لى أمرا. اخرج بره العنبر.. فاهم.. تدخل أحدهم قائلاً : نرفق بحاله ونتركه ينام فى البلكونة وقد استحسن الباقون هذا الحل ولهذا حملت بطانيتى وأغراضى وطعامى وذهبت إلى البلكونة لأكمل نوم العراء لليوم التاسع والعشرين حتى وأنا فى بلدى وبين أهلى يحرمنى من هم أكبر منى رتبة من هذا الحق الطبيعى.

هذه المرة لم أحزن أو أتضايق فقد رأيت بعينى وشاهدت ماهم عليه. صحيح أن حالتى الصحية مؤلمة ولكن عقلى واتزانى مازال سليما أما هم فلا حول ولا قوة. جلست ليلتى مسهدا وأنا أشاهد أضواء النجوم ومن حين لآخر تهب على رأسى نسائم البحر تدغدغ حواسى ولكن الشيء الذى كان يؤلمنى هو الهرش فقد تخلصت من أشياء لصيقة بجسدى تعودت عليها ليل نهار والآن أصبحت غير موجودة. أين القاذورات الشخصية التى كانت عالقة بنا طوال تلك الفترة وعرقنا الغزير الذى ترسب فى ملابسنا وأصبحنا مثل الأغنام التى تشم رائحتها النفاذة ولا تتضايق منها وعندما يقصون أصوافها تنتابها لعدة أيام حالات من الضيق تحاول تعويضها بأن تنام مكان إخراجها حتى تعود رائحتها السابقة إليها بأقصى سرعة.

غالب النوم جفونى بعض الأوقات ولكننى كنت أستيقظ علىٰ أصوات عالية تطالب بالماء ويسرع المشرفون على العنبر بإحضار أكواب من الماء ويضع كل من المصابين الكوب على الأرض بجوار سريره وقد استيقظ أحدهم يريد شرب الماء ونسى أنه وضع كوبه فى الجهة اليمنى ومد يده للجهة اليسار ليشرب ولكن صاحب الكوب على اليسار تشاجر معه وقام زملاؤه المصابون من نومهم مذعورين ليحكموا بينهم وهذا مؤيد لهذا وهذا معارض لذلك وأنا اسمع وأشاهد من بلكونة الحجرة ضاحكا ومتألما فى نفس الوقت.

شعرت ببرودة شديدة قبيل الفجر وتلصصت واسترقت النظر إلى موضع سريرى الذى غادرته راغباً فى العودة إليه ولكن ما شاهدته من حالة القاطنين بالحجرة يدل على أنهم على استعداد أن يفعلوا أى شىء فهم كما يصفهم القانون "ناقصو الأهلية" وهو ما يحرم الإنسان من صحة التصرف فى ممتلكاته ويطلقون عليه اسما آخر"الصبى غير المميز" وهو الأصغر من سبع سنوات. كانوا رجالا كبار الحجم ولكن عقولهم كانت فى جهات أخرى بسبب ما أصابهم من الحرب ومن النتائج المخالفة لما كان قد رسخ بعقولهم من القيادات. فهم الأقرب إلى القيادات العليا عن شخص فى رتبتى الصغيرة.. لكن الشىء الذى ترسب فى ذهنى منذ مقابلة العميدين "جلال وحلمى" ثم شيخ العرب الذى كان يحتفظ برتب كثيرة ولم يعرض على تلك الخدمة مؤكدا أن التعليمات تأتيه بذلك ثم مقابلة رجال المخابرات الحربية وهنا بالمبرة.. أيقنت أنه لا مكان لمثلى بين تلك القيادات الكبيرة ويجب على أن أعد نفسى لهذا.. وما الذى يجب أن أعد نفسى عليه.. إنك يا أسامة وأمثالك «لا شىء».. كمالة عدد مثلك مثل الجنود ويجب أن أقترب منهم فهم مثل حالى و ما أختلف عنهم فيه هو أننى أضع رتبة على كتفى ويطلقون على شخصى الضابط وأحمل مسئولية لا يحملها الجندى.. لكن هم أنا.. وأنا هم.

ليلا شعرت برغبة فى التبول ولكن أين؟.. لقد أغلق أحدهم على باب البلكونة الزجاجى لشعورهم بالبرد، تحاملت على نفسى بصعوبة بالغة حتى الصباح، فى الصباح أيقظنى مسئول العنبر مندهشا كيف أنام هكذا ومن أصدر

لى تلك الأوامر؟ فأخبرته بما حدث وقد حزن الرجل لهذا «ووبخنى» على انصياعى لهذه التعليمات بينما كان يجب على أن أخبرهم وأعرفهم بما طلبه منى زملائى فى هذا العنبر. حتى الرجل المدنى ويخنى على القهر الذى حدث لى.. وقد أخبرته بأنهم ليسوا زملائى فأنا أقل منهم درجات وقد شعر بأنه أساء لى بدون قصد فاعتذر وسألنى إن رغبت فى إيصال الأمر إلى المسئولين أضحكنى هذا وقلت: ليس على المريض حرج.. وقد راقه هذا التعليق شاكراً تسامحى وهذا ليس تسامحا منى ولكن ما باليد حيلة فلقد شعرت بالقهر منذ اليوم الأول للانسحاب.

اصطحبنى إلى الدور الأرضى لتناول طعام الإفطار فقد تأخرت عن موعده وهم هناك منذ أكثر من ساعة يتناولون طعامهم. يكمل حديثه: بعد الإفطار عليك التوجه للحلاق. سرت معه وهناك فى المطعم أراد الرافضون لى التحدث واعتراض وجودى ولكنه كان حاسما أمامهم قائلا سيادة المحافظ موجود وحاعرفه باللى عملتوه امبارح مع الظابط الصغير ده.. فاهمين ؟ صمتوا جميعا خوفا من محافظ بورسعيد والذين يعلمون عنه الكثير عندما كان قائدا للبعض منهم. تناولت طعام إفطارى وذهبت للحلاق وأنا أعد الساعات والدقائق لأهرب من هؤلاء القوم الكارهين لوجودى متمنين ألا أكون قد عدت لهم من سيناء. هذا ما راودنى وأعتقد أنه غير حقيقى ولكنه إيحاء نابع بأنه فى كل خطوة أشعر بأننى غير مرغوب فى شخصى. إنه لشىء صعب على النفس خاصة مع صغر السن وعدم الخبرة.

أسرعت إلى الحلاق.. كانوا مجموعة من الحلاقين وجاء حظى مع رجل كبير السن مثله مثل الآخرين وكأن حلاقى مصر وُضعوا جميعا فى قالب واحد فخرجوا منه على تلك الهيئة من الحكاوى والأحاديث الطويلة. الرجل يعتنى بشعرى عناية لم أعهدها من قبل فى حياتى السابقة ويسألنى أخلى القصة والفرقة. يمين وإلا شمال وأنا أريد منه الانتهاء حيث أجبرنى على أن أكون أسير محاضراته مايقرب من النصف ساعة محركا رأسى يمينا ويسارا كأنه يحرك دركسيون سيارة مستخدما القوة والعنف ويضع يده على رأسى وفى كل مكان

بدون مبالاة وأنا أصرخ من إصابات الأمس فيقدم اعتذاره ثم يعيدها وكأنه أعجب بصوتى ونغماتى وأنا أتأوه ألما.

اعتذر عن حلاقة ذقنى الخفيفة من الشعر لأن وجهى كله إصابات وتسلخات ولن يستطيع أن يقرب الموس منها ثم جاء بعطره غير المعروف وعندئذ أخبرته قائلاً: بصراحه يا أسطى أنا ما معاييش فلوس بلاش تكلف نفسك. توقف عن عمله وحديثه أيضا ثم ترك قفايا وغير وضعه ليقف أمامى قائلاً: بنبرة حزينة وكلها مشاعر صادقة. أنا يا بيه مُكلف بالشغل هنا.. ومش عايز فلوس لا سمح الله لكن تصدق بالله. أنا بأقص شعرك وأنا فاكر ابنى ممدوح. ربنا يجيبه بالسلامة.. أصله أتجند فى أول السنة وراح مع اللى راحوا الحرب وكل شعرة بأقصها منك باقول امتى يرجع ابنى من الحرب وأقص له شعره زيك.

بكى الرجل وجاء زملاؤه يحيطون به ويخبرونه بأن ابنه سيعود مثل هؤلاء الذين يعودون كل يوم.. ولكن الرجل ظل يبكى ورافقهم إلى مكان جلوسى قائلا لهم: بالذمة مش البيه ده شبه ابنى؟ يطيبون خاطره مؤيدين قوله.. يعود الرجل بعد أن جفف دموعه قائلا لى: شفت إزاى أنا حبيتك؟ أنت تعرف عمال أفكر وأقول فى نفسى إيه؟ أقول للبيه إللى قدامى لو ييجى يزورنى فى بورسعيد حتى لو كل كام شهر. يمكن المقسوم والقدر يحرمنى أشوف ابنى تانى وتكون أنت العوض. ربنا يخليك لأهلك ويفرحوا بيك زى ما أنا منتظر ابنى وبافكر أسعده وأشوفه عريس.

«نعيماً».. قالها ووقف أمامى ينظر إلى وسامتى وقيافتى ليتأكد من أننى على ما يرام وعلى أحسن ما يكون. اقترب منى هامسا قائلاً: قلت لى إنك مش معاك فلوس.. خد دول يا ابنى ولو سمحت إنك توافق أنى أقولك كده.. احتضنته وأنا أقاوم رغبة قوية للعودة للبكاء وقلت له ولا يهمك يا بابا.. أنا ابنك زى ممدوح وربنا يسهل ويرجع بالسلامة وأوعدك لو فيه وقت وظروفى سمحت حآجى بورسعيد وأشرب الشاى معاك وأزورك. احتضننى ثانية ومازال يمد يده لى ببعض فكة الجنيه «ربع جنيه وبعض العملات الفضية» شكرته فنظر إلى معاتبا.. يعنى عشان فقير مش عايز تسعدنى وتاخد الملاليم دول؟ أجبته أوعى تقول كده..

بس أنا حاستلم مرتب شهرين النهاردة «مايو ويونيو» وقبلته وسمعته وأنا أغادر المكان قائلاً: متنساشى.. اسمى «عليوة». اسأل عن الأسطى عليوة المزين دكانى جنب الشامى بتاع البسبوسة الكل عارفنى. . ودعنى وهو غارق فى سعادته وأنا غارق فى أحزانى لتلك المقابلة المؤثرة على أعصابى التى لم تعد تستطيع أن تتحمل ما أقابله من مواقف وأحداث.

تركت غرفة الحلاقة وفى بهو المبرة فوجئت بمحافظ بورسعيد أمامى والذى صافحنى متسائلاً عن أى مشاكل قابلتها وما يستطيع أن يقدمه لى من خدمات ثم توقف فجأة وطلب الطبيب الذى أسرع بالحضور موجها سؤاله إليه عن الإصابات التى فى وجهى وهنا تدخل مندوب الاتحاد الاشتراكى الذى كان برفقته هو وبعض معاونيه بأن قال له "ماهو ده يا أفندم الظابط بتاع أمبارح اللى بتوع المخابرات اتعدوا عليهم بالضرب وزى ما حضرتك شايف آثار عمايلهم.. توتر المحافظ لاعنا هؤلاء مستفسرا من مساعده العسكرى عما تم بخصوص هذا الموضوع والذى علم به بالأمس فأخبره المساعد بأن إدارة المخابرات استبدلته بآخر وأنه علم أن الإدارة سحبته إلى القاهرة تنفيذا لقراركم كحاكم عسكرى بإيقافه عن العمل لحين التحقيق معه.. أخرج الرجل أجندته الخاصة وكتب فيها بعض ملاحظاته ثم أخبر مساعده قائلا لو ما تابعتش الحكاية دية حتحصله.. فاهم يا سيادة العميد؟ هنا انتفض العميد مخبرا المحافظ بأن هذا الموضوع من أولويات اهتماماته.. أعاد الرجل اعتذاره لى وهنا تذكرت شيخ العرب الذى كان يحتفظ بعدد كبير من القادة لإعادتهم إلى مصر وما يطلبه من الإمدادات الغذائية.. فأخبرت به المحافظ.. فنظر المحافظ إلى سكرتير عام المحافظة مستفسرا منه عن هذا الموضوع وقد أخبره بأنه أرسل بعدد من اللنشات إلى منطقتهم منذ ثلاثة أيام. نظر إلى المحافظ متسائلا عن موعد لقائى بهؤلاء البدو وقد أخبرته أن هذا من عشرة أيام أو يزيد. هنا اطمأن المحافظ على أن الرجل وصله ما طلبه معيدا أوامره إلى مساعده بمتابعة تلك الإمدادات ثم ودعنى مصافحا لاستكمال جولته فى المبرة.

الساعة الواحدة تناولنا طعام الغذاء «سندوتشات خفيفة» وحضرت أتوبيسات لتقلنا إلى محطة القطار ليتجه بنا إلى القاهرة مع تخلف القادة الذين كانوا معى فى العنبر والذين رفضوا مجرد مبيتى تلك الليلة معهم وقد سألت مندوب العلاقات العامة عنهم وأجابنى بسخرية قائلا إنهم منذ أكثر من أسبوعين بهذا العنبر ويتذرعون بالمرض والجنون والطبيب لا يملك إلا أن يبقيهم حتى يستعيدوا حالتهم الصحية وأكمل حديثه قائلا «العملية كلها بكش».

ركبنا الأتوبيسات وحضر بعض عمال شركة بورسعيد للمنسوجات يقدمون هدايا تذكارية للمقاتلين العائدين من جبهة القتال وهى عبارة عن علم بورسعيد وعليه اسم الشركة مطرزاً بفن وبطريقة جميلة. سارت بنا الأتوبيسات وكنا نشاهد المحافظ يتابع أحوال الجنود والضباط أثناء وقوفه بالشارع ومعه بعض مساعديه.

فى محطة قطارات بورسعيد شاهدنا المحافظ بها وقد سبقنا الرجل إليها ليتأكد بنفسه من أن كل شىء على ما يرام.

تحرك بنا القطار الحربى من بورسعيد متجها إلى القاهرة وبعد أن ابتعد عن المدينة شاهدنا قناة السويس التى عبرناها من الشرق إلى الغرب وكل واحد فينا ينتظر اليوم الذى نعود فيه عابرين القناة من الغرب إلى الشرق، تُرى هل يأتى ذلك اليوم؟ إنها أمنية كل واحد منا، نشاهد سيناء من شباك القطار والبعض يدعو الله أن يعمى أبصار اليهود عنا لأن أى دبابة تستطيع بعدة قنابل أن تحولنا جميعا إلى قتلى وجرحى ولكن الله سلم ولم يحدث شىء وها نحن ندخل مدينة الإسماعيلية والتى كانت هادئة مع انتشار بعض الدبابات فى الشوارع مستغلة الأشجار للاختباء بها بعيدا عن أعين الطائرات المعادية.

انضم إلينا بعض العسكريين من الإسماعيلية وتحرك القطار إلى القاهرة مرورا بمدينة أبى صوير ثم القصاصين ثم التل الكبير ثم أبى حماد والزقازيق ومنيا القمح ثم بنها وها نحن على أبواب القاهرة فى حى شبرا بعد قليل وصل القطار إلى محطة مصر حوالى السابعة مساء وغادر الجميع القطار كل إلى

غايته وكانت غايتى هى إدارة المشاة فى العباسية فى باب (٢) وهو الشارع المؤدى إلى قيادة المنطقة العسكرية المركزية والذى يقع على مدخله الآن مبنى كهرباء الريف التابع لوزارة الكهرباء حاليا وكانت المنطقة فارغة بدون مبان سوى كلية الشرطة وكان هذا الشارع مخزنا للترام ومخيفًا ليلاً وبعده منطقة خلاء أو معسكرات حتى مستشفى الأمراض العقلية والباقى صحراء.

سلم نفسك لوحدتك فوراً

غادرت القطار الحربى ويجب أن يطلق عليه قطار الإهمال مع آلاف من الجنود والضباط إلى أين هم سائرون لا أعلم ولكنى أعلم جهتى وبغيتى.. وقفت فى ميدان رمسيس أنظر إلى هذا الفرعون الشامخ هذا الجد الكبير الذى أذاق الهكسوس مرارة الهزيمة فى معاركه على يد القائد العبقرى أحمس. أتفقد ملامحه وأقول فى نفسى يارب تمن علينا بواحد من أحفاده يعيد عظمة أجدادنا ويرفع الهوان الذى لحق بنا على أيدى هؤلاء الأعداء لله ولنا نحن العرب والمسلمين.

اقترب منى جندى شرطة عسكرية قائلاً: واقف هنا ليه يا دفعة؟ روح وحدتك عشان لو اتأخرت لحد بالليل حيتقبض عليك. شكرته منفذا التعليمات وكأنما شعر بأننى عائد لتوى من جبهة القتال لنزولى من القطار الحربى وما أنا عليه من هيئة تدل عليها إصابتى.

ابتعدت قليلا أفكر..كيف سأصل إلى ميدان العباسية. أنا لا أملك نقودا. ولا مليم كما كنا نقول فى ذلك الزمان الذى كانت العملة تبدأ بالمليم ولا نعرف أى شىء من العملات الكبيرة الآن وكانت أكبر عملة هى الورقة ذات العشرة جنيهات.

أما أكبر من هذا فلم تكن العملات قد استوت ونضجت لتصل إلى فئة العشرين والخمسين والمائة جنيه.. عبرت الطريق إلى الجهة الأخرى إلى شارع الفجالة حيث يسير به الترام متجها إلى العباسية وانا أقدح ذهنى ولم أعثر بعد على حل يعفينى من الخمسة مليمات ثمن نصف تذكرة من رمسيس إلى العباسية. ركبت الترام وبعد قليل جاء الكمسارى ووقف أمامى قائلاً: تذكرة يا دفعة. «لم أتعرض سابقا لمثل هذا الموقف فى حياتى».. بصوت خفيض ومبحوح مقتربا منه. مش معايا فلوس.. لم يمهلنى الرجل حيث صرخ فى وجهى.. الله يخرب بيوتكم جبتولنا النكسة وكمان جبتولنا الفقر!!!

انتبه البعض من الجالسين وقد شاهدوا جنديا ضعيف البنية وكل وجهه كدمات وجروح وقد تضايق أحدهم قائلاً: «إيه يا ريس بتزعق له كده ليه؟ ده غلبان مش شايف حالته؟ متزعلشى يا ابنى. تذكرته عندى» أراد أن يقدم الرجل ثمن التذكرة وشعرت لحظتها بسعادة كبيرة بأننى تخلصت من هذا العبء ومن حديث الكمسارى السيئ ولكن الكمسارى شكره قائلاً «خلاص ولا يهمك يا دفعة خليك راكب ومتزعلشى منى أصل إحنا اتكوينا باللى حصل. صحيح أنت ذنبك إيه؟ لا حول الله على رأى المثل حالى يغنى عن سؤالى».

جلست أرضا لعدم مقدرتى على الوقوف ولكن البعض أفسح لى مكانا لأجلس فيه وتأثروا لما أنا عليه من عدم مقدرتى على السير وهم ينظرون إلى واحدهم يسألنى. ده من الحرب؟ ده من اليهود المجرمين أولاد الكلب؟ اللعنة عليهم وأخرج أحدهم حبة جوافة من كيس من الورق الأصفر من أكياس الأسمنت والتى كانت تعبأ بها الفواكه والخضراوات لتعطى للناس صلابة الأسمنت قائلاً لى: خد يا ابنى.. بل ريقك.. سعدت بها وكأنها عزومة عامرة قد هبطت على وشكرته وقضمت الحبة فى قضمتين وأراد الرجل أن يكررها بواحدة أخرى ولكننى شكرته وقال أحدهم الدفعة جعان يا ولداه. ثم أعقبها بكلمة «ربنا معاكم يعملها الكبار ويقع فيها الصغار بتوع أول أمبارح السلام عليكم»، غادر الترام وهو يرثى لحالى وبعد قليل فرغ الترام من راكبيه ووصل إلى محطته النهائية وجاء الكمسارى

ليخبرنى بأننا آخر الخط مقدما اعتذاره لى مرة أخرى وممسكا بيدى لمساعدتى على النزول من الترام إلى الأرض.

الحمد لله.. قلتها وأنا سعيد فها أنا قد عبرت محنة ركوب الترام بقليل من الألم النفسى ولقد تعودت على الإهانات ونحن فى سيناء. سرت متجها إلى باب ثلاثة والذى يبعد حوالى خمسمائة متر عن ميدان العباسية وأنا أمنى نفسى بلقاء ممتع ونومة هانئة تسبقها وجبة دسمة تعيد إلى جزءاً من قوتى وعافيتى التى تهاوت خلال تلك الرحلة التى اقتضت شهرا أليما. إننى ذاهب لبيتى الكبير.. إدارة سلاح المشاة.. بعد مجهود مُضن بالسير بعض الوقت والجلوس على الرصيف بعض الوقت للحصول على راحة من آلام قدمى التى مازالت تخرج منها بعض المياه منذ الأمس وكأن جرحا غائرا أسير عليه حتى وصلت إلى باب ثلاثة والذى يغلفه الصمت والظلام. تحيرت وأنا أقف أمام الإدارة وكيف أدخل إلى هذا المبنى الضخم العتيق وإذا بأحد جنود الحراسة يحضر قائلاً: أيوه يا دفعة.. مالك.. عايز إيه دلوقتى؟ جلست أرضا أستريح لأحصل على بعض الراحة وأخبرته برتبتى وهنا احترمنى الجندى قليلا مما أدخل البهجة إلى قلبى وقلت فى نفسى أخيراً ستحترم «يا أسامة».

أخبرت الجندى بالغرض الذى حضرت من أجله فأفادنى بأن أعود فى الصباح لأن جميع الضباط غير متواجدين، تهاوت كل قلاع الأمن والسعادة.. إلى أين أتجه الآن؟.. لقد قابلت ما قابلت من أجل أن أحضر إلى هذا المكان وأخيرا لا أجد أحدا هنا.. سألته بصوت هامس مافيش مكان أبيت فيه للصبح؟ هز الجندى رأسه بأنه لا توجد أماكن هنا. سألته وميس المشاة والذى أسمع أنه فندق "فقير" مخصص للضباط. أخبرنى أنه حُول لأشياء أخرى تخص الحرب. أسأله: إلى أين أتجه الآن وأنا من خارج القاهرة وجوعان وليس معى أى مليم. سكت الجندى ثم قال الجوع ممكن أديلك تعيينى لكن غير كده ما أقدرشى. شكرته عائداً إلى ميدان العباسية لعل الله يرزقنى من عنده.

حادثت نفسى التى هى طوعى وتسمعنى وتريحنى وتطيب خاطرى، الحمد لله أن فيه هوا وميه.. وصلت بعد جهد إلى ميدان العباسية والذى كان شبه فارغ إلا

من سيارة تسير كل عدة دقائق فقد اختفى البشر رغم ليالى الصيف بالقاهرة.. إلى أين أتجه؟.. سألت أحد المارة عن الساعة فأخبرنى بأنها قاربت على الحادية عشرة ثم أشار إلى قائلاً: استخبى عساكر البوليس الحربى بيمسكوا كل العساكر اللى زيك. سعدت بهذا الخبر فسوف أجد طعاما ومأوى لى حتى الصباح ولكن جنود الشرطة العسكرية أبوا أن يلقوا القبض علىّ وخاصة أنهم يسيرون بجوارى وأتعمد أن ألفت نظرهم دون جدوى وقد قررت أن أهاجمهم. اثنان يمران أمامى مباشرة. أتجه إليهما. مساء الخير: أحدهما يجيب مساء الخير يا دفعة. أحدثهما قائلا: والله أنا متأخر عن وحدتى وعايز منكم تقبضوا على لحد ما تسلمونى. نظر إلىّ أحدهما قائلاً : أنت عسكرى فى الجيش؟ أجبته أيوه أمال. أجاب الآخر اركن هنا لحد الصبح لأن كل الأماكن مليانة عساكر ومافيش أماكن تانية. زميله ضاحكا خليك «كنجى» ومعناها فى الخدمة العسكرية الدور الثانى.

كنت شاعراً بالخوف والرهبة من الناس فما حدث لى بالأمس فى منطقة الكاب والاعتداء علينا واليوم من حديث كمسارى الترام دفع بى إلى الابتعاد عنهما لشعورى بأنى مطارد ومكروه من الجميع وإذا احتجت إلى شرب المياه لا أتجه إلى المحلات التجارية أو القهاوى لهذا الغرض بل كان أمامى موقف أتوبيسات هيئة النقل العام فشاهدت برميل صاج يملأ بالماء لتزود به الأتوبيسات لملء أوعية التبريد فكنت أتجه لهذا البرميل لأشرب منه واضعاً كف يدى اليسرى وألعق الماء رغم قذارتها ورائحة الجاز وزيوت الأتوبيسات عالقة بها.

تركتهم حزينا، حتى الشرطة العسكرية رافضة إلقاء القبض على. توجهت إلى مبنى المؤسسة الاقتصادية للقوات المسلحة وكان وقتها مبنى قديمًا متهالكًا وجلست على سلمه ليلا فى الظلام لأغفو حتى يحين الصباح وأنسى الجوع ثم أذهب إلى إدارة المشاة. ركنت رأسى على الحائط ورحت فى نوم عميق رغم شعورى الشديد بالجوع. استيقظت على صوت غليظ وشىء ما يدفعنى فى كتفى. فتحت عينى فشاهدت شابا ممسكا بمطواة «قرن غزال» ويصرخ فى وجهى قائلاً: طلع ياد يابن الكلب اللى معاك لادبحك. كنت أعتقد أنهم جنود إسرائيليون وهجموا علينا بين النخيل فرفعت يدى صامتا(علامة الاستسلام).. صرخ ثانية..

إيه ياله الملعوب اللى بتعمله معايا. أنت فاكرنى من بتوع السيما. لم يمهلنى حيث فتش كل جيوبى وقال يخرب بيت أهلك. دا أنت عسكرى «مقشفر» ولكننى أقسمت له بالله أننى نظيف ولست «مقشف» ضحك منى وقال طيب اقعد. بتعمل إيه هنا ياله؟ أخبرته بأننى ذهبت إلى وحدتى وعلمت أنهم سافروا وقال لى الضابط تعال الصبح وأنا غريب. يجيبنى وأنت غريب كمان؟ أجبته أى والله غريب ومن الساعة واحدة مكلتش حاجة وجعان. يحدثنى بصوته الخشن: وله"ولد".. هو أنا خلفتك ونسيتك ومالك وشك متشلفط كده ليه ومنظرك يخوف؟ تركنى سائرا وفوجئ بشاب أنيق يغادر سيارته فأخرج المطواة وطلب منه جنيه وأنا سعيد بأنه ابتعد عنى وعثر على فريسة أخرى. أخذ الجنيه من الشاب ونظر إلىّ قائلا جنيه لحلوح بحاله.. يخرب بيت فقرك.

سار وابتعد عن ناظرى وبعد قليل شاهدته قادما فى اتجاهى مرة ثانية فأردت أن أترك المكان وأهرب وأختبئ خلف صناديق القمامة المجاورة خوفا منه فقال: خليك فى مكانك.. مش بأقولك وش فقر.. توقفت وشعرت لحظتها أن مصر وسيناء كلها كارهة لى وتطاردنى وغلبنى اليأس ووقفت أنتظر قدومه وأنا لا أعلم كيف أتصرف فكل شىء ضدى حتى بوضعى هذا وأنا أقرب إلى القطط الهائمة بجوار أكوام القمامة لا أجد قلبا رحيما يأخذ بيدى. جلست ثانية لأنتظر ما يخبئه لى القدر.

وضع لفافة أمامى قائلاً: "كل" سألته ما هذا ؟ أجابنى مش بتقول جعان ولضيان.. اتصرفت وخدت من الواد الخنفس جنيه ورحت جيبتلك سندوتشين كفته ب- تمانين قرش وباقى عشرين قرش.. كل.. كل.. (يهزنى فى كتفى صائحا) كل ياد مالك خايف كده ليه.. خليك شجيع!!! ثم قال : خمسة وأرجع بكوبيتين شاى توزن دماغك.. غادرنى وأنا متخوف.. هل آكل ما أحضره من مال حرام أم أنتظر لباكر؟ لم أستطع الصمود أمام رائحة الكفتة وحالة الجوع التى أنا عليها، كنت ألتهم السندوتشات مثل القطط الجائعة التى تحاول التهام أكبر كمية من الطعام وتزوم لتخيف الآخرين.. أنا الآخر.. كنت ألهث وأنا أتناول تلك السندوتشات، عاد صديقى اللص حاملا كوبين من الشاى ونظر إلى قائلاً: يخرب

عقلك لحقت تاكل السندوتشات ثم صرخ : إيه ياد أكلت حته من الورقة الملفوف بيها السندوتش.. ياه دا أنت باين عليك الغلب.. دا أنا اللي بيت فى الشارع أحسن منك على كده.. أجبته فعلا أنت أحسن منى.. تناولنا الشاى وأخرج علبة سجائر كليوباترا من الحجم الصغير ومطبقة وحالتها رثة.. فسألته : ليه أنت مبهدل العلبة كده ومخبيها فى شرابك؟ فأخبرنى بأنه لم يفعل هذا ولكن الزبون اللى لطشها منه كانت مدفوسة فى هدومه ومطبقها «وأصله لمؤاخذه كان نتن ومعفن والمية مخاصمه جتته» وأعقبها بضحكة عنترية.. إذًا السجائر انضمت إلى السندوتشات والشاى وكله فلوس حرام.. أحدث نفسى أخيرا يا أسامة بعد ما ربنا أنقذك أكلت حرام.. ثم عدت إلى رشدى حرام وإلا حلال يعنى أسوأ من حالتى اللى أنا فيها الآن.. ياه على الظلم والألم اللى الواحد بيقابله حتى فى بلده.. ليه كله صعب فى صعب.

فجأة توقفت أمامنا سيارة شرطة "بوكس" ونزل منها شاويش ومعه جنديان والشاب الذى سطى عليه صديقى اللص وأشار قائلا: هما دول الحرامية يا حضرة الصول.. أمسك بنا الجنديان ولا أعرف كيف وجدت نفسى لاصقا فى ظهر كابينة البوكس بعد أن طرت فى الهواء من دفعة أحدهم لى والدماء تندفع من فمى وأنفى حيث من شدة دفعة المخبر لى ارتطم وجهى بكابينة السيارة.. عادت بنا السيارة إلى القسم «قسم الوايلى».. غادرنا البوكس إلى مكتب الضابط النويتجى والمخبر ممسك بياقة الأفرول لا أعرف كيف عصرها فى يده حتى شعرت بالاختناق رغم أنه أفرول فضفاض وكنت أشمر البنطلون والأكمام حتى أستطيع السير.. استقبلنا المساعد (الصول) كبير الحجم غليظ القول والذى أخرج كل قواميس رجال الشرطة من البذاءات على صديقى اللص.. ثم اتجه إلى قائلاً: ما أنت يا ابن الرفضى «وقد أضحكنى هذا التعبير رغم ما أنا فيه من حالتى حيث تذكرت الشاويش عطية فى فيلم ابن حميدو مع إسماعيل يس وأحمد رمزى» فتضايق قائلاً: بتضحك.. لك نفس تضحك.. أبشرك أن بكره حتيجى الشرطة العسكرية تستلمك.. ثم تحولك إلى النيابة العسكرية. سكت فتذكرت نفس الفيلم.. فقلت ثم.. أجاب ثم المحكمة العسكرية.. ثم الإعدام رميا

بالرصاص.. إحنا فى حرب وأنت عسكرى فى الجيش عامل تشكيل عصابى وبتسرق الناس بالإكراه مستخدما السلاح الأبيض ياجزمة يا ابن الجزمة.. نهار أبوك أسود ومطين على ليلتكم يا أولاد الأبالسة بقالنا أسبوعين ما فيش مشاكل ومستريحين.. الشياطين اتخمدت.

جاء جندى يطلب من حضرة الضابط النوباتجى إرسال المتهمين لرئيس المباحث.. انفرجت أسارير الشاويش عطية"جمعة القناوى" وهذا اسمه ومشهور بعم جناوى.. يالله ياولاد الأبالسة البيه رئيس المباحث سهرتكم معاه الليلة حنسمع التسقيف اللى على القفا للصبح.. دفعنا الجندى من رقابنا إلى مكتب رئيس المباحث ووقفنا أمام شاب فى الثلاثين أو يزيد يرتدى الملابس المدنية وتذكرت حادث الكاب واستقبال المخابرات لنا فأيقنت إننى هالك ولا بد من أن أفصح عن شخصيتى.. أشار الضابط إلى الجندى مستفسراً منه عن حالتى والدماء التى تملاء وجهى وفمى ثم طلب منه اصطحابى لكى أغسل وجهى من آثار الدماء.

عاد بى الجندى إلى رئيس المباحث فمهد الرجل لحديثه قائلا: عسكرى فى الجيش وبيسرق وأيام الحرب شفتم المصيبة قاطعته.. لو سمحت.. وأخرجت رتبتى العسكرية القماش من جيبى.. فنظر إليها قائلاً.. قتلت ضابط جيش وأخدت رتبة.. أجبته أنا الملازم أسامة الصادق وجئت اليوم من بورسعيد.."وقصصت رواياتى أمامه" ثم قال (وهو يشير إلى صديقى اللص) وأنت اسمك إيه.. فأجابه.. فوزى خضر.. سأله عن اسم الشهرة.. أجابه دبوس.. ضحك الرجل وقال يعنى عايز تعرفنى أنك سرقت علشان الضابط ده جعان.. كويس كده.

ينادى :عسكرى.. جاء الجندى فأمره بأن يأخذ دبوس"مشيرا إليه" خده لحجرة الضابط النوبتجى ومحدش يقرب له فاهم، أشار إلى بالجلوس.. ثم قال.. حمد لله بالسلامة.. أنا غير بعض ضباط الشرطة اللى واخدين موقف من الجيش لأن فكرى كبير وليس هناك تعارض بينا ولا منافسة ومش معقول النملة حتنافس الفيل الجيش حاجة كبيرة وإحنا هيئة شرطة وشغلنا فى داخل الجمهورية لكن شغلكم على الحدود ومع الدول، على فكرة أنا لى أخ زميلكم بس

هو كبير عنك وعنى.. أخويا الكبير فى سلاح المدرعات.. نظر إلى مكتبه ساهما قائلا: ربنا يرجعك بالسلامة يا وليم يا خويا.. سألته مندفعا.. قصدك وليم شفيق؟.. انتبه الرجل إلى سؤالى قائلا أيوه.. أنت تعرفه؟.. ماهو أنا عاطف شفيق.. شايف اسمى على المكتب.. لم أجبه ولكننى قلت له اقراله الفاتحة.. نظر إلى بضيق وذهول.. يعنى إيه؟.. تقصد إيه؟.. إنه مات.. أجبته.. مش باقصد.. هو مات فعلا بس قبل ما تنفعل حزنا وألما اسمع منى قصة استشهاده.

ياه.. قالها وهو يضرب يده على مكتبه قائلاً: تصور أول واحد مسلم اسمعه يقول على واحد مسيحى مات فى الحرب إنه استشهد.. طيب كمل وأنا أسمعك.. قصصت عليه ما حدث يوم أنقذنا أربعة من سلاح المدرعات كاد أن يقتلهم اليهود بدهسهم أحياء تحت جنازير دباباتهم كما حدث مع من قابلناهم قبل ذلك وبعد أن فككنا أسرهم عرفنا بنفسه وبزملائه.. رائد وليم شفيق قائد كـ(....) دبابات وملازم أول مصطفى خيرى قائد ثان سرية دبابات.. رقيب إبراهيم فتحى حكمدار دبابة ورقيب أول سعيد لطفى رقيب أول سرية دبابات.. ثم أكملت حديثى معه بأننى لاحظت أنه «دق وشم» على يده برمز الصليب وقد أيدنى شقيقه كما أخبرته بمواصفاته مذكراً إياه بأن لون الشعر والعيون العسلى يجمعهما.. عاد الرجل بكرسيه إلى الخلف دامع العين مردداً.. ياه يا وليم عملت كده؟.. دمرت تلات دبابات وأسقطت طيارة هليكوبتر ومات فى دول اربعتاشر واحد من أولاد الملاعين.. أنا فخور بيك.. أيدته فى هذا قائلا فى تلك الظروف يقام احتفال ولا يقام تأبين.. أجابنى.. كلامك مظبوط.. لو الوقت مش متأخر كنت كلمت «ماما» وبلغتها الخبر السعيد كمان كلمت «روز» مراته وعرفتها.. أنا مبسوط.. أنا سعيد وقام من مكتبه يقبلنى ويحتضننى بكل سعادة قائلاً: أنت النهاردة ضيفى.. صحيح الفقد مؤلم ولكن كل الناس حتموت.. لكن بصحيح أنت قلت لى اقرأ الفاتحة.. ممكن تقولها لأنى طبعا مش حافظها.. اعتذرت له بأننا كمسلمين نقول هذا القول فى مثل تلك الظروف.. نفى أن يكون متضايقًا أو حزينا ويعيد رغبته طالبا منى قراءة الفاتحة أمامه.. فعلت وكان يقرأ كل آية

خلفى وبعد أن انتهى.. قال أنا مش شايف أنها فيها حاجة تخوف أن أى واحد مسيحى يقولها تحوله لكافر وكمان كلها بتتكلم عن ربنا أو ما نسميه بالرب.

طلب الجندى الموجود على باب مكتبه أن يحضر له صاحب الشكوى.. حضر الشاب وأخبره الضابط برغبته لو وافق أن يعطيه الجنيه الذى سُرق منه فى مقابل أن يتنازل عن شكواه ولكن الشاب أخبره بأنه يريد معاقبة المجرمين وأيده الضابط مضيفاً بأن ما قام به المتهم من أجل السرقة كان لهذا الضابط الصغير العائد حاليا من جبهة القتال (يشير إلى) وهو جوعان فدفع بهذا اللص لأن يكون إنسانا ورحيما به وسرقك وأحضر له طعاما. تأثر الشاب قائلاً تنازلت عن المحضر وسوف اذهب إلى والدتى وأطلب منها إعداد طعام لأقدمه لهذا الجندى الجوعان والذى دفع بالخارج على القانون إلى أن يقف معه ويسانده. شكره الضابط على شعوره النبيل قائلا سأقوم أنا عنك بهذا العمل ويكفيك أنك تتنازل عن حقك. هنا حضر إلى الشاب مصافحاً معتذرا بأنه اخطأ الظن بى ويمن ساعدنى وترك القسم بعد أن تنازل عن المحضر وخرج "دبوس" من تلك المشكلة ووقف أمام الضابط وتعهد بأنه سيسلك طريقا شريفا ولن يضع نفسه مرة أخرى فى مثل تلك المواقف شارحا بأن ما تم الليلة هو درس له وقد وعاه وفهمه وأن هناك آلافًا من الشباب المصرى يموتون من أجلنا ونحن هنا نسرقهم ونهددهم.. ودعنى دبوس مصافحا ثم فوجئت به يقبلنى ويحتضننى وفعلت مثلما فعل بل كنت أكثر سعادة منه.

قام الضابط عاطف ناهضا وفتح حجرة جانبية قائلا ستنام فى سريرى حتى الصباح وأقوم بتوصيلك إلى إدارة المشاة.. أنت صديق وحبيب أخى وآخر من رآه وأخبرتنى بتلك الأخبار السعيدة المفرحة.. كنت أندهش وأنا أسمعه يتحدث هكذا وقد تنبه إلى ذلك وقال.. ألاحظ أنك مندهش لهذا الشعور الذى يملؤنى فرحا باستشهاد أخى.. بعد أن تنتهى حياتى ويختارنى الرب إلى جواره هل سأكون قدمت لوطنى مثل ما قام به وليم وزملاؤه.. أجبته بالنفى.. قال إذًا لى الحق أن أفرح.. كنت سأحزن لو مات بدون أن يفعل شيئا ولكنه قام بعمل مجيد وأنت وجنودك شاركتم فيه.. أجبته نافيا ذلك وبأنه ومن معه هم الذين قاموا بذلك.

ولكنه أشار بيده رافضا كلامى قائلاً: لو لم تنقذوا أخى وزملاءه فما الذى كان ينتظرهم من مصير؟ أجبته كانت الدبابة ستدهسهم. أجاب إذًا أنقذتموهم من دهس الدبابة لتعطوهم الفرصة لأن يكبدوا العدو تلك الخسائر التى هى ثأر لباقى المصريين الذين لاقوا حتفهم بدون أن يفعلوا شيئا.. أربعة شهداء أمام أربعة عشر وثلاث دبابات وطائرة.. لقد رقد بجوار يسوع والقديسين.. آه عليك يأخى وليم.. وطوبى لمن كان معهم.. صرخ فى الجندى طالبا منه أخذ السيارة والوصول إلى مطعم كذا (....) وإحضار وجبتين من الطعام وعدد الأصناف التى يرغب فيها وجميعها تحتوى" كبدة وكفتة والسلطات وبعض المياه الغازية".. أمضينا ليلتنا نتحدث ونأكل وحدثنى قائلاً: إن حياتى كلها جد فى جد وليست حياتى كما ترانى الآن هكذا ولكن ما حملته لى من أخبار أثلج صدرى وسوف يسعد عائلتى.

أخيرا بعد مرور شهر منذ انسحابى أقضى ليلة سعيدة سواء من استقبال شقيق الشهيد الذى أشعرنى بأننى وزملائى لا نقل بطولة وشجاعة عن شقيقه وزملائه كما أقام وليمة ممتعة كنت أتشوق إليها وأعتبرها دربًا من الخيال ونمت على سرير مريح بعد أن عانى جسدى الهزيل من آلام النوم بالعراء فى الصحراء وتحت تأثير الطقس المختلف الحرارة ليلا ونهارا.. استيقظت حوالى العاشرة حيث أخبرنى بأن موعد عمله انتهى وسيحضر زميل له ليتسلم مهامه وإنه الآن مستعد لتوصيلى إلى إدارة المشاة.. تناولنا طعام الإفطار وأخبرنى أنه كان يستعد لتناوله مع والدته ويخبرها بخبر مفرح وحزين فى آن واحد (فقد ابنها وشجاعته أمام الأعداء) ولكنه فضل أن يتناول إفطاره معى وكأى شخص مصرى يكون فخورا بأن يقضى أكبر فترة من وقته برفقة مقاتل جسور ساعد الآخرين وكان سببا رئيسيا فى قلب كفة الشهداء الأربعة من موت بدون عائد إلى موت بنصر يفرح كل إنسان وطنى غيور على بلده.. شعرت بأنه راغب بأن أتناول طعام إفطارى قبل أن أصل إلى إدارة المشاة حتى أكون قادرا على مواجهة هذا اليوم الجديد فى حياتى وكان مُحقا فى ذلك.

اتجهنا إلى إدارة المشاة وقبل أن أغادر سيارة الشرطة أخرج من جيبه ورقة مالية وأعطانى إياها، رفضت هذا ولكنه صمم وأخيرا بعد أن أقسم بروح الشهيد وليم أن أقبلها وتصبح ديناً على ومرفقا بها اسمه ورقم تليفونه لأسعدهم بزيارتهم ومقابلة الأسرة خاصة أمه التى ستكون فرحة بأن تقابل آخر من شاهد ابنها الشجاع. شكرته وتبادلنا القبلات والتحية وعاد إلى منزله مودعا لى بكل حب دافئ بين اثنين من المصريين جمعتهما ظروف صعبة وتصادقا على ذكرى عزيزة على كل إنسان وهى روح الشهيد البطل وزملائه.. وضعت الرتب القماش على كتفى وحيانى الجندى أمام الإدارة واتجهت إلى الداخل فقابلنى ضابط صف مستفسرا منى عن الخدمة المطلوبة وبإيجاز أخبرته بعودتى من سيناء أمس الأول.

طلب منى التوجه إلى مدير شئون ضباط السلاح الرائد/صلاح أبو سريع.. بعد السؤال توجهت إلى المكتب والذى يقف على بابه جندى وعلم أننى أريد مقابلة سيادة الرائد فطلب منى الانتظار ودخل إليه ثم عاد قائلا اتفضل يافندم سيادة الرائد فى انتظارك.

دخلت المكتب وشاهدت الرائد صلاح جالسا والذى استقبلنى بكل بشاشة وترحاب وهنأنى بسلامة العودة قائلاً: أيوه يا بطل همتك أنت وباقى رجالة مصر عشان نرد القلم اللى خدناه على خوانة.. حتسلم نفسك لوحدتك فوراً.. وقعت على كلمة فورا كصاعقة مؤلمة، تحاورت معه بقليل من الكلمات.. أفندم أنا من أكتر من شهر ونصف لم أقابل أهلى ولا يعلمون فى أى مكان أنا.. حى أرزق ؟ أو انتقلت إلى جوار ربى.. أريد بضعة أيام.. طقطق بفمه دليلا على أن هذا لا يجب مكملا حديثه عيب راجل يقول كده.. رن جرس التليفون وكان المتحدث ضابطا برتبة كبيرة وكان هذا باديا من اهتمام الرائد صلاح بالرد عليه واحترامه وهو يحادثه بلقب حاضر يافندم.. حضرتك تؤمر.. أيوه. وصلت من كام يوم.. عشرة أيام حمد الله على السلامة.. طيب أجهز جواب استلام العمل.. حضرتك بتقول امتى.. أسبوعين كمان.. حاضر عينيا.. تأمرنى.. طيب أبعت لحضرتك الجواب وإلا حد حبيبى يستلمه.. حاضر.. مع ألف سلامة.. مع السلامة.. وضع سماعة

التليفون وهو بادى السعادة كأنه سمع أغنية رائعة لأم كلثوم.. ثم تنبه إلى وجودي.. فصرخ قائلاً: أنت برضه لسه واقف.. روح على مكتب الصول رجب خليه يعملك جواب عودتك لوحدتك. .طلب الجندى الذى كان يقف على الباب قائلاً: روح مع حضرة الضابط للصول رجب وخليه يكتب جواب عودته لوحدته اليوم.. وحدته الكتيبة ٣٥٢ مشاه فى الشلوفة. . ثم أشار إلى بقلمه"ناهرا" روح مع العسكرى ورجب حيقوم بالواجب.. حاولت الاعتراض ولكنه أمرنى بصوت قاطع.. اتفضل انصراف يا حضرة الضابط.. أديت التحية العسكرية صاغراً متبعا الجندى المراسلة إلى مكتب الصول رجب.

لا أدرى كيف كنت أسير حيث كنت أهذى بداخلى خاصة بعد ما سمعته من الضابط الكبير الذى عاد من عشرة أيام ويريد أكثر منها حتى يستريح أما أنا فلابد من عودتى فورا وانصراف وإشارة بقلمه بطريقة باردة بعيدة عن الاحترام.. تمنيت من الله أن يقبض روحى ويخلصنى من هذا العذاب. .إهانة واحتقار والأهم الظلم البين.. غطت دموع الظلم عينىّ وتوقف صوتى وشعرت أن قلبى سيتوقف عن النبض. مازلت أتبع الجندى وأحدث نفسى بإشارات من يدى.

وقفت أمام الصول رجب.. حجرة قديمة مهملة بها الكثير من الأوراق يجلس على مكتب من الصفيح قديم ومتهالك وبجواره «شانون»حديدى لحفظ الأوراق أما رجب فهو ضخم الجثة وبدين للغاية ويرتدى أفرولا لا أعرف من أين أتى بهذا المقاس وأعتقد أنهم أفرولان وفتحهما على بعض حتى يتمكن من تغليف جسده الضخم كما وضع منديلاً أصفر «كاكى» من صرفية الجيش على رقبته لمنع تلوث الأفرول من العرق الغزير الذى يهطل من جسده السمين وبجواره على الجانب الأيمن فوق الشانون حلة ألمنيوم وبها «طبيخ» فاصوليا بيضاء وعدة أرغفة خبز "جراية" من المخصص للجيش لتقوية الأسنان والمعدة على هرس الطعام وتكوين جدار أسمنتى بجسم الجنود لما يضاف إليه من الشوائب خاصة الرمال.. وزمزمية مياه وعدد من حبات البصل الجاف.. تحدث بعد أن حصل على أنفاسه المتلاحقة والتى يأخذها بصعوبة. أيوه اتفضل استريح.. جلست على كرسى قديم

خشيت أن يسقط بى أرضا فساعدت على انتصاب الكرسى بقدميى.. أشار إلى الحلة قائلاً «بسم الله».. شكرته.. فقال:

حاضر حاكتب جواب تسليمك لوحدتك.. سألته.. ألا نحصل على إجازات؟ ضحك قائلاً: حتشبع إجازات فى وحدتك. أول ما توصل حتاخد كام يوم. آمال هما عارفين أنك راجع من سينا. على طول حتاخد أجازة حلوة وأبقى ادعيللى. ناولنى الخطاب وهو ممسك به وكل أصابعه معطرة وملونة من طبيخ الفاصوليا الذى يعشق أن يضع الخبز بداخل الحلة وأن تغوص أصابعه إلى عمقها لاحتمال البحث عن لحوم أو أسماك فى قاعها. قرأت الخطاب وسألته.. إيه؟.. «الشلوفة»؟ فنظر إلى قائلاً: ده مكان وحدتك بعد رجوعها من سينا. قلت أنا مش عارف الشلوفة؟ ضحك الرجل وبالتالى اهتز جسده الضخم فاهتز الشانون وحلة الفاصوليا. تحدث ضاحكا بسخرية ياه ظابط ومش عارف الشلوفة!! بكل ضيق وصوت مرتفع: أيوه مش عارف الشلوفة فين؟ أجرمت غلطت. حضر الرائد صلاح مسرعا على صوتى المرتفع مستفهما من المساعد الذى أراد أن يقف ترحيبا به فكادت مأدبة الطعام تسقط أرضا لولا أن الرائد طلب منه الاستمرار وعدم النهوض وعرف منه بأننى لا اعرف موقع الشلوفة. كان رجب يوضح للرائد صلاح هذا الجهل بعدم معرفتى للموقع بطريقة ساخرة ولكن الرائد صلاح كان حازما إذ قال له وإيه العيب فى كده؟ ضابط صغير ومرحش الأماكن دية نقوم نتريق عليه ونتكلم معاه بالشكل ده بدل ما نساعده. أخذ الخطاب منى قائلاً: اتبعنى يا أسامة.. تبعته إلى مكتبه فليس لى خيار وهناك أشار إلى خريطة على الحائط موضحا قناة السويس ومدينة السويس ثم منطقة الشلوفة وهى شمال السويس بعدة كيلومترات. وقع على الخطاب وزيله بخاتم النسر وأعطاه لى قائلاً على محطة كوبرى الليمون وتلحق بالقطر الحربى لحد السويس.. حيقوم بعد ساعه.. يالله يابطل ربنا معاك.

هكذا وجدت نفسى خارج إدارة المشاة ومعى خطاب بتسليم نفسى فى اليوم السابع من يوليو عام ١٩٦٧.. سرت فى الطريق المؤدى إلى ميدان العباسية وقد جاوزت الساعة الثانية عشرة ظهراً وشمس القاهرة ساطعة ملتهبة وأنا أسير

قليلاً وأجلس كثيراً.. توقفت سيارة مرسيدس بجوارى وهتف من بداخلها.. مالك يا ابنى.. تعبان؟ أجبت على الصوت الذى يحدثنى وكان صوتا نسائيا. أيوه تعبان مش قادر أمشى. أشارت إلى سائقها الذى نزل من السيارة وعاوننى على الركوب بجانبه.. سألتنى السيدة وكانت متقدمة فى العمر ويظهر على وجهها الصلاح والمستوى الراقى اجتماعيا. ده أنت ظابط! رايح فين نوصلك؟ أجبتها محطة كوبرى الليمون.. سألت السائق هل تعرف هذا المكان فأجاب بالإيجاب فأمرته بالتوجه إلى المكان المطلوب.. كنت أفكر هل أعرض على السيدة نقودا مقابل تلك التوصيلة.. وما هو المقابل.. سيارة مرسيدس ملاكى بسائق.. كانت السيدة تتحدث كل فترة ثم تصمت ثم اندفعت فى بكاء شديد والسائق يحاول تهدئتها.. ربنا يرجعه لنا بالسلامة.. ثم مال على وهو يحدثنى وقال: البيه ابن الهانم زميل لكم ظابط ملازم أول ولسه منعرفش حاجة عنه لحد دلوقتى.. وكل يوم نلف على المستشفيات ورحنا إدارة سلاح المدفعية ومافيش فايده.

تتحدث السيدة الأم والتى تخيلت وتذكرت أمى الآن وهى تسأل من تعرفهم وهى التى لا تملك سيارة ولا سائقًا وجليسة فى مدينتها بالزقازيق.. تسألنى متعرفش حاجة عن ابنى يمكن تكونوا تقابلتم سوا؟.. اسمه مدحت من المدفعية.. اعتذرت لها بأننى من سلاح آخر ولا أعرف عن المدفعية وأن سيناء كبيرة وأنا يا دوب وصلت من أول امبارح. تربت السيدة على كتفى وهى تقول حمدالله على سلامتك.. ياه أظن مامتك طارت من الفرح لما شافتك.. أخبرتها وأنا حزين بأننى لم أحصل على إجازة ومطلوب منى أن أسلم نفسى إلى وحدتى فورا.. استاءت السيدة وهى تقول طيب مش تعرفهم فى البيت.. طيب كلمتهم فى التليفون.. أخبرتها بأن هذا لم يحدث لأنه ببساطة لا نملك بالمنزل تليفونا. أجابتنى طيب مافيش تليفون جيران.. صمت قليلا.. فلم يتبادر إلى ذهنى هذا وأخيرا أخبرتها بتليفون خالى فى عمله الحكومى حيث يتقلد منصبا رفيعا.. كتبت رقم التليفون واسم خالى واسمى وقالت إن شاء الله أول ما أرجع بيتى حكلمه يعرفهم أنك بخير.. ربنا يسوقك يا مدحت يا ابنى وأعادت بكاء الأم ونحيبها المكتوم.

وصلنا إلى محطة كوبرى الليمون وغادرت السيارة بين تلويحها لى وهى مازالت دامعة العين وأنا الآخر أشعر بأن بعض الدموع تجرى فى مآقى عينى وقد هدأت من ضيقى رافضا هذا التصرف الصبيانى متسائلا كل شويه عياط وبكاء. لا لا يجب ألا يكون.. إن هذا تصرف طفل وليس تصرف رجل. ورجل عسكرى قوى المراس. مازلت أتابع السيارة بعيونى وأنا أدعو من كل قلبى لهذه الأم أن يدخل الله السرور إلى قلبها وابتسمت وأنا أتابع اللوحات المعدنية لأرقام السيارة حيث كانت المفارقة أنها تحمل رقم العام الذى ولدت فيه.. أى عام ١٩٤٤.. وقلت فى نفسى فأل طيب كما يقول الناس الطيبون.

توجهت إلى القطار الذى كان قابعا على القضبان وكأنه أُعد خصيصا لنقل الأسرى والمهزومين.. قديم وسيئ ومن يجلسون فيه على شاكلته وأنا منهم. جلست فى ذلك القطار عبارة عن هيكل من الصفيح وعجل حديد وليس به سوى كراسى خشبية قديمة بالية أما شبابيكه فهى مفتوحة فقط ولا يوجد شيش أو زجاج. تحرك القطار قبل الواحدة ظهرا وغطانا الغبار الناتج عن سيره فى طريق وعر لا تشاهد منه غير الصحراء القاحلة على الأجناب.

كنت أسأل المحيطين بى عن الشلوفة والغالبية لا يعرفون ولكن رقيب أول شرح لى أين تقع موضحا بأن علىّ الهبوط من القطار فى محطة المثلث لأن القطار سيدخل السويس وطريق الشلوفة يبدأ من المثلث.. هنا أشار لى الرجل بأن هذا مكان المثلث، غادرت القطار خاوى اليد وقد تذكرت ما نفحنى إياه ذلك الضابط الرقيق من مال، وضعت يدى فى جيبى فعلمت أنه أعطانى خمسة جنيهات.. هتفت ياه خمسة جنيه!! هذا مبلغ كبير يقترب من سدس مرتبه إن لم يزد.. غمرنى شعور بالارتياح أن أجد مثل تلك الأخلاق بين المصريين على مختلف ثقافاتهم ومشاربهم وديانتهم.. هم فى الأول والآخر مصريون فقط أما باقى الألقاب والأسماء والشهادات والمراكز فهى كلام لا يقدم ولا يؤخر.

سرت قليلا فشاهدت نقطة شرطة عسكرية وهم أقرب الناس إلى معرفة أماكن الوحدات كما أن جميع السيارات العسكرية تقف عندهم.. ألقيت بتحيتى على الجندى الخدمة والذى رد بمثلها وسألته برغبتى فى التوجه إلى الشلوفة إذا

أمكنه أن يساعدنى.. أجاب بالإيجاب طالبا منى الجلوس خلف نقطته حتى تحضر سيارة متجهة إلى ذلك الموقع.. المنطقة صحراوية ولا يوجد بها سوى بعض العمارات السكنية والتى يقال عنها مساكن شعبية..جلست أرضا أستريح ومازالت كلمات الرائد صلاح ترن فى أذنى.. انصراف يا حضرة الضابط ومازال منظره وهو يتلقى المكالمة التليفونية وصاحبها يتمتع بإجازات ونوم هانئ فى بيته وأنا مازلت ألف صحارى الجمهورية والسبب فى هذا أننى ضابط صغير لا حول له ولا قوة.. انهارت كل القيم والمبادئ التى تعلمتها وشعرت أن الدنيا كلها ظلم وقسوة والضعيف لا مكان له.. تنبهت على صوت سيارة وصلت فنظرت فإذا بسيارة جيب وبجوار السائق وجدت ضابطا برتبة مقدم جالسا بجواره.

بعد أن تفحص جندى الشرطة أوراقها اتجه للجانب الآخر يحدث الضابط ويشير جهتى.. نظر الضابط إلى وأشار إلى بأصابعه بما يعنى اقترب منى.. قمت متكاسلاً أسير بصعوبة حتى وصلت إليه مؤديا التحية العسكرية. بادرنى وهو يركز نظره علىّ قائلا: إيه حكايتك؟ بتخوفنى بالشرطة العسكرية؟.. طيب منتش راكب.. سوق ياعسكرى.. قفزت السيارة مسرعة وأنا مازلت واقفا صامتا حيث لم أستوعب الجملة وقد اقترب منى الجندى قائلا: والله اللى ربنا عمله فينا ده مش كتير على فرعنتنا وجبروتنا على بعض.. عربية جيش وموقع جيش وظابط من الجيش.. إيه المشكلة هيا عربية أبوك.. نظر إلى قائلا خيرها فى غيرها.. شكرته وعدت أجلس فى نفس المكان.

كان واضحا أن الظلام يسرع الخطى وأنا أريد اللحاق بوحدتى حتى لا أبيت فى الصحراء بمفردى.. جاء لورى نصر مدنى.. توقف أمام جندى الشرطة وقد حدثه بصوت آمر. يا أسطى حتوصل حضرة الضابط الشلوفة.. فاهم.. أجابه أنا رايح قبل الشلوفة باتنين كيلو ينفع؟.. أشار لى الجندى فحضرت وأخبرنى بأن الأسطى سيصل قبل الشلوفة بكيلومترين ومن هناك قد تجد أى سيارة أخرى. مع السلامة.. ركبت بجوار السائق المدنى كبير السن وباديا عليه الضيق والألم.. اللورى مكتوب على أبوابه الخارجية مخصص للمجهود الحربى.. لقد استولت الحكومة على لوارى القطاع العام وأدخلتها الخدمة للقوات المسلحة لنقل المؤن

والمعدات لتعويض الفقد الهائل لأدوات النقل فى سيناء والتى بلغت أكثر من ٧٠٪ توقف الرجل بجوار مدق رملى ليخبرنى بأن هذا طريقه ويطمئننى بأن الكثير من اللوارى تتحرك على هذا الطريق.

غادرت اللورى شاكرا صنيعه معى. وقفت أنتظر قدوم أى سيارة ولكن بلا جدوى وأيقنت بأننى سأمضى تلك الليلة فى العراء وغربت الشمس ولم يتبق سوى الضوء الخافت الذى يعقب الغروب وماهى إلا عشر دقائق ويحل ظلام دامس علىّ فى تلك المنطقة القاحلة، جلست أرضا لأتخلص من آلام قدمى. بعد قليل شاهدت لورى قادما مسرعا فأشرت إليه ولكنه لم يتوقف ثم توقف بعد مسافة فأردت اللحاق به ولكن قدمى لم تطاوعنى فسقطت أرضا أتألم من جراء السير وتسلخات باطن القدمين. حاولت النهوض من رقدتى وإذا بى أجد اللورى قد عاد ووقف بجانبى وهبط منه ضابط شاب ساعدنى على الوقوف. أقف أمامه. نظر إلىّ بدهشة قائلاً: مين؟ أسامه يخرب عقلك بتعمل إيه هنا يا مجنون؟ تفرست فى هذا الشكل وسألته أتعرفنى؟ فأجاب أيوه.. أنا حسنى زميلك.. دفعتك وقضينا تيرم فى الكلية سوا بس أنا اتوزعت على المهمات وأنت رحت المشاة.. تذكرت حسنى زميلى ابن محافظة الغربية والذى كان يخطئ ركوب خط المترو النزهة من ميدان رمسيس ويتخير خطا آخر الميرغنى ويتجه به جهة كلية البنات.. احتضننى وساعدنى على ركوب اللورى وأخبرته بهدفى ولكنه قال كتيبتك بقالها تلات تيام فى جبل عجرود.. بكره أشوفلك حاجة توصلك. .خليك معايا الليلة دية.. ياه دا أنت حالتك صعبة وإزاى فى الإدارة يبعتوك هنا وأنت تعبان بالشكل ده.. أخبرته بما سمعته فى الإدارة سواء كان موجها إلى أو من المكالمات التليفونية لضباط كبار يحصلون على إجازت وهم رهن منازلهم وبين أهاليهم.

كانت ليلة رائعة قضيتها مع زميلى حسنى الذى أعد لى مكانا مريحا للنوم بين بالات المهمات وأحضر جنوده الطعام الطازج من قسم التعيينات وشربنا الشاى وضحكنا سويا وخلدنا إلى نوم هادئ، لقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من هدفى وهو الوصول إلى وحدتى. صباح اليوم التالى تناولنا إفطارا شهيا لا يقل

كفاءة عن عشاء الأمس ثم اصطحبنى إلى اللورى حتى يصل بى إلى منطقة المثلث ثانية لأعود إلى موقعى قريبا من الشركة الشرقية للبترول.

وصلنا إلى المثلث وتركت السيارة وطلب منى أن أعبر الطريق للجهة الأخرى حتى أكون فى اتجاه سير اللوارى ولكننى تعثرت وسقطت أرضا وأسرع هو وسائقه لمعاونتى وحملى إلى اللورى وقال سوف أتأخر عن القائد ولكن لا يهم أنت تستحق هذا، وصل بى إلى موقع الشركة وأشار إلى أن الكتيبة على مسافة خمسمائة متر من الطريق وشاهد جنديا يسير فسأله عن الكتيبة وأخبره بموقعها واتضح أنه أحد جنودها.. اعتذر حسنى عن عدم استطاعته الدخول إلى داخل الموقع لصعوبة الطريق من الصخور التى تملأ المنطقة شكرته بينما عاد هو إلى عمله. سرت قليلا وجلست كثيرا حتى تقابلت مع بعض الجنود القدامى والذين رحبوا بى وساعدونى فى التوجه إلى مكتب رئيس العمليات لأسلم نفسى كما أمرتنى إدارة المشاة «سلم نفسك لوحدتك فورا».

تقابلت مع رئيس العمليات وبعد أسئلة مستفزة ضمنى لإحدى سرايا الكتيبة وقد تقابلت مع البعض ومنهم جنودى الأربعة الذين انسحبوا معى من سيناء.

العودة إلى القاهرة

تسلمت عملى بالكتيبة وفى اليوم التالى رغبت فى التوجه للعلاج فى مستشفى السويس وقد تذمر رئيس العمليات. وقد سبقنى للمستشفى للعلاج قبل هذا بيومين زميلى الملازم محمود قابيل «الفنان محمود قابيل». أستعد أنا ومحمود للتوجه للمستشفى. تحرك بنا اللورى فى التاسعة صباحا لنصل إلى المدرسة الثانوية للبنات بالسويس حيث أعُد كمستشفى فى جزء منه خصص لهذا الغرض والعلاج كان بسيطا وإمكانياته قليلة حيث مازلت أشتكى من آلام مبرحة فى باطن قدمى مما ألم بى من الثقب الذى قام بفتحه الطبيب بالمبرة بمدينة بورسعيد أول أمس. بالإضافة إلى جرح يدى اليمنى منذ بداية الحرب وقد مضى عليه شهران والجرح لم يلتئم وأشعر بألم يعتصرنى من شدته.

استمر علاجى عدة أيام دون نتيجة ملموسة وفى أحد الأيام تعطل اللورى الذى يقلنى إلى المستشفى والسائق ليس لديه أى خبرة عن إصلاح اللورى. اقترح على أن أسير أكثر من كيلومتر حتى نقطة الشرطة العسكرية لتقديم المساعدة بإيقاف سيارة تقلنى إلى المستشفى. نفذت نصيحته ولكنى لم أستطع مواصلة السير وسقطت أرضا من الألم وجلست بعض الوقت. فجأة اقتربت منى سيارة

جيب وتوقف سائقها بجوارى ينادى علىّ حضرة الضابط: نظرت جهة الصوت فإذا باللواء أركان حرب محمد فائق البورينى قائد عام الجبهة بداخل السيارة حيث كنت أعرفه حينما كان يعمل كبيراً للمعلمين بالكلية الحربية أثناء دراستى وأنا طالب بها.

أشار إلى مستفسراً عما ألم بى ولماذا أسير هكذا. أخبرته باختصار عن حالتى وعطل اللورى الذى كان يقلنى إلى المستشفى. أشار إلىّ بالصعود والركوب بجواره ولكننى لم أستطع فأشار إلى حارسه نقيب بالشرطة العسكرية فهبط مسرعا وحملنى إلى داخل السيارة الجيب وطلب من سائقه التوجه إلى المستشفى.

كُنت سعيداً بهذا. كانت هذه المرة الأولى التى أجد من يهتم بشخصى رغم رتبتى الصغيرة وقد آلمنى كثيرا تجاهل الآخرين لى، هناك فى المستشفى انقلب الحال حيث إن قائد عام الجبهة متواجد وأسرع المدرسون والمدرسات بالاختباء وطلب من كبير الأطباء فحصى أمامه فأزال الطبيب الشاش من باطن قدمى وشاهد القائد حالتى وقد انزعج كثيراً لما أنا عليه وتضايق وزمجر عندما علم أن إدارة السلاح كانت تعلم حالتى ورغم هذا أرسلوا بى إلى كتيبتى فى الجبهة. أمرهم باستبقائى بالمستشفى حتى يتم علاجى وأصبح قادراً على السير كما شاهد جرح يدى الغائر وما به من أثر الصديد، طلب من حارسه نقيب الشرطة إعلام كتيبتى بالموقف وحجزى بالمستشفى وتركنى منبها على الأطباء بُحسن رعاية المرضى. طلب منه كبير الأطباء تزويد المستشفى بالاحتياجات اللازمة ووعده بإرسال المختصين بذلك خلال نفس اليوم لحل كل المشاكل.

غادر القائد المستشفى وانهمك الطبيب مع مساعديه فى علاجى وألحقونى بإحدى غرف النوم المخصصة لذلك واستمر هذا الحال خمسة أيام حتى شعرت بأن آلام قدمى قد تماثلت للشفاء وحضر محمود قابيل فى اليوم التالى وشاهدنى وأنا مستريح بالسرير فضحك من هذا قائلا ياليتنى كنت معك وحصلت على سرير مثلك.

أخيرا عُدت إلى كتيبتى وقد شعرت براحة من تحسن حالتى ومقدرتى على السير وتماثل جرح يدى اليمنى من الشفاء من إصابة الحرب. بعد مضى أسبوعين وعودتى لوحدتى أرسل لنا القائد أنا وزميلى عادل بأن نجمع أغراضنا ونتجه إلى القاهرة لإدارة سلاح المشاة لصدور قرار بنقلنا إلى هناك.

صباح اليوم التالى كنا أمام إدارة سلاح المشاة وقابلنا الرائد صلاح أبو سريع وحرر لنا خطاب بالتوجه إلى «اللواء ١٣٦مشاة - الكتيبة ٥٣٨» المتواجدة حاليا بالمنطقة خلف مطار القاهرة والكلية الحربية وأرض السبق. . وهى ما تعرف الآن بالنزهة الجديدة. غادرنا مكتبه وأخبرنى عادل بأن نتلاقى بعد أربعة أيام عند محل البقالة القريب من كنيسة سانت فاتيما بمصر الجديدة الساعة الرابعة مساء على أن نتمتع بتلك الأيام الأربعة لرفضهم منحنا إجازة حسب المعمول به لأننا سوف نلحق بالكتيبة وهم معتقدون أننا حصلنا على إجازة قبل انضمامنا إليهم وبالتالى سنبقى حتى نهاية آخر دفعة إجازات وتذكرت المساعد رجب بإدارة المشاة والذى أخبرنى بأننى سوف أحصل على إجازة، لقد كان الرجل كاذبا ويعلم أكثر من غيره بأن الإجازات لا تمنح للقادم الجديد طالما لم يكتب فى خطاب التقديم إلى الوحدة بأن المذكور يستحق إجازة.. كذا يوم.

لم ننتبه أنا وعادل ونحن بداخل الإدارة ونتفق على اللقاء بعد أربعة أيام بأن الصول رجب كان موجودا بدورة المياه وسمع الرجل حوارنا واتفاقنا فأسرع ليبلغ الرائدصلاح والذى تأكد له بأننا اثنان من الضباط المشاغبين.

وصلت إلى بلدتى وهناك قابلتنى أسرتى بلقاء ساخن تملأه العواطف الجياشة والانفعالات الإنسانية خاصة أمى رغم أن السيدة أم مدحت التى أقلتنى بسيارتها اتصلت بخالى فى عمله فأسرع إلى بيت أمى يخبرها بالخبر السار ويهنئها على نجاتى وعودتى بالسلامة ورغم هذا مازالت أمى متخوفة تريد الاطمئنان على شخصى صوتا وصورة. ها أنا أقف أمامها تقبلنى وتحتضننى باكية ودموع عينيها تسبق أقوالها. أمضيت أربعة أيام ممتعة بفضل عادل ومخالفة القانون واليوم ظهراً سوف أستقل القطار عائداً إلى القاهرة وتسبقنى هواجسى. ماذا سيحدث لى لو اكتشف الأمر وماذا سيكون عليه حالنا؟

أقف فى شارع رمسيس أنتظر أتوبيس رقم (٥٠٠) الذى سيقلنى إلى سانت فاتيما وقريبا منى شابان فى مثل عمرى وأحدهما يسأل الآخر بصوت خفيض. (الحمار اللى جنبنا تفتكر أنه سريع ولا سريع أول؟ التفت الصديق جهتى ثم عاد إلى وضعه السابق محدثا صديقه.. ده صغير يعنى جحش يبقى سريع).. لم أكن أعلم ما تلك التعبيرات والإيماءات ولم أكن أتوقع أنهما يتحدثان عنى. تقابلت مع عادل وأخبرته بحوار الشابين وضحك ليخبرنى بأنهما يتحدثان عن شخصى حيث قال: بص يا سيدى (سريع.. يعنى ملازم.. وسريع أول.. يعنى ملازم أول ,,,وفكيك.. يعنى فريق،، وفكيك أول.. يعنى فريق أول) ضحكنا سويا من قدرة المصريين على الفكاهة حتى فى أصعب الظروف رغم أننا لم نكن نملك سرعة ولا غيره لكنه التنفيس عما يجول بخاطرهم فلقد غُرر بهم بأننا منتصرون فضحوا بالغالى والنفيس من لقمة العيش ومن حياة الشباب فى تلك الحرب الفاشلة.

وصلنا إلى موقع الوحدة خلف الكلية الحربية وعبرنا السلك الشائك وأصبحنا داخل الكتيبة وأثناءها كان اصطفاف طابور المساء والقائد يلقى بتعليماته. انفض الطابور وأقبل علينا جندى يطلب منا الحضور إلى خيمة القائد فتوجهنا إليه وقلبى يرتجف متوجسا شرا ويدق انفعالا وخوفا مما فعلناه ولكن الصديق عادل كان هادئ البال وبداخل الخيمة شاهدنا ما لم نتوقعه. الرائد صلاح أبو سريع من إدارة المشاة جالسا ينظر إلينا موجه كلامه للقائد قائلا: شوف جواباتهم يا سيادة المقدم.. هتف القائد: نهاركم مش فايت خمس تيام غياب.. قاطعه عادل.. أربعة فقط.. نهره القائد قائلاً: أنت بتهزر.. أربع تيام غياب يعنى محكمة عسكرية صرفنا القائد للبحث فى أمرنا. ولكن نتيجة البحث لم نعلم بها حتى الآن!

ألحقت على السرية التالتة مشاة أما عادل فألحق على السريّة التانية. جميع الجنود حديثى التجنيد وغالبيتهم مؤهلات متوسطة أو عليا والقليل منهم بدون تعليم «عادة» لكنهم يجيدون القراءة جيدا والملاحظ هو كثرة عدد الجنود كما كانت سرعة تنفيذ الأوامر لديهم سريعة.

أصبحت علاقتى مع عادل قوية وكنت فى أمس الحاجة لمن يبعدنى عن آلام الانسحاب التى كانت ذكراها تهاجمنى من حين لآخر خاصة عندما أنفرد بنفسى مما يدفعنى للبكاء مما شاهدته وعانيته خاصة مناظر الشهداء وهم ملقون فى العراء.

كانت ظروف عادل أحسن منى حالا حيث يقيم مع أسرته فى حى مصر الجديدة وجميع احتياجاته متوفرة بمنزله أما أنا فلا أمتلك الملابس المدنية حتى أستطيع الخروج من المعسكر للهو لأن ارتداء الزى العسكرى كان يعرضنا لبعض المضايقات من بعض الناس، هدانى تفكيرى بأن أذهب إلى منزل جدتى بالسبتية وأبيت به وأترك ملابسى هناك وقد أسعد هذا جدتى كثيرا كذلك أسعد عمتى اللتين تقيمان معها وعمى الأصغر.

توالى تدريبنا وتوالى نزولنا أو تزويغنا ولهذا انفرجت حالتى النفسية وساعدنى هذا على خروجى من حالتى الانعزالية التى كادت أن تؤدى إلى تعاستى والألم النفسى الذى مازال عالقا بذاكرتى حين أتذكر فترة انسحابى من سيناء والأحداث الجسيمة التى ألمت بنا فبعد التدريب والشقاء نتوجه للفسحة أو الجلوس فى أماكن عامة وفى بعض الحالات نذهب لدور السينما التى ازدحمت بالأفلام الأجنبية الفرنسية والإيطالية لمقاطعة مصر للأفلام الأمريكية لوقوفها مع إسرائيل فى حربها ضد مصر.

مضى على وجودى بالقاهرة حوالى ثلاثة أشهر استعدت فيها هدوئى النفسى وتوالى التدريب الشاق الذى يغلب عليه استخدام الذخيرة الحية وكانت النتائج جيدة فى الرماية نظراً لاستيعاب الجنود للتدريبات والتكتيكات التى تدرس لهم بل كان البعض يستفسر ويستوضح ويسأل عما لا يفهمه وكان هذا مدعاة لأن يقوم الضابط بإعداد نفسه لكل محاضرة حتى لا يسبب لنفسه حرجا أمام الجنود المتعلمين وقد زاد هذا من حُسن الاستيعاب لأنهم يتمتعون بمستوى اجتماعى طيب وقد أثر هذا عليهم نفسيا لشعورهم بأنهم قد حصلوا على قسط من التعليم أو قسط عال لخريجى الجامعة وكأنها عدوى أصابت الجنود فالكل راغب بألا يكون أقل من زميله الجامعى كما أن عددا من هؤلاء الجامعيين قد

تولى منصب ضابط الصف المعاون للضابط وبذلك أصبح أكثر تفهما للأوامر ولا ينساها بعد مغادرة الضابط كما كان يحدث قبل ذلك.

أضافت القوات المسلحة عنصرين مهمين للمساعدة فى تقدم ورقى هؤلاء الجنود.. الأول : هو زيادة راتبهم الشهرى مما دفع بهم إلى الشعور بالاكتفاء المادى الذى هو عنصر مهم فى شعور الإنسان بأنه ذو كرامة وكبرياء فلا يدفعه ضيق ذات اليد إلى التزويغ من الكمسارى وما يلاقيه من رد فعل كما كان يحدث مع الجنود فى السابق أو مثل ما حدث معى شخصيا حينما قذفنى كمسارى الترام بكلمات قاسية مقابل عدة مليمات أثناء عودتى من سيناء. أما العنصر الثانى: فهو التعليمات المشددة بعدم إهانة الجندى أو التعدى عليه بالسب كما كان يحدث فى السابق وهذا عنصر إنسانى ساعد على أن يشعر الجندى بآدميته.

إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا

تلعب الصدفة والحظ فى حياتنا الكثير من المواقف والأحداث والتى نندهش لها ونتساءل كيف تم هذا ولماذا مع هذا الشخص أو ذاك ولكنها الأقدار التى تُسير الإنسان فى بعض الظروف.

فى أحد أيام إجازتنا أنا وصديقى عادل وبعد لقائنا سويا أخبرنى بأنه سيتوجه إلى مستشفى المعادى لتسليم شقيقته بعض أغراضها الشخصية حيث فوجئت بنوبتجية لها نظرا لمرض إحدى زميلاتها والتى كانت تعمل هناك برتبة نقيب فهى خريجة المعهد العالى للتمريض وعرض على مرافقته ثم بعد ذلك نتوجه لأى مكان نتسكع فيه ونلهو.

وافقته على الفور فليس أمامى مكان أتجه إليه وليس لى صُحبة ألجأ إليها وهكذا توجهنا إلى المستشفى حيث تقوم شقيقته بعملها مع بعض زميلاتها فى قسم جراحة المخ والأعصاب. استقبلتنا بترحاب وانتحت بشقيقها جانبا تخبره ببعض ما تريد إخباره أما أنا فجلست على سرير صغير فارغ من النزلاء ولكن السرير المجاور لى كان يرقد عليه شاب جميل الصورة وعلى عينه ضمادات (العين اليسرى) تحدثت معه وكان يبتسم ولا يتحدث وأنا أحاول ولكن الشاب

يسمعنى ويهز رأسه بعدم قدرته على الحديث وأخيرا سمعته يردد بعض كلماتى وهنا حضرت شقيقة عادل وسألتها عن حال هذا الضابط فأخبرتنى بأنه ملازم أول وهو موجود هنا منذ عدة أشهر تحت العلاج حيث فقد إحدى عينيه وبه إصابات بالرأس وأجريت له عملية جراحية فى المخ لكنه حتى الآن مازال فاقدا للذاكرة وعندما سألتها عن اسمه أخبرتنى بأن اسمه مدحت.. قلت: فقط.. أجابت فقط لأن العلامة الفبر التى كانت حول رقبته كسرت ولم نر منها سوى كلمة مدحت ومن أى سلاح.. أجابت بأنهم لا يعرفون ويودون العثور على أى بيانات عنه وانه للآن لم يحضر أحد من أهله للسؤال عنه.. أجبتها بعد مرور أربعة أشهر على وجوده.. أشارت بتأكيد كلامها. سألتها إن كان يحتفظ بمحفظة أو ماشابه ذلك ولكنها اعتذرت بأنها لا تعرف وأمهلتنى عدة دقائق لتسأل رئيسة القسم وعادت قائلة كل ماعثرنا عليه تلك الصورة. شاهدت الصورة فوجدتها ممسوخة ولا يظهر منها شىء وعادل يستعجلنى لإنهاء تلك الأسئلة وأنا أطالبه بالتمهل ثم سألتها هل يمكننى الاحتفاظ بتلك الصورة فقد تساعدنى فى التعرف عليه خاصة بعد أن قرأت خلف الصورة اسم الأستوديو وتاريخ الصورة ورقمها كما هو معروف عن مصورى الفوتوغرافيا. ذهبت لتسأل رئيستها والتى أفادتنى بأنه يمكننى أن أحتفظ بها ثم توقفت عن الإجابة وسألتنى: أتعرفه؟ ولكنى نفيت ذلك وأخبرتها بأن والدة أحد ضباط المدفعية قابلتنى منذ أربعة أشهر وأخبرتنى بأن ابنها اسمه مدحت وهو مفقود وأعتقد أو احتمال أن يكون هو هذا الشخص لأننى لا أعرف شكله. تحدثت معه وسألته هل لديكم عربية مرسيدس فأشار برأسه بتأكيد ذلك ولكن شقيقة عادل سألته.. أعندكم عربية فيات فأجاب بصوت خفيض أيوه.. «فيات» وأعادت السؤال.. عندكم عربية ستروين فأجاب أيوه.. «ستروين»..هنا قالت أنه مسكين ويفعل مثل الأطفال ويقول آخر شىء يسمعه.

غادرنا المستشفى وأنا ساهم شارد الفكر وعادل يحاول إخراجى من دوامة تلك الأفكار والأسئلة التى أطاحت باتزانى قائلا اللى أنت بتفكر فيه غلط.. ومش هوه يا ابن الناس.. طلبت من عادل مرافقتى إلى الأستوديو ولكنه اعتذر وأنه ينوى الذهاب لمشاهدة فيلم رجل وامرأتان.

افترقنا فتوجه لمشاهدة الفيلم بينما توجهت أنا إلى الأستوديو فى حى المنيل حسب ما هو مكتوب على ظهر الصورة.. هناك فى الأستوديو عرضت عليهم الصورة طالبا إعداد نسخة منها ولكن الرجل أخبرنى بأن التاريخ قديم واحتمال ألا يعثر على النيجاتيف. سأل أحد عماله عن النيجاتيف القديم الذى طلب منه منذ أسبوع التخلص منه. .هل تخلص منه أم لا؟ اعتذر العامل بأنه انشغل مع بعض الزبائن وسوف يقوم الآن بالتخلص من هذا النجاتيف لكن الرجل طلب منه التمهل وأعطاه الصورة الممسوخة للبحث عن النيجاتيف صاحب هذه الصورة لأنه يهم «الأستاذ» مشيرا إلى. طلب منى الرجل أن أعوده بعد أسبوع وسألنى عن عدد الصور فأخبرته صورة واحدة فاعتذر بأنه لا يقل عن ست صور وافقته طالبا منه صورة كبيرة ودفعت التكلفة وغادرت المحل حاملا معى الإيصال وأنا أفكر ليل نهار. هل تحدث المعجزة ويكون صاحب الصورة شخصًا نتعرف عليه ليقربنا من الحقيقة.

بعد عشرة أيام عند حلول موعد إجازتى أسرعت إلى الأستوديو فأحضر الرجل الصور وعرضها على وأنا أشاهدها صائحا صارخا أيوه هيه. دهش الرجل من انفعالى وسألنى عن صلتى بتلك السيدة العجوز هل هى والدتك؟ ولكنى أخبرته بأنها صورة عمتى التى توفيت منذ أعوام ونحن نريد استخراج صورة لها للذكرى. أخذت الصور وأنا أسير طائرا فى الطريق. إنها نفس السيدة لقد تأكدت الآن أن هذا الشاب المسكين هو ابن السيدةِ صاحبة المرسيدس والتى أقلتنى من باب ثلاثة حتى محطة كوبرى الليمون واتصلت بخالى لكى يطمئن أمى علىّ رغم ما بها من آلام فقد الابن العزيز.. ياه.. قلتها وأنا سعيد ولكننى توقفت ثانية فلا أعرف اسم السيدة ولا أعرف اسم الضابط بالكامل وكل ما أعرفه هو انها تركب سيارة مرسيدس ملاكى القاهرة.. أيوه نمرة السيارة.. آه لقد تذكرت بعد أن غادرتنى السيارة قرأت رقمها وكان هو نفس عام ميلادى.. إذًا الرقم ١٩٤٤ ملاكى القاهرة مرسيدس بيضاء ياه !!!!!

أين وكيف أتعرف على صاحبة المرسيدس؟ أريد عونا من أحد ضباط المرور ولا أعرف أحدا منهم.. مين يا أسامة؟ هتفت آه إنه حبيبى وآخى النقيب عاطف

شفيق.. شقيق الشهيد وليم شفيق والذى طلب منى زيارتهم فى منزلهم..آه عليك يا عاطف يا صاحب المروءة والإنسانية يا من أقرضنى خمسة جنيهات كاملة.. أين رقم تليفونه.. أبحث عنه ولكنه فُقد منى.. إذًا لا يهم سأذهب لمقابلته فى قسم الوايلى. . ركبت الأتوبيس الذى أوصلنى إلى القسم وهناك توجهت إلى داخل القسم وسألت عنه ولكنى علمت أنه ُنقل إلى قسم النزهة بمصر الجديدة.. أسرعت مستقلا أتوبيسا آخر متوجها إلى قسم النزهة وهناك أخبرونى بأنه فى راحته الآن وطلبت مقابلة أحد زملائه.. قابلت زميلا له وسألته عن النقيب عاطف وأننى أريد رقم تليفونه ولكنه كان فظا معى ولم يساعدنى أو يحاول ذلك وعندئذ طلبت منه أن يبلغه بأن أسامة زميل شقيقه وليم حضر لمقابلته وأرجو أن يترك رقم تليفونه لأننى فقدته.. أشار لى بلا مبالاة. .قائلا : أنا مش موصلاتى رسايل.. إبقى تعالى فى نوبتجيته.. تركته غاضبا حزينا فلحق بى أمين شرطة مستفسراً عن أهمية تليفون النقيب عاطف فأخبرته بأنه طلب منى شيئا مهما.. فبادر لمساعدتى وزودنى بتليفون القسم للاتصال به فى الصباح وقد أسعدنى هذا الحل الذى لم يتبادر إلى ذهنى.

اتصلت به عدة مرات ولم أعثر عليه ولكن أحد زملائه أخبرنى بأنه ترك رسالة شفهية لديه وأن عاطف علم باتصالك وهو سعيد بهذا وأن رقم تليفونه هو..... وأضاف بأن مواعيد نوبتجياته هى.... وزودنى بها.

الآن معى تليفونه ومواعيد وجوده بالقسم وغدا راحتى وفضلت أن أقابله شخصيا لكى أعيد إليه الخمسة جنيهات وأوفى بوعدى له بزيارة أمه وأطلب منه المساعدة فى العثور على عنوان صاحبة السيارة. مساء الغد هبطت عليه فى القسم وسألت الجندى الواقف على باب مكتبه عنه وعندما أبلغته بأن يخبره بأن أسامة بانتظاره فتح الباب واندفع الرجل يحتضننى ويقبلنى قائلاً لقد فقدت الأمل فى أننى سوف أراك ثانية. اصطحبنى من يدى إلى داخل مكتبه وجلسنا وشربنا الشاى وحدثنى عن أثر لقائى به منذ عدة أشهر وكيف استقبلت أمه النبأ والتى قررت عدم ارتداء الملابس السوداء المخصصة للحداد قائلة: لا يجب أن نلبس تلك الملابس على أرواح الأبطال إنهم الآن فى الأمجاد السماوية مع الرب

ويسوع. كما أن «روز» زوجته بعد أن بكته عدة أيام عادت لرشدها خاصة أنها أنجبت وليم الصغير منذ شهرين. أسعدنى هذا الخبر وأخرجت الخمسة جنيهات وأعطيتها له ولكنه رفض فأقسمت بروح الشهيد وليم أن يأخذها فرضخ لرجائى.

أخبرته بأن وراء زيارتى شيئين مهمين. الأول: زيارة والدته حسب ما اتفقنا وقد أسعده هذا لأنها دائما تسأله قائلة: فين يا عاطف الظابط اللى قال لك على حكاية وليم. مش قلت إنه حيجى يزورنا». أخبرته أننى مستعد الآن ولكنه ضحك وقال اليوم خدمتى وغدا ننفذ ما اتفقنا وتعاهدنا عليه.. ثم سألنى والشىء الثانى.. أخبرته بقصة السيارة المرسيدس وحكاية الرقم، ينظر إلى بدهشة وقال إحنا نروح ونقعد فى البيت وأنت تيجى تشتغل مكانا. .ضحكت وأجبته بأنها أم مثل أم وليم.. أدمعت عيناه قليلا ثم تنبه وقال "حاضر بكره حاروح إدارة مرور القاهرة وأجيبلك العنوان".

اتفقنا على اللقاء عصر غد لزيارة والدته بعد أن زودنى بالعنوان والوصفة وكيفية الوصول إلى منزله وأيضا الحصول على عنوان صاحبة المرسيدس.. أمضيت ليلتى مسهداً قلقا وأنا أفكر هل ستحدث المعجزة؟ لقد رددتها قبل ذلك ومازلت. إننى مازلت أتذكر عيون الأم الباكية على فلذة كبدها أثناء ركوبى معها فى سيارتها. أتراجع قائلا: إن العديد من الأمهات فقدن أبناءهن فى سيناء ولتكن هى إحداهن ولكنى تذكرت أن الشاب مازال على قيد الحياة وأنه مسكين لا يعلم شيئا من أمره وكل ما فعله أنه احتفظ بصورة أمه فى يده حتى تحللت من أثر العرق وقد أخذها منه طاقم التمريض عنوة أثناء العملية الجراحية كما أخبرتنا رئيسة القسم بالمستشفى. إنه مثل الطفل وسيظل هكذا فترة طويلة واحتمال أن يبقى هكذا للأبد طالما لم يستطع أحد التعرف عليه وسيكتبون أمام اسمه فاقد المعرفة والأهل. استيقظت صباح اليوم التالى أدعو الله أن يوفقنى وأن يكون هذا اليوم يوم خير وبركة عليهم وأتمتع بمشاهدة الابتسامة على وجه أمه الطيبة الحنون التى عطفت على رغم ظروفها الصعبة.

حسب الموعد اتجهت إلى منزل عاطف شفيق حاملا معى هدية رمزية للوليد الصغير ابن الشهيد وليم. ضغطة صغيرة على الجرس وفتح عاطف الباب

ليستقبلنى بكل ترحاب بصوته الجهورى صائحا: «ماما».. أسامة زميل الشهيد وليم موجود. أقبلت نحوى سيدة متقدمة فى العمر وأثار السنون والهموم بادية عليها ولكنها تخفى كل هذا بابتسامة الفرح والسرور وهى قادمة لمقابلتى فأسرعت لملاقاتها مصافحا إياها قائلا لها إزيك يا نينة. صافحتنى بكلتا يديها ممسكة بهما سائرة بى حتى أجلستنى وجلست أمامى وهى تتفحص وجهى ثم قالت: أنا دلوقتى شايفة وليم وكمان مسكت أيد وليم.. ياه.. أشكرك يا ابنى وربنا يخليك لأمك ودمعت عيونها ثم عادت إلى هدوئها وهى تقول: سامحنى الفراق صعب.. هيه.. قوللى وليم كان عامل إزاى؟ تفتكر كان خايف من اليهود الأنجاس اللى قتلوا المسيح؟ وأنا أنفى أنه كان خائفاً بل كان شجاعاً وأكرر سرد الرواية بناء على إشارة من عاطف، حضرت زوجة وليم حاملة رضيعها «عزيز» وصافحتنى بحرارة فقدمت إليها الهدية قائلا: هذه لابن أخى وليم شفيق «عزيز وأعز الناس وابن الشهيد» شكرتنى كثيراً وقدمت سيدة تعمل لديهم مشروبا لنا جميعا وهنا قطع عاطف حديثنا قائلا: كده تدوخنى وفى الآخر يطلع الرقم اللى اديتهولى لعربية نص نقل. ظهر الظلام فى وجهى وتحطمت كل أحلامى السابقة بأن أنجح فيما قمت به من أجل تلك الأم الطيبة الباكية الدامعة ولكنه عاجلنى بابتسامته المريحة قائلا: لكن أنا مباحث.. أنت نسيت رقم واحد فى الشمال.. يعنى الرقم١١٩٤٤ مش ١٩٤٤ وأدى يا سيدى العنوان والاسم.. السيدة "وداد على محمود" أشرق وجهى وكأنما ضياء الشمس سُلط علىّ وأنا فرح وسعيد وكلها ساعة وأذهب لأم مدحت وأحمل لها نبأ العثور على ابنها.

بعد أن أمضيت أكثر من نصف ساعة استأذنتهم فى المغادرة وعرض على عاطف مرافقتى فى تلك المهمة ولكنى شكرته ويكفيه ما قام به. أخذت تاكسى إلى المنيل فقد كنت راغبا فى كسب الوقت، وصلت إلى العنوان، شارع هادئ وفيلا جميلة ولكن السكون وشبح الموت يخيم على المكان، ضغطت على جرس الباب الخارجى وجاء البواب مستفسرا عما أريده، أخبرته بأننى أريد مقابلة السيدة وداد. نظر إلى بعض الوقت ثم قال فيه حاجة نقولها عليها، أخبرته أننى زميل مدحت. انفرجت أسارير الرجل وأفسح لى المكان وطلب من «فكيهة» زوجته بأن

تخبر الست هانم بأن صديقا لمدحت بيه موجود وعايز يقابلها قائلا لى ربنا يطمنك يا بيه الست حالتها وحشة خالص. أصل مدحت بيه الوحيد على بنتين. قادنى الرجل لأجد نفسى جالسا فى الصالون، شاهدت السيدة وهى تهبط درجات السلم من الدور العلوى بمساعدة شابة جميلة وتوقفتا أمامى والسيدة تتفحص وجهى ثم قالت: أيوه بيقولوا أنك صاحب مدحت. وقفت احتراما لها وسألتها حضرتك مش فكرانى؟ نظرت إلى قليلاً ونفت أنها تعرفنى أو شاهدتنى. شرحت لها ما فعلته معى ولكن السيدة لم تتذكر أى شىء.

أظهرت صورتها المكبرة والتى استخرجتها من محل الصور وشاهدتها وكذلك ابنتها وهى تستفسر من أين حصلت على تلك الصورة. سألتها: أهى لكِ. أجابت: أيوه بس دى صوره قديمة كانت مع المرحوم مدحت صورة زيها وشايلها معاه فى محفظته. طلبت منها أن تستريح ولكن الابنة تشككت فى أمرى وتحدثت بصوت مرتفع وبانفعال. أنت باين عليك نصاب. عبده اقفل الباب وحابلغ البوليس. تسمرت على الكرسى الذى أجلس عليه حيث انقلبت الأمور رأسًا على عقب والجميع ينظرون إلى ثم تعيد الفتاة قولها: أنت عايز مننا إيه؟ قول.. انطق.. والأم تطالبها بالهدوء قائلة: مش كده «يا علا» يا بنتى مش نشوفه عايز إيه؟ أظهرت لهما الكارنيه العسكرى من محفظتى وناولته للأم التى نظرت إلى ابنتها قائلة: أيوه الملازم أسامة. يا بنتى ده ظابط يصح نعمل معاه كده. أيوهِ يا ابنى أنا سمعاك. أجبتها "ماما وداد" ابتسمت لهذا الاسم وهى تقول طولة العمر لك كان مدحت دايما يسكت زيك كده ويقول ماما وداد. أيوة ياحبيب ماما عايز إيه؟ أجبتها عايز منك تلبسى هدومك عشان نزور حبيبك مدحت فى المستشفى. سكنت السيدة قليلاً: ثم قالت والنبى يا ابنى تعيد الكلمة دية تانى ولكن الابنة تحدثت بصوت مرتفع: حرام عليك تعشم ماما. سيبها خلاص إحنا عرفنا أن مدحت بقى عند ربنا وتأكدنا من كل ده. إدارة السلاح عرفتنا بكده. اعتذرت لهم وأنا حزين بأننى أخطأت وتأهبت لمغادرة المكان ولكن الأم لم يطاوعها خروجى قبل أن تسمح لبصيص أمل أن يطل عليها عن ابنها. قصصت عليهما ما رأيته وما سمعته منه وعن حالته وفقده لإحدى عينيه وهما ما بين مصدق ومكذب. ثم

وصفت شكله والفجوة «الفلجة» التى بين سنتيه الأماميتين وهنا هتفت الأم أيوه هوه مدحت مش ممكن يكون غيره.

أسرعت بدون مساعدة أحد للدور العلوى ولم تنتظر نداء ابنتها والتى جلست فى مواجهتى مبتسمة ووجها أطل منه الضياء بعد أن تلاشى الضيق والحنق من مقابلتى فى أول الأمر قائلة: لو اللى قلته ده حصل مش عارفة نكافأك بإيه؟ أجبتها بسعادتك أنت ومامتك، أسرعت تطلب من السائق إعداد السيارة. هبطت الأم على عجل وقد أغفلت ارتداء حذائها فنبهتها ابنتها ولكنها لم تبال فأرسلت فكيهة لتحضر لها الحذاء وهى تنظر إلى. قوللى يا ابنى اتكلمت معاه؟ وقالك إيه؟ يعنى فايق؟ معلش بعين واحدة حلو وكمان من غير عيون. لو رجل واحدة باقية منه حأقبلها. الله على السعادة. أشكرك يارب. ياه يا ابنى أنا كانت عينى حتضيع من البكا.

تحركنا وقد اقتربت الساعة من التاسعة مساء وصاحبت الأم وابنتها «علا» أما الابنة الصغرى «دينا» فأمامها نصف ساعة لتعود من محاضرتها بكلية الآداب. رفضت الأم انتظار دينا وتحركت بنا السيارة تقطع الطريق حتى وصلنا إلى مستشفى المعادى فعرقلوا دخولنا فى بادئ الأمر ولكننى أخبرتهم بأنى شقيق النقيبة (.....) فتحوا الباب واتجهنا إلى قسم الأعصاب وتقابلت بشقيقة عادل فى الممر فنظرت إلى قائلة مش أنت صاحب عادل؟ أجبتها بالإيجاب وأخبرتها بأننى حضرت مع عائلة مدحت ولم تصدقنى فى بادئ الأمر وبعد أن شاهدت الأسرة عادت تصحبنا إلى سريره، كان جالسا على سريره ورأته أمه دون أن تتكلم صرخت. مدحت حبيبى وتقبله وتبكى وأقبلت رئيسة العنبر طالبة منها الهدوء وشقيقته هى الأخرى سعيدة به وهى غير مصدقة ووقفت بجوارى تعتذر وتمسك بيدى وتشدها بسعادة وفرح تشكرنى لما قمت به حتى استطعنا الوصول إلى شقيقها.

تنبه مدحت إلى أمه فبكى محاولا التحدث وضاعت منه مفردات الكلمات ولكنه بعد قليل تحدث عدة جمل وقبل يد أمه مشيرا إلى شقيقته بما يعنى أنه يعرفها ولكن اسمها هرب منه وهنا أخبرتهم رئيسة القسم بأن هذا شىء عادى

وسيتحسن مع مرور الوقت طالبة منهم مغادرة المستشفى ويمكنهم الحضور باكر لاصطحابه إلى منزله ولكن الأم لم توافق على ذلك مقررة المبيت بجواره أو أن يخرج معها. حاولت رئيسة القسم إقناعها بمغادرة المكان والعودة باكر دون جدوى. غادرتنا لعرض الأمر على إدارة المستشفى واتصلت بهم وعادت باشة الوجه لتخبرنا بأنه من حُسن الحظ أن نائب مدير المستشفى موجود ووافق على خروجه معكم.

بعد ساعة من دخولنا المستشفى خرجنا جميعا بصحبة مدحت. استأذنت منهم بأن أعود لوحدتى ولكن الأم كادت أن تقسم بألا أتركهم. أخبرتها بأنه سيوقع على جزاء إذا تأخرت وأنها لا ترضى بأن ينالنى عقاب.

ودعتهم مع وعد بأن أزورهم كل أجازة وزودونى برقم تليفونهم وحصلوا على رقم تليفون وحدتى. عُدت إلى منزل جدتى وقد اقترب الليل من منتصفه والبرد قارص فى الشارع. دخلت السرير لأنام بضع ساعات حتى أعود لوحدتى صباح اليوم التالى.

صباح اليوم التالى استيقظت وأنا مصاب ببرد شديد وآلام ورشح وصعوبة فى التنفس، طلبت منى جدتى أن أعتذر لهم بمكالمتهم تليفونيا ولكنى أخبرتها بأن ذلك لا يجوز. فأما أن أذهب للوحدة أو إلى المستشفى العسكرى. تحاملت على نفسى وعدت إلى وحدتى بعد أن تأخرت أربع ساعات وقد وقع القائد علىّ جزاء أربعة أيام حجز بالمعسكر لا أغادره عقاباً على تأخرى كنت خلالها راقداً فى سريرى أعالج من آثار البرد ولكن الأثر النفسى الذى تركه العثور على مدحت وعودته لأهله كان مصباحاً منيراً لى دائما. كنت أحلم بما تم وأنا مستيقظ وكأنه درب من الخيال وفى بعض الأوقات كنت أستبعد ذلك من خيالى غير مصدق معتقداً أنها هلوسة من أثر إصابتى بنزلة برد.

فى اليوم الثالث لعودتى وعدم نزولى أجازة وفى المساء أخبرنى جندى المراسلة بأن أسرتى تطلبنى على التليفون. تحاملت على نفسى وتحركت إلى مكتب القائد لأتلقى المكالمة وأنا فى دهشة بأن عائلتى بالزقازيق تتصل بى من

السنترال وماذا حدث هناك من أجل أن يتصلوا بى. كانت هواجس وأفكار سيئة مصاحبة لحالتى المرضية. أجبت على المكالمة وكانت علا شقيقة مدحت على الجانب الآخر وبعد أن أشبعتنى بعبارات تحمل مشاعر الشكر والامتنان عما حدث معهم منذ يومين استفسرت منى عن سبب عدم حضورى لهم فأخبرتها بأننى مصاب بنزلة برد وبعد أن أتماثل للشفاء سأحضر لزيارتهم. شكرتنى كثيراً وأخبرتنى أن والدتها ترغب فى محادثتى. تكلمت معى السيدة وداد بكل حنان الأم وبكل مشاعر الود الكامن لإنسان أنقذها مما ألم بها من آلام نفسية وفتح بارقة أمل متجددة أمامها وأمام أسرتها. تسألنى: مش بتقوللى ماما تانى ليه؟ ضحكت رغم مرضى قائلا: حاضر يا ماما. أجابتنى ماما بتقولك أول أجازة تنزلها تيجى قوام عشان تبوس أيدك وراسك على اللى عملته لها. كمان ماما بتقولك إنها جهزت لك أوضة جنب أوضة مدحت حتكون بتاعتك. اعتذرت ولكنها غضبت قائلة: من أربعة أيام مكنش فيه راجل فى البيت ودلوقتى حيكونوا اتنين. أولادى اتنين. أسامة ومدحت. كده ترفض كلام ماما. أشعرتنى بالخجل وفى نفس الوقت كانت الإفرازات المخاطية تسبب لى ضيقا وكنت راغباً بالتخلص منها. وافقتها وُعدت إلى سريرى سعيداً هانئاً لما سمعته من كلام ماما الجديدة وابنتها علا التى كان باديا على حديثها كل الود مخالفة للقائى الأول بها عندما قابلتنى صارخة فى وجهى تتهمنى بالنصب والاحتيال عليهم.

التدريب الشاق على العبور

يناير من عام ١٩٦٨ تاريخ لا أنساه أو يتناساه بعض القادة والعسكريين ففى هذا الشهر من العام التالى لعام الانكسار العسكرى العنيف على مصر وبعد مرور خمسة أشهر على تكوين الفرقة ١٨ مشاه تقرر البدء فى التدريب على العبور تمهيدا لجولة جديدة مع أعدائنا وكانت البداية فى القوات المسلحة لفرقتنا المتمركزة بالقاهرة والتى استكملت كل المعدات والأسلحة من الاتحاد السوفيتى.

أقلتنا اللوارى العسكرية الجديدة من نوع "جاز٦٦" وهى من طراز حديث إلى محطة سكة حديد الهايكستب وهى محطة عسكرية لوجودها فى هذا الموقع ومخصصه للقوات المسلحة وانهمك الجميع فى تحميل المعدات على عدة قطارات وكان اللواء١٣٦ باكورة وحدات الفرقة ١٨ مشاه لهذا النوع الحديث من التكتيكات على قواتنا المسلحة " الهجوم عبر مانع مائى " والمقصود به هنا قناة السويس. نواصل التدريب وكانت المنطقة التى يتم بها التدريب تبدأ من الرياح البحيرى وتمتد عمقا عشرين كيلومترًا بالصحراء وهى امتداد لصحراء مدينة (٦ أكتوبر) الحالية. التدريب كان عنيفا ومستمراً.

***

تقاربت مع أسرة ماما وداد وقد أضفى عودة مدحت إلى الفيلا السعادة والبهجة لهم جميعا وبعد عدة أشهر شعرت بميل عاطفى نحو علا والتى بدأت علاقتها معى بالهجوم العنيف على شخصى وأصبحت كل أجازه أقضيها معهم تضعنى محور اهتمامها وكنت أشعر بهذا وسعيدا به ورغم هذا كان لدى دائما شعور بعدم الأمان والخوف من ألا تدوم تلك العلاقة كما شعرت بأن ماما وداد أصبحت أنشط حركة عما شاهدتها أول مرة وقد تحسنت بشرتها وكثيراً ما كانت تضحك وتبتسم. أما مدحت فقد تحسنت حالة فقد الذاكرة كثيرا خاصة أنه تسلم عمله فى إدارة التوجيه المعنوى وأصبح نقيبا مُهابا ويرتدى نظارة شمسية لستر العين الصناعية التى تم تركيبها له فى المركز الطبى للقوات المسلحة. كانت ماما وداد تحدثنى بمشاعرها وأحاسيسها وما تشعر به من سعادة وكان يراودها دائما شعور بالخوف من المستقبل أن تزول تلك السعادة وهى تخبرنى بأن ابنتيها حولها وابنيها أسامة ومدحت. إنها دائما ما تسبقنى فى البنوة عن مدحت وهذا تكريم منها لى.

تسلمت علا عملها فى شركة فايزر للأدوية وشقيقتها الصغرى دينا أصبحت فى السنة الأخيرة من دراستها والتى كانت دائما لا تكف عن مشاكستى وقد ضايقنى هذا كثيراً وطلبت منها أن تلاعب علا ولكنها أخبرتنى بأنها ليست طفلة لتلعب وأخيرا تحدثت الأم قائلة يا ابنى هيا شاعرة أنكم فوق رووس بعض.

مازلنا نواصل التدريب الشاق فى منطقة أبو غالب القريبة من سجن القطا والتابعة لمحافظة الجيزة وهى صحراء شاسعة وهذا هو التدريب الليلى على مستوى فرقة مشاه بكامل أسلحتها. تواجد بعض المفتشين من قادة ومن وحدات أخرى ليسجلوا ملاحظاتهم وقد بدأ المشروع منذ غروب الشمس وبعد حوالى ثمان ساعات والبرد القارص يلفحنا تأتى سيارة جيب حديثه أربعة باب وينادى من بداخلها على ويستفسر منى عن عدد الوثبات التى قمت بها مع سريتى فأجيبه بأننى لا أتذكر فيصرخ بى متهما لى بأنى مهمل. تكرر هذا العمل من القادة المفتشين حيث إنهم مكلفون بهذا ولكن أثناء التدريب والبرد القارص

والمجهود المبذول يصبح الإنسان غير قادرًا على تحمل مثل تلك التوجيهات وبصوت مرتفع.

بعد فترة زمنية قليلة جاءت سيارة جيب قديمة. هبط منها شخص متسائلاً: الضابط اللى هنا ييجى بسرعة يكلم سيادة الرئيس. قذفت بكل شىء معى وبدون خوذة وبلانشيتة وأدواتى وذهبت إلى ذلك الرجل مستهتراً لأن كل فترة مطلوب منى أن أقابل أحدا من القادة ويسمعنى الانتقادات والتوجيهات. ساءلت نفسى من يركب تلك الجيب القديمة ويريدنى. من هو الرئيس الذى يريدنى؟ إن رئيس عملياتى له سيارة أحدث من تلك. اتجهت إلى السيارة وأنا أنظر لمن بداخلها معتقدا بأنه رئيس العمليات «برتبة رائد» وقفت صامتا مشدوها. إنه هو. أى والله هو الرئيس جمال عبد الناصر وليس رئيس العمليات. ياه صافحنى الرجل وسألنى مدفعية هاون؟ لم أجب فلقد أصابتنى حمى الصمت. فتح باب السيارة الجيب وشاهدته واقفا أمامى يرتدى «زنط» أى جاكت من الصرفية التى توزع على الجنود لحمايتهم من البرد أسير خلفه فينظر إلى مشيرا بأن ألحق به. أفكر هل أتركه وأذهب لأضع الخوذة على رأسى ثم أعيد تفكيرى بأنه لا يجب على ترك الرئيس وأعدو أمامه. وصل أمام الجنود المرهقين وقد أثر البرد على حالتهم بالإضافة إلى الإرهاق. وقف قائلاً: مساء الخير جنودى. أسمع أصواتهم ترد التحية بنغمات مختلفة ومتتابعة. وقد اندهشوا مثلى فانتفشوا وجاءتهم صحوة وقوة. والبعض هتف له. أشار لهم بالسكوت، وقف يخاطبهم ونحن فى وسط الموقع وأكثر من خمسة وأربعين جنديا بأسلحتهم ورشاشاتهم وبين المدافع ومازال الظلام يعم المكان مما اضطر أحد الجنود لإحضار «جركن المياه» الصاج ليجلس عليه وآخر أحضر الوسادة التى يضعها على ظهره لتحميه من ثقل قاعدة مدفع الهاون الحديدية ووضعها فوق الجركن وأصبحت كرسيًا مريحًا. ارتسم على وجهه الإشراق والسعادة وهو يشاهدهم يتبارون لراحته وتقديره فشكرهم وجلس يخاطبنا جميعا وقد ارتديت الخوذة وأدواتى التى أستخدمها فى المشروع ولكنه طلب من الجميع الجلوس براحتهم.

قال: جنود مصر الأعزاء وشباب مصر وفخرها. لقد تابعت كل التدريبات بنفسى حتى أكون على بينة من المستوى الذى وصلتم إليه وشاهدت عصر أمس تدريبات القوات الجوية وأسعدنى ما وصلوا إليه من براعة فى التدريب العملى كما شاهدت منذ ساعات الدبابات والمدفعية والمهندسين وأسلحة أخرى وها أنا ذا أتجه لمشاهدة سلاح المشاة. صمت قليلا وقال: أنتم عارفين أنى كنت ضابط مشاه. يعنى زيكم. أسعد هذا الجنود وخرجت أصواتهم بالتعبيرات المناسبة لهذا القول. يكمل: حرب مع إسرائيل مافيش منها خيار. لازم حرب ومش حرب عادية.. لأ.. حرب الصعايدة!!! ضحك الجنود.. أوضح.. يعنى حرب التار.. حرب الشرف.. لو مليون مصرى استشهدوا فى الحرب الجاية مش حتأخر عن أنى أقوم بها. لازم الحرب وأنتم أبطالها. الشباب همٌ كل شىء فى الوطن. أوصيكم بالاهتمام بالتدريب والمحافظة على سلاحكم.. وفقكم الله.

أشار لهم محييا وتوجه إلى السيارة يتبعه اثنان من حرسه الخاص وأنا أسير خلفهم بعد أن صافحنى استقل السيارة. عدت إلى الجنود بعد مغادرة الموقع والسعادة تغمرنا بأن رئيسنا وقائدنا المتواضع جلس بيننا. انتهى التدريب وعادت القوات إلى المعسكر لنكمل تدريباتنا العادية.

انتقلت وحدتنا إلى جبهة القتال كنسق ثان فى الجيش الثانى الميدانى واحتلت الوحدة موقعا فى منطقة أبو سلطان رديئة المناخ فى تلك الأوقات. أحصل على الأجازة الميدانية لأمضى نصفها فى القاهرة مع ماما وداد وإخوتى «مدحت وعلا ودينا» والجميع سعداء بقدومى وأصبحت علا أكثر تركيزاً معى وتطلب من أمها أن يقلنا السائق إلى وسط البلد لمشاهدة المحلات والتنزه. كانت الأم سعيدة بكل ما أفعله بإدخال البهجة عليهم بضحكاتى بعكس مدحت الذى كان هادئا ومتزنا وقد يكون سبب ذلك أنه أكبر منى عمراً كما أنه كبير أشقائه ولهذا كان يجدنى أنا ودينا عيال نلهو ونلعب حولهم. أما دينا فقد كانت تشكل أكبر مشكلة أمامى وكنت أدعو الله أن أجدها مشغولة بامتحاناتها أو أى شىء آخر يبعدها عنى نظراً لكثرة مشاغباتها وقد شكرتنى علا حيث أخبرتنى بأن حضورى يمنع مشاغبات دينا عنها حيث تتحول إلى.

علمت أن مدحت يعتزم خطبة ابنة خالته «سعاد» وهى مهندسة حديثة التخرج وكانت شابة لطيفة على مستوى عال من الجمال والهدوء ولهذا شعرت ماما وداد بأن منزلها غمره الفرح والسرور داعية الله بأن يكملها بخطبة علا وهى تنظر إلى ثم قالت وعقبالك أنت كمان لما تلاقى بنت الحلال اللى تسعدك. اندفعت دينا لتخبر الجميع. طيب يا ماما ماهو أسامة وعلا بيحبوا بعض. شعرت أن دمائى الحارة تغلى بجسدى وغطت كل شىء كما أن علا هى الأخرى أسرعت إلى الطابق الثانى. نظر إلى مدحت نظرة لم أعهدها منه من قبل. بينما عادت الأم بظهرها على كرسيها قائلة: كلنا بنحب أسامة مش علا بس. نزل علىّ هذا القول بالسكينة وراحة البال على جسدى ولكننى مازلت غاضبا مما قيل بتلك الطريقة.

شعرت بأنه من الواجب على أن أحدث كلا من ماما وداد ومدحت بما قالته دينا وقد أخبرت علا بأننى سوف أطلب يدها من مدحت. نظرت إلى ساهمة ثم أعقبتها بابتسامة رقيقة ولكن السعادة لم تكن بادية عليها.

فى المساء أخبرتهم بأن ما قالته دينا حقيقى وأنا أشعر بميل عاطفى جهة علا وأرغب فى التقدم لها ولو قراءة فاتحة. سكتت الأم قليلا ونظرت إلى ابنها ولكن مدحت نطق بما كانت تشعر به علا.. قائلاً: أنا مش موافق.. ساد صمت مطبق علينا نحن الخمسة ثم أعقبها ليس لأنك أقل منها ولكنك الآن فى ظروف حرب ولا نعلم ما تخبئه الأيام القادمة ولا أرضى لشقيقتى أن تصبح أرملة.

لحظتها أسرعت علا تغادر المكان ترافقها شقيقتها وقد وصل إلينا صوت بكائها أما الأم فقد أغضبها هذا القول قائلة له "بشر ولا تنفر" لماذا تلك النظرة المتشائمة للمستقبل.. أجابها بهدوئه المعهود.. ماما بنتك عندك والرأى الأول والأخير لك، نهض تاركا المكان الذى تحول مابين ليلة وضحاها إلى محزنة حاولت معها الأم أن تهدئ من توترى وتخبرنى بأن مدحت مازال يعانى من آلام إصابته نفسيا ولكن أوعدك بأن علا لك، نهضت مستأذنا للنوم مبكراً حيث إن إجازتى ستنتهى ظهر الغد ولابد لى من القيام مبكرا للسفر. ودعتها.. ودعت الأم الطيبة والتى وقفت هامدة لا تستطيع أن تتصرف بعد أن كبرت وكبر أبناؤها وأصبح لكل شخصيته ورأيه أما هى فقد أصبحت ضيف الشرف بدون بطولة ولو ثانوية.

«جفانى النوم يامسهرنى» على رأى الست أم كلثوم. لم أعرف للنوم طريقا بعد أن كنت أعيش وأحيا فى سعادة لا توصف بأن لى قصة حب هنا.

استيقظت فى الصباح الباكر أى قبل موعدى المعتاد بساعتين وبهدوء تسللت خارجا من الفيلا حتى البواب لم يلاحظ مغادرتى حيث كان يغط فى نومه العميق ويمصمص أطراف شواربه الطويلة وها أنا الآن فى ميدان رمسيس وتوجهت لمحل لتناول طعام الإفطار وأغنية يا صباح الخير ياللى معانا لأم كلثوم تنساب من الإذاعة مبشرة بيوم جديد قد يكون سعيداً أو رديئا على بعض الناس وكنت أنا من النوع الأخير والذى بدأت أيام حزينة بائسة فى حياتى الخاصة والتى كانت مثل الفيلم الخام ولكن أول صورة خرجت منه باهتة.

مضى شهران على آخر لقاء بينى وبينهم وكنا نحصل على إجازتنا الميدانية كل (٢٦ يوما) فنحصل على أربعة أيام وبالتالى يكتمل الشهر. بعد قضاء عدة ساعات مع القائد فى عملية استطلاع وتوجيهات لضباط الكتيبة عُدت مرهقا وسائرا عدة كيلومترات إلى موقعى راغباً فى الحصول على قسط من الراحة فاتجهت إلى مكان استراحتى حتى أعيد الهدوء النفسى والبدنى إلى جسدى المنهك ولكننى شاهدت أحدا بالداخل وأخبرنى الجندى المراسلة قائلاً:

جريب حضرتك جوه مستنيك من ساعة. دخلت إلى استراحتى لأشاهد مدحت جالسا فوق سريرى ومجرد أن شاهدنى وقف مرحبا لاستقبالى قائلاً: كنت فين؟ أنا من ساعه هنا. تبادلنا الأحضان وأخبرنى أنه تناول غذائى حيث كان جوعانا فشعرت بأننى الذى تغديت بدلا منه وأرسلت الجندى لإحضار طعام آخر وبعدها تناولنا مشروب الشاى سألنى: لماذا لم أعد أذهب لزيارتهم؟ هل هى مشاغل فى العمل أو غضب منا؟ أجبته لا هذا ولا ذاك كل ما فى الأمر أننى كنت أرغب فى مصاهرتكم ولكنك رفضت هذا وليس من الحكمة أن أتواجد فى منزل راغبا فى الاقتران بفتاة تعيش به وقد تم رفضى فى نفس الوقت فوجدت أن الابتعاد أفضل لى من الاقتراب، ضمنى إلى صدره قائلاً هذا رأى من عدة آراء

ولكن الحقيقة أن ماما تعبانة كتير كمان علا ودينا. إحنا كلنا عايزينك. ارجع تانى وحتلاقى أن رأيى قد تغير عن السابق. أمضينا ليلتنا وغادرنى فى الصباح إلى القاهرة.

حصلت على إجازتى وقضيت منها يومين مع أسرتى بالزقازيق وفى اليوم التالى توجهت إلى فيلا «دينا» واستقبلنى الجميع بالترحاب والحفاوة وخاصة ماما وداد التى دمعت عيونها فرحا وسعادة بعودتى قائلة: عاد ابنى ثانية إلى منزله ليعيش بين أهله. أما دينا فقد حضرت وبعدها بقليل حضرت علا من عملها والتى شعرت خلال بُعدى عنها بمدى ما أكنه لها من حب.

معارك مع العدو

نهاية عام ١٩٦٨ تحركت الوحدة إلى منطقة أبو سلطان سيئة المناخ ذات العواصف الرملية المستمرة. كنت قد توليت قيادة سرية الهاون منذ عدة أشهر بعد حصولى على فرقة دراسية بالقاهرة لهذا النوع من الأسلحة، والتى استمرت شهرين، قررت ماما وداد أن أقيم معهم طوال فترة الدراسة، كنت أشعر بحرج بالغ من هذا الوضع، نحن أبناء الطبقة الوسطى من الموظفين نتحرج من مثل ذاك الكرم حتى لا نشعر بأننا أقل منهم مكانة أو قيمة مادية ولهذا كنت أحاول سداد هذا الدين ببعض الهدايا لكل من ماما وداد وعلا بل والصغيرة دينا وكانت تلك الهدايا مثار مزاح ونقاش.

انتهت الفرقة وكدت أن أرسب بها وهذا معناه فى الحياة العسكرية عقوبة وجزاء مع خصم تكلفة الدراسة من راتبى، الحمد لله نجحت بالكاد وعدت لوحدتى وأنا أشعر بأنى خالى الوفاض من المعلومات حيث كنت مهملا الواجبات وأقضى أوقات المذاكرة فى الخروج والتنزه برفقة علا.

فى منطقة أبى سلطان وفى أحد الأيام دعيت مع قادة السرايا لمؤتمر مع قائد الكتيبة وعدت ليلا والظلام حالك مستخدما سلك التليفون الواصل بين سريتى

وقيادة الكتيبة خوفا من أن أفقد طريقى كما كان يحدث لكثير من الجنود، كانت سيارة التعيين "الطعام" بالسرية توزع طعام العشاء على الجنود والبرد قارص ولم أحادث أحداً، دخلت إلى اللورى الذى أعد ليكون مقرا لى لعدم وجود تجهيزات هندسية للإقامة.

كان جميع الجنود مشغولين بالحصول على وجبة العشاء بمن فيهم الخدمات ولهذا لم يلاحظنى أحد، جلست بداخل اللورى أعيد ذكرى آخر لقاء مع علا والابتسامة تعلو شفتى لهذا الحب السامى بيننا.

سمعت حوارا بين الجنديين اللذين يتوليان الحراسة قريبا منى، أحد الجنود يخبر زميله بأن الملازم أول أسامة ضابط ابن حلال وطيب بينما الآخر يعارضه بأنه ضابط مش بيعرف حاجة فى خصائص سرية الهاون ومعلوماته ضعيفة!!

لقد فوجعت مما سمعت، لقد شعر جنودى بأننى عارى المعلومات وأين أنا بالمقارنة بقائد السرية السابق النقيب عدلى حسان المتمكن من معلوماته وخبير بالسلاح، لقد فقدت أهم نقطة فى عنصر القيادة وهى ضعف المعلومات ومعرفة خصائص السلاح، إنها لكارثة، شعرت بفورة داخل جسدى وقررت أن أجابه الجنديين وأوقع عليهما أقصى سلطة جزاءات بيدى.

جلست قليلا أراجع نفسى، وجدت أن حديث الجنديين صحيح وأنا أشعر بأننى جاهل بالمعلومات والخواص التى تخص وحدتى، أصابنى الرعب من هذا النقص الرهيب فى شخصى، مازلت أتساءل: كيف أقود الجنود وكيف أقوم على تدريبهم وكيف يطيعون أوامرى وهم يعلمون بأن معلوماتهم أفضل وأغزر منى، لقد أصبحت أضحوكة بين جنودى، شعرت بأننى خائن للوطن متسائلا ألا يكفى هذا البلد ما حدث منتصف العام الماضى من هزيمة منكرة لهذا الجيش الذى يعمل به المهملون من أمثالى، يجب على أن أتوجه للقائد وأخبره بأننى ضابط فاشل، ماذا يفعل الشعب المصرى أكثر مما فعل، لقد أمننى على تراب هذا البلد ومنحنى خمسة وأربعين شابا من أفضل الشباب علما وصحة واشترى لى السلاح من الخارج ومنحنى العلم لفترة شهرين وأحصل على مرتبى بداية كل شهر

وأتناول طعاما وأحصل على ملابس وأدوات من الجيش، إيه ناقص الشعب مش أعطاه لى، بئس ما فعلت يا أسامة.

غمرنى حزن وأسى شديد وتوقف تفكيرى لفترة، نهضت مقررا أن أصلح ما كسر مسترشدا بما قمت به مع جنودى الأبطال العام الماضى بسيناء ويجب علىّ أن أكون أو لا أكون.

نهضت وأحضرت كتاب مدفع الهاون المترجم عن اللغة الروسية وتصفحت الفهرس وتذكرت المُعلم فى معهد المشاة وهو يعيد ويزيد فى أهم درس والخاص بمعايرة المدفع أى ضبط الخط الفسفورى على ماسورة المدفع مع جهاز التصويب ويجب تلاقى الاثنين عند علامة الصفر على جهاز التصويب حتى يصبح الرمى دقيقا ومؤثرا على العدو، نبهنا المعلم بأن الكثير من الضباط يهملون هذا الدرس.

قرأت الدرس بهدوء وروية وتفهمته وقررت أن صباح الغد سوف تكون أول مواجهة لى مع جنودى وسوف أثبت لهم بالدليل القاطع من هو قائدهم والتى بدأت الألسنة تلوك سيرته وجهله بالسلاح.

صباح اليوم التالى تجمعت السرية مثل كل يوم وتحدثت مع جنودى حديثًا طيبًا بعيدًا عن التشنج ثم أخبرتهم بأننى متفرغ لهم هذا اليوم وأطلب من كل طاقم أن يقوم على عيار مدفعه أمامى، نظر الشباب لبعضهم البعض وعلى أفواه البعض منهم بسمة خبيثة بأن ضابطنا وقع فى الفخ، تحدث أحدهم بأن هذا من شأن الضباط وأجبته بأن كل شىء فى المدفع من شأن الحكمدار والجنود أما الضباط فعليهم إدارة النيران، اعتذر الجميع بأنهم لا يعرفون هذا الموضوع.

طلبت أدوات المعايرة من المدفع وجهاز التصويب وجهاز الدايركتور وقمت أمامهم بكل خطوات الكتاب حتى انتهيت من معايرة المدفع، والذى تبين لهم بأن به خطأ ٢٥ DC يمين، قمت بإصلاح الخطأ فى جهاز التصويب مستخدما المفك المخصص لهذا.

توالى تدريب الجنود وكل يوم درس جديد وكل يوم ثقة بالنفس واحترام من الآخرين حتى تأكد لهم بأن قائدهم خبير فى هذا السلاح بل فى المسابقات التى

كانت تتم بين الوحدات كان ترتيبنا الأول على باقى الوحدات مما دفعنا إلى الثقة بالنفس ولم يكن ينقصنا شىء سوى الاشتباك مع العدو، تذكرت الآية القرآنية «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» صدق الله العظيم.

* * *

ليسمح لى القارئ بأن أضيف فقرة بتلك الطبعة ولم تضف فى الطبعتين الأولى والثانية لرفض المراجع أن نعرضها على القارئ خشية المزايدة بأننا نتكلم عن أشياء من قبيل الخرافات والغيبيات، الحقيقة ما أتحدث عنه هو من صميم الحياة لأنه من خلق الله وهذا هو السبب فى أننى أوضحت فى بداية الكتاب أن بعض الأشياء تحدث وهى قدرة من عند الله، لن أطيل ولأدخل فى الإضافة التى أرغب بأن يقرأ عنها الجميع ومن يصدق فهو يؤمن بأن الله هو القادر وفعلْ هذا ومن لم يصدق ويعتبرها جنوحا وشططا فسوف نحترم رأيه.

* * *

بداية عام ١٩٦٩ انتقلت الكتيبة إلى منطقة الفردان، المنطقة عبارة عن أرض صحراوية قريبة من قناة السويس وتقع شمال كوبرى الفردان، على شاطئ القناة مباشرة، يوجد مبنى لإرشاد السفن ومازال العمال والموظفون متواجدين فيه، غرب هذا المبنى يوجد طريق القناة المرصوف الواصل ما بين السويس جنوبا حتى بورسعيد شمالا، غرب هذا الطريق توجد خطوط سكة حديد للخط الواصل ما بين الإسماعيلية وبورسعيد، والذى نقلنى عام ١٩٦٧ من بورسعيد إلى القاهرة بعد العودة من سيناء.

محطة سكة حديد الفردان.. يوجد رصيفان للمحطة.. الرصيف الشرقى به أماكن الموظفين وشباك التذاكر وأسفل هذا الرصيف توجد أماكن إيواء عمال الدريسة وهم العمال المسئولون عن إصلاح خط السكك الحديدية والفلنكات المتآكلة، عبارة عن سبع حجرات من الطوب الأحمر، على الجانب الآخر أى الرصيف الغربى يوجد سكن ناظر المحطة بعائلته، منزل كبير مكون من حجرات ثلاث ومنافع المنزل، المحطة ليس بها موظف واحد وموقع سرية الهاون يقع

بصحن المحطة، الليلة الأولى لى توجهت لمنزل ناظر المحطة والمغطى بنباتات كثيفة وخلفه مساحة واسعة من الملاحات والمكان يخيف نهارا فما بال المرء ليلا.

أنام على باب خشبى رُفع من على الأرض على حمالتى حديد من الذى يستخدمهما النجارون لقطع الأخشاب، كنت فى حالة سيئة من الإرهاق والتعب فدائما ما يكون يوم غيار القوات متعبا مرهقاً، نمت بالأفرول وخفضت ضوء اللمبة الجاز نمرة خمسة ورحت فى نوم عميق.

لا أعلم الوقت الذى مضى على نومى ولكنى فزعت من نومى وشعرت بأن شيئا غريبا فى المكان، رفعت جسدى أنظر فى الغرفة وقد تسلل الخوف تدريجيا إلى نفسى، سميت الله وأنا مازلت أنظر بالغرفة الفارغة ذات الأرضية الخشب والسقف أيضا بالخشب، المبنى قديم وذو حوائط عريضة وبالتالى الشباك بالغرفة به مساحة مثل الرف الخشبى، شاهدت بجلستى تلك حيوان أقرب الشبه إلى القط ولكنه أكبر حجما وشكله جميل وغير مخيف، الحيوان خليط اللون ما بين الأبيض والمشمشى، لكن ما أثار فضولى ودهشتى أن الحيوان محصور ما بين الشيش وزجاج الشباك وتلك المساحة لا تسمح لعصفورة بالبقاء بل إن الحيوان يقوم باللف والدوران فى المساحة بين الشيش والزجاج.

دُهشت لهذا واعتقدت بأن أحدًا من جنودى فتح الشباك وأدخل هذا الحيوان وأغلقه عليه دون أن ينتبه ولكن الأهم هو كيف يتحرك بداخل الشباك، قررت أن أنهض لأقوم بفتح الشباك وفك أسر الحيوان لكن المدهش أن رياحًا أقبلت بشدة وشعرت بأنها تطوف من حولى وشاهدت إضاءة اللمبة تتراقص بشدة وشعرت بأن شعر رأسى وقف وسمعت طقطقة به وهالنى الأمر، ظلت تلك الرياح تدور حولى كأنها سحابة بيضاء ثم توقفت وبعد قليل بدأت ثانية بسرعة غريبة وأطفأت إضاءة اللمبة وأصبحت فى ظلام دامس مما سبب لى الخوف أكثر فطلبت جندى المراسلة دون جدوى.

شعرت بأن قلبى سيتوقف من الخوف نهضت مسرعا وحملت حذائى وشرابى والبالطو الصوف مغادرا الحجرة وكل خطوة أصطدم بالحائط وهكذا حتى

غادرت المنزل والعرق الغزير يغلفنى والرعب كاد أن يقضى على آخر نفس بحياتى، شاهدت جنود الحراسة قريبا منى فتماسكت بصعوبة وارتديت الشراب والحذاء وذهبت إليهم أحادثهم لأخرج من هذا الذى حدث وفى نفس الوقت أخفى مشاعرى وتوترى، الجنديان فى حالة من الخوف والارتباك وحادثنى أحدهما: « أفندم الحتة دية مسكونة وفيها عفاريت» نزل على هذا التعبير قاسيا أى أن ما حدث لى بالداخل هو عفاريت والجندى يؤيد هذا، تبادل الجنديان توضيح حديثهما وأنهما منذ ساعة أو أكثر يشاهدان دوامة هوائية تدور حولهما بل زاد الأمر بأنهما قذفا ببعض حصوات من حصى البازلت الموجود حول القضبان، أثناء حديثهما أقبل جندى مضطربا ولم يتوقع وجودى حيث إننا جميعا نرتدى البلاطى الصفراء، اندفع يحدثهم ويسب الموقع وأنه أثناء وقوفه خدمة وملتصق بالحائط شعر بأن شخصا ضربه بالشلوت.

حدث اضطراب وأقبل الجنود بالتوالى وكل واحد يقص حكاية مشابهة أو مخالفة لما سمعته وما العمل، أنظر إليهم فهم جنودى أبناء الإسكندرية وبورسعيد والقاهرة ونصفهم تخرج فى الجامعة والنصف الآخر حصل على الدبلوم أى أنهم شباب ناضج وبعيد عن قصص الوهم، الجميع يطلب منى الحل وأنا ليس لدى حل ولم أتحدث وأخبرهم بما حدث لى حتى يقصوا ما أرعب قائدهم ويتركوا ما أخافهم.

حوالى العاشرة صباحا وأثناء تواجدنا بالموقع نرتب أعمال المدافع ونراجع الذخيرة وترتيبها وقد انتهى جنديان من حمل أغراضى من المنزل المخيف مقررا عمل حفرة أسفل رصيف المحطة لأنام به حتى أكون قريبا من جنودى لمشاهدة العفريت الذى يتحدثون عنه.

قارب الجنديان من الانتهاء من إعداد الملجأ الذى سوف أقيم به وإذ نسمع ونشاهد انفجارا ضخما بالمنزل الذى تركه الجنود منذ ساعة بعد أن حملوا أغراضى منه، قذيفة دبابة إسرائيلية أطاحت بالمنزل واشتعلت النيران به نظرا

لأنه مقام من الأخشاب، تبادلت وجنودى النظرات، نهاية ذاك اليوم أقبل أحد العاملين بالهيئة يشاهد المنزل وهو فى دهشة بأنه منذ نهاية الحرب وحتى الآن لم يحدث قصف لتلك المنطقة.

منتصف الليل وبعد الأحداث التى حدثت من تدمير منزل ناظر المحطة والذى نجوت منه كنت نائما أسفل الرصيف وقد وضع الجنود ستارة من مشمع الفرش على الحفرة اتقاء البرد، نهضت ليلا لشعورى بتعب وبأن شيئا ثقيلا جسم على صدرى، رفعت إضاءة الفانوس الهوركين وكانت الصدمة الشديدة، لقد شاهدت حيوان الأمس نائما على صدرى وعينه بعينى ولكن بلون مخالف أبيض على أسمر، حاولت النجدة فحبس صوتى حاولت أحرك يدى دون جدوى ومازال ناظرا فى وجهى العين بالعين وهو نائم بوضع أبى الهول.

أخيرا تشجعت وضربته بظهر يدى صارخا فيه وهرولت من حفرتى لمتابعته ولكننى لم أعثر على شىء وتساءل جنود الحراسة عما ضايقنى فشرحت لهم فأخبرنى أحدهم بأنه شاهد بعد صراخى شيئًا أسمر اللون قفز أمامهم وارتفع طولا وعرضا ولف حول نفسه عدة لفات واختفى، عدت لمكانى متخوفا ومتسائلا ماذا أفعل وجاءنى اعتقاد بأننى سوف أموت دون حرب مما أشاهده.

نهارا أثناء تواجدى مع الجنود سمعنا صوت ارتطام وبعض الغبار، أسرعنا جهة الصوت لقد سقطت الألواح الأسمنية التى كانت تغطى الملجأ الذى كنت أنام بداخله، نظر إلى الجنود البعض فى دهشة والبعض أقبل مهنئا فهذا ثانى حادث وينقذنى الله من الموت.

نتبادل الأحاديث ونشاهد ذاك الحيوان نهارا جهارا على تلة مرتفعة بالموقع أسرع الجنود بالعصى والكواريك لقتله ولكنه لف حول نفسه لفة سريعة واختفى، قال أحد الجنود أن هذا الحيوان كان يحفر بمخالبه فى هذا المكان، طلبت من الجنود الحفر فى المكان الذى كان الحيوان يحاول الحفر فيه، صعد كل من الجنديين المنوفى وعيد إلى التل وقاما بالحفر، توقفا وقال أحدهما الكوريك بيصد يا فندم وهذا معناه وجود جسم صلب أسفل الرمال، هبطا ونهض آخر

محاولا الحفر مستخدما يداه، بعد قليل شاهدت ومعى جنودى ذراعا بشرية تظهر من أسفل الرمال سرعان ما انفرد الذراع إلى الخارج، أصابنا الهلع والخوف وترك الجندى الذى كان يحفر المكان متخوفاً ، تراجعنا إلى الخلف بضع خطوات، تقدم العريف عبدالمنعم "مهندس زراعى بالحياة المدنية" تقدم وملس على الذراع بهدوء فتبعناه وتشجع الجنود وأزالوا الرمال من على الجثمان الذى ظهر واضحا كاملا يرتدى أفرولاً ولا ينتقص منه شيء سوى بعض الرمال التى غبرت الملابس ووجهه، الجسد كامل لإنسان كأنه توفى منذ ساعات قليلة الجثة مرنة لا توجد رائحة كريهة أوصاف الجندى واضحة كأننا نعرفه لا شيء يخالف أى جندى كان يعمل ويحفر وأصابته عفرة العمل، سجى أمامنا وأنا أنظر إليه، شاهدت تجمعًا دمويًا من بين طيات ملابسه وليست متجلطة أو متماسكة بل تشبه فى تماسكها المربى أو الصلصة وتبين أن سبب ظهورها هو إصابة من كوريك الحفر الذى حاول الجندى الحفر به، صاح أحد الجنود ليخبرنا بأن هناك جثة أخرى، توالت لتصبح ثلاث جثث كاملة مرنة وينثنى الجسد والرائحة لا أجامل بأنها جميلة وتشبه رائحة زهور الموالح.

توقفت لبعض الوقت أفكر ماذا علىّ أن أفعل وأتصرف؟ هل أبلغ القيادة وندخل فى أسئلة وس و ج ولماذا تم هذا وأسئلة عديدة، كان القرار السريع والحاسم بناء مقبرة لهؤلاء الشهداء تليق بهم ولهذا أسرع الرجال بنزع بعض ألواح رصيف المحطة الأسمنية وقاموا بعمل حفرة كبيرة بأبعاد ٢متر عرض و٢متر طول وعمق أكثر من نصف متر، كنت أقف والجنود يعملون وأتطلع بعمق لهؤلاء الشهداء وأنا غير مصدق ما أشاهده، لقد كانت لحظة فارقة بين حياة البشر وحياة البرزخ التى يحيا بها هؤلاء، بعد مضى ثلاث ساعات من العمل المتواصل انتهى الجنود من إعداد المقبرة التى تليق بهم، بدأ فى رفع جثامين الشهداء وكان منظرا فريدا وكل اثنين من الجنود يحملون شهيدا من قدميه وذراعيه وأشاهد كيف أن الجسد مرن وساقط لأسفل كما نشاهد إنسانًا يحمل وينقل من مكان لآخر وهو فى حالة من النوم أو الإغماء، وضعت الجثث متجاورة وغطيت الحفرة بثلاث ألواح من الأسمنت، وقمنا بالصلاة على أرواحهم الطاهرة

وكان أمامنا المهندس عبدالمنعم، أحطنا المكان ببعض الأسلاك الشائكة لمنع السير فوق المقبرة الطاهرة، أخبرنى عبد المنعم أنهم فى راحة الآن وإذا كانت المقبرة لا تليق بهم فسوف يأتيك أحدهم بالمنام ليخبرك بهذا، توترت وخشيت هذا.

توجهت لحجرتى البديلة لأنام بها وأنا أخشى مشاهدة أحدهم أثناء نومى، رحت فى سبات ولكنى فزعت بعد قليل على صوت يهف على وجهى، نهضت من نومى وأضأت الغرفة أتوجس خيفة، متسائلا ما هذا يا ربى؟

جلست بعض الوقت أتلفت حولى وأنا فى حالة من الاضطراب، أحادث الشهداء: فيه إيه تانى؟ أنتم مش مستريحين وأنا عملت كل إللى أقدر عليه، والنبى بلاش تتعبونى وخليكم نايمين فى راحة، بعد قليل شاهدت شيئا يطير فى الحجرة ويقترب منى بسرعة ويعدو ثم يأتى وأنا فى حالة من الخوف، طلبت جندى الحراسة وأخبرته بمخاوفى وقد طلب العون من زملائه الجنود فأقبل بعضهم يشاهدون ما أشاهد، بعد قليل شاهدوا الطائر وهنا ضحك بعضهم ليخبرنى بأن ما خشيته لم يكن سوى "خفاش" كان بالحجرة، هدأت نفسى وعدت لنوم مستريح ولم يحدث شىء غير طبيعى بعد هذا.

اليوم التالى توجه بعض الجنود لمبنى الإرشاد لهيئة القناة وأفضوا بما حدث لبعض العاملين والذين أفادوا بأن جثث الشهداء الثلاث تخص طاقم مدفع مضاد للطائرات وفى خلال اليوم الأول لحرب ٦٧ أغارت بعض الطائرات المعادية على المنطقة فتصدوا لهم واستطاعوا إسقاط طائرة انفجرت بمن فيها فأقبلت طائرة أخرى وقصفت طاقم المدفع مما أدى إلى دفنهم أسفل الرمال وقد قمنا بدفنهم فى هذا المكان، دُهشت لهذا فهذا يعنى بأن تلك الجثث مضى على دفنها عشرون شهرا أو يزيد.

كنت دائما ما أتذكر هذا الحادث وأقارنهم بشهداء سيناء والذى شاهدت تحلل أجسادهم ورائحتهم النفاذة وسؤال واحد يطن بأذنى: ما الفارق بين الاثنين؟ لكن أحد رجال الدين أخبرنى بأن الشهادة لها درجات وأعظمها درجة من يقابل العدو مقبلا أى بالوجه مقاتلا وأقلها من يقابل العدو مدبرا أى يهرب أمامه، الآن

علمت ووعيت هذا الحدث الإلهى الذى شاهدته وعاصرته، سارت حياتنا طبيعية ولم تحدث أى مضايقات بعد هذا لجنودى أو لشخصى.

* * *

بداية شهر مارس من عام ١٩٦٩ وما زلنا بموقعنا فى الفردان وفى اليوم السابع اخبرنى النقيب فاروق متولى قائد السرية بأن أتحرك بجنودى ومدافعى إلى تبة الفردان فى آخر ضوء للموقع التبادلى لاحتمال الاشتباك مع العدو وقد زودته مدفعية اللواء بأهداف مطلوب منا قصفها بالذخيرة الحية من نوع شديد الانفجار. التبة فى مواجهة كوبرى الفردان مباشرة وهذا المكان هو الحد الأيمن لكتيبتنا وكان على الجانب الأيمن لنا الكتيبة رقم ٥٣٧ من نفس اللواء وتحتل الموقع رقم «٦» أو نمرة ستة وهى منطقة معروفة بالإسماعيلية وبها مستشفى معروفة للآن بهذا الاسم.

المسافة ثلاثة كيلومترات سنقطعها إلى هذا الموقع سيراً على الأقدام حاملين مدافعنا أما الذخيرة فهى مخزنة بالموقع منذ تسلمناه من الوحدة السابقة وكل فترة أرسل بجنديين لمتابعتها والتأكد من سلامتها. المكان مكون من الكثبان الرملية الدقيقة التى تشبه الغبار فأقل رياح تثيرها. تحركنا إلى تلك التبة وأعددنا كل شىء لزوم هذا الاشتباك الفعلى مع العدو للمرة الأولى لوحدتنا.

الطقس شديد البرودة وخاصة بالليل فما زلنا فى الشتاء رغم أن مارس يعتبره البعض بداية فصل الربيع ولكن فى أجواء الصحراء له إحساس آخر ولسعة برد تجمد الأطراف وقد تزودنا جميعا بملابسنا الثقيلة حتى نتقى البرودة ليلا وصدر الأمر إلى بواسطة التليفون الميدانى بالاستعداد لقصف الأهداف «أرقام.....

بمجرد أن وصل الأمر إلينا بالقصف عزفت مدافعنا نحن المصريين مستعدون ونقوم بدك مواقع وأسلحة العدو. استمرت وحدات المدفعية الثقيلة والمتوسطة المدى فى قصفها وكان سلاحنا بالسرية هو أقل عيار فى أسلحة المدفعية وأقصى مدى له ثلاثة كيلومترات ولكنه فعال إذا أحكمت إدارة النيران. قائد السرية النقيب فاروق متولى الذى يدير النيران هذا الرجل البارع الشجاع الذى لم يكن

يهاب الإصابة يقف فى مركز ملاحظته شديد البأس ليصحح بأجهزته ومعاونيه من جماعة إدارة النيران ومعه الجندى مؤهلات حسين سامى السيد الحاد البصر والدقيق فى تقدير المسافة ويرافقه العريف مؤهلات سعد معروف على أجهزة الإبصار ليحدد موقع تساقط قنابلنا ليقوم قائد السرية بتصحيحها. استمرت المعركة بالنسبة لنا ساعتين وكل أهدافنا دمرت عن آخرها ولكن المدفعية الثقيلة مازالت تقوم بعملها إلى وقت متأخر من الليل.

اتصل بى قائد السرية من مركز الملاحظة على شاطئ القناة يخبرنى بأن فلول العدو هربت من القصف ولجأت إلى شاطئ القناة تحتمى من قصف المدفعية الثقيلة ولهذا فقد صدرت له الأوامر بقصف تلك الفلول بعد ساعة من الآن، طلب منى الاستعداد لهذا القصف، أخبرته بأن الذخيرة المعدة للقصف انتهت ولابد من تجهيز ذخيرة أخرى فأجاب أمامنا ساعة من الآن وعليك تجهيز الذخيرة.

كنت فى وضع سيئ، فالذخائر تحتاج لوقت كى نزيل الشحم المغلفة به وتلك الذخائر صناعة روسية ومعروف شدة تماسك الشحم الروسى ونحن نبعد عن موقعنا الرئيسى بأكثر من ثلاثة كيلومترات ولا توجد لدينا "كهن القماش" التى سنجفف بها الذخيرة بعد غمسها فى السولار لإزالة الشحم ولا أستطيع أن ندفع بالجنود بنزع ملابس الميدان "الأفرول" لهذا العمل للصعوبة التامة حيث درجة البرودة بالإضافة إلى مخاطر القذف المضاد الذى قد يطال الموقع فيحترق الجنود بسهولة.

خلف الموقع قطعة أرض صغيرة حوالى فدان يقوم على زراعتها صاحبها فلاح من تلك المنطقة ولزم أرضه ولم يهاجر وكان يعيش مع زوجته وابنته الوحيدة ذات الأربعة عشر ربيعا، توجه أحد الجنود إليهم وكنا على علاقة طيبة بهم منذ شهرين حين نسلمنا الموقع للسؤال عن توفر قماش بالى نقوم به على تجفيف الذخيرة.

جاءنى الجندى باش الوجه بأن عم متولى سوف يقوم مع عائلته بمهمة تجفيف الذخيرة من آثار السولار حتى يساعدنا ويقوم على معاونتنا حتى نلحق بموعد

القصف، من الناحية الفنية لا يمكن أن نستخدم الذخيرة المبللة بالسولار لاشتعال السولار بداخل مواسير المدافع مما يؤدى إلى آثار سلبية على الماسورة كما سينتج لهب قوى يظهر موقعنا ويعلم العدو ويحدد الموقع ويقوم بقصف مضاد يساعد على زيادة الخسائر بين الجنود.

بهمة الرجال قام جنودى بكل عزيمة وجهد خارق رغم المجهود المضنى من الاشتباك وعدم التماس الراحة والنوم بإزالة الشحوم عن دانات المدفع وكانت كمية الذخيرة المطلوب إعدادها كبيرة، البعض يحمل صناديق الذخيرة للخلف مائتى متر لمنزل عم متولى الذى باشر مهمته بنجاح بمساعدة زوجته وابنته، انتهينا من إعداد الذخيرة ونحن مستعدون لتنفيذ أوامر الاشتباك مع العدو.

أسر رقيب السرية فى أذنى بأن عم متولى وزوجته وابنته جففوا السولار العالق بالدانات بملابسهم التى يرتدونها، تألمت وتخوفت فهذا خطر عليهم , قلل الرقيب من ضيقى بأنهم الآن قد أبدلوا تلك الملابس بأخرى، تمنيت هذا ودارت الاشتباكات مع العدو وكانت ناجحة حيث قصفنا فلول القوات الهارية والتى حدثت بينهم خسائر مما اضطر الكثير إلى الهرب شرقا فتسلمتهم المدفعية ذات العيار الأكبر.

أشرق الصباح ونحن لا نستطيع التحرك من السهر والمجهود المتواصل لأكثر من أربع عشرة ساعة، أرسلت بأحد الجنود للاطمئنان على عم متولى وأسرته، بعد قليل شاهدنا الجندى مقبلا مسرعا والاضطراب يغلفه وصاح قائلا: العيلة باين عليهم ماتوا، مش بيتحركوا فضلت أكلمهم ولا واحد رد علىّ.

أسرعنا إلى دار عم متولى وكان باديا على الأسرة حالة الموت التى تحدث عنها الجندى فلا حركة ولا استجابه، حركت عم متولى فشاهدته يفتح عيناه ثم عاد إلى نومه، كانت يداه باردتان مثل قطعة الحديد، طلبت من الجنود إعداد الشاى لهم على وجه السرعة وأرسلت ببعض الجنود لموقع السرية الرئيسى لإحضار ملابس تقيهم البرد بديلا عن الملابس التى لم يستبدلوها بأخرى فما زالت ملابسهم المغطاة بالسولار على أجسادهم النحيلة، نزع بعض الجنود البلاطى

ووضوعها على أجسادهم، بعد أن تناولت الأسرة الشاى دبت فيهم العافية من جديد ويسؤال عم متولى لماذا لم تبدلوا ملابسكم بأخرى ابتسم ساخرا ونظر إلى الأرض ولم يفصح وأنا لم أكرر السؤال لقد كانت الأسرة فقيرة لدرجة أنهم لا يمتلكون ملابس أخرى وظلوا طوال الليل شديد البرودة وأجسادهم مبللة بالسولار.

أقبل الجنود والذين أرسلتهم فأحضروا ملابس «أفرولات» وبعض الملابس الداخلية وصابون وفوط وعدد من البطاطين حتى تشمل الأسرة بالنظافة والدفء، قدموا شكرهم وثناءهم على ما قمنا به، تعجبت لهذا فنحن المدينون لهم وليس هم، كانت حالة إنسانية رائعة من المصريين الذين يدافعون عن وطنهم بكل شيء غال إذا كانوا يملكون هذا الشيء ولكنهم فقراء ويعلمون أن حياتهم رخيصة ولا قيمة لها، لقد كان درسا عظيما لنا مما دفع ببعض الجنود إلى ذرف الدموع وتطوع أحدهم بجمع مبالغ نقدية من الجميع لمساندة تلك الأسرة ورغم هذا رفض الرجل وكان فى أشد الحاجه لأى مليم يعينه ويعين أسرته.

مازلنا فى موقعنا يغالبنا الإرهاق والنعاس رغم أننا بالنهار وفجأة حوالى التاسعة صباحا أشاهد صواريخهم الموجهة تضرب بكل قوة موقع اليمين نمرة ستة والانفجارات تتوالى قريبة منا واستمر تبادل القصف معهم بالأسلحة الثقيلة.

فى الظهيرة أمرنا بأن نعود إلى موقعنا الرئيسى فعدنا مرهقين مما ألم بنا من مجهود ولم يبادلنا العدو القصف ولكن علمنا بأن الفريق عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة نال الشهادة فى موقع نمرة ستة وكان أثنائها يتفقد قواتنا على الجبهة وأصيب معه كل من قائد الجيش الثانى اللواء عدلى وقائد الكتيبة المقدم ليون مسعد تادرس، لقد فقدت القوات المسلحة الرجل الأول بها فهذا المنصب هو أرفع منصب بالقوات المسلحة رغم أنه يلى وزير الحربية ولكن الوزير هو فى المقام الأول منصب سياسى لكن القيادة الفعلية فى العمليات تخص رئاسة الأركان.

شملنا الحزن بعد فرحنا بما أصاب العدو ولكن كل نفس ذائقة الموت واستشهد القائد بين جنوده على الخطوط الأمامية وماله من شرف له ولنا أن تكون قيادتنا التنفيذية الأولى بتلك المكانة والشجاعة.

سعدت أيما سعادة بمهارة قائد السرية وإدارته للنيران وتماسك أعصابه واعتبرتها درسا مستفادا لنا جميعا وكنت أركز على هذا الشرف الذى يستحقه الرجل نظرا لضيق بعض جنودى من إهانتهم ولكن تطور هذا الضيق إلى أن أصبحوا يتقبلونها بروح الدعابة لما يصاحبها من كلمات جادة ولكنها تدخل المرح والسرور عليهم وهكذا أصبحنا وحدة مقاتلة ونجحنا فى أول اختبار فعلى مع العدو ورفع هذا من روحنا المعنوية تاركين المزايدات التى تحدث أحيانا بين المصريين بأن هذا أحسن وذاك أفضل وما المانع بأن يكون العديد امتياز وأن يصبح الكثيرون شجعانا فهذا أجدى لنا بأن نزيد من أعداد النابغين والمتفوقين فى أعمالهم وخاصة فى الحروب. إن الحروب ليست مقصورة على شخص ما.

حصلت على أجازتى الميدانية بعد تلك المعركة بأسبوع وشعرت بمدى فرحة الناس بأن لهم جيشا يستطيع التعارك مع العدو على قدم وساق.. قضيت نصفها مع عائلتى بالزقازيق والنصف الآخر مع عائلتى الحبيبة بالقاهرة وحصلت على حبهم وعطفهم ومودتهم التى كانوا يقابلوننى بها مثل ما أحصل عليها من عائلتى ببلدتى ولكن كان يزيد عنها هو إمكاناتهم المادية التى يعيشون فى كنفها وثانيا وهو الأهم القلب وما يريد فكانت حواسى تستعجلنى بأن أصل إليهم لأشعر بكل حب أموى وأخوى وإنسانى عاطفى من علا. كانت تقرأ أفكارى وتعلم مدى رغبتى فى التنزه والتحدث وسماع الموسيقى والأغانى. هى توأم إحساسى وتعلم ما هو الجزاء لشخصٍ مثلى يعيش فى جبهة القتال ستة وعشرين يوما وأعودهم يومين كل شهر فيحيط بى الأربعة كل يريد مكافأتى بما أستحق وحسب درجة القرابة بينى وبينهم.. فماما وداد تعاملنى كأمى وتزيد وأخى مدحت هو الأكبر والذى ينظر إلى هذا الأخ بكل حب الأكبر إلى الأصغر مغدقا على حُبه ونصائحه أما دينا فهى تكيل المشاغبات والضحكات لتعوضنى عن أيام بُعدى عنهم وأيام شقائى

بجبهة القتال أما علا فهى كل شىء لى لا أستطيع رد رغبة لها ولا نزهة معها ولاهدية منها.

نهاية العام نفسه انتقلنا إلى موقع آخر بالقنطرة غرب. أى نعيش بداخل مدينة مهجورة من سكانها. موقعى فى مدخل المدينة مباشرة بطريق متفرع من طريق الإسماعيلية بورسعيد وبعد عبور «سينما شطا» نجد المدخل الرئيسى للمدينة وكان هناك مدخل آخر جديد وحديث عريض شمال هذا المدخل ولكن لم يتم الانتهاء منه قبل الحرب. كان واضحا من شرح قائد السرية التى سنقوم بغياره أن الاشتباكات مع العدو يومية ولا تنقطع لوجود تركيز لقواتهم بمدينة القنطرة شرق المواجهة لمدينة القنطرة غرب. كان باديا ذلك من الانفجار المتبقى آثاره حول الموقع. زودنا بكل الأهداف وبياناتها كما هو متبع وتسلمنا ذخيرتهم لأنها ذخيرة موقع أى فى التحركات نترك خلالها الذخائر ويتم تسليم وتسلم بين الوحدات. الموقع يقع فى حديقة منزل بمساحة لا تقل عن نصف فدان تكثر بها أشجار الخوخ والرمان والتين. خلف هذا الموقع يوجد مبنى مكون من أربعة طوابق وكان مستأجرا من صاحبه وتقيم به وحدة مخابرات من خفر السواحل تراقب العدو وترسل بمعلوماتها لقيادتها وقيادة الجيش. أمام الموقع بعض عمارات قصيرة الارتفاع ثم مبنى بلدية القنطرة ثم عمارتان سكنيتان من المساكن الشعبية. الأولى والتى جهة العدو فارغة نظراً لقصف العدو لها باستمرار أما الثانية فكان بها مركز ملاحظة سرية الهاون والفاصل بينى وبين الملاحظة حوالى ثلاثمائة متر والاتصال بيننا عبر خط التليفون الميدانى. خلف سريتى بمائتى متر توجد فصيلة دبابات تابعة لكتيبة دبابات اللواء وبها ضابطان. قائد السرية وهو الملازم أول حسام ناصر وزميله ملازم أول احتياط محمود خميس السيد.

لم يمض يوم واحد إلا وشعر العدو بأنه حدث غيار بين الوحدة القديمة ووحدة جديدة فأراد أن يرسل بتحيته إلينا فقصفنا بقصفات متتالية بقنابل شديدة الانفجار والفسفورى ليلاً. اضطرينا فى تلك الليلة واختبأنا خشية الإصابات فالمنطقة جديدة علينا ولأول مرة نقصف أما فى الفردان فكنا البادئين بالقصف وكنا نشاهد اشتعال نيران وحرائق لم نعتدها فى الذخيرة التى معنا. كل

ما نملكه من أنواع الذخيرة ثلاثة أنواع (شديد الانفجار... دخان... مضىء) ولم نكن نعلم أن العدو يمتلك هذا النوع وكان يجب إخبارنا بهذا حتى لا نضطرب.

دق جرس التليفون وأجبت فإذ قائد السرية يستفسر عن أحوالنا وأنا أخبره أنى للآن لم أتمم على وحدتى ويستعجلنى لأن قيادة الكتيبة تريد إبلاغ قيادة اللواء بنتيجة القصف، طالبنى بأن أتوجه للجنود للاستفسار عن حالتهم وأنا أخبره بدورى أن القصف مازال مستمراً ولا آمن على نفسى من الإصابة لأنه قصف عشوائى يحيط بالموقع كله وطال الطريق الأسفلت الذى سوف أسير عليه للتوجه لجنودى.

انتهى القصف وتأكدت أنه والحمد لله لم يصب أحد بسوء ولكن الاضطراب مازال يلازمنا لأنها المرة الأولى. أعاد قائد السرية الاتصال والاستعداد للرد على العدو وقصف الهدف رقم (...) وأبلغنى برقم الهدف. حدث هرج ومرج بين جنود السرية والسبب كان واضحا لى أنها المرة الأولى للاشتباك الليلى معهم فلم نشتبك ليلا إلا مرة واحدة وقد أعددنا كل شىء قبل الاشتباك أما الآن فمطلوب منا الاشتباك. لابد من إضاءة فانوس يعمل بالجاز أو السولار ومصنوع من الصاج الأسود والذى يمنع الإضاءة إلا فى شريط رفيع يسمى خط الشعرة يصوب كل مدفع على عمود من الحديد ومعلق عليه الفانوس ليعلم كل مدفع أين عمود تصويبه. الفوانيس تحتاج جاز ونبحث عن الجاز وبعد العثور عليه وتعمير الفوانيس فإنها تحتاج لإشعال ونطلب من المدخنين أن يشعلوا الفوانيس بين الرياح التى لا تساعد على الاشتعال وبعد أن تم كل شىء ربطت زوايا الهدف وتم إطلاق أول قنبلة بالمدفع الأول ويسمى «بهاون الأساس» بعدها يقوم قائد السرية فى مركز ملاحظته بضبط الضرب حتى يتأكد بأن كل شىء جاهز فيبدأ الضرب بباقى المدافع الستة دفعات مابين خمس قنابل إلى عشر حسب الهدف.

نسمع أصوات قنابلنا تنفجر شرقا ونحن سعداء بأنهم الآن إما ينامون خوفا مثلنا أو يصابون من جراء هذا القصف. انتهى القصف ونحن أشد عوداً وقوة ولكن بعد منتصف الليل أعاد العدو القصف وأعاد قائد السرية الاتصال ولنبدأ

بقذف الهدف رقم.... نعيد الكرة ولكننا كنا أحسن حالا وتماسكا عن حالتنا أول مرة. فى اليوم التالى معلومات الاستطلاع تفيد أنه لا خسائر لدى العدو.

كنت فى حالة ضيق مما نحن فيه وأنا أندهش أنه فى منتصف القرن العشرين ومازال الروس يرسلون لنا بمعدات قديمة وهل من المعقول لكى نقوم بالضرب نشعل فانوس يعمل بالجاز.

فى أول إجازة ميدانية لى من القنطرة وكانت فى سبتمبر ٦٩ وأنا فى الزقازيق شاهدت يد مقشة خشب فى منزلنا فشعرت أن تلك اليد تفيد كعمود تصويب للمدفع ولكن المشكلة ليست فى العمود بل المشكلة فى الفانوس الذى يضاء بالكيروسين. هرولت بيد المقشة إلى نجار قريب من منزل والدى وأعرفه ويعرفنى وطلبت منه عمل فتحة فى الخشبة من جهة طرفها «مثل الكوسة المقورة» بشنيور يدوى فعلها الرجل لكنى شعرت أنها ضيقة، وضعت بها قلمه الرصاص الذى يستخدمه فلم تدخل.

كانت فكرتى أن نقيم فتحة من أعلى ونضع به لمبة كشاف ونعمل به خط شعرة ونضع خلف تلك اللمبة «بطارية جافة» من المستخدمة فى تشغيل الراديو ترانزستور. ساعة الاستخدام يندفع أحد الجنود بالضغط على قطعة كاوتش بأعلى العمود فيندفع مسمار صغير ليصل الدائرة فتضىء اللمبة وهنا يظهر خط الشعرة وبعد الانتهاء نعكس ما قام به الجندى حفاظا على الطاقة.

طلب منى الرجل أن أشرح له فكرة ما أريده. شرحتها له فقال إن يد المقشة ذات قطر صغير وأحضر عمودًا خشبيًا قطره أكبر وأقام الفتحة وخط الشعرة وجرب الحجر فوجده على ما يرام، شكرته مستفسراً عن الثمن ولكنه رفض قائلاً طالما إنها لخدمة الجيش والحرب لن أحصل على مليم طلبت منه ولو التكلفة ولكنه رفض أن يحصل على أى عائد مادى شكرته وانصرفت وعدت بهذا الاختراع البسيط إلى سريتى وعرضته على جنودى وجربته ليلاً فكان فعالا سريعا إلى أقصى درجة وقليل المجهود.. فى أول اشتباك قمنا باستخدامه وكان محط إعجابهم وطلبوا مثله فأرسلت أحد الجنود إلى هذا النجار الوطنى فأعد

عشر قطع حتى إذا كسر عمود من شظية يكون لدينا احتياط منه واشترى كل ما يحتاجه هذا العمود وطبقته على المدافع الستة وأصبحنا لا نهتم بمشكلة الفوانيس وألغينا استخدامها.

نجحت تلك الخطوة لكن خطوة الضرب والتأثير على العدو كانت وما تزال مشكلة لأن قصفنا لم يوقع به خسائر وأخبرنا جنود الاستطلاع بأن هذا الحال مثل باقى السرايا التى كانت قبلنا.. كانت هناك مشكلة ما.. العدو يقصف والقنبلة تستمر مابين خمسين إلى خمس وخمسين ثانية فى الهواء إلى أن تنفجر وبعدها ننتبه يكون كل مدفع من مدافعه قصف من ثمانى إلى عشر قنابل على قواتنا وأزعجتنا جميعا ويحدث بعض الخسائر. بعد أن نستعد له يكون قد فك مدافعه وذهب إلى الملجأ لينام فتصله قنابلنا بعد خمس دقائق على الأقل بعد أن يكون داخل الملاجئ فلا يؤثر فيه القصف.

جلست فوق سطح يشرف على موقعى ليلاً فشاهدت بالصدفة إضاءة خروج أول قنبلة من قنابل العدو وبسرعة أمرت المدفع المواجه لى بالضرب عدة قنابل بدون انتظار أوامر من قيادة الكتيبة، فعل ذلك بسرعة. لم يكمل العدو قصفه وبعد أن أنهينا قصفنا بلغنا بأن هناك بعض الأشخاص أصيبوا لدى اليهود. آه لقد وجدتها كما قال آينشتين مع الفارق بيننا. إذًا على ضوء المدافع الذى يظهر فى لحظة انطلاق القنابل يمكننا الضرب على الإضاءة التى تظهر لنا مباشرة ونحن نملك الأهداف المرصودة.

بمدينة القنطرة شرق يوجد لليهود أربع نقاط قوية كل نقطة خلفها موقع لمدافع الهاون ومحددة منا بدقة ولكننا كنا نضرب بعد فوات الأوان.. لهذا حددت المدافع على تلك النقاط.. كل مدفع مخصص له هدف وعلى الجانبين الأيمن والأيسر مدفع لإطلاق القنابل المضيئة لو طلب منا. دربت حكمدارية المدافع على الاتجاهات ووضعت أمامهم عدة عُصى مابين كل عصا والأخرى رقم المدفع الذى يقوم بالقذف. خمس قنابل شديدة الانفجار متتالية. لم أكن أتصور مدى نجاح تلك الفكرة التى انزلها الله علىّ وما حدث لهم من خسائر لدرجة أن مدافع هاوناتهم صمتت لفترة طويلة واستمروا لفترة لا يقذفوننا بتلك المدافع خاصة ليلاً.

شعرنا جميعا أننا محترفو هاون وكان هذا آكيداً وليس خيالاً أو ضربا من الثقة فكل المعلومات التى كانت تصلنا من القيادة أو من مركز مخابرات السواحل خلفنا والذى يتابع كل شىء بشرق القناة تؤكد ذلك.

* * *

فى كل أجازة كانت علا تفاتحنى قائلة: لماذا لم نتخذ حتى الآن أية خطوة للارتباط وهى التى كانت تعتقد بأننى سأكون البادئ والراغب فى بداية تلك العلاقة الرسمية لتتوج بها حبنا. كانت تلك أفكارى أيضا ولكنها تبخرت بمرور الأيام ليس لعدم رغبة منى فى هذا ولكن لما شاهدته من خسائر وشهداء كثرت بهم الجبهة فى نهاية العام وبداية العام الجديد ٧٠.. أصبحت كثرة الضحايا تخيفنى ويرن فى أذنى كلمة شقيقها مدحت عندما رفض طلبى منذ عامين «لا أريد لأختى علا أن تصبح أرملة طغى هذا الهاجس على عقلى خاصة من الضربات المتبادلة والتى كان يغرقنا بها العدو وعلى الأخص على سريتى لدرجة أن بعض الوحدات التى كانت قادمة لمعاونة كتيبتنا سواء مدفعية أو مدرعات تركت مواقعها بجوارنا خشية الإصابة وعلق أحدهم قائلا «أسامة.. النبلة اللى معاك دية عامل بيها دوشة وإزعاج وبتخلى الملاعين اليهود يكسروا الدنيا حواليك.. أنا حأجمع رجالتى وصواريخى وأسيب لكم المكان. . موقعك شبهة ومشكلة" يقصد بالنبلة صغر حجم مدفع الهاون ٨٢مم قصير مسافة الرمى ثلاثة كيلومترات.. أصبحنا دائما فى اشتباكات مما دفع باليهود أن يطلقوا علينا مدافعهم الكبيرة من هاوتزرات عيار ١٠٥مم ١٥٥مم وهى شديدة القوة وفى بعض الأحوال كانت تغير علينا طائراتهم وتقصفنا بل إنهم أحضروا وحدات صواريخ أرض/ أرض موجه بسلك لضربنا وهرع إلينا سلاح المهندسين بإقامة شبكة من الأسلاك الشائكة لتفجر الصواريخ بعيداً عن موقعنا قبل أن تصلنا.

لا أنسى هذا الشاب الجسور محمود خميس (ضابط المدرعات) والذى يسرع إلينا برجاله بعد كل قصف للاطمئنان علينا ومساعدتنا إن كنا دفنا تحت القصف المتتالى. نحن فى حالة استعداد للضرب سواء من دقتنا فى ضربهم أو من سعى قائد السرية بتصديق على طلب ذخيرة أكثر من المقرر للاشتباكات ويخبرنى

تليفونيا استعد يا بطل «حنلب اليهود علقة النهاردة.. بس خللى بالك من عساكرك مش عايز خسائر» ونقوم باللب وتعود على موقعى باللبات والسودانيات والبطيخات ولهذا بعد كل لبة من لبات قائد السرية نسرع تاركين الموقع منتشرين فى منازل المدينة حتى تنتهى البطيخات التى يهدونها إلينا.

قيادة مدفعية اللواء حولت كل ذخائر الهاونات بالكتائب الأخرى لسريتنا التى دائما فى حالة اشتباك مع العدو وأصبحنا على درجة عالية من الدقة والسرعة فى رد اشتباكاتهم بل نحن البادئون أولا وغمر هذا قيادة الكتيبة بشعور قوى بأن لديهم قوة ما للوقوف أمام استفزازات العدو، بتلك المنطقة التى تعتبر بكل المقاييس هى الأكبر قوة وعتادا نظرا لوجودها بمدينة وأيضا أربع نقاط قوية تمثل قاعدة كبيرة لهم فى تحركاتهم وعدوانهم على القوات المحيطة بنا وقواتنا.

هذا هو شهر فبراير من عام ٧٠ والاشتباكات تدور رحاها على الجبهة وفى قطاعنا مدينة القنطرة غرب أصبح الجميع يعلمون أن بها سرية هاون لا تمل من الاشتباكات مع العدو فأعطى هذا انطباعا لقوات المشاة على خط القناة بأن خلفهم قوة نيران مستأسدة وجاهزة للرد والدفاع عنهم وأن جميع مواقع العدو الأمامية القريبة من القناة فى مرمى سلاحنا هى تحت سيطرتنا التامة.

كلفت السرية بأن تحضر مرتبات الضباط والجنود عن هذا الشهر والنقيب فاروق متولى هو ضابط عظيم الصرف. حضر الرجل بالمرتبات والاستمارات وناولها لى مكلفنى بإتمام صرف تلك المرتبات لأنه غدا فى الصباح يستحق أجازته الميدانية. صباح اليوم التالى اتصل بى الرائد سعد يونس رئيس عمليات الكتيبة مؤكدا لى أن يتم صرف جميع المرتبات لجميع الأفراد المتواجدين خلال ثمانى وأربعين ساعة طبقا للتعليمات وأنا بدورى أخبره بأنى بمفردى بالسرية وماذا يحدث للاشتباكات فقال مازحا إحنا مش بنبطل ضربهم واشتباكات معهم وأنت فى محيط الكتيبة ويمكنك الرجوع مسرعاً إلى موقعك ويفضل أن تتم الصرف ليلاً.

استلمت المبالغ واستمارات الصرف من النقيب فاروق قبل مغادرته فى الصباح لبدء أجازته وبدأت بصرف مرتبات سريتى ثم الوحدات القريبة منى وقمت بجولة

حتى العصر أتممت صرف نصف وحدات الكتيبة الفرعية وملحقاتها من الأسلحة المختلفة التى تعمل فى نطاق الكتيبة. مساء توجهت إلى السرية الثانية والتى كانت يسار الكتيبة وأتممت صرف فصيلتين وتبقى فصيلة فأخبرونى أنها قريبة منهم بحوالى خمسمائة متر فى اتجاه منطقة الحرش وبينهم فاصل غير محتل نظراً لأن طبيعة الأرض لا تساعد بوضع قوات هناك استفسرت عن الطريق فوضح لى أحد ضباط الصف بأنه يمكننى بأن أسلك طريق القناة ولكن فى الميول الخلفية لأكون بعيداً عن مراقبة العدو.

لم أكن قد شاهدت المنطقة من قبل فكل عملى فى الخلف أو فى مركز الملاحظة أثناء تواجد النقيب فاروق بأجازة عدا ذلك فلم يكن هناك داع للتجول فى أرجاء الكتيبة نظرا لانشغالنا دائما بالاشتباك مع العدو كما أنى كنت من الضباط الذين لا يرغبون بترك مواقعهم والتجول بزيارة هذا أو ذاك فى موقعه.

سرت فى الاتجاه الذى أرشدنى إليه. سرت دون أن أنتبه إلى وعورة المنطقة وانكشافها أمام قوات العدو المتواجدة للمراقبة فى الشرق. عن يمينى السكة الحديد والطريق الأسفلت وترعة صغيرة تصل مياه النيل إلى مدينة بورسعيد وأنا أسير قريبا من منطقة تكسوها الحشائش المرتفعة الجافة ومنظرها يخيف ليلاً وأحمل معى مبالغ نقدية كبيرة وأسير بمفردى وهذا ناتج من سوء تصرفى وجهلى بتلك الأمور التى لا ينتبه إليها الضباط الأصاغر وهى تأمين أنفسهم ضد مخاطر السرقة فمن الممكن أن يخرج على بعض الجنود ويصيبوننى ويحصلون على ما معى من مرتبات وأكون أنا ضحيتها وأقدم للمحاكمة سواء بالسرقة أو الإهمال. على يسارى أشاهد مبانى متفرقة من طابق واحد وهى مهجورة ومظلمة.

وأنا سائر أفكر فى موعد أجازتى وماذا أفعل والهدوء يغلف المكان سمعت صوت كبسولة من كبسولات مدافع الهاون المعادية والتى أحفظها عن ظهر قلب فأيقنت أن العدو سيقوم باشتباك مع سريتى وأنا بعيد عنهم وكيف سأصل إليهم وأنا على مسافة أكثر من ثلاثة كيلومترات فقبل أن أصل يكون الاشتباك قد انتهى ولكن ما حدث كان شيئًا آخر إذ هوت القنبلة قريبة منى وهذا يعنى أننى

كشفت وأن العدو رصدنى فانبطحت أرضا وتوالى القذف وكان مختلطًا بين شديد الانفجار والفوسفورى الذى أشعل الحشائش المحيطة بى وأصبح الظلام نهاراً حاراً بفعل النيران وأنا مازلت راقداً على هذا الوضع لا أعرف سبيلاً إلى النجاة والتصرف وشعرت بأن الشظايا تتناثر حولى. لقد كان تصويبهم دقيقا والنيران مازالت مشتعلة والدخان أطبق على صدرى وكدت أختنق وأشاهد على تلك الأضواء زواحف من كل نوع ما بين السحالى والثعابين هاربة من النيران وأنا لا أستطيع أن أقلدهما وأتبعهما لأنه أثناء ذلك يدوى الرشاش نصف بوصة للعدو حولى من كل جهة ووقوفى يعنى ببساطة أننى أصبحت هدفا سهلاً لهم بدفعة واحدة سألقى حتفى.

ناجيت الله أن يرفع هذا الغضب عنى ولا أعلم هل استجاب الله لتوسلاتى وانا أتضرع إليه فى تلك المحنة الهالكة أو أن السماء بالصدفة هى التى أنزلت المطر ليطفئ النيران. كان مطراً شديداً ومعروف عن تلك المناطق شدة أمطارها سعدت بتلك الأمطار التى هبطت لتطفئ نار حقدهم على المسلمين، كنت أرتدى أفرولى ولم اعبأ وأنتبه بأن أستتر بملابس ثقيلة ونحن فى الشتاء وقد خاننى الطقس عصر هذا اليوم إذا كان دافئا ولم ألتفت بأنه قد يجن على الليل وأنا خارج موقعى.

تركت مكانى مسرعا بعد أن انطفأت النيران ومازالت آثاره باقية من تصاعد الدخان واتجهت إلى الجانب العكسى من العدو فى اتجاه المنازل الفارغة التى كانت على يسارى ولكننى للأسف فى غمرة الخوف والفزع وجهلى بالمنطقة اصطدمت بسلك شائك سقطت من سرعتى على الأرض وسمعت طقة فى يدى اليمنى شعرت بأن يدى كسرت وجرح فى فخذى مؤلم من السلك الشائك تحسسته فإذا الدماء غزيرة تتدفع منه نهضت واقفا مستعينا بيدى اليسرى التى تحمل ملفات واستمارات الصرف وشنطة الخرائط موضوع بها المرتبات ومعها تلك الاستمارات وهذا ستر من الله وإلا أتلفتها مياه المطر.

وقفت بصعوبة ولكن الرشاش نصف بوصة مازال يلاحقنى وهنا شعرت بأول خطورة حقيقية فلقد وقفت على لغم أفراد سمعت الطرقة التى بعدها أن رفعت قدمى سوف ينفجر اللغم فأهلك لا محالة ممزقا جسدى إلى قطع وقد يسقط جزء منه على لغم آخر فتتوالى الانفجارات، جلست القرفصاء لأتحاشى الرشاش الذى مازال يعربد من حولى وأنا أسمع صوت السكترما الناتجة من اصطدام الرصاص بزوايا السلك الشائك التى تحدد حقل الألغام الذى لم أنتبه له فى الظلام وتحت الضغط والجرى خوفا. جلست هكذا لفترة وأنا عاجز عن التصرف وكيف لى بالتصرف حتى سلاح المهندسين لا يستطيع علاج حالتى وتأمين اللغم. إنه لغم أفراد والمرور فوقه معناه هلاك من داس عليه أو اصطدم به. يا ربى.. أناجيه هلعا وخوفا وتعبدا أن يقف معى وألا يجعلنى من الهالكين وما شعور أى إنسان يرى الموت أمامه وأن أى هزة ستطيح بحياته ممزقا إلى أشلاء.

البلل من مياه الأمطار وبرودة الشتاء قامت بمفعول معاكس ضدى أيضا فأنا ارتجف خوفا وبرودة وآلام يدى وفخذى شديدة علىّ وأرتعد ويدى اليسرى تكاد تنفك من على حافظة النقود واستمارات المرتبات. مازلت أناجى الله باكيا بصوت مسموع وأنا أسمعه وأحاول خفض صوتى بدون مقدرة أو سيطرة عليه، ثوان وأقابل ربى تلوت الشهادة متلعثما فكل آيات الذكر الحكيم طارت من ذاكرتى حتى فاتحة الكتاب وأنا على هذا الوضع المأساوى والذى لم أقابل له نظيراً حتى وأنا فى سيناء وإذا به أمامى. إنه الشىء الشبيه بالقط والذى شاهدته مرتين فى منطقة الفردان فى العام الماضى، ارتعدت وصرخت وأنا أحاول أن أبعده عنى بيدى اليمنى الكسيرة ولكننى لا أستطيع أن أحركها. أصرخ بصوت عال ولكنه لم يبال وهنا اقترب منى وكاد أن يحدث لى إغماء لولا رجفة أصابت جسدى الذى نبهنى ثم نظر إلى الجهة الأخرى معطيا لى ظهره سائراً ثم نظر إلى ثانية بعد أن توقف وعاد إلى مرة ثانية ووقف على قدميه الخلفيتين ناظراً إلى وعيناه بعينى، إنه حيوان أبيض اللون ناصع البياض ويضىء حوله مثل المسبحة ليلاً وقف هكذا واضعا يديه الأماميتين على كتفى شعرت خلالها أن جبلاً على كتفى وليس حيوانا بين القط والكلب حجما ثم سار ثانية وَعلم بقدميه فى الأرض بخطوط واضحة

وأنا مازلت فى وضعى وإذا به يحدث صوتًا صارخًا مثل صوت العرسة أو ماشابه ذلك إنه صوت قوى حاد مخيف، نهضت سائرا خلفه وأنا أدعو الله أن ينجينى مما أنا فيه رفعت قدمى من فوق اللغم لم يحدث شىء اسعدنى هذا وشعرت بأن هذا من عند الله، سرت خلفه على الخط الذى أقامه بقدمه ويا للعجب فإن الخط كان عريضا كأنه حافر جاموسة أى بعرض أكثر من عشرة سنتيمتر حتى خرجنا من حقل الألغام فشاهدت السلك الشائك المحدد له من الجهة الأخرى نظر إلى ثم رقد مثل وضع أبى الهول أو أى قط ولكنى لم أفعل مثله نظر إلى ثانية يقف ويفعل هذا وأنا مازلت واقفا متسمرا فى وضعى قفز علىّ وإذا أنا مندفع من وقفتى منبطحا على الأرض بصدمة قوية وهنا سمعت صوت انفجار الألغام متتابعة خلف بعضها البعض. لحظتها أطلق العدو قنبلة مضيئة ليعلم ماذا حدث لى ولكنى مازلت راقدا على ظهرى ناظرا إلى السماء أتساءل أحى أنا أم فى السماء، سمعت همسا بجوارى صوت إنسان يطلب منى أن أستمر على وضعى هذا حتى لا يطلق على العدو النيران. تسمرت فى رقدتى هذه كما طلب منى هذا الشخص أو الصوت المبهم لى فى الظلام وبعيداً عن أى مخلوق كان حتى انطفأت الشعلة المضيئة وحضر إلىّ شخصان هما جنديان من الفصيلة التى كُنت متجها إليهم يستطلعان سبب تأخرى عنهم عندما علموا أن الوحدة قامت بصرف المرتبات ومشاهدتهم لقصف العدو وما حدث اليوم وما شاهدوه من هذا الحيوان الأبيض والذى تخوفوا منه لأنهم لم يشاهدوا مثله من قبل.

قدما يد المساعدة لى وأنا مازلت أرتجف وأشعر أننى محموم وأهذى ولا أستطيع السير. سارا معى حتى وصلت إلى سريتى وهناك التقيت بجنود الخدمة من سريتى وهم ينظرون إلى مستفسرين عما أصابنى والدماء غزيرة على بنطلونى الأيمن وكف يدى اليمنى بجانبى لا أستطيع تحريكه.

أخبرهم الجنديان بأن حضرة الضابط سلك الطريق المكشوف لليهود ولم يستخدم الطريق الخلفى المستتر من المبانى ووقع فى حقل الألغام وكادت أن تنفجر به لولا شىء لا نعلمه حضر وأنقذه. إنه شىء شبيه بالقط.. آه تذكر جنودى حادثة الشهداء وما شاهدوه من هذا الحيوان الغريب الوصف والشكل

والتصرف.. تعاونوا على إدخالى إلى ملجأ تحت الأرض وحضر جندى المراسلة وأعد لى كوبا من الشاى وحضر بعض ضباط الصف بعد أن أيقظهم زملاؤهم ليخبروهم بأن ضابطنا كاد أن يقتله اليهود وما قصه عليهم الجنديان رواه لهم.. طلبت من أحد ضباط الصف العريف عياد حكيم شنودة أن يقوم بصرف مرتبات هذين الجنديين وأن يذهب أحد ليخبر الطبيب بحالتى.

هرعوا إلى الطبيب وأصابهم شىء خطير. فها هو قائدنا نراه ونشاهد حالته وسمعنا مما شاهدوا الحادثة يروونها بكل تفاصيلها غير المعقولة ولا تحدث إلا فى الروايات والقصص ولكنهم هم الذين اختبروا تلك الأحداث قبل ذلك. .طلبت من الجندى حنتيرة المراسلة أن يعد لى ماء ساخنًا لكى أستحم وأزيل كل ما علق بى من قاذورات حتى أستعيد أنفاسى فأخبرنى أنه مجرد أن انتهى من كوب الشاى يكون قد أنهى تسخين المياه ووضعه فى حمام منزل مهجور أستخدمه.. حضر وأخبرنى بأن كل شىء مُعد وعاوننى فى حمل ملابسى النظيفة حتى الحمام واضعا به فانوس ميدانى «هوركين» وأخبرنى بأنه أحضر تنك مياه بارد"جركن" لأضيفه على الماء لو كانت ساخنة شكرته وانصرف ليعد لى طعام الغذاء الذى أحضره من ميس الضباط منذ الظهيرة ولم أتناوله لمرورى على الوحدات لتسليمهم مرتباتهمَ التى كادت أن تودى بحياتى.

شعرت أن المياه ساخنة لا أستطيع تحملها أضفت بعض الماء البارد. استحم وانا أشتم رائحة السولار كما أشعر بأن أصابع يدى تلمس شيئا ناعما يخالف ملمس المياه انتهيت من حمامى بعد أن أضفت إليه السولار الذى أحضره حنتيرة باعتقاده أنها مياه!! فلم يكفينى ما حدث ولكنُ قدر علىّ أن أستحم بالسولار. عدت إلى حجرتى ألتمس الراحة والدفء أسفل البطاطين وأفحص ملابسى التى خلعتها لأشاهد على ضوء الفانوس الميدانى قطعًا طولية محروقة من شظايا قنابل العدو وصلت إلى ملابسى الداخلية فتحسست فخذى ومقعدتى فوجدت آثار دماء عليهما. إذًا لقد طالنى القصف أيضا. حضر الطبيب على عجل.. لم يكن الطبيب إنه صيدلى مجند رقيب صيدلى وخريج كلية الصيدلة جامعة الإسكندرية إنه الإنسان المهذب ُخلقا وعملا. . يا لك من شاب رائع، إنه شنودة

عبد المسيح.. حضر الرجل وهو لاهث الأنفاس من الاتصال التليفونى به ومن زملائه بالسرية والذين أخبروه بحالتى فحضر ومعه كل ما يلزم من تلك الأدوات.. شاهد جروحى الخلفية وطمأننى عليها بأنها سطحية وعقمها ووضع عليها البلاستر المعقم ثم فحص يدى وحركها وأنا أصرخ ألما.. ثبتها على وضع معين وطلب المساعدة فهو يريد قطع خشب ليعملها جبيرة ولم يعثروا على طلبه وسأل عن وجود مسطرة فاحضروا له المسطرة التى نستخدمها فى القياس من على الخريطة وهى خشبية فكسرها نصفين أعدها كجبيرة طلب بعض الماء الفاتر وبلل الشريط الجبس الذى معه ولفه حول معصمى ثم شاهد الجرح الغائر فى فخذى فرش عليه قليلا من مادة الأتير التى آلمتنى كثيراً وقام بخياطة الجرح بأربع غرز ثم ناولنى دواء مهدئ ليساعدنى على النوم وأخبرنى بأنه سيعاودنى صباح الغد.

رحت فى نوم عميق بعد ما حدث لى فى تلك الليلة وقد تكالبت على كل الأنواء والأوجاع.. بقيت هكذا لفترة خمسة أيام حضر خلالها قائد السرية والذى دُهش مما حدث لى فأبلغ قائد الكتيبة بأنه من المستحسن أن أنال أجازتى مبكراً ولكن القائد طلب عرضى على المستشفى ورافقنى الرقيب صيدلى شنودة إلى مستشفى القصاصين وتأكدوا أن ما قام به هو إجراء سليم بعد الفحص بالأشعة ومُنحت أجازة عشرة أيام سافرت من القصاصين إلى بلدتى بالزقازيق وفزعت أمى وإخوتى لما شاهدونى عليه ولم أخبرهم بالقصة بل أخبرتهم بأنها إصابة أثناء التدريب فلا أريد القصص والروايات ويتجمع الأقارب والأصدقاء ليعلموا سر هذا الكائن الذى كلما تذكرته يتملكنى شعور بالخوف وأشكر الله أن أغاثنى مما أنا فيه.

أمضيت ثلاثة أيام فى الزقازيق توجهت بعدها إلى القاهرة وهناك كان اللقاء الدافئ وحبهم وتعاطفهم معى على الإصابة وحضرت بعض صديقات علا لزيارتى ومشاهدتى والتعرف على شخصى بعد أن أخبرتهم بأن حبيبها ألمت به إصابة أثناء العمليات. أمضيت عدة أيام راحة وسعادة بفيلا دينا، وكان السائق يصطحبنا أنا وعلا للفسحة أو التوجه لدور السينما.. يا لها من حياة ويا لها من مصاعب الحرب وقسوتها تصديقا لقول الله تعالى «فرض عليكم القتال وهو كره

لكم». . أمضيت أيامًا خمسة لم تتحدث خلالها علا عن موضوع علاقتنا والبدء بخطوة للأمام كما دأبت فى الآونة الأخيرة.. فقد شعرت أنه وقت غير ملائم أو قد تكون تنبهت إلى أنه كان من الممكن أن أقضى نحبى فيما حدث لى.

عدت فى اليوم السادس إلى عائلتى لأقضى باقى أجازتى معهم خاصة أننى بدأت اشعر بأن والدتى ليست راغبة فى أن أقيم عندهم باستمرار طالبة منى بأن تكون زيارة من الصباح حتى المساء وأعود إليهم يشبعون منى وأشبع منهم. ولكن مدينة الزقازيق هى الأخرى خط جبهة خلفى والأنوار تطفئ ليلاً والشوارع مُظلمة معتمة ولا توجد وسائل التسلية والبهجة مثل القاهرة كما أنى أتمتع بحديث ولقاءات علا فأنا محروم من متاع الحياة التى يتمتع به الآخرون رغم أن غالبية شباب مصر تحت خط النار إما ضابط أو جندى.

انتهت أجازتى عائداً لوحدتى وقد التأمت جروحى ولم يتبق سوى الجبيرة والجبس والغرز وبعد أسبوعين سيقوم شنودة بنزع الجبيرة والجبس دلالة على تحسن حالتى. استقبلنى جنودى بفرحة غامرة فلم يتعودوا غيابى عنهم فترة طويلة ثم تأكد لهم بتمام شفائى وها أنا أعود إليهم أحسن صحة وأوفر نشاطا وسعادة مستعداً لتكملة مشوار كفاحنا وكما تقول أم كلثوم الكفاح دوار.

لا يمر على يوم إلا ويأتى الضابط محمود خميس لزيارتى نتناول الشاى ونقص الحكايات ونضحك على أيامنا نريد تسلية أنفسنا بكل طريقة معقولة ومهذبة وهو مثلى لا يريد ترك وحدته والخروج إلى تلك الوحدة ومجالسة هذا أو ذاك. كان شديد الاهتمام بنفسه سواء فى مظهره وسلوكه كما أنه لا يعطى الفرصة للقادة بأن يوجهوا له انتقاداتهم لأنه معتز بكرامته وكبريائه فارتبطنا ببعض كثيرا وكانت نوادرنا مع النقيب فاروق لا تنتهى.

لم يكن أمام الشباب فى جبهة القتال أى شىء يساعد على التسلية فلا كهرباء ولا إضاءة ولا جرائد وبالطبع لا يوجد تليفزيون كما أن الإذاعة تغلق برامجها فى الثانية عشرة منتصف الليل حتى صباح اليوم التالى والكثير من الأعمال التى تتم مع العدو تتم ليلا سواء من القصفات والاشتباكات المتتالية أو من عمليات الكوماندز والعبور على قواتنا.

الانتقام من العدو

الحمد لله، فقد أسبغ علىَّ الله نعمته وشفيت مما ألم بى فى بداية شهر فبراير من هذا العام بحقل الألغام ونجاتى منه بفضل الله وعونه بأن سخر لى كائنا من عنده ليرفع عنى هذا البلاء، لقد كان هذا الحادث بكل ما أحاط به من ظروف سواء الوقوع فى تلك المنطقة المكشوفة والتى منع قائد الكتيبة أى فرد من السير بها بعد ذلك أو من إغاثتى وإنقاذى كان حديث الجنود والضباط بالوحدة وقد صدقه البعض ونفاه البعض مدعيا أنها أضغاث وتهيؤات حدثت لى نتيجة خوفى وإصابتى مما ألم بى ويعترينى فى بعض الحالات تلك الأفكار وهل صحيح ما أنا كنت فيه وإنقاذ الله لى بهذا الكائن الذى لم أشاهد مثله حتى الآن فى حياتى ولكن الوقائع تثبت أنه صحيح وما المانع فى أن يسخر الله من كائناته وعباده من يرفع المقت والظلم والأذى عن الآخرين. ألم يدفع الله بعمال هيئة قناة السويس فى بداية يوليو من عام ٦٧ للدفاع عنا ضد الهجمة التترية المفزعة المؤلمة لنا بعد عودتنا من سيناء ونحن بين الحياة والموت دون أن نطلب ذلك ولكنه علام الغيوب الذى يعلم بكل شىء يدور فى الكون وليس بالأرض وحدها ولا فى جبهة القتال.

فككت غرز خياطة الجرح بواسطة القدير الماهر فى عمله شنودة عبد المسيح وبعدها بأسبوعين فك عنى الجبس طالبا منى عدم الضغط على كف ومفصل ذراعى الأيمن حتى تقوى العضلات. نفذت ما طلبه منى رغم صعوبة تلك الفترة نظرا لاحتياجى لاستخدام يدى اليمنى خاصة فى حلاقة ذقنى وربط حذائى لكننى تحاملت على نفسى وبمساعدة الجندى حنتيرة تم كل شىء على ما يرام.

قائد كتيبتنا هو المقدم عبد العزيز قطب. إنه قائد عاقل متزن هادئ الصوت ومعه رئيس العمليات الشجاع الرائد سعد يونس، كانا متفاهمين وطباعهما منسجمة ولهذا كانت الأمور متوازنة فانعكس هذا على ضباط وجنود الكتيبة كما أن القائد ورئيس العمليات من المشجعين للعمليات مع العدو خاصة أن اليهود وفى تلك الفترة أصابهم نوع من الجنون لمحاولة تدمير قواعد الصواريخ التى تقيمها الدولة ممثلة فى وزارة الحربية على جبهة القتال بعد ما نجحت الدولة فى إقامتها فى عمق البلاد وحمت بذلك الأهداف الإستراتيجية للدولة من هجماتهم القاتلة، كان الطيران المعادى يفعل ما يريد فقطعت اليد الطولى التى كان يتباهى بها ويخيف الجبهة الداخلية والآن جاء الدور على القوات المواجهة له على خط القناة.

لا يمضى يوم إلا والاشتباكات دائرة على قدم وساق وأصبحت منطقة القنطرة شرق بعمق أكثر من اثنين كيلو من خط القناة السيادة البرية لنا بفضل ضرباتنا لدرجة أنهم عينوا مراقبين بأجهزة تصنت تنذرهم بصفارات متتالية لقصفات وحدتنا عليهم، طلب قائد الكتيبة من قيادة اللواء أن تقوم مدفعية اللواء سواء كتيبة الهاوتزر ١٢٢مم أو سرية الهاون ١٢٠مم بالمشاركة فى المعارك نظرا للمجهود الذى تقابله سرية الهاون ولكنهم اعترضوا لضخامة تلك الأسلحة والتى سوف توجه إليها طائرات العدو وتحدث بهم إصابات شديدة بعكس سرية الهاون ٨٢ مم التى تتحصن بين المبانى والتى تحميهم من تلك الغارات وأخيرا رضخ القائد لقيادته العليا ومازلنا نواصل ضرباتنا لدرجة أنهم طلبوا من مدفعية اللواء قصف هدف بالشرق ولكن قائد كتيبة الهاوتزر طلب منى باتصال تليفونى أن

أشتبك أنا بدلا من كتيبته خشية من الخسائر والرجل كان مُحقا فى تخوفه نظرا لما لاقوه من خسائر سابقة.

طلب منى الانتظار إلى أن تقترب وحدات العدو وسيخبرنى بالمسافة التى تسمح لنا بقصفهم حسب مدى مدافعنا. كانت تلك الأمور تسعدنا وقد بدا الخوف والشك يتسلل إلى جنودى بأنهم يضحون بنا لحماية الوحدات الأكبر ولكننا كنا قادرين على تحقيق النجاح وكما قال قائد كتيبتنا المقدم عبد العزيز قطب لو أن مدافع سرية الهاون ذات مدى طويل لكنا فعلنا بالعدو الأفاعيل.

ظهر اليوم وصلت إلينا أنباء سيئة حيث قام الطيران المعادى بمهاجمة مدرسة بحر البقر وحدثت خسائر بين الأطفال كما كان من نتيجة هذا تدمير بعض لوارى النقل التابعة لكتيبتنا والقريبة من المكان واستشهد العديد من الجنود ومن بينهم السائق عزت والذى كان تحت قيادتى فى بداية التجنيد وحينما رُشح ليصبح سائقا شملته السعادة والفرحة لأنه بعد انتهاء خدمته سيصبح سائقا يستطيع أن تدر عليه تلك المهنة المال الذى يساعده فى إتمام زواج شقيقاته، حزنت عليه كثيرا هو وزملائه كما حزنت على قائد فصيلة النقل الملازم مخلص علام والذى لم يكمل عامه الثانى بعد تخرجه، لقد كان شابا فتيا وسيما ولكن القدر خطفه بسرعة فى تلك الهجمة.

أصبحت الكتيبة فى حالة حزن مضاعف سواء من قصف أطفال المدرسة أو من الخسائر التى لحقت بحملة الكتيبة، هذا اليوم لم أنساه لقد كان يوافق ١٩٧٠/٤/٨، القائد ورئيس العمليات راغبان فى الانتقام ولهذا بحثنا عن أى فرصة لتكبيد العدو خسائر مؤلمة تشعرهم بأننا لن نستكين وسوف ننتقم ولتظل الحياة بيننا سجالاً من قتل وتدمير حتى يرتدع العدو عن ممارساته الهمجية.

اليوم الموعود الموافق ١٩٧٠/٤/١١ أى بعد مضى يومين على مذبحة بحر البقر اتصل بى رئيس العمليات حيث كان النقيب فاروق متولى فى أجازته الشهرية، كان الاتصال قبيل العصر وفيه أخبرنى بأن قوات العدو تفرغ كميات ضخمة من الذخيرة محملة على عدة لوارى بالنقطة القوية رقم ٢ بالقنطرة

شرق، طلب منى قصفهم بذخيرة فسفورى، أفدته بأننا لا نملك هذا النوع، دُهش الرجل فطلب منى التصرف!!

طرأت فكرة على بالى، ما المانع فى استخدام قنبلة مضيئة بديلا عن القنابل الفسفورية؟ لم تكن تلك الفكرة قد جربت أو تطرق إليها أحد من قبل فكل نوع من دانات المدفعية له استخدام وإذا استخدم نوع مكان آخر تعود على المنفذ بالخصم وعقاب شديد مثل لفت النظر الذى يعمل على التأخير فى الترقى عن الزملاء، عرضت الفكرة على رئيس العمليات فطلب منى التنفيذ وأخبرته بأن ثمن الدانة ٨٤ جنيهًا وأنا راتبى ٣٢جنيهًا وسوف تخصم علىّ، صاح غاضباً، إيه يا أسامة مش ح تكون أغلى من الأرواح اللى كل يوم بنفقدها.

كان الرأى صائبا ولكن القيادات يصبح لهم رأى آخر وكما يقول المثل إللى إيده فى الميه مش زى إللى إيده فى النار، القنبلة المضيئة لها طبة رقمية أى تضبط بمفتاح خاص بناء على جدول مثل جدول اللوغاريتمات وكل مسافة أو ارتفاع تربط لها درجة بالمفتاح الخاص بها لكن فى تلك الأحوال لا تفيد الطبة T1 الخاصة بالقنبلة المضيئة فيجب استخدام طبة طرقية من نوع T5 , T6.

طلبت من حكمدار المدفع الأول العريف زينهم الشويحى ابن المنصورة أن يعد مدفعه على الهدف رقم ٣ وطلبت مغادرة باقى أفراد السرية الموقع، عارضنى الجنود خوفا من خصم القنبلة وتوقيع جزاء على شخصى، لم أهتم بتعاطفهم معى وكنت راغبا فى قصف الأعداء وعمل أى شىء انتقاما مما حدث فى بحر البقر، أعد زينهم المدفع وضبط جهاز التصويب وسطح فقعات المدفع وكنت قد أعددت القنبلة مزودة بطبة طرقية من نوع T6 عديمة التأخير والتى تنفجر مجرد لمس أى جسم.

سميت باسم الله " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، وضعت القنبلة فى ماسورة المدفع وانطلقت من المدفع وأنا متأكد أنها طاشت ولن يكون لها أى تأثير، مضت دقيقة منذ خروج القنبلة وزمن مرورها للهدف هو ٥١ ثانية، سمعت صوتا مرتفعا صادرا من رجال مخابرات حرس السواحل المحتلين المبنى خلفى "الله

أكبر، اضرب تانى يا فندم، القنبلة ولعت فى مخزن العدو" بسرعة أطلق رقيب السرية صفارة الاستعداد للضرب فأسرع الجميع باحتلال الموقع كلٌ خلف مدفعه، رن جرس التليفون الميدانى والمتحدث رئيس العمليات مهللاً فى التليفون بعبارات الثناء والتقدير آمرا لى بالقذف بالذخيرة بكميات كبيرة متتالية، زمجرت المدافع والضرب متتالٍ وبدا أن مواسير المدافع التهبت من النيران فقام الجنود بوضع المياه عليها من الخارج للتبريد ومازال القصف مستمرا، الأخبار تتوارد من مكتب المخابرات خلفى ومن رئيس العمليات بشدة الإصابات ونشاهد من موقعنا الانفجارات تتعالى والأصوات تصم الآذان.

اتصال من مدفعية اللواء بإيقاف القذف، نفذت التعليمات، بعد قليل اتصل رئيس العمليات مستفسراً منى عن سبب إيقاف القصف أخبرته بتعليمات مدفعية اللواء طلب منى تنفيذ تعليماته وعلىّ أن أغض السمع عن أى تعليمات أخرى فأنا قائدك المباشر، فتحت نيران المدافع على الأعداء، تليفون المدفعية يرسل إشارة عاجلة بوقف النيران وأنا ما زلت مستمرا، تعليمات قيادة الفرقة ثم الجيش وأنا ما زلت مستمرا فى القصف، اقترب مخزون الذخيرة من الانتهاء وتبادل الجنود نظافة الذخيرة من الشحم فقد استهلكنا جزءا كبيرا واتجهنا إلى مخزون العمليات حتى جاءت إشارة مباشرة من القيادة العامة بالقاهرة بوقف القذف فورا لأن قيادة الأمم المتحدة حانقة على القيادة السياسية وإلا تعرضت لمحكمة عسكرية ميدانية، اتصل بى سعد يونس رئيس العمليات، برافو ياد أنت والعيال الجدعان بتوعك تسلم إيديكم، سرح الجنود بعيدا عن الموقع خشية رد فعل اليهود".

انتشرنا بداخل مبانى المدينة مع ترك جنديين لحراسة الموقع والرد على التليفون لتنفيذ أى تعليمات أخرى، كان الموقف بالقنطرة شرق لدى اليهود ساكنا بعد هذا الاشتباك الدامى ولم يلاحظ تحرك أى قوات، جاءتنى البشارة بأن عدد من أصيب وقتل لا يقل عن خمسة وثلاثين فردا، البعض يقول عشرين قتيلا وخمسة عشر جريحا والبعض يعكس النسبة فيقول خمسة عشر قتيلا وعشرين جريحا وتدمير مخزن ذخيرة بالكامل واستمرت الانفجارات بمخازن الذخيرة

حتى فجر اليوم التالى مع تدمير العديد من العربات المدرعة وثلاث سيارات إسعاف.

وصل النقيب فاروق من إجازته وعلم من قيادة اللواء بما حدث، كان فى غاية السعادة وأخبرهم بأن هؤلاء الرجال هم أشباله وأبدى رغبته فى نقل الجنود إلى موقع آخر ولكنى طلبت الابتعاد عن الموقع فقط حتى نرى ما هو قادم مع توزيع المدافع بين بنايات المدينة وإعادة رصد زوايا للأهداف لقصفها من مكان آخر وقد وافقنى على ذلك.

الكتيبة فى حالة ترقب إلى ما سوف يخبئه القدر. مضى اليوم التالى دون رد فعل لكن معلومات الاستطلاع تخبرنا بأنهم يحشدون وحدات مدفعية كثيرة شرق القنطرة فى مواجهة كتيبتنا. اليوم الثالث لتلك المعركة. فتحت وحدات مدفعيتهم نيرانها الكثيفة على موقع سريتنا بقصف مستمر لحوالى الساعتين تطايرت على إثره المبانى من حولنا ونحن مختبئون فى مجارى المدينة الفارغة الجافة وفى حفر الصرف الصحى أسفل المبانى كما تواجد الطيران فوقنا لمنع مدفعيتنا من الرد عليهم.

انتهى القصف دون أى خسائر بشرية فى الكتيبة وبالتالى فى سريتنا إلا من بعض خسائر فى المهمات من الحرائق التى اشتعلت بموقعنا واحتراق عدد من افرولات الجنود وبطاطينهم كما تهدم جزء من إنشاءات الموقع.

فضلنا المبيت بعيداً وطلب منى النقيب فاروق قصفهم من أماكننا الجديدة فقصفناهم وهم يقصفون موقعنا القديم ثم اكتشفوا إننا نقصفهم من أماكن أخرى وهنا بدأ قصفهم العشوائى لمدينة القنطرة باحثين عنا بكل طريقة دون جدوى.

اليوم الرابع للقصف عُدنا باحتراز إلى موقعنا بعد أن أخبرتنا قيادتنا بأن حشود المدفعية غادرت مواقعها التى احتلتها منذ عدة أيام. نقوم بترميم موقعنا الذى تهدم جزء كبير منه تحت ثقل قصفهم الشديد، استمر العمل يومين على هذا الوضع. جاءنا إنذار بتوقع هجمة جوية فطلبت من جنودى الاحتماء بالحفر البرميلية.

كما سبق وذكرت إننى أقيم فى منزل قديم وبداخل هذا المنزل أعد الجنود ملجأ لتحمل القصفات التى نتعرض إليها من حين لآخر لأنه أصبح واضحا أننا محور اهتمام العدو وأنهم يريدون الثأر منا لما أصابهم فى يوم ١١/٤/٧٠، وصل الإنذار إلى جنودى واختبأ الجميع فى جفر برميلية أعدتها سرية الهاون السابقة بعناية حيث حفروا تلك الحفر الأسطوانية وأحضروا براميل صاج مفتوحة من الجانبين وأسقطوها بتلك الحفر وبهذا أصبحت الحفر متماسكة ولا تنهار تحت عوامل الطقس أو الانفجارات ولم يستخدموها نظرا لعدم حدوث اشتباكات بينهم وبين العدو كما أبلغتنا وحدة الاستطلاع القريبة منا قبل ذلك. جميع الجنود فى حفرهم. صعدت إلى مبنى مكون من ثلاثة طوابق ويأخذ شكل المثلث لأى إنسان يتوجه إلى مدينة القنطرة غرب ويجواره سوق الخضار حاليا وشاهدته منذ عدة سنوات. الدور العلوى لم يكن أعد للسكنى ولكنه مزود بشبابيك "شيش فقط". وقفت أشاهد منه موقعى الذى يشرف عليه جيدا وبالخلف اتجاه العدو ولهذا كنت آمنا بأن العدو لن يرانى ولن أصاب من نيران مدافعه.

فجأة لمع شىء فى السماء وأنا مازلت واقفا فى وسط هذا الشباك وكل ما حدث هوأننى سمعت انفجارات وأصوات تحيط بى وغبار أحمر ناتج من تهدم أحجار مبنى الشقة التى كنت أقف فيها ومدفوعا بقوة إلى السلم متدحرجا من الدور الثالث إلى أن استقريت فى ملجأ ببدروم المبنى. لقد تكور جسدى مثل "القنفذ" ومن شدة الانفجارات دفعتنى وتدحرجت هكذا إلى أن وصلت الملجأ لأنتبه وأنا أشاهد بعضا من جنودى ينظرون إلى والهلع فى ملامحهم وأنا أتساءل: أنا فين؟ هوه مش أنا برضه أسامة وإلا أنا مين؟

لقد أصاب الذهول الجميع من قصف طائراتهم الشديد والتى استمرت بغاراتها حوالى نصف ساعة ووصل حال بعض الجنود أنهم تبرزوا بوضعهم هذا من شدة الهلع ولا ألومهم فهم محقون وهم ينصتون للغارات وأصوات ارتطام القنابل الضخمة بجوارنا وأصوات انهيارات الأبنية حولنا. انتهت الغارة وكأن على رءوسهم الطير ما بين كسيح غير قادر على الحركة ومابين آخرين يسيرون بدون وعى.

تنبهت على رنين جرس التليفون. قائد الكتيبة يطلبنى مستفسراً عن الموقف وعن الخسائر من قتلى وجرحى وأنا أخبره أننى لا أعلم لأننى لم أجمع السرية بعد وأن الجنود مشتتون فى أماكن كثيرة فى مبانى المدينة. شعر الرجل أننى فى غاية الاضطراب شد من أزرى طالبا منى سرعة إبلاغه بالموقف. عناصر الاستطلاع الخلفية لنا والتابعة لحرس الحدود أبلغت قيادتها وقيادة الجيش بما نتج من الغارة وشدة التدمير الذى لحق بموقع سرية الهاون وكان أكثر المتفائلين قد حسموا الأمر بأن تلك السرية فقدت على الأقل نصف قوتها قتلى والباقى جرحى.

لكنُ عمر الشقى بقى والأعمار بيد الله وحده. لم يحدث لأى جندى أوصف ضابط مكروه سوى اثنين من الجنود انفجر صاروخ واندفعت رمال ساخنة عليهما فى حفرهم فأدى هذا إلى تسلخ بسيط فى أيديهما مع العلاج تعافى بعد عدة أيام كما لم تحدث خسائر فى الأسلحة أو الذخيرة لكن من شدة القصف دفنت غالبية المدافع وصناديق الذخيرة من الانفجارات القريبة ولم تلحق إصابة مباشرة وإلا كان الموقع انفجر نظرا لكميات الذخيرة التى استعوضت بعد تدمير مخزن ذخيرة العدو كما أصابنى بعض الكدمات والجروح والخدوش من اندفاعى من الدور الثالث إلى البدروم فأصابت الرأس والوجه ببعض الكدمات.

صعدت إلى مكان مراقبتى والذى اندفعت منه ساقطا بشكل كورة من الدور الثالث حتى بدروم المبنى فى الملجأ المقام به. ولشدة دهشتى وعناية الله أننى شاهدت أن المفاصل الحديدية "لشيش" الشباك قد تهشمت من الشظايا الكبيرة التى فى حجم كف الإنسان وأن الشيش سقط بداخل الغرفة التى كنت واقفا بها. أى أن الشظايا انتشرت يمين ويسار وقوفى. قلت سبحان الله والذى ينجى الإنسان فى بطن الحوت ويجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ويحمينى من الشظايا القاتلة لأن أى شظية منهما كفيلة بشطر جسدى نصفين.

مازالت الضمادات التى قام الطبيب بوضعها على وجهى وبعض أجزاء جسدى من الكدمات التى حدثت، من سقوطى من أعلى المبنى إلى البدروم تغلف وجهى بالإضافة إلى تلك الجروح والكدمات ورغم هذا ظللت أتابع رجالى لمدة

أسبوع ونحن نعمل فى إصلاح ما تهدم وكل يوم يحضر ضابط المدرعات الملازم أول محمود خميس ببعض جنوده معنا مساعدين مؤازرين وقد تأكد للإسرائيليين أننا انتهينا فمضى على قصفنا عدة أيام ولا نقوم بالرد على استفزازاتهم وشعر جميع رجال الكتيبة بمدى أهميتنا سواء بحمايتهم من قصفات مدافع الهاون أو من شدة القصف الذى خصصوا له مجهودًا جويًا خاصًا بنا.

أتممنا أسبوعا وعاد موقعنا كما كان واستمرت حياتنا مثل سابق عهدها ونحن نناطحهم القصف كما كنا نفعل سابقا وقد أيقن هؤلاء أننا محجبون أو أن وحدات أخرى حضرت لتحل محلنا. أغدق قائد الجيش بالمكافآت المادية على جميع أفراد السرية مكتفيا بأن أرسل لى وإلى النقيب فاروق متولى خطابى شكر على تدمير موقع ذخيرة العدو فى هذا التاريخ (مرفق مع باقى المرفقات).

نقترب من نهاية شهر أغسطس ومبادرة وزير الخارجية الأمريكى وليم روجرز لوقف إطلاق النيران والتى ستدخل حيز التنفيذ بعد أسبوع. إنه أسبوع جهنم فى جبهة القتال. الطرفان يريدان الثأر وتعاظمت الاشتباكات والمعارك بين الطرفين وكان وقودها الأفراد والذخيرة وتساقط القتلى من الطرفين وامتلأت المستشفيات العسكرية بالشهداء والمصابين وحملت لوارى الجيش رفات الكثير من الجنود والضباط إلى أهاليهم وقد نالنا نصيب من هذا وهو قائدنا النقيب فاروق متولى الذى لاقى ربه أثر استشهاده عن شجاعة وحبه للآخرين حيث كان يقف يدفع بالجنود إلى الملجأ هربا من قذف الطائرات المعادية لكتيبتنا فى القنطرة وبعد أن تأكد أن جميع الجنود بالداخل أراد أن يلحق بهم فلحقت به شظية كبيرة لتقسم جانبه الأيمن فيقع صارخا يردد الحمد لله (لبنهام) ولاد الابالسة. ثم يكمل حديثه وهو يقاوم الموت. عرفوا الجميع أنى مش خايف وأنا حاقابل ربنا وأنا سعيد. ينقل إلى مستشفى القصاصين العسكرى ولكن الطائرات المغيرة على الطرق أخرت وصوله فوصل متأخرا وبعد دقائق لاقى ربه راضيا مرضيا شجاعا محبا للآخرين لم يضر إنسان ولم يغضب منه أحد لأنه رجل كان على سجيته صريحا فى القول مخلصا لبلده ودفن بمقابر الشهداء بمدينة الإسماعيلية وقتها قبل أن تنقل إلى خارج المدينة.

تساقطت الطائرات المعادية كالفراش المبثوث وكان منظرا رائعا ونحن نشاهد تهاوى تلك الطائرات من طراز فانتوم وسكاى هوك تسقط وتشتعل بها النيران والاشتباكات على أشدها حتى تم وقف إطلاق النيران وهدأت المدافع.

خالجنى شعور غريب لم أتبينه أنا وجنودى الأوفياء لقائدهم قبل هذا رغم أن النقيب فاروق كان كثير التغيب فى الفرق التعليمية ولكنى لم أكن أشعر بقيمة ما لغيابه عنا ولكن بعد استشهاده شعرت بأنه أخى الأكبر الذى يعطينى النصيحة والمرشد والموجه والصديق الذى نقضى معا بعض الأوقات فى المرح والسعادة وشعرت أن باقى ضباط الكتيبة يشعرون بهذا الشعور فكل من تعامل معه شعر بصدق مشاعره فلم يذم فى أحد ما وإذا أراد أن يذمه فيكون أمامه لاعنا كل شىء ويدخل فى معارك لفظية معهم ولكن من خلفهم لم يتلفظ عن أحد منهم بسوء. حتى لوقت قريب وفى عطلة عيد الفطر المبارك فى نهاية شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٦ وكنت فى زيارة عائلية للدكتور محمود خميس زميلنا فى القنطرة وأستاذ علوم البحار بجامعة الإسكندرية ووكيل الكلية وتذكرنا هذا الإنسان المحبوب ونحن أكثر الناس التصاقا به، رحم الله الرجل وأدخله فسيح جناته.

صدر قرار وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل بناء على مبادرة أمريكية أعدت للتطبيق. بعد عدة أيام علمنا بالخبر الحزين، مات القائد جمال عبدالناصر، كانت الجبهة وقتها فى حالة وقف لإطلاق النار ورغم ما بى من جراح وألم مثل الآخرين وخاصة إننا ودعنا قائدنا المباشر النقيب فاروق منذ أقل من أسبوعين إلا اننى واجهت موقفا سيئا من الحالة التى وصل إليها الجنود وأنا أشاهد عيونهم الزائغة. عادت بى الذاكرة إلى عام ٦٧ والانسحاب ونحن بهذا الشكل لكن كان مبعثه العطش والجوع والإرهاق ورغم كل تلك الظروف كان الأمل يغلفنا بأننا سنعود لبلدنا وهناك جمال عبد الناصر. كنت أتذكر أن غالبية الشعب كانت تقرن جمال عبدالناصر بحل مشاكلها فكان الناس خاصة الفقراء يصيحون بطلب النجدة من جمال عبدالناصر.

جمعت جنودى أحادثهم بأن هذا ليس نهاية المطاف، ينظرون إلى كأننى إنسان قاس ولا قلب لى وسألنى احدهم بضيق بأسلوب بعيد عن الاحترام والانضباط العسكرى قائلا: أمال لو مكنتش سلمت عليه وكلمك وكلمته كنت عملت إيه؟ ارتبكت قليلا ولكنى أجبتهم: لو أنكم تحبون هذا الرجل حقيقة وليس شعاراً لنفذتم نصائحه. ألم يطلب منا الاهتمام بالتدريب والمحافظة على سلاحنا. هذا هو مطلبه والذى يحبه ويقدره ينفذ ما طلبه منا جميعا منذ عدة أشهر. صمتوا قليلا وكأنهم نفثوا عن ضيقهم وأخيرا تشجع أحدهم قائلا: اعذرنا يا فندم.. أصلها حاجة كبيرة.

جاءنى قائد مدفعية اللواء المقدم حسن سليمان وهو رجل من أبناء المنصورة مهذب لا تسمع سيئًا يخرج من لسانه وأخبرنى بأنه راغب فى أن يلحقنى على الكتيبة المجاورة ٥٢٧ لأن الكتيبة مكلفة بعمل خاص ضد العدو بعد وقف إطلاق النار ولن أجد أكفأ منك لتلك المهمة. وافقت على الفور وهناك تعرفت على مجموعة جديدة من الضباط.

توليت قيادة سرية الهاون يعاوننى الملازم أول احتياط نبيل عزيز صليب، التدريب يسير على قدم وساق واستمرت خدمتى بالكتيبة لمدة ستة أشهر ثم تغير موقعنا لنحتل المنطقة خلف مستشفى القصاصين العسكرى بعيدا عن الخط الأمامى للعمليات.

رتبت إجازتى الميدانية مع موعد زفاف مدحت والذى اقترب موعده كما تسلم شقة حديثة فى الجهة الأخرى من النيل فى اتجاه حديقة الأورمان أى أنه أصبح من سكان الجيزة. سعدت سعادة كبيرة وأنا أشاهده فى كوشة الزفاف بجوار عروسه يماثل البدر المنير ليلة ضيائه، عاودتنى الذكرى الأولى والتى شاهدته فيها لأول مرة وهو راقد فى مستشفى المعادى تائها لا حول له ولا قوة لا يعرف من هو ومن يكون؟ إن الله يسخر من عباده لمعاونة الآخرين وقد سعدت بهذا أن أنال هذا الشرف وأن أكون احد هؤلاء الذين يدخلون السعادة على قلوب الآخرين كما كانت عائلته غاية فى الكرم معى فقد اقتربت تلك العلاقة من عامها الرابع

وكانت على أحسن ما يكون ولم أشعر فى يوم من الأيام أننى ألقى معاملة أقل إن لم يكن أفضل وكان هذا نابعا من أصالة الأسرة.

تهمس علا فى أذنى. عقبالنا يا أسامة وأنا أؤيدها فيما تقول ثم تضيف هل اقترب موعد اللقاء أم مازال هناك بعض الوقت؟ كنت لا أدرى كيف أجيبها وقد اشتعلت نيران الحب والشوق بيننا وتكمل حديثها: إذا كنت تفكر فى الماديات فهذا آخر شىء نفكر فيه. نحن بشر أولا وأخيرا وهذا هو الباقى. أما ما يقاس بالمال أو غيره فهو زائل ومن ليس معه اليوم يصبح معه غدا. نفيت هذا التفكير من فكرها فلقد مَن الله على بخيره وها أنا قليل النفقات فأضع مبلغا من المال فى بداية كل شهر بيد أمى لتساعد فى نفقات المنزل المتزايدة أما ما يتبقى معى فأضعه فى حسابى بالبنك أجنبه حتى أستخدمه فى إعداد مستقبلى العائلى وأكون مستعدا لكل نفقات الزواج.

أنا أعلم أن عائلة علا ثرية فقد تبقى لهم بعد مرحلتى قوانين التأميم بعض الأموال حيث كان والدها رحمة الله الحاج هشام عليوة صاحب مطحن دقيق فى منطقة مصر القديمة وأممت الحكومة مطحنه خلال قوانين يوليو الاشتراكية.

طمأنت علا بأن كل شىء قادم فى موعده ومازالت تستحثنى على اتخاذ إجراء ما خاصة أن مدحت ترك الفيلا وسيقيم بعيدا عنهم وبالتالى تكون زيارتى مؤيدة بأننى خطيب لابنتهم علا، لقد نبهتنى علا إلى شىء خطير وأننى لن أستطيع بعد اليوم أن أذهب وأعيش بينهم كما كان يحدث فى الماضى وبأى صفة؟

أجبتها بأننى مازلت متخوفا من الزواج ومازالت البلد تنتظر حربا ولكنها تجيبنى بأن كثير من الشباب يتزوجون ولا دخل للحروب بالزواج، أحاول إقناعها بأننى إذا تذوقت هذا الجمال الرائع والسعادة الغامرة كيف أستطيع تركه وأعود لوحدتى أنتظر أربعة أسابيع ثم أعود إليها ثانية، تضحك لهذا الإطراء قائلة: شىء قليل أفضل من لا شىء، كنت أؤيدها فى هذا.

كان مبعث خوفى هو ما شاهدته وعاصرته من روايات عن شهداء تركوا زوجاتهم حوامل فى الشهور الأولى وسوف تنجب الزوجة وبعد فترة تتزوج شخصا

آخر يقوم بتربية ابن الشهيد. أيحسن معاملته؟ كنت أشك فى هذا. إذاً ما الذى يدفعنى إلى هذا ولماذا العجلة، تلمح لى بأن عمرها اقترب من الثمانى والعشرين وأن شقيقتها دينا تعمل الآن وهناك شخص يطلب ودها ويرغب فى الحضور لقراءة الفاتحة وكلها أمور تثير النفس وتساعد على الاندفاع نحو العاطفة المؤجلة.

أشاهدها تسير بين المدعوين رائعة الجمال وما وهبها الله من جمال طبيعى وجسد متناسق وطول فارع وقسمات وجه معبرة والبعض من المدعوين ينظرون إليها خلسة ليمتعوا أعينهم بهذا المخلوق بديع التكوين وأنا شاعر بسعادة غامرة أن يكون قلب هذه الجميلة لى وحدى وإنها ترغبنى اليوم قبل الغد خاصة أن علاقتنا كانت سامية ولم تخرج عن تبادل كلمات الإعجاب بتسريحتها أو ملابسها وأناقتها ولم نكن نتصرف مثل الآخرين لأننا نعلم أن كل خطوة لها حقوق وواجبات وطالما لم نقم بسداد الواجبات فليس لنا حقوق كما كان شعورى الداخلى بشعور ماما وداد بالأمان على ابنتيها معى هو عامل مهم فى زيادة الأمانة والسمو بها فوق كل رغبة عابرة أو مكبوتة.

* * *

عدت إلى الوحدة بعد انتهاء أجازتى واليوم التالى توجهت مع قائد الكتيبة للقاء قائد قطاع بورسعيد لتنظيم تعاون وهناك استأذنتهم بعد ما انتهى عملنا الذى حضرت من أجله، تركتهما يتناولان طعام الغذاء وركبت السيارة الجيب يقودها العريف سعيد متجها إلى محل "الشامى" بائع البسبوسة. هناك سألت أحد أصحاب الدكاكين عن عم عليوه المزين وأفادنى البعض بأنه بعافية من يومين "مريض" وإذا أردت زيارته فسأدلك على منزله.

أقف الآن أمام منزل عم عليوة المزين والذى قابلنى فى بورسعيد بعد عودتى من انسحاب عام ٦٧ وقص شعر رأسى والذى كان ينتظر عودة ابنه من الحرب. معى مرافقى من أبناء بورسعيد بعد أن دق على باب منزل قديم فتحت الباب فتاة جميلة حباها الله بنعمته. أخبرتها بأنى ضيف راغب فى لقاء عم عليوة. أشارت

إلى الفتاة بالدخول وهى تنظر إلى مليا ثم بعد دقائق طلبت منى التوجه لحجرة والدها المريض.

شاهدت الرجل جالسا فى سريره وبجواره زوجته وابنه البالغ من العمر اثنى عشر عاما كما أخبرنى بعد ذلك. أصافحه قائلاً له أزيك يا بابا عليوة. نظر إلى الرجل بتمعن قائلاً: والله الشكل غريب علىّ ولكن الصوت وكلمة بابا دية محدش قالها لى من يوم المرحوم ممدوح غير واحد ربنا يعيده وأشوفه. سألته ومن هو؟ اجابنى ظابط ابن حلال قابلته فى بورسعيد من تلات سنين صحيح كان متبهدل ووشه وارم ومسلخ لكنه ابن حلال تصور قال لى بابا عليوة.

انحنيت عليه واحتضنته وأنا أخبره بأننى هذا الشاب. بكى ضاحكاً مردداً: والله الدنيا دية صُغيرة. نظر جهة زوجته قائلا: فاكره يا خديجة (وقفت زوجته مرحبة بى)" مش قلت لكِ إنى نفسى أشوف الشاب ابن الحلال اللى قاللى بابا عليوة. والنبى تقولها. أرددها بابا عليوة وابنته تنظر إلى وتسأل وعلى وجهها الجميل ابتسامة ساحرة. طيب واسم أخويا إيه؟ أخبرهم: أسامة.. أسامة الصادق.

أعد هؤلاء القوم الطيبون الفقراء احتفالا مبعثه الحب النابع من القلب ولا شىء سواه فتشاهده وتشعر به ولولا أننى عائد آخر اليوم إلى وحدتى مع قائدى لأمضيت الليل عندهم. تعرفوا على أخبارى وعرفت أخبارهم وأن ممدوح مازال يعتبر مفقوداً والرجل يقول استعوضته عند ربنا والبركة فى حمدى ابنى الصغير حيبقى راجل ويخلى باله منى ومن أمه ومن سحر بنتى. شفت بنتى سحر حلوة إزاى؟ نظرت إليها وقد تورد وجهها من ثناء والدها فقلت من ناحية حلوة مافيش بعد كده.. تدفعنى فى يدى وهى تقول: ما بلاش الكلام اللى يكسف يا خويا.. حضر حمدى وجلس بجوارى واضعا كوعه على صدرى ونام على هذا الوضع مستيقظا. أما الأم خديجة فأرادت أن تُعد طعاما لنا وقد اقترب الوقت من الثانية بعد الظهر، طلب منها أن تسألنى عما أريد تناوله فأجبتهم الموجود بدون أن تعدوا شيئا جديداً حتى أشعر بأنهم منى وأنا منهم. جلست فى ضيافتهم حتى تعدت الساعة السادسة واستأذنتهم مغادراً على وعود بالعودة لزيارتهم مرة أخرى

ولكن سحر أخبرتنى بان أوامر التهجير الإجبارية وصلتهم وسيقيمون فى بيت عمتهم القديم بحى القلعة وزودتنى بالعنوان. غادرت أسرة عم عليوة عائداً إلى قائدى وشعرت بسرور عظيم لهذا اللقاء الإنسانى وأنا أحدث نفسى قائلاً: بقيت عامل شيخ حارة يا أسامة.. ولكنها ظروف الحرب.

مواقف طارئة فى العمل

رقيت إلى رتبة النقيب فى الأول من شهر يوليو عام ٧١ و شعرت اننى محترم نسبيا فقد ودعت رتبة الملازم والملازم أول التى أصابتنى كثيراً بالإحباط من تجاهل القادة الكبار ومعاملتهم لى بأننى مازلت صغيراً أحتاج للتوجيه والتقريع من حين لآخر. أثناء تواجدى بالقاهرة لحضور حفل زفاف مدحت وسعاد فكرت فى زيارة عاطف شقيق الشهيد وليم فاتصلت به تليفونيا وقد مضت عدة أعوام تناسينا اللقاء والزيارة وما لهم من مكانة فى قلبى ومشاعرى ودائما صورة الشهيد وليم أمامى لا أنساها أبدا حتى هذا اليوم كأنه مازال ماثلاً أمامى بكبريائه وقوته وتحديه للعدو وأعتقد أنه شىء طبيعى أن يكون تصرفه هذا وهو قائد كتيبة دبابات وشاهد وعلم ما حدث لزملائه وجنوده ومصيرهم المحتوم وهم مسحولون خلف الدبابة الإسرائيلية وشاهد الاثنين اللذين توفيا ولاقا حتفهما من جراء ذلك، كان حُب الانتقام شيئًا أهم من بقائه حيا هو ومعاونوه مثلنا بالضبط فقد دخلنا تلك المعركة اليائسة ونحن لا نملك سوى اثنتى عشرة طلقة من بنادقنا الضعيفة أمام ترسانة أسلحة الدبابة.

كان اللقاء طيبا جميلا بهذه الأسرة الوفية استمتعت بحبهم وحنانهم حيث كانت ماما مارى تنظر إلى بأننى وليم الابن الغائب أو بأننى الأوفر حظا والتقى به قبل لقاء ربه بدقائق بل ودخل معركة انتحارية من أجل إنقاذه هو وزملائه، كانوا جميعا يلتفون حولى وكنت أحمل عزيز أبن الشهيد على ساقى ألاعبه وأقبله وأغدق عليه فى كل مرة بهدية تسعد الأطفال الصغار، كانت روز أرملة وليم تنظر إلى بطيبة وسعادة وفى بعض الأحيان تهاجمها دموع الفراق للزوج التى لم تمكث معه سوى عام واحد ثم أصبحت أرملة، ماما مارى تجلس بجوارى وتهمل عاطف الذى كان يضحك من تصرفها ويداعبها بأنها مثل القطط تنساه مجرد حضور أسامة وتقاطعه بأن من يجلس بجوارها هو وليم!!

اتجهت إلى القاهرة للدراسة بمعهد المشاة لفترة سبعة أشهر أو يزيد وقررت أن أعيش بعيداً عن فيلا دينا فلقد جد جديد وهو زواج مدحت وكيف سأوفق بين وجودى بالقاهرة وزيارتهم، كانت تلك هى المشكلة التى تواجهنى فهم لا يرون أى مشكلة فى أن أكرر التجربة وأقيم معهم ثانية وأنا أجد فى ذلك مائة مشكلة. أولها أننى لا أريد أن أكرر مأساة فرقة الهاون وأعود خالى الوفاض من المعلومات، إنها سرية مشاه وفرقتها صعبة وتحتاج منى إلى مجهود وتركيز، ثانيا أن مدحت غير متواجد بالمنزل والفرقة طويلة وعلا وصلت إلى مرحلة الاندفاع العاطفى الذى لابد أن يُلبى عن طريق اتخاذ إجراء ما لبداية زواجنا وهى التى كررت مرارا أنه لابد من قراءة الفاتحة وبعدها بشهرين تتم الخطبة وهكذا سوف أجد نفسى منزلقا إلى وضع لم أستعد له نفسيا. ثالثا خشيتى أن أجد نفسى فى يوم ما غير مرغوب فيه فسيكون هذا مؤلما على نفسى، ولهذا أهلت نفسى لأن أقيم بميس المشاة بالعباسية وبعد قضاء أسبوعين شعرت اننى أقيم فى معسكر وعنفت نفسى كيف لى أن أعود من جبهة القتال بعد أكثر من أربع سنوات لأقيم فى معسكر هل هذا معقول؟

فى اليوم التالى قابلت زميلاً لى يدرس معى فى معهد المشاة وأخبرته بحالى فعرض على أن أقيم بشقة شقيقه بالهرم والمتغيب نظرا لوجوده فى بعثة تعليمية بالخارج حتى نهاية العام وعائد الإيجار يستفيد به بعد عودته. راقتنى الفكرة

وعاينت الشقة واتفقنا على أن يخصص لى حجرة واحدة ويغلق باقى الحجرات حفاظا على أثاث الشقة وفى نفس الوقت لا تكلفنى مشقة نظافتها واتفقنا على كل شىء.

شعرت بعد أن انتقلت إلى الشقة بأننى أعيش مع الناس وأننى حر طليق رغم كثرة المذاكرة والواجبات إلا أننى كنت سعيدًا بأنى ابتعدت عن المعسكر الذى كنت أقيم به.

فى عطلة نهاية الأسبوع أقوم على زيارة ماما وداد وأسرتها والأسبوع التالى أتزاور مع عائلتى بالزقازيق، استفسرت منى علا أين أقيم فأخبرتها فانزعجت من هذا التصرف مندده به وتدخلت الأم تعتب علىّ قائلة نحن الآن فى أشد الحاجة إليك أكثر مما مضى وقد شُغل مدحت بزوجته وأصبح قليل الزيارات خاصة أنه لا يستطيع قيادة السيارة ليلا لظروف إصابته.

أوضحت لهم بأنى أقيم مع زميلين لإعداد المشاريع والخرائط المطلوبة منا. آه يا أسامه لقد كذبت والكذب هنا منجاة من غضبهن أو أكون طوع بنانهن وأحصل على تقدير ضعيف أو مقبول. إننى أريد التركيز كما أن عمرى اقترب من الثمانية وعشرين عاما وهذا يدفعنى إلى المزيد من التفكير فى علا بطريقة تختلف عما كنت أفكر فيها قبل ذلك وقد يدفعنى هذا إلى ارتكاب أخطاء لا أعلمها ولكن على الإنسان البصير أن يتقى مواطن الشبهات.

فى نهاية شهر ديسمبر انتهيت من فرقتى الدراسية ونجحت بتقدير جيد وشعرت بأنى حصلت على الكثير من المعلومات واستفدت استفادة كبرى من المعلومات التى حصلت عليها فقد حصلت على معلومات وتدريبات قيمة فى تلك الفرقة الدراسية بمعهد المشاة خاصة التركيز والاهتمام بالتحصيل وأهم ما لفت نظرى تلك المعلومات الواردة من المخابرات الحربية عن خط بارليف.

هذا هو خط الدفاع المتواجد على شرق قناة السويس. الخط عبارة عن دشم خرسانية على الشاطئ الشرقى مباشرة. الدشمة تتكون من عدة طوابق. ما بين

طابقين أو ثلاث محفور لها فى باطن الأرض ومغطاة بالرمال لحمايتها من نيران أسلحتنا الثقيلة. بتلك الدشم فتحات أو مزاغل يمكن من بداخلها أن يفتح نيران الأسلحة المزودة بها تلك الدشم على أى قوة تحاول العبور من الضفة الغربية للهجوم عليهم. هذه النقاط وتلك الدشم يوجد بوسطها منطقة فضاء أو صحن من الرمال لتخزين المركبات المدرعة والدبابات. ومزودة بكل شىء من وسائل الإعاشة والتسلية. بها أماكن مريحة للنوم وقاعات طعام وأماكن للتسلية وإرسال تليفزيونى ومزودة بخزانات مياه نظيفة ومولدات كهرباء بالإضافة إلى الأسلحة المختلفة التى تفتح نيرانها على قواتنا للقضاء على أى محاولة للهجوم عليهم. تتواجد فتحات "مزاغل" بتلك الدشم سواء أمامية أو جانبية يمينًا ويسارًا وتستطيع إطلاق النيران على أى قوة مهاجمة على النقطة القوية المجاورة لها بعدة كيلومترات وحمايتها سواء يسارها أو يمينها. وتلك النقاط بها أسلحة مضادة للدبابات ورشاشات وهاونات للقضاء على الأفراد كما زودت بمواسير بأسفلها تندفع منها كميات هائلة من مادة النابالم الحارق الذى بعد دفعه من أسفل القناة يطفو فوق المياه منتشرا لمسافات بعيدة مشتعلا بتأثير الهواء حارقا أى محاولة للعبور. تنتشر على طول واجهة قناة السويس ٢٨ نقطة قوية.

تلك النقاط تحيط بها حقول ألغام من عدة طبقات بعضها فوق بعض حتى من يتمكن من تأمين الألغام السطحية تنفجر فيه الألغام السفلية. كل نقطة مزودة ببرج مراقبة لمراقبة التحركات لقواتنا كما أعدت سماعات تلتقط الأحاديث بين المصريين وتسجيلها وإرسالها إلى جهاز المخابرات الإسرائيلى.

يربط تلك النقاط اتصال سلكى ولاسلكى على مستوى عال والفواصل بين النقاط ما بين ١٠ إلى ١٢ كيلو مترًا حسب طبيعة الأرض وأهمية المواقع المواجهة لها بغرب القناة، كما توجد مدقات تسمح بسير المركبات ويحميها عن أعين قواتنا ساتر ترابى مرتفع مابين عشرين إلى خمسة وعشرين مترا بزاوية ميل ستين درجة. خلف هذا الساتر توجد مرابض للدبابات"أماكن لفتح النيران وتحمى دباباتهم من أسلحتنا" ومزود بالذخيرة وتندفع الدبابات لها وتقوم بالاشتباك مع

قواتنا سواء بغرب القناة أو التى استطاعت التسلل والعبور. يربط بين تلك النقاط "المدقات" أى الطرق لتقديم العون العسكرى والإدارى، نزول الأجازات بواسطة أتوبيسات سياحة مكيفة كما يحضر للترفيه عن الجنود بعض الزوار من فنانين وغيرهم وبالطبع العنصر النسائى متوافر سواء بالجيش أو من الزائرات لهم.

خلف تلك النقاط بحوالى عشرين كيلومترا تتواجد نقاط قوية لحماية نقاط الخط الأمامى للقناة وبها عناصر مدرعة سواء الدبابات أو المشاة الميكانيكى ووحدات مدفعية ومهندسين عسكريين. فى حالة الخطر على تلك النقاط تتدفع تلك الوحدات من المدرعات "دبابات أو مشاه ميكانيكى" للهجوم على المهاجمين من قواتنا وتسبقها قصفات مدفعية ميدانية كثيفة مع معاونة جوية تصل حتى مستوى الفصيلة المشاة أو المدرعة. الإسعاف بطائرات الهليكوبتر للخلف.

طائرات الاستطلاع محلقة باستمرار على خط القناة تصور وتسجل كل شىء قبل وقوعة بعدة ساعات مع تواجد عملاء لهم داخل المنطقة الغربية للقناة وقد ألقت المخابرات الحربية القبض على بعضهم وقدموا للمحاكمة.

* * *

فى أول يوم وصولى إلى موقع كتيبتى فى الموقع الثالث بعيدا عن خط القناة طلبنى قائد الكتيبة وكان التوقيت ليلاً وكنت عائداً مرهقاً من الفرقة الدراسية، أخبرنى بأن علىّ التوجه إلى مقر السرية الثالثة مشاه ميكانيكى فقد أصبحت كتيبتنا محملة على مركبات "توباز"وباقى اللواء أيضا.

أصبح قائد السرية السابق مساعدا لى لأننى أقدم منه ومازلنا نواصل التدريب وأمورنا على أحسن ما يكون. نواصل التدريب بمناورات شديدة ولمسافات بعيدة مستخدمين المركبات المدرعة لعدة أيام وهناك تسابق وتعاون بيننا وبين كتيبة الدبابات لأن تكتيكات المشاة المترجل تختلف فى بعض المواقف عن تكتيكات المشاة الميكانيكى.

بداية عام ٧٣ أستعد لحضور حفل زفاف"أكليل" المقدم عاطف شفيق على عروسه مريم ميخائيل، أفكر.. لقد تأخر عاطف فى زواجه وفى إجازتى السابقة

استفسرت منى والدتى لماذا لم أتخذ خطوة حتى الآن مع علا طالما أن العائلة ترغبك وترغبهم والفتاة من حين لآخر تطاليك باتخاذ خطوة ما والعمر يجرى بكما خاصة بها كفتاة وانا أعرب لها عن مخاوفى غير المباشرة حتى لا تنزعج فمن غير المعقول أخبرها أننى أخشى أن أتركها مثل ما ترك وليم زوجته.

عدت إلى وحدتى وأنا عاقد العزم على أن اتخذ خطوة ما لشعورى بفتور من جهتها، مضى على ذاك الفتور شهران شعرت خلالها بقتامه سوداء فى حياتى، كنت أعود من زيارتهم حزين القلب ومشاعرى تائهة ولا أعلم كيف الخروج من تلك الدوامة واعتقدت أن السبيل الأوحد لتقليل تلك الفجوة هو اتخاذ خطوة ما لإعادة دفء القلوب ثانية كما كنا دائما.

قررت كتابة خطاب لها وسوف أرسله مع شخص أثق به وينتظر حتى اليوم التالى ليعيد رد الخطاب لى حتى تستعد لقيام أسرتى بزيارتهم ثم اتصل بعائلتى لنذهب للزيارة وقراءة الفاتحة وتصبح تلك أول خطوة أخطوها فى حياتى العاطفية والاجتماعية. صحيح أننى راغب فى الاقتران بها خاصة فى الفترة الأخيرة حيث كنت ألاحظ مدى ما تتمتع به من جمال طبيعى كما أن زواج عاطف شجعنى وليكن ما يكون وهل أنا علام الغيوب وأعلم متى تبدأ الحرب ومتى تنتهى وهل سأنجو منها وأنا الذى شاهدت المآسى فى سيناء من شباب يافع قوى يلقى حتفه ظلما وقهرا من العدو والطبيعة.

أرسلت فى طلب صف ضابط مجند عمل معى فى سرية الهاون وهو من أبناء القاهرة وكان دائما ما يقص على أخباره وأخبار أسرته وهو ابن رجل فاضل كان رئيسا للبعثة التعليمية بإحدى الدول العربية، إنه محمد فوزى.. حضر الشاب سعيدا بأننى تذكرته وأريد محادثته، جلسنا نتناول الشاى سويا بعيدا عن أعين الجميع وأخبرته بأننى أريد أن أرسل معه بخطاب إلى شخص يهمنى أمره يسكن حى المنيل وسألته أتعرف حى المنيل لأننى أعلم أنه من أبناء حى شبرا، أرغى وأزيد فى معرفته بهذا الحى الجميل فأردت أن أنهى حكايته التى لا تخرج عن

كونها الرغبة فى النزول لتنفيذ تلك المأمورية وقضاء يومين مع أسرته، قلت له سوف أزودك بالعنوان والوصف، أوضح له أنه ليس المنيل بالضبط ولكنها منطقة الروضة والبعض يطلق عليها منيل الروضة.

ضحك الشاب قائلا إن تلك المنطقة صغيرة المساحة وله فيها من الذكريات الجميلة أيام أن كان يجمعه مع زميلته فى الجامعة وبنفس الكلية قصة حب قوية تحدث عنها جميع زملائه وزميلاته لأن الحبيبة كانت من نفس الكلية. آه يا فندم أنها فتاة جميلة آه عليك يا علا وعلى جمالك "انتابنى بعض التوتر لتشابه الأسماء" سألته إنه اسم جميل.. علياء.. صحح الاسم.. لا ليست علياء بل علا هشام !!! ارتبكت قليلا ولم أستطع أن أتحدث فكنت أبتلع أنفاسى التى بدأت تلهث من تلك الكلمات القليلة.. استطرد.. تقيم فى فيلا "دينا" فيلا رائعة وهم من الأغنياء ميسورى الحال ولها شقيق ضابط بالجيش يكبرها بعدة سنوات ذهبت لمفاتحته بالاقتران بها ولكنه رفض طلبى قائلا بعد التخرج وأخبرته اننى سوف أتخرج هذا العام وكنا قبل حرب ٦٧ أى فى عام ٦٦ ولكنه صمم على التأجيل. تصور يا فندم.. أفندم أنت نمت؟.. أشير إليه بأن يكمل قصتى المأساوية والفرصة السيئة التى جاءتنى على غير موعد.. يكمل حديثه.. كنا نتنزه معا وأحضر معى العود لأعزف عليه أغنية أول همسه للفنان فريد الأطرش.. ياه كانت بتدوب لما تسمع منى العزف.. أتنحنح سائلا إياه.. لكن كان فيه بينكم حاجات ومحتاجات.. يضحك ويطلب منى ألا أذكره بتلك الأيام السعيدة ونحن هنا نقاسى التعب والألم البدنى والنفسى قائلاً: "أيوه كان فيه آمال.. اتنين بيحبوا بعض حيعملوا إيه.. لازم فيه من لمسات وآهات"أنا أقول فى نفسى آه.. آه".. لازم يا فندم الواحد يشعلل البنت اللى معاه كلام وبس بقيت زى أى زميل لكن مدام فيه حب ورغبة لازم نتمتع قبل الجواز. دا أنت سيد العارفين "أنظر إليه وأنا أحدث نفسى قائلاً: دا أنا سيد الخايبين. يكمل حديثه: بصراحة اتمتعتلى يومين حلوين. لكن والله كنت ناوى على جواز لكن أخوها يخرب بيت أهله هو السبب. ياه اتلاقيكى اجوزتى ومعاكى عيلين دلوقتى خلاص بقيتى ذكرى.. ياه.. لكنها ذكرى حلوة ما تتنسيش".

جلست صامتا وما زال يتحدث ويتكلم، حدثته: محمد طيب روح دلوقتى سريتك وأنا حابقى أبعتلك لما أجهز الجواب. وقف شاكرا يودعنى قائلاً أهى تبقى فرصة أعدى على فيلتهم وأعرف الأخبار من البواب أو يمكن أقابلها صدفة ماهى الصدف الحلوة كتير وربنا يكترها.

أدى التحية العسكرية وأنا لا أفترق عن تمثال رمسيس فى شئ سوى فى العمر الزمنى، تسمرت وتجبست فى مكانى. ياه يا علا لكِ قصة حب عنيفة مع محمد فوزى وكمان أول همسة وتلاقى أول لمسة وأول قبلة. آه لا أستطيع أن أتذكر ولا أريد، الله يخرب بيت دى فرصة والله يخرب عقلك يا محمد يا فوزى. أعمل إيه ياربى؟ يعنى البت اللى طلعتلى فى البخت أعرف "بالصدفة المُرة" أنها كانت على علاقة وأعرف الشخص وأشاهده أمامى وهو يقص على تلك الغراميات.

أعيد التفكير ومراجعة عقلى المنهار المضطرب. يمكن حكاية تأليف من بتوع الشباب وأنه واد عفريت ودون جوان. أمضيت ليلة سيئة لا يقارنها ليلة سوى تلك الليالى التى كنت مدفونا فيها مع الذئاب. فتحت ظرف الخطاب المرسل لها واقرأ عبارات الحب التى أرسلها لها وأخبرها فيه بلهفتى للارتباط بها وأننى قادم فى إجازتى المقبلة وسيكون برفقتى والدى ووالدتى لقراءة الفاتحة وأرجو أن تخبرينى مع حامل تلك الرسالة هل هذا التوقيت ملائم من عدمه وسلامى وقبلاتى إلى ماما وداد والحبوبة الصغيرة دينا وأخى الأكبر مدحتِ وعروسه سعاد.. وختام من الحبيب الولهان......... أسامة.

فارت الدماء فى رأسى وكنت فى غاية التوتر على تلك الخيانة، كيف لى أن أرتبط بإنسانة خائنة ولقد تسلمتنى مكان محمد فوزى كبديل بدلا من الحب الضائع. أجلس قليلا ثم أعيد الفكر والتقدير لتلك المأساة التى لم تكن تجول بخاطرى. ثم أعود لتبرئتها.

صباح اليوم التالى نهضت من نومى وعيونى منتفخة من السهد والأرق والشواء على نار الغيرة والخيانة التى أشعلها فى قلبى الغبى محمد فوزى بدون

أن يدرى. يا له من أحمق يفتح فمه ولسانه عن الآخرين بأسوأ الأخبار، آه على ديننا الحنيف الذى حرم اغتياب الناس وخاصة النساء وجعلها من أكبر الكبائر" قذف المحصنات المؤمنات الغافلات".. أن الغيبة والنميمة مثل السهم الذى إذا خرج لا تستطيع استعادته.

حاولت استرجاع السنوات السابقة بينى وبين علا. ياه يا علا الرقيقة اللطيفة ولماذا أصدق هذا الأحمق وأكذب عيونى وحواسى. طوال السنوات الماضية لم يحدث بيننا أى شىء وكنا متفقين أنه لا حقوق بدون واجبات أى بدون خطوات تعد فى صالحنا للارتباط، كما أن شقيقتها دينا تلعب معى كأننا شابان صديقان ولم أشاهد عليها أى ميوعة أو مياصة أما ماما وداد" أدمعت عيناى على تلك الأم الرقيقة الكريمة التى ساعدتنى وأوصلتنى إلى محطة كوبرى الليمون منذ عدة سنوات وأنا شبه كسيح عاجز عن السير عدة خطوات وجشمت نفسها عبء الاتصال بأسرتى بالزقازيق وهى التى فقدت ابنها الوحيد ومازالت تبحث عنه ورغم هذا لم تدع فرصة لمعاونة المحتاج إلا وفعلتها، لم تكن تفعل هذا تيمنا من الله بأن ينقذ وحيدها ولكنها مازالت تفعله وتلقبنى بابنى أسامة وتعتبرنى أحد أبنائها طوال تلك السنوات وتعلم بأن ابنتها راغبة بى وأنا لم أتخذ أى خطوة حتى الآن، الله يخرب بيتك يا محمد يا فوزى يا مجنون.

***

شهر إبريل عام ١٩٧٢ حدث لى حدثان خطيران كادا أن يؤديا إلى معاقبتى بالمحكمة العسكرية :

الحدث الأول: صدور تعليمات شفهية من قائد الجيش الثانى الميدانى بمنع اصطياد السمك فى تفريعة البلاح الغربية التى تسيطر عليها قواتنا باستخدام المفرقعات، كان يحدث يوميا قيام بعض الضباط من الرتب الكبيرة باصطياد الأسماك باستخدام المتفجرات مما أدى إلى تذمر قوات الطوارئ الدولية التى لا تستطيع التمييز بين صيد الأسماك وخرق اتفاق وقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل.

كانت تعليمات قائد الجيش هى إطلاق النار فورا على من يقوم باصطياد الأسماك مستخدما المتفجرات، أحد أيام شهر إبريل نهضت من نومى فزعا على أصوات انفجارات فخرجت من مكمنى أتعرف على هذا الصوت فأخبرنى المراقبان بالسرية بأن انفجارا شديدا وقع لصيد الأسماك باستخدام لغم مضاد للدبابات مما أدى إلى نفوق أسماك كثيرة غطت سطح الماء.

لقد خالفوا أوامر قائد الجيش والتى أرسلت إلى جميع الوحدات، طلبت مدفع ماكينة معبئ بالذخيرة، أقبل طاقم المدفع وخشيت إن طلبت منهم إطلاق النار للتهويش أن يصيبوا القائمين على الصيد وأنا أعلم بأنهم أركان حرب قيادة الفرقة ١٨ والتى أنا وحدة منها، ضبطت اتجاه ومسافة المدفع وأطلقت النيران على دفعتين مما دفع بمن قاموا بالصيد للقفز بالماء والبعض احتمى بالأرض كم أصيبت العربة الجيب التى كانوا يستقلونها بأضرار بسيطة.

بعد قليل اتصل بى قائد ثان الكتيبة متسائلاً: هل النقطة القوية المواجهة لى فتحت نيرانها على قيادات الفرقة؟ نفيت هذا وأبلغته بأن من قام بهذا العمل هو أنا، تضايق الرجل وأشعرنى بأن كارثة مطبقة سوف تحل على رأسى، لم أبال وعلى الذى أصدر الأمر أن يتحمل تبعاته، بعد عدة دقائق اتصل بى نائب أحكام الفرقة "وكيل النيابة العسكرى" طالبا منى التوجه إلى مكتبه بقيادة الفرقة للتحقيق معى فى كيفية إطلاق النار على القادة بقيادة الفرقة، أخبرته إننى أنفذ أوامر قائد الجيش، أصر على طلبه وأنا صممت على الرفض، قرر إرسال سرية الشرطة العسكرية لإلقاء القبض على شخصى، أغلقت سماعة التليفون.

شعرت بأن الأمور سوف تزداد تعقيدا خاصة أن من قام بالصيد هم قادة الأفرع الرئيسية بالفرقة وسوف ينال القادة الكبار من الحب جانبًا، لقد عكرت على أمزجتهم جميعا ولم أجد من يساندنى أو يدافع عنى، قطعت كل اتصالات موقعى بخارج الجزيرة ومنعت أى قوارب تقترب من الجزيرة ووضعت جماعة مدافع ماكينة لإطلاق النار على قوة الشرطة العسكرية، كل تلك الاستعدادات

قامت عناصر المخابرات بالجزيرة بإبلاغها لقيادتها وشعر القوم بأن إحدى وحدات الفرقة مقبلة على عمل طائش خاصة أنه قد تم إطلاق النار قبل هذا عليهم.

أقبلت سرية الشرطة العسكرية وشاهدت فوهات المدافع فى مواجهتهم وخشى قائدهم أن يُصاب جنوده فعادوا جميعا، ظللت على هذا الحال ثلاثة أيام وقد حوصرنا وحوصرت معنا عناصر المخابرات والمدفعية فأنا القائد فى هذا القطاع، الجميع رضخوا للأمر الواقع وعشنا على القليل من الماء والطعام حتى أقبل قائد الفرقة العميد فؤاد عزيز غالى من مصر لكى يعالج هذا الموقف خوفا من أن يصل الأمر إلى قائد الجيش.

وقف الرجل فى الجهة الأخرى يحادثنى عبر المياه طالبا منى أن أرسل له بقارب لحمله للجزيرة، أقبل الرجل وشد من أزرى وأخبرنى بأنه وقع الجزاءات الرادعة على الضباط المخالفين، أرسلت قيادة الجيش بتعليمات إلى جميع الوحدات بما حدث وبعدها لم نسمع أى انفجار حتى نشوب حرب أكتوبر.

الحدث الثانى :منتصف نفس الشهر إبريل ١٩٧٣ وبعد مرور أيام قلائل على الحدث الأول، قائد فصيلة اليمين بالسرية أبلغنى بأن طائرة هليكوبتر إسرائيلية عبرت القناة وتقف مباشرة فوق فصيلته بعدة أمتار وتضىء بكشاف قوى موقعه، أسرعت من موقعى أراقب الموقف، كانت الأحوال الجوية سيئة لأقصى درجة فالعواصف الرملية شديدة وحجبت الرؤيا إلا من مسافة قريبة، شاهدت الطائرة وأيقنت بأن الطائرة قد تأسر أحد جنودى، على الفور اتصلت بقائد الكتيبة والذى أمرنى بعدم التهور وإطلاق النار مثل ما حدث الأسبوع الماضى على ضباط قيادة الفرقة، قام باتصالاته ولكن الوقت يمر سريعا على قرار مثل هذا وكل عدة دقائق أتصل به ويطلب منى الهدوء لأنه منتظر تعليمات، حسبتها بسرعة مثل ما حدث يوم لقاء وليم شفيق ودخولنا فى معركة غير متكافئة، ماذا يحدث لى لو أن الطائرة قامت بخطف بعض الجنود؟ النتيجة محكمة عسكرية وفضيحة فى القوات المسلحة، جاء قرارى وأعتقد أنه مدروس وليس اعتباطا، طلبت جميع

مدافع الماكينة قريبا منى " ستة مدافع" وكل مدفع معمر بـ ٥٠٠ طلقة خارق حارق، قمت بالتصويب من أحد المدافع على الطائرة والتصويب ليس للتدمير ولكن للإرهاب، أطلقت العديد من الذخيرة على الطائرة التى أطفأت الكشافات وفرت هارية، الحمد لله لم تعلم القيادة عندنا بما حدث وبعد ما انتهت المعركة اتصل بى قائد الكتيبة طالباً منى الهدوء والإنتظار وإذا قامت بعض قوات كوماندز بمحاولة أسر أحد الجنود فأعترضهم وحاول أسرهم، " فكرت وقلت الراجل بيحلم".

أول همسة

مضى يومان وأنا لا أعلم ما أقوله. أهو صحيح أم خطأ؟ سألت النقيب حسن.. حسن أنت واخد بالك منى اليومين دوول ملخبط شوية؟ ضحك بصوته الذى يشبه أصوات المعلمين وأولاد البلد قائلاً: إيه اللى بتقوله ده...دا أنت فلة وميه ميه وآخر حلاوة وكله على بعضه حاجة كده سمك.. لبن. تمر هندى.. أيقنت من حديثه الفكه أن حالتى ملخبطة. انشغلنا جميعا فى مشروع الرماية التكتيكية بالذخيرة الحية للسرية المشاة الميكانيكى المدعمة. مشروع كبير وتستخدم فيه الذخيرة الحية وأسلحة المركبة التوباز وأسلحة من الهاون ٨٢مم وسرية الم/د بالكتيبة وفصيلة مهندسين عسكريين وقواذف لهب وعناصر استطلاع. أمضينا ثلاثة أيام فى موقع الرماية بإمكانيات إدارية تعتبر أقل عن إمكانيات تواجدنا بمواقعنا.

حصلت على إجازتى الميدانية وأصبحت ثقيلة على نفسى بعد الأخبار المفزعة التى صبها محمد فوزى فى رأسى عن علاقته بعلا، فى المساء توجهت إلى حفل زفاف عاطف شفيق وأسعدنى هذا وكانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها كنيسة من الداخل وسعدت مع المقربين له بهذا الاحتفال بينما الأم

مارى ملاصقة لى سعيدة بى وهى مازالت تكرر فى بعض الأحيان قولها: تعال يا وليم أعرفك بالأب متى أو أعرفك بالأم دميانة أو أعرفك بالخال يعقوب. أصافح هذا وأصافح تلك والآخرين يسألوننى عن لقبى، أى وليم ماذا بعده؟ تضحك وتقول إنه بديل ابنى وليم فيصححون موقفهم.

صباح اليوم التالى رافقت علا إلى حى الحسين وكنت أعرف قهوة يرتادها السائحون وبها رجل كفيف لكنه بارع فى العزف على العود، طلبت منه وأنا أحادثه على جنب دون أن تلاحظنى علا أن يعزف مقطوعة أول همسة لفريد الأطرش، بعد قليل بدأ الرجل فى العزف والناس تتمايل طربا وبهجة وسعادة وأنا من بينهم وخلال ذلك كنت ألاحظ تأثير العزف على علا والذى جعلها إنسانة أخرى هائمة ممسكة بيدى سعيدة نائمة على ذراعى تنظر إلى من حين لآخر سارحة فى تخيلاتها.

أيقنت صدق ما أخبرنى به محمد فوزى وكدت أصرخ بها مويخا أفعالها ولكنى وجدت أن مثل هذا التصرف ليس له أى مبرر فهى لم تخطئ فى حقى حيث كانت خالية بدون أى علاقة ما، أيقظنى ضميرى بأنه لايجب على أن أكون ظالما وأحلل لنفسى ما أحرمه على الآخرين لكنه تأكد لى أن الذكرى الماضية مازالت عالقة بخيالها، لم أعد أستطيع التفكير أو اتخاذ أى قرار فى هذا الشأن فكلما لجأت إلى المهادنة مع النفس أعود ثانية وتشتعل نيران الغيرة فى قلبى متذكرا محمد فوزى معى فى كل مكان وأنا أحدثها وأنا اخاطبها حتى وهى تضحك معى أقارن ذلك بأنها كانت تفعل هذا مع ذاك الشاب وقررت بعد عودتى إلى وحدتى بان أفاتحها فى علاقتها مع محمد فوزى.

رفض النقيب حسن هذا الراى وبأنى بذلك أضع إصبعى فى عينها وأتدخل فى حياتها السابقة مؤكدا لى أنها لن تعترف بهذا الحب وسوف تزداد عنفا وضيقا منك لأنك تنبش فى ماضيها ومن منا ليس له ماض وفى الغالب هذا ماض أبيض ناصع شفاف لصغر أعمارنا ومنذ متى وقد أصبح الحب مكروها وغير مطلوب، أن الحب هو سبب الحياة وهو المرافق للشمس والهواء والماء فى استمرار الحياة فوق الأرض وبدون الحب تنشأ الحروب وتدمر المدن ويقتل

الرجال وتغتصب النساء وييتم الأطفال، أرجوك لا تكن كريها وإذا شعرت بأنك غير قادر على تحمل غيرة هذا المنافس الخيالى فكن رجلاً حصيفا واهجر هذا الحب وتحمل عذاب الهجر بشجاعة وإقدام.

حديث حسن أثلج قلبى وصدرى بكلماته المعبرة وبنصائحه الغالية التى مسحت غبار الغيرة من أمام عينى فأصبحت أرى الطريق أكثر وضوحا وبالتالى أصبحت أواجه حياتى وقراراتى بدقة أكثر فالطريق واضح وشوشرة الغل والكره قلت إلى درجة كبيرة واستقر قرارى على أن علاقتى بعلا قد انتهت وأنه ليس لى بها أى ارتباط بعد اليوم وما علاقتى بهم سوى معرفة سابقة يترتب على بقائها ونموها تصرفاتنا المتبادلة.

مازلنا نواصل تدريباتنا واقترب شهر يونيو من نهايته وتبلغنا إدارة أفراد الفرقة (١٨) بنجاحى فى امتحان الترقى وترقيتى إلى رتبة رائد اعتبارا من الأول من يوليو القادم وأسعدنى هذا الخبر المتفائل فى غمرة الخسائر المتتالية فى محيط العواطف. ياه كثير من المعجبات ولم أحظ بقرار سليم وكل معجبة لها مشكلة وقصة ومعضلة.

مُنحت أول أجازة لى بعد الترقى إلى رتبة الرائد وما تمثله تلك الرتبة من معان كثيرة، إنها بداية لرتب القيادة، كرئيس عمليات بعد عام أو أكثر ثم قائد ثان كتيبة ثم قائد كتيبة وهكذا، اتجهت إلى زيارة ماما وداد وعلمت بأن السيدة تعانى آلامًا فى معدتها واشتكتنى لنفسى بأننى لم أعد أقوم بزيارتها طيلة شهرين ومازالت دينا تلاحقنى بشقاوتها أما علا فكأنها الصمت المطبق وكأنى أصبحت غريمها وهى غريمتى مع إيقاف التنفيذ، نظرات بعيدة باردة وابتسامة بسيطة مضطربة وغير دافئة، جلست جلستى بين رجاء الأم أن أبقى معهم تلك الليلة لتستأنس بى وتسألنى: لماذا لا تزور أخاك مدحت فى منزله؟ إنه يسأل عنك ويريد رؤيتك، تحدثت علا وأخبرت أمها قائلة دعيه يا ماما ولا تضغطى عليه فلقد أثقلنا عليه وضايقناه أو قد يكون عثر على من هم أحسن منا ويريدهم ولا يريدنا.

الكلمات قليلة ولكنها قاسية مؤثرة على نفسيتى التى أثرت على مشاعرى والآن علا لا ترغب فى بقائى وما كنت أخشاه من عامين حدث وتحقق، حدثت نفسى: فر واهرب أيها المعتوه قبل أن تطلب من البواب طردك إلى الشارع. قبلت ماما وداد وغادرت الفيلا متجها إلى زيارة مدحت وزوجته وشعرت بعد لقائه أنه يرفل فى نعيم السعادة والحب مع زوجته الرقيقة الباسمة أيضا، تساءل مدحت. أقمت بزيارة ماما؟ أخبرته بأننى قادم من عندها الآن، سألتنى زوجته بدلال النساء. وامتى يا ترى حنفرح بيك مش كفاية عزوبية مش بتغار من أخيك مدحت؟ ابتسمت ابتسامة مفتعلة ثقيلة على شفاهى وأنا أخبرها قريبا بإذن الله، تفحصنى مدحت بعينه وقال: هيه.. يا ترى لقيت بنت الحلال؟ أسرعت زوجته قائلة بنت الحلال معروفة. الله يبختكِ يا علا، انتفضت وأنا مازلت جالسًا صامتًا. لاحظ مدحت بأن هناك سحابة صيف قادمة فقال:اتركيه يقرر شأنه، إننا جميعا إخوته.

وما نيل المطالب بالتمنى

هذا هو الأسبوع الأول من شهر سبتمبر عام٧٣ وقائد الفرقة العميد أركان حرب فؤاد عزيز غالى أصدر أمرا بعقد اجتماع لجميع قيادات الفرقة حتى مستوى قائد السرية فى المنطقة التى خلف مستشفى القصاصين العسكرى وهى منطقة صحراء قاحلة، حضر جميع القادة بالفرقة وهم نُخبة كبيرة من قادة الألوية المشاة والمدرعات ومدفعية الميدان والدفاع الجوى ومدفعية قيادة عامة وعدة وحدات مهندسين عسكريين وصواريخ مضادة للدبابات وقواذف لهب والكتيبة الطبية وحشد كبير من القادة.

العيون تتطلع إلى سيارة القيادة التى يستقلها قائد الفرقة والتى وصلت وهبط منها بجسده الضخم وقامته الممشوقة وبعد أن رحب بالجميع أخذ يتفحص فى وجوه الموجودين والمصطفين. عادة فى تلك الأحوال يكون الوقوف أو الانتظار حسب أقدمية الرتب. فالعمداء فى الصدارة وخلفهم أو يجاورهم العقداء ثم المقدمون ثم الرواد رؤساء العمليات والتخصصات ثم قادة السرايا من رتبتى الرائد والنقيب. عدد القادة المتواجدين يفوق المائة وانضم إلينا قائد أسراب قاذفات مقاتلة وقائد القاعدة البحرية ببورسعيد.

ظل الرجل يبحث عن شخص ما. ولم تسعفه عيناه لالتقاط هذا الشخص من بين جموع الحاضرين. نظر فى أجندة صغيرة وتساءل بصوت مرتفع: أين الرائد أسامة الصادق؟ أسرع البعض ينبهنى إلى أن قائد الفرقة يطلبك. دُهشت ودُهش الآخرون لأننا فى زيل الاهتمام فى مثل تلك الأحوال. اتجهت إليه مؤديا التحية العسكرية. تمام يا أفندم رائد اسامة الصادق قائد السرية الثالثة مشاه ميكانيكى بالكتيبة ٥٢٧ اللواء ١٣٦.

صافحنى وشد على يدى بقوة متحدثا أمام الجميع: وأنا مازلت واقفا فى وضع الانتباه. أسامة. سوف أكلفك بمهمة وأعرض عليك موقف قتال وأريد منك قرارك.

الموقف: أنت قائد مفرزة قتال متقدمة، تقدمت عن قواتنا مسافة من ستة إلى سبعة كيلومترات وفاصل بينك وبين القوات الرئيسية مانع مائى وهو قناة السويس وليس معك عنصر مدرع، كل الذى معك جنودك المائة والعشرون وسرية الهاون ٨٢ وسرية الم/د بالكتيبة وفصيلة صواريخ "فهد" مضادة للدروع وجماعة"حية"صواريخ سترلا أو سام (7)لإسقاط الطائرات المنخفضة وفصيلة مهندسين عسكريين وفصيلة قاذفات لهب.

استطعت عبور المانع المائى بأقل خسائر سواء بشرية أو فى المعدات وظللت تتقدم إلى المسافة المحددة كما سبق وأن ذكرت، بعد أقل من ساعة هاجمك العدو بسرية دبابات وسرية مشاة ميكانيكى.

اتفضل اشرح لى سير المعركة المتوقعة وأخبرنى عن المدى الزمنى الذى تستطيع أن تدمر فيه القوات المهاجمة على قواتك حتى تنتهى القوات الرئيسية من إعداد الكبارى وتطوير الهجوم. تحدث الرجل بهذا الكلام وأنا أقف أمامه كالعصفور نحيف الجسد أمام هذا الرجل قوى البنية والجميع يرغب معرفة ما سوف أقوله وإجابتى عليه.

أول كلمة قلتها: سيادة القائد لن يكون هناك تكافأ بيننا وبين قوات العدو. أجابنى بصوته القوى، لماذا؟ إن قطعة م/د فى الخنادق تدمر دبابة فى العراء

وأنت معك الكثير من الصواريخ وقطع ال- م/د. أجبته: هذا فى كتاب التكتيك أما فى ظروف الحرب فلا يمكن حساب ذلك. صرخ الرجل كيف تقول هذا؟ أخبرنى ما يمكنك أن تدمره ومدة فترة ثباتك أمامهم وأنا مازلت واقفا أمامه وأشاهد نظرات الاستنكار من القادة الكبار لجرأتى فى إجابتى على قائد الفرقة ودهشتهم من هذا الضابط الضعيف المتخاذل. ما زلت أفكر.

صمت قليلا ثم أجبته ٥٠% من قوتهم واصمد مابين ثلاث إلى أربع ساعات. صفق قائلا هذا عظيم لو استطعت تدمير نصف قوتهم لارتدوا ثانية للخلف لأنهم لا يستطيعون استكمال الهجوم بالنصف الباقى خاصة قرب القناة وقواتنا ستكون كثيرة وقوية أما عن فترة الصمود فهى تعتبر رائعة بكل المقاييس. هيا أيها السادة لنتكلم عن مشروعنا..

تحدث قائد الفرقة لجموع القادة موضحا أننا الآن سنتوجه لمكان ما(حدده) وتحركنا وتبعناه وهناك أعدت تختة رمل بمعرفة عمليات الفرقة موضحا فيها أماكن تمركز وحدات الفرقة والوحدات المعاونة والملحقة من القيادة العامة والمطارات التى تعمل فى مواجهة الفرقة والقاعدة البحرية التى ستغطى بنيران مدافعها مواجهة الفرقة لتكثيف القصف وتدمير أى أهداف بحرية معادية تحاول التدخل فى المعركة ضد الفرقة وقواتها. كان الرجل حاذقا دقيقا فى شرحه المسهب وكان واقفا وبيده عصا التأشير ويشير بها على مواقعنا وينبه كل قائد لمهمته كما وضح أماكن العدو طبقا لآخر معلومات حصل عليها من وحدات الاستطلاع والمخابرات الحربية والمخابرات العامة ووحدات خلف الخطوط التى تعمل خلف القوات الإسرائيلية فى عمق سيناء.

بعد مُضى أيام قليلة على هذا اللقاء تحرك اللواء بأسلحته كاملة إلى منطقة القصاصين والبعالوة ترافقه أسلحة الدعم المزود بها من قيادة الفرقة والقيادة العامة وتم عمل نموذج كامل للعبور ومهاجمة القوات المعادية على الجهة الأخرى من ترعة الإسماعيلية والتى كانت تمثل قناة السويس وتلك الترعة لا تضارع القناة سواء فى اتساعها أو سرعة المياه والأمواج بها ولكنها أقرب مكان للوحدات المتمركزة فى قطاع الجيش الثانى.

كل شيء كان مرتبا برقم القارب لكل جماعة مشاه وترتيب وضع الأسلحة بالقوارب أثناء عملية الهجوم، كلفت بالمهمة التى أقرها قائد الفرقة لوحدتى وهى العمل كمفرزة نطاق أمن الفرقة بقوة سرية مشاه ميكانيكى مدعمة أمام مواجهة الفرقة وفى الجانب الأيمن لمواجهة هجوم الفرقة ١٨مش وبدأ الهجوم بالنسبة لى الساعة الثانية وخمس دقائق أثناء غارات قواتنا الجوية ويرافق تلك الغارات قصف مدفعى لقوات وتجمعات العدو ونقاطه الحصينة فى مواجهة الفرقة واحتياطيه القريب المدرع ثم تكوين رأس كوبرى والتمسك به وإنشاء مواقع دفاعية فى الشرق وإقامة رءوس كبارى ثم يلى هذا تطوير الهجوم.

كُنت فى دهشة لموعد الهجوم وهو منتصف النهار، كل ما تعلمناه فى تكتيكاتنا منذ نعومة أظفارنا أن يتم الهجوم إما فى الصباح الباكر لنأخذ العدو على غرة ليصبح أمامنا النهار بأكمله لننهى فيه جزءًا كبيرًا من مهامنا معه أو يتم فى آخر ضوء وتتم عمليات ليلية تريك العدو لكن فى هذا التوقيت والعدو يلاحظ استعداداتنا ونهاجمه فى وضح النهار فهذا كان مستغربا لى ولباقى القادة على جميع المستويات ولكنه على كل حال هو نوع من التدريب مثل ما قمنا به من تدريبات سابقة مرات بالصباح ومرات أخرى فى المساء.

لم يتبق على حلول شهر رمضان الكريم سوى عدة أيام وكان هذا دأب القيادة منذ عدة أعوام أن نعمل على رفع درجات الاستعداد فى الأيام والمناسبات الدينية مثل رمضان أو الأعياد أو ذكرى المولد النبوى ولهذا فطن العدو إلى هذا فبعد أن كان يستعد لمثل تلك الاجراءات ويستدعى قوات الاحتياط أصبحت ألاعيبنا تلك مكشوفة عليه ولا يعيرها أدنى أهمية.

انتهى التدريب والذى ظل عدة أيام وما عرف عنه وقتها بالمشروع التعبوى للقوات المسلحة أو ما عرف عنه بالمشروع الاستراتيجى للدولة وهو تدريب كل قطاعات الدولة على الاستعداد لظروف الحرب مع العدو وهى ظروف قهرية ولا بد أن تحدث فى يوم من الأيام والعدو يعلم هذا وأن مصر مصممة على شن حرب ضده مهما مضت الأيام لاستعادة الشرف العسكرى الذى فقد فى حرب الأيام الستة واسترجاع أراضينا المغتصبة خاصة أن الجبهة الداخلية كانت

مشتعلة تنادى بالحرب وكان هذا الهاجس فى نفوس ووجدان جميع المصريين خاصة فى قطاعين مهمين وهما طلبة الجامعات والعمال وهما أهم فئتين فى المجتمع تعمل لهم الدولة ألف حساب فى غضبهم ونفورهم مما حدث لبلدهم مصر.

انتهى التدريب وعقد قائد اللواء العقيد احمد عبده اجتماعا لجميع القيادات باللواء شرح فيه السلبيات والإيجابيات ولكن الرجل أشاد بوحدتى وقيادتى أمام الجميع شاهدا بأنه شاهد ولاحظ الرائد أسامه الصادق متواجدا ويقظا مع جنوده أثناء الليل وهم يعدون الموقع الدفاعى بشرق القناة أثناء التدريب. حدث هذا بالفعل.

بعد مُضى عدة أيام من التدريب التعبوى اتصل بى قائد كتيبتى طالبا منى أن أستقل اللورى الذى سيصلنى الآن وعلىّ التوجه إلى "كوبرى المخابرات" الكائن على طريق المعاهدة جنوب القنطرة غرب وأخبرنى بأن قائد الفرقة راغب فى لقائك طالبا منك أن تحمل معك "راديو" يعمل.. أعدت سؤالى.. ماذا يريد؟.. أجابنى يريد أن تقابله ومعك راديو يعمل يعنى شغال يعنى بيطلع أغانى.

استفسر منه وما السبب؟ يجيبنى: لا أعلم. التعليمات تصدر ونحن نقول حاضر يافندم علم وسأنفذ أليس هذا صحيحا؟ أجيته: أفندم علم وسأنفذ. ضحك النقيب حسن من تلك التعليمات قائلا: "إن قائد الكتيبة بيعمل فيك مقلب وحتروح تلاقى قائد الفرقة منتظرك ومعاه كبار القادة وأنت داخل عليهم قالع راسك ومن غير غطا رأس ومعاك راديو وبيغنى "تحت الشجر يا وهيبة".

ضحكنا سويا، وصل اللورى وقفزت فيه حاملا راديو معى وكأننى ذاهب لأعين مذيعا فى الإذاعة وأحمل معى مصوغات التعيين، توقف بى اللورى بجوار كوبرى المخابرات وبعد قليل حضر لورى آخر فنظرت إليه فشاهدت العميد فؤاد قائد الفرقة يقود اللورى بنفسه ومعه رجل كبير السن وشعره وشاربه أبيض اللون ولم أشاهده قبل ذلك، صراحة اعتقدت أنه أحد أفراد قيادة الفرقة أتى مثلى لنلاعب العميد فؤاد عشرتين طاولة ونسمع الراديو بلا حرب بلا هباب.

أشار إلىّ العميد فؤاد: أسامة اركب على ضهر اللورى. أجبته: حاضر يا فندم حاولت تأدية التحية العسكرية. استوقفنى قبل أن أقفز فوق اللورى مثل عمال التراحيل. هل أتيت براديو يعمل؟ أيوه يا فندم. أعاد حديثه مرة أخرى: مش عايز أسمعك تقول يا فندم أو تؤدى التحية العسكرية. تقف وتتكلم معانا عادى لأننا طالعين مصطبة الروضة قدام اليهود مش عايزهم يعرفوا شخصياتنا. فاهم؟ أريد أن أصرخ فاهم يا فندم ولكنى تراجعت. بهدوء قلت: ايوه فاهم. ضحك قائلا أيوه كده خليك واد عترة وبتفهم الدرس من أول مرة. اطلع فوق. ثم أشار إلى سائقى قائلاً: وأنت خليك هنا. فاهم؟ أجابه السائق: معلوم فاهم دا أنا بافهما وهيا طايرة.. ضحك الرجل لأن الجندى السائق تفهم حديث قائد الفرقة ونفذه على نفسه أيضا.

وصلنا أسفل المصطبة وتحرك قائد الفرقة وضيفه، الاثنان بدون رتب ونستعد لصعود المصطبة والتى يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرين مترا بزاوية صعود ثلاثين درجة وأنا الأصغر عمراً شعرت بإرهاق من صعود تلك المسافة، نحن الآن فوق المصطبة وكأنك تقف فى بلكونة وتشاهد الناس بالشارع، القناة أمامنا وبالأسفل مواقع اليهود ونكشف من سيناء ما يستطيع نظرنا الوصول إليه على مدى البصر.

تحدث فؤاد عزيز إلى ضيفه شارحا له بدون أن يحرك يده بعد أن أمرنى بتشغيل الراديو حيث قال: أسامة "شغل الراديو على أغانى بصوت مرتفع". أنفذ تعليماته بينما يواصل الرجل حديثه بأن المفرزة المتقدمة بقيادة أسامة حتحتل التبة اللى قدامنا على طول ودية على مسافة أكتر من ستة كيلو يعنى مابين ستة وسبعة كيلو حسب طبيعة الأرض. التبة جنوب الطريق"المحور الشمالى" اللى جاى من العريش. فى الناحية التانية أى شمال الطريق منطقة سبخة ومش تتحمل تقل الدبابات والعربيات المدرعة. بأسلحة الدعم مع أسامة حيعطلهم ويعمل معاهم معارك وإرياك. أنا محتاج تلات ساعات.

اعترض الضيف بأن هذا الوقت طويل على "مفرزة نطاق أمن الفرقة" وعلى هذه المسافة وبدون عنصر مدرع وأن تتركهم على هذا الوضع قائلاً: "أنت كده

حتخليهم يتفرموا منك، مش معقول يا فؤاد لحم قدام حديد" .. قائد الفرقة معلقاً سوف نسرع بعبور بعض الوحدات المدرعة والتى ستعاون الهجوم ولكن الضيف طلب منه سرعة الانتهاء بعبور قواته والعمل على تأمين عود المفرزة ثانية للنسق التانى بعد تلك المهمة.

سألنى الضيف والذى شعرت أنه شخصية مهمة لأنه يُحدث قائد الفرقة بدون ألقاب. أنت فاهم مهمتك كويس؟ أجبته فاهمها كويس. يعيد حديثه: حتقدر تنفذها زى ما قائدك بيشرحها كده؟ أجبته ح أقدر بس أنا اعترضت قبل كده وسيادته عارف إن القوة اللى حاقابلها كبيرة. نظر إلى قائد الفرقة قائلا: طيب ماهو قائد العملية والمسئول عنها عرفك إنها حتبقى فوق طاقتهم. مش ممكن تزيد فى أسلحة الدعم أكتر؟ أخبره قائد الفرقة ممكن بعد العبور بنصف ساعة لأن كل قوات المشاة بتعبر ومش حيبقوا لوحدهم وينضربوا كهدف واحد وظاهر.

شكره الضيف وعُدنا إلى اللورى عند كوبرى المخابرات وهناك صافحنى الضيف متمنيا لى النجاح فى مهمتى قائلاً ومحذرا: أنت عارف لو نفدت منك دبابة حتبقى فيه خطورة كبيرة على السبع نقط القوية اللى من موقعك فى البلاج لحد بورسعيد، يشير بأصبعه السبابة "خللى بالك لأن كل المهاجمين على النقط القوية حيكونوا فى خطر ونجاحنا فى تدمير النقاط دية واحتلالنا مدينة القنطرة شرق متوقف عليك أنت ورجالتك. فاهم؟ أجبته: فاهم يا فندم. وأنا مازالت جاهلاً شخصية هذا الأفندم.

استقللت اللورى عائداً إلى الكتيبة وتقابلت مع قائد الكتيبة الذى سألنى عما حدث مع قائد الفرقة وعندما علم منى بأن بصحبته ضيفا مهمًا سألنى أهو قائد الجيش؟ أخبرته بأننى أعرف قائد الجيش عندما شاهدته مع الرئيس السادات فى معسكر الجلاء بالإسماعيلية. ثم تطرق فى تحديد الشخصية، احتمال أن يكون رئيس الأركان الفريق الشاذلى؟ أجبته إننى أعرف الفريق الشاذلى عندما كان برتبة عميد وهو قائد لقوات المظلات عام ٦٦.

اليوم التالى طلبنى قائد الكتيبة فدخلت عليه المكتب وشاهدته جالسا ضاحكا وقال: فيه ظابط ما يعرفشى وزير الحربية ؟!!! أسأله من هو وزير الحربية.

يندهش ويكمل سيادة الفريق أول أحمد إسماعيل. الحقيقة لم يسبق لى رؤية هذا القائد الفذ الهادئ الشبيه بالفهد وهو يقتنص فريسته، كانت هذه أول مرة أشاهده، سبق وشاهدت الفريق أول محمد فوزى، ثم الفريق أول محمد صادق وقبلهما المشير عبد الحكيم عامر. لكن الفريق أول أحمد إسماعيل على فلم أشاهده قبل ذلك أبدا حتى فى الصور.

نحن الآن نحتل الحد الأمامى لقواتنا على الشاطئ الغربى لقناة السويس بداخل جزيرة البلاج أى أن أمامى قناة وخلفى قناة وقد انضغطت مواجهتى إلى خمسمائة متر بدلا من ألف وخمسمائة متر وهذا وضع الهجوم فى العمليات كما أن جميع أدواتنا ومعداتنا الإدارية سُحبت منا ولم يترك لنا سوى ملابسنا الشخصية وبعض البطاطين وكنا ننام أرضا، الجميع سواسية من قائد الفرقة حتى أحدث جندى.

حادثنى حسن متسائلاً؟ تعتقد أننا سنحارب؟ نظرت إليه وأجبته: للآن لا.. يعيد ولماذا كل تلك الإجراءات الجديدة علينا ولم تحدث من قبل؟ أجيبه.. حسن طالما لم تصل القوارب فكله تهويش وتدريب. الشىء المهم هو القوارب وللآن لم تصل القوارب. يكمل حديثه. ألا تتذكر أنهم فى الشهر الماضى حصلوا على توقيعاتنا جميعا ومن نرغب لنرشحه لاستلام رواتبنا بالنيابة عنا وما هو البنك الذى ترغب فى أن يحول عليه راتبك؟ ضحك وتذكر أحد الجنود قادما إليه يحدثه وهو حزين لأن رقيب فصيلته اقترح عليه أن يكتب رغبته بتحويل المرتب على بنك الإسكندرية وجاء يسأل حسن قائلا: بجى معجول يا فندم أبوى يدلى كلتها شهر ويسافر اسكندريه يروح يجُبض راتبى؟ ده يرضى ربنا؟ ليه الشاويش محمد يجولى على الفكرة الملخبطة دى؟ آه يا بوى!! ضحك حسن موضحا له أن بنك الإسكندرية هذا اسم وليس بلداً وان له أفرع فى كل مكان فى مصر وأنه يمكن لوالدك أن يأخذ "نبوته" ويدلى على "ملوى" ويجبض لك راتبك!!!

عصر اليوم التالى لهذا الحوار بينى وبين النقيب حسن ومازلنا مشغولين بانضمام وحدات معاونة لسريتنا وكلها وحدات لم نشاهدها إلا فى التدريب الذى سبق هذا منذ عشرة أيام وقد انضم إلينا بعض الجنود الذين سرحوا من الخدمة

منذ عدة أشهر وعادوا بناء على استدعاء القوات المسلحة لهم للتدريب وحضور هذا المشروع التعبوى.

أشاهد حسن قادما وكنت جالسا أرضا وكان يحمل إناء به بعض القواقع لا أعرف كيف حصل عليها وقال لى حتاكل أكلة حلوه النهاردة، أنا عارف إن مافيش فى الشرقية حاجات زى دى، أسرع وأحضر إناء وغلى ما به من ماء ثم وضع به تلك القواقع التى كانت صغيرة الحجم فى حجم قطعة الطعمية أو أصغر قليلا. أشاهد القواقع والغطاء ينفصل عن بعضه البعض ورائحة الزفارة تنبعث، بعد قليل أحضر ملعقة وأخرج شيئا متجانس مع بعضه مثل اللحم ولكنه ليس بلحم وأضاف بعض التوابل وأعطانى طبقا صغيراً لأتناوله.

الحقيقة لم أتناول طبقا فى حياتى أشهى من هذا فله طعم رائع ومذاقه أشهى من الجمبرى. لاحظت وأنا أتناول الطعام بأن شيئا مثل الحصوة أو الزلطة أسفل أسنانى، أخبرته بهذا فطلب منى إخراجها. فأخرجتها وتناولها منى فاحصا تلك الحصوة صارخا. الله لؤلؤ.. والله لؤلؤ.. وأنا غير مصدق ذلك!! لأنى أعلم أن هذا فى بلاد البحرين لكن هنا فى مصر لم أسمع بهذا وانهمك فى فرز المعجون الذى أعده فى الطبق. استطاع أن يستخرج منه حوالى خمس عشرة حبة لؤلؤ. فى حجم حبة الذرة وهى دائرية الشكل ولون الحبة أبيض قاتم وأخبرنى أنه بعد قليل يجف وسيصبح شفافا، لاحظت هذا بعد ساعتين وأعطانى سبع حبات وحصل هو على ثمانى.

صباح الرابع من أكتوبر مجموعة من المهندسين العسكريين "خبراء فى إزالة الألغام" تصل الموقع لفتح عدد من الثغرات أمام مواجهة سريتى استعدادا للهجوم عبر قناة السويس. حددت لهم عدد الثغرات وأماكنها حيث شرعوا فى العمل تحت مراقبة الإسرائيليين. استمروا فى عملهم حوالى الساعتين. يرفعون ألغام الأفراد ثم ينزعون منه المفجر ثم يعيدون اللغم حتى يعلم اليهود أنهم يقومون بصيانة لحقل الألغام. بعد الانتهاء من عملهم قاموا باختبار ثغرتين من الثغرات العشر المحددة لى. وإذا بالثغرتان تنفجران محدثة إصابات بينهم.

أسرعوا بإصاباتهم إلى السرية الطبية ونحن جالسون متخوفون أن تتم عمليات وندخل فى حقول الألغام ونلقى فيها مصرعنا قبل أن نصل إلى الإسرائيليين. اليوم التالى اتصلت بسرية المهندسين العسكريين من أجل إعادة تأمين الثغرات واتصلت بقيادة الفرقة دون جدوى.

مساء هذا اليوم بعد أن انتهينا من وضع ملابس "أفرولات" جميع المقاتلين من مختلف الرتب فى مادة أحضرتها سرية الحرب الكيماوية بالفرقة ولا أتذكر اسمها لكن رائحتها مثل النشادر وأخبرونى بأنها تقلل من اشتعال ملابسنا لو سقط عليها أى شىء مشتعل خاصة "النابالم".

فى الثانية عشرة من منتصف ليلة ٦بم٥ أكتوبر أوقظنى جندى الخدمة ليخبرنى بأن المقدم خليل زايد قائد ثان الكتيبة مستقل لورى وينتظرك. اندهشت واتجهت له يتبعنى النقيب حسن. وكانت الدهشة بأن يأتى لورى إلى جزيرة البلاج. فلا معدات ميكانكية بالجزيرة لأنها تحتاج معدية تعبر القناة وتحمل تلك المعدات الثقيلة كما أن تضاريس الجزيرة غير صالحة لسير المعدات. اتجهت إليه حيث قابلنى قائد ثان الكتيبة باشا فى وجهى على غير عادته وأخبرنى: أسامة قوارب وحدتك موجودة باللورى. أرجو إحضار الجنود لإنزالها على انها بطاطين حتى لا تخرج الأصوات ويتلقفها العدو ويعلمون بما ننوى أن نفعله. حدث لى اضطراب، فقد صدق حدثى وما تنبأت به، قوارب يعنى حرب.

فى العادة تحصل كل سرية مشاه على عشرة قوارب للعبور على موجة واحدة " أى عبور دفعة واحدة" اما بالنسبة لى فكان العدد اثنين وعشرين قارباً للعبور على ثلاث موجات كل موجة اثنان وعشرون قاربا أى أن عدد القوارب التى ستعبر فى منطقتى (ستة وستون قارباً) وقد انضم إلينا منذ عدة أيام مائة جندى احتياط مهمتهم حمل الذخيرة لموقعنا المتقدم إلى مسافة الموقع المختار الذى سوف أحتله مع جنودى شرق القناة وعلى مسافة ستة كيلومترات. عُدت بذاكرتى إلى الوراء أكثر من ست سنوات.. الجنود الاحتياط الكسالى الخاملون.. كانوا كما رأيتهم فى سيناء.. الكروش المدفوعة لأعلى والسير ببطء ويتعاملون معنا كأننا السبب فى استدعائهم ويتعال كأنهم يعرفون ويعلمون أكثر منا لقد

أصبحوا بعد المعركة السبب الرئيسى فى الخسائر الكبيرة التى حدثت فى حرب أكتوبر سواء للمقاتلين أو بالنسبة لأنفسهم لأن خسائرهم تحسب على وحداتنا.

لقد أعد المهندسون العسكريون فى السابق أى من عدة أشهر أماكن إيواء مغطاة تحت الأرض لعدد اثنين وعشرين قاربا فى هذا الموقع. توجهنا بالقوارب إلى تلك الأماكن وسلمنى قائد ثان الكتيبة تعليمات قائد الجيش الثانى "الله يعطيك الصحة والعافية يا سيادة اللواء سعد مأمون" الذى سطر وخطط لتلك التعليمات. كما أشيد بهذا الإنسان البارع الذى فكر فى طبعها وتوزيعها على الوحدات فهو لا يقل براعة عنه. لقد ُفقدت منى تلك التعليمات أثناء العمليات الحربية والإصابة التى لحقت بى ولكنى أتذكر بعض ما جاء فيها حيث نقل لى بعض أجزاء منها احد الجنود أثناء علاجى فى مستشفى المعادى:

قيادة الجيش الثانى الميدانى

مكتب القائد

بسم الله الرحمن الرحيم:

«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم وينصركم على القوم الكافرين»

صدق الله العظيم

إلى شباب مصر الأوفياء.. إلى رجالها المخلصين.. إلى كل قائد وضابط وصف وجندى.. هذا هو اليوم الموعود.. يوم أن نزيل عن عاتقنا أمام شعبنا وأمام التاريخ عار هزيمة لحقت بنا دون دخولنا الحرب.. لقد أنهيتم استعدادكم لهذه الحرب بالتدريب والمعدات والأسلحة وتخطيط القيادة على أعلى مستوى.. ثقوا أن النصر حليفنا مع مراعاة الانضباط أثناء المعارك ولا داعى للتهليل بعد إصابة تحدث للعدو فى دباباته ومدرعاته لأنك بهذا تحدد للعدو مكانك وتعرض نفسك لأن يقتلك كما أرجو الدقة فى التصويب والاحتراز من حقول الألغام وثقوا أن شعبكم خلفكم ينظر إليكم ولتكن هديتنا الكبرى إلى أمنا مصر الحبيبة هى النصر على أعداء الله وأعدائنا هؤلاء هم الكفرة الإسرائيليون.. ومن يلق الشهادة فهو عند الله حى ُيرزق لا يموت تصديقا لقول الله عز وجل:

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله»

صدق الله العظيم

فى نهاية كلمتى أرجو أن يفتح الضباط أى راديو معهم على إذاعة البرنامج العام قبل الثامنة بعشر دقائق صباحا ثم يستمعوا إلى دقات ضبط الساعة الثامنة من الإذاعة لضبط الساعة التى ستكون توقيتاتها متطابقة فى جميع أفرع القوات المسلحة لهذا اليوم بدون تأخير أو تقديم ثوان لأنها مهمة ومصيرية فى تلك المعركة وفقكم الله وسدد خطاكم.

لواء أركان حرب / سعد مأمون

قائد الجيش الثانى الميدانى

فى يوم الجمعة الموافق التاسع من رمضان..

الخامس من أكتوبر عام ١٩٧٣

كانت تلك الرسالة التى وصلتنى مع القوارب، قرأتها وشعرت بأن خلفنا رجال ساهرون يعملون ويفكرون فى كل شىء، لم يغمض لى جفن فغدا سنعبر. غدا اليوم الموعود، لقد كنت أفكر منذ انتقلنا إلى جبهة القتال وأنا أنظر إلى الجهة الأخرى من صحراء سيناء متمنيا من الله أن يعطينى العمر والقوة وأن يأتى يوم لكى أعبر إلى الشرق وألقى الشهادة هناك، كانت تلك الأمنية تراودنى وأقول لنفسى هل سيأتى هذا اليوم ، كنت أعتقد أننى وعدد كبير نفكر فى هذا ولكننى ويا للعجب فقد اكتشفت أن هذه رغبة الجميع، ولماذا يا للعجب وأن رسولنا الكريم ميزنا عن سائر المسلمين بحديثه الشريف:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فهم خير أجناد الأرض..
قيل لما يارسول الله.. قال لأنهم كنانة الله فى أرضه"

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويفسر أهل العلم والعلماء بأن الكنانة هنا تعنى الجراب الذى يحمله المقاتل على ظهره ويضع به سهامه، أى أن مصر والمصريين هم معقل الجيوش والمحاربين وليعيد التاريخ نفسه منذ "انتصار أحمس على الهكسوس وصلاح الدين الأيوبى على الصليبيين فى معركة حطين والانتصار على التتار بقيادة المظفر قطز فى معركة عين جالوت. ثم فى العصر الحديث جولات وصولات محمد على وأبنائه حتى وصلوا لتهديد دولة الخلافة العثمانية".

معركة العبور

أوضح للسادة القراء موقع وحدتى. أحتل المنطقة الابتدائية للهجوم فى جزيرة البلاح "جزيرة البلاح جزيرة صناعية ظهرت للوجود نتيجة حفر قناة السويس طولها يقارب الثمانية كيلومترات وهى رملية غير ممهدة ولا يصلح السير فيها باللوارى ولكن معدات الجنزير من دبابات وعربات مدرعة يمكنها التحرك بها. من جهة الشرق والغرب تفريعتان لقناة السويس بعرض مائتى متر لكل فرع".

الساعة السادسة إلاربعا من صباح السادس من أكتوبر وصلت إلينا فتوى شيخ الأزهر بحتمية إفطار الجميع ومن يخالف تلك التعليمات يكون آثما. طفت على الجنود لإقناعهم بالإفطار وكأن جميع الجنود قد أصابتهم قوة الإيمان رافضين هذا الأمر إذا كان لهم هذا الحق. شربت الماء أمامهم موضحا أن الانتصار أهم من الصوم. لأن الانتصار سيكون انتصارا لجميع المسلمين على أعداء الله والإسلام كما أنه يمكننا أن نستعوض هذه الأيام بعد النصر بإذن الله. أتابع إفطار جنودى وأستمع إلى الراديو منذ الصباح وأغنية ام كلثوم الجميلة "يا صباح الخير يالى معانا "وأنا مازلت أطوف عليهم جميعا وعلى باقى الوحدات الملحقة على قواتى.

وصل عددنا إلى ثلاثمائة وعشرة جنود وصفوف ووصل عدد الضباط إلى خمسة عشر ضابطا. تعلن ساعة جامعة القاهرة تمام الثامنة من صباح هذا اليوم السادس من أكتوبر العاشر من رمضان. ضبطت ساعتى والتى كان بها تأخير ثلاث دقائق. طفت على الجميع ليضبطوا ساعاتهم وبعد أن تيقنت من ذلك وصلتنى رسالة مكتوبة من قيادة الفرقة بأنه فى تمام العاشرة نبدأ بنفخ قواربنا قاربًا بعد الآخر وعلى الجنود الآخرين التظاهر بالضحك والتحدث لعمل شوشرة على أصوات أدوات نفخ القوارب. فعلنا هذا قاربا بعد آخر حتى أتممنا الاثنين وعشرين قارباً.

الساعة الثانية عشرة والنصف حضر سائق قائد الكتيبة"العريف مجند أبو الخير" ليخبرنى بأن القائد يطلبنى فى مركز الملاحظة أرافقه ونعبر القناة الخلفية "التفريعة الأخرى للقناة ويطلق عليها اسم تفريعة البلاح "وبالسيارة قطعنا أكثر من كيلو لأجد قائد الكتيبة فى وضع الاستعداد فى مركز الملاحظة مبتسما ومرتفع الروح المعنوية وأسعدنى هذا وقد يكون هذا الإحساس قد وصل إلى أيضا لأجد قائدى منشرح الصدر غير هياب للموقف، صافحنى سعيداً قائلا لى: هذا يومك يا بطل أنت ورجالك الشجعان، ناولنى مظروفاً صغيراً طالبا منى قرأته بعد أن أصل إلى موقعى فى حضور الضباط وضباط الصف وأبلغهم بمحتواه. احتضننى مودعاً وتبعه كل ضباط القيادة من رئيس العمليات إلى ضابط الإشارة والأمن، طلب منى إبلاغ تحيته إلى الجميع. عاد بى السائق وانتظر معى حتى حضر القارب ليعيدنى إلى الجزيرة وهنا عانقنى السائق داعيا الله أن يوفقنى.

أقف فى وسط جنودى وضباطى بعد عودتى من لقاء القائد وهم يترقبون منى شيئا جديدا والبعض بدأت تخور قواه فقد أصبحت الأحلام حقيقة وأصبح من يفتعل البطولات يجدها قريبة منه قرابة أنفاسنا اللاهثة وهذا هو المحك الرئيسى قادما وليس لك بديل إما النصر أو الشهادة، قرأت كلمات قائدى والتى لا تخرج عن سطرين بأننا جاهزون ومستعدون لمعركتنا القادمة وموعد عبورنا

الساعة (1405)وهذا هو التوقيت العسكرى. أى الثانية وخمس دقائق بعد الظهر وهذا التوقيت سيكون لحظة عبور القاذفات المصرية من سلاحنا الجوى.

* * *

أستأذن القارئ بان أتطرق إلى معركة العبور رغم أننى فى مقدمة الكتاب نوهت أننى لا أكتب عن المعارك التى لا يتقبلها الجميع ولكن هذا اليوم وتلك المعركة هى شىء غير طبيعى سواء للعسكرية المصرية أو للنفس البشرية ولهذا فسوف أتحدث عنها فى فصل كامل نظراً للمهمة الخاصة التى أوكلت إلى وحدتى والتى تعتبر فى بنود فن القتال من أصعب المهام بكل المقاييس فهى تعتبر من المهام الانتحارية بدون أدنى شك، أى شخص يخالف هذا الرأى يكون مخطئا وبعد أن يقرأ عنها سوف يكتشف حقيقة ما أقول كما أنها تتحدث عن بطولات للعشرات من الشهداء والمصابين فى فترة زمنية قصيرة وما تلا ذلك من نتائج باهرة للعمل العسكرى فى مواجهة الفرقة ١٨ مشاه والتى تحتل جزءاً كبيراً من جبهة القتال كما كان بقطاعها مدينة القنطرة شرق والتى أدى سقوطها فى أيدى قواتنا إلى إسعاد الأمة العربية وما جاورها من نقاط حصينة بلغت سبع نقاط من جملة نقاط العدو على جبهة القتال من خط بارليف.

* * *

تعدت الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر هذا اليوم الرائع فى تاريخ الشعب المصرى والعربى، لقد كان شيئا غريبا وملفتا للنظر ما يجرى على جبهة القتال وخاصة فى الخط الأمامى، هذا الخط الذى لا يفصلك عن العدو سوى قناة السويس بمسافة مائتى متر على أقصى تقدير.

أتطرق لهذا الحدث ومن منى أحسن نفراً أن يكتب عن هذا، يكتب عن ملحمة جنوده من الشهداء والجرحى والأبطال بدلا من الدمى التى يحضرها التليفزيون لتتحدث عن هذا العمل البطولى الرائع والكل يتغنى به، أنا لا أتحدث عن بطولة شخصية فلم أدمر دبابة بيدى ولكن كان لى دورى القيادى والذى لا يقل أهمية عما قام به أبطالى من الرجال.

لقد قرأتم مشاهداتى أثناء انسحابى فى معركة عام ٦٧ ولم أتولى بطولة ولم نبدأ معركة ولكنها كانت مفروضة علينا باستثناء معركة الشهيد وليم ومعركة تدمير فنطاس الوقود لليهود فى آخر يوم انسحاب لنا، لكن هنا فالوضع يختلف، نحن المهاجمون، نحن العابرون. "نحن مفرزة نطاق أمن الفرقة "والتى يعرفها من المتخصصين ويعلمون أنها المدفوعة للاشتباك مع العدو وبالتالى يكون العدو فى أشد قوته ويستطيع بإمكانياته الكبيرة وخشيته على قواته الواقعة تحت نيران قواتنا من القتل والتدمير والأسر أن يقوم بكل ما يستطيعه لأن تسحقهم ويحصلون على حموة الموس وهذا معروف لدى كل القيادات الكبرى فى أى جيش من جيوش العالم، إنهم الفدائيون ورأس السهم المندفع أمام القوات، هم التى تسير باقى القوات الرئيسية فى أثرهم ونصرهم هو مما لاشك فيه نصر لهم ولا قدر الله لو فشلوا فى مهمتهم فهذا معناه تكبيد قواتهم الرئيسية خسائر كبيرة أو فشل خطة الهجوم ولهذا سوف أتحدث عن هذا العمل.

***

جبهة القتال فى الأيام السابقة للحرب كأنها سوق كبيرة به الحركة والنشاط، لو أعطيت مثلا لذلك: لقد كانت شبيهة بيوم من أيام شهر رمضان فى الساعات التى تسبق موعد الإفطار، فكل شىء يتحرك ويجرى هنا وهناك وهذا يعود لمنزله وذاك يستعد حاملا معه الطعام أو الفاكهة أو الكنافة، كلٌ مشغول حسب تخصصه أو رغبته.. فجأة قبل موعد انطلاق المدفع بعدة دقائق تسير فى الطرقات فلا تجد أثرا لحياة. أين البشر؟ أين الآلاف والملايين التى كانت تملأ الشوارع والمواصلات حركة ونشاطا وتسابقا من أجل موعد مهم؟ إنه موعد الإفطار أو موعد إطلاق مدفع رمضان. أو قل مدافع الكبرياء التى ستنطلق على هؤلاء.

سكون تام فلا حركة وكل خلف سلاحه وإذا كان أى إنسان يريد معرفة ما يحدث لهؤلاء الرابضين فعيون يقظة وعقول تائهة وقلوب تنبض بقوة كأنها أصوات مدفعية ميدان، الكل صامت ولا تعرف عن أفكار هؤلاء شيئا ولكن المؤكد

أنهم يفكرون مثلى ومثل الآخرين فقد وصلنا إلى نقطة اللا عودة أى أن العد التنازلى قد بدأ ولن نخطأ خطأ عام سبعة وستين ثم فجأة نعود صامتين وإلغاء ما تم دفعه وهنا تكون القوات فى وضع خطير للغاية حيث إن جميع القوات قد تم حشدها بمسرح العمليات فإذاُ طلب منهم إغلاق معداتهم والعدو مازال مستعدا فسوف يضرب ويدمر للقوات المحتشدة فى مساحة ضيقة فتكون الخسارة كبيرة ولا تستطيع القيادة أن تطلب منهم العودة ثانية لوضع الاستعداد للحرب فهى تحتاج وقتًا طويلاً، إنها مثل الفرن الذى يحتاج إلى فترة إعداد حتى تصل درجة حرارته إلى الدرجة المناسبة لإعداد الخبز ولكن إذا قذفته بجردل ماء انطفئ فى الحال وإذا أردت إعادة إشعاله فتحتاج إلى فترة أكبر من الأولى حتى تزيل آثار المياه التى أتلفت الأرض والوقود الذى ابتل، هذا ما حدث فى يوم السادس من أكتوبر. فقد سبق السيف العزل.

قريبا منى المعاونون لى فى مركز القيادة وهو مركز قيادة متقدم بكل الأحوال بالمسافة التى لا تقل عن ستة كيلومترات وبدون قوات صديقة على الأجناب أو فى الخلف فهو وضع شائك للقادة الذين دفعوا بى لهذا المكان ولتلك المهمة وهى بكل المقاييس مهمة خطيرة جداً لتنفيذ مثل تلك العمليات وهى ليست من أنواع المهام المظهرية والعنترية فهى فى صلب الدراسة فى العمليات الهجومية، معى فى مركز ملاحظتى عدد ثلاثة عمال أجهزة لا سلكى متوسط المدى لا يقل مداه عن خمسين كيلومتراً وثلاثة أجهزة اتصال لاسلكى قصيرة المدى مداه خمسة كيلومترات من نفس نوع المتواجد مع ضباط السرية والوحدات التى تعمل معى ثم عدد ثلاثة جهاز تليفون ميدانى للاتصال بقادة الوحدات الكبرى، كانت الأجهزة والتليفونات المتواجدة معى تتصل بكل من قائد الفرقة وعمليات الفرقة وقائد اللواء. لقد كنت خارج سيطرة قائد الكتيبة ولكنى أستمع لاتصالاته بقائد اللواء لأننا جميعا على شبكة واحده مع تواجد عنصر طبى معى "رقيب طبى" وحامل للقاذف الصاروخى المضاد للطيران المنخفض.

بلغ عدد المتواجدين معى عشرة من الجنود المثقفين المتعلمين كما يدير المقذوفات المضادة للدروع والمضادة للطائرات عدد من الضباط المهندسين أيضا.

تعدت الساعة الواحدة والنصف وأنا منتبه وكل جنودى صامتون والحركة على جبهة القتال خاصة فى منطقتى تدفع على الرعب. إنه الانتظار القاتل ولا يريد عقرب الدقائق أن يتحرك. كل فترة أشاهد ساعة يدى وأقول كل هذا فى ثلاث دقائق. كان وقتا طويلاً علينا لقد كان الانتظار وما خلف الانتظار من أحداث وكل ينظر إلى الآخر ولسان حاله يتساءل: هل سيشاهد هذا الزميل مرة أخرى سواء نال هو الشهادة أو زميله؟ كنا قد وصلنا إلى حالة من الروحانية العالية وقد أدى هذا إلى أن سرح البعض منا مع عائلته أو أحبائه وقد كنت منهم فلقد طار بى الفكر والخيال بعيدا ولم أفكر فيه راغبا.

أنظر إلى مياه القناة الرائعة والتى تخبرنا بأنه بعد دقائق سينقلب الحال بها وكأنها تطالبنا أن نذهب لنستحم ونتمتع بها لا أن نعكرها بالقصف والدماء. طار خيالى وانقلب اللون الفيروزى على الشاطئ الذى هو أخضر فاتح، سكن تفكيرى وكل ما أنا فيه نظرات حالمة لمياه القناة وسعادة بالغة بذكرى الأحباء فى القاهرة والزقازيق، هتف هاتف بداخلى، لا تغضب إن الحرب قادمة وستعالج كل شىء وستبتعد عنهم إن آجلا أو.... أفزعنى صوت الطائرات الهادر المفاجئ لنا جميعا وهتفت هذا هو "عاجلاً".

وقفت مضطربا فقد كانت لحظة سكون وحلم وخيالاً لأنتبه على هذا الصوت الجبار وانفجار الصواريخ والقنابل تتساقط أمامى فى الشرق، لقد عبرت الطائرات القناة من فوقنا مباشرة وهذه هى المرة الأولى التى نشاهد فيها قواتنا الجوية تعبر من فوقنا وتقصف العدو فدائما ما نشاهد طائرات العدو هى التى تقصف وتدمر وتقتل وطائراتنا عاجزة أن تفعل مثلها، جاء اليوم ولنفعل بهم مثل ما فعلوا بنا طويلا ولاأعتقد أن ارتفاعها يزيد عن عشرين متراً كان واضحا الأرقام المكتوبة على بطن الطائرات، إنها الميج ٢١. .هاجمت الطائرات أعماق سيناء ونحن نشاهد الانفجارات تتوالى وأعمدة الدخان تتصاعد دليلاً على إصابة الأهداف بدقة.

وقفت صائحاً: احملوا القوارب. كان ترتيب عبورنا يبدأ بعبور ثلاثة قوارب تحمل فصيلة مشاه بقيادة النقيب حسن وبعد وصولها للشاطئ الشرقى للقناة تتسلق الساتر الترابى وتحتله لتؤمن باقى القوة حتى نكون مؤمنين من تدخل القوات المعادية وتقضى على هذا العدد الضخم فى القناة، أعيد الأمر.. ارفعوا القوارب.. حملوا القوارب بوهن أو ُقل أن أعصابهم وقواهم قد خارت، لقد عذرتهم فما حدث فى الثوانى السابقة أريكنا جميعا وليس هذا خوفا أو جُبنا فمنذ ثلاث سنوات ونحن بدون قتال أو اشتباك. حملت الفصيلة المحددة قواربها وأنا صارخ بهم. تحركوا إلى الثغرات لعبور القناة. شاهدتهم متحجرين مثل ما يشاهد الإنسان حماراً يستعصى على السير لعبور جدول مياه صغير حيث لا يعرف عمقه ولهذا يتردد. أطلقت عدة دفعات من سلاحى قريبا منهم وقد أفاقهم هذا الصوت وتناثرت شظايا الرمال حولهم فاندفعوا وشعرت لحظتها بأنهم قد يعرقلون العبور وحسن متواجد معهم وأنا أعلم مقدار تهوره أثناء ذلك.

بصوت آمر حاد : نقيب حسن. سأعبر أنا معهم وأنت تحضر مع باقى القوة أى بعد وصولنا إلى الشرق واحتلالنا الساتر الترابى. تسلمت منه علم الجمهورية والذى زودتنا به قيادة الجيش لهذا الغرض. الآن القوارب الثلاث فى المياه ويدفع كل قارب جندى ثم يقفز بداخله وأنا أقف فى وسط أحد تلك القوارب ملوحا بعلم مصر أمام الجميع هادرا بصوت مرتفع. والله زمان يا سلاحى. وأشير إلى جنودى هاتفين خلفى الله أكبر.. الله أكبر وأبتعد عن الضفة الغربية لقناة السويس وأنا الذى شاهدتها منذ أكثر من ست سنوات فى آخر مرة، شتان مابين التاريخين وأشاهد قواتنا الأخرى والتى ستعبر مع باقى القوات الساعة ١٤٢٠ (أى الساعة الثانية والثلث بعد الظهر) أشاهد مركز ملاحظة قائد الكتيبة وهم يلوحون لنا مصفقين هاتفين الله أكبر وتبتعد الصورة أكثر فأكثر كلما اقتربت قواربنا من الضفة الشرقية للقناة.

القناة على الأجناب فارغة ليس بها قوارب سوانا ونحن الذين سنحصل على حموه الموس وقبل أن أبلغ الضفة الشرقية أشاهد باقى القوارب والقوة

الرئيسية ومعهم حسن يحركون مجاديفهم سابحين خلفنا غير منفذين التعليمات كما أصدرتها لنا قيادة الفرقة وأصبحنا أكثر من ثلاثمائة ضابط وجندى بداخل المياه ولا توجد قوات خلفنا وعلى عن يمينيا سوى موقع نمرة ستة والذى يبعد عشرة كيلومترات جنوبا فنحن بدون حماية، دعوت الله ألا تكون وحدة من العدو متربصة بنا وتطلق نيرانها علينا فيقتل من يقتل ويغرق الباقى فى مياه القناة رغم أننا جميعا نرتدى جواكت النجاة.

الحمد لله، قلتها حين وصلنا إلى الضفة الشرقية لقناة السويس، هاهو الساتر الترابى اقف أسفله أشاهده مرتفعا بصورة لم أكن أتوقعها وأتذكر خطأ قرارى بأن طلبت من جنودى عدم حمل السلالم معهم من ضخامتها وإرباكها فى القوارب. وقفت على السياج الحجرى المبطن للقناة أفكر: هل من المعقول أن ننتظر عالقين هكذا ونرسل فى إحضار السلالم. ستكون كارثة وسوف نتأخر وما العمل والمطلوب منا أن نتجه بسرعة لاحتلال مواقعنا وتجهيزها قبل أن تصل قوات العدو وتقابلنا ونحن سائرون وتقضى علينا برشاشاتها.

إذًا فلا مجال ولا جدال إلا أن نصعد هذا المرتفع. بسرعة تسلقته بين تكبيرات الجنود الذين يجدون خلفى، وقفت أعلى الساتر ملوحا لقواتى بداخل الماء بعلم مصر الذى ألهب مشاعرهم ودفع بقواهم لأعلى درجاتها وهم فى منتصف القناة وهاهم يشاهدون قائدهم الرائد أسامة يقف فى الجهة الأخرى غير هياب ولا خائف ولم يحدث له مكروه فزادهم هذا اشتعالا وحماسا لكنى كنت لا أحمل أثقالا كما تحملها القوة الرئيسية القادمة، وقفت لأنظر ماذا هم فاعلون طالبا من الله العون والنجدة فى تلك المحنة التى خاننى فيها تقديرى لارتفاع الساتر الترابى مؤنبا نفسى بأنه كان يجب على تنفيذ التعليمات فهم أعلم منى بهذا الارتفاع ولماذا أحضروا السلالم إذًا؟ كل قارب به سلم. اثنان وعشرون قاربا باثنين وعشرين سلما تركتهم الجهة الأخرى، لقد كان تصرفا أحمق وخطأ فى حق قواتى وحق بلدى، لم يمهلنى جنودى وأنا أشاهدهم يتسلقون الساتر

بمدافع الهاون، كتلة واحدة أى والله المدفع الذى يحمله ثلاثة أفراد لكل فرد جزء. يحمله الآن فرد واحد صاعد به ارتفاع أكثر من عشرين مترا بزاوية صعود ٦٠ درجة.

توالى صعود رجالى وهاهو المدافع ب ١٠ ثم تليها المدافع الأثقل ب١١ وأنا أنظر الجهة الأخرى بعيدا عنهم حتى لا أشاهد الجندى وزميله يحملون المدفع ويسقط بهم فى القناة يصل أحدهم بجوارى ولم أصدق أن المدفع الذى تجره سيارة لورى قد وصل بجوارى ولم املك سوى تقبيلهم لهذا المجهود وهم غير عابئين وكأن صحتهم حديد ولا نهجان ولا رهقان "قوة من عند الله "اكتمل عددنا فوق

استعدوا كما سبق فى التدريب السابق، توزعوا فصائل ووحدات. وهاهم أول من سيعمل. المهندسون العسكريون الذين يقومون بتلغيم مرابض دبابات الجيش الإسرائيلى خلف الساتر الترابى الذى تسلقناه منذ دقائق حتى إذا وصلت أى دبابة معادية تنفجر ولا تستطيع الاختباء وتكون هدفا سهلا لقواتنا.

أشاهد الرقيب مؤهلات عليا/محمد فتحى منصور رقيب الفصيلة الثامنة بالسرية والذى كان يعانى من مغص كلوى منذ الأمس وتوجه لطبيب الوحدة ولكنه عاد فى الصباح عندما بلغه خبر وصول القوارب، أشاهده ممسكا بحفنة من رمال سيناء وبضحكته البريئة يحدث الرمال قائلا " يخرب عقلك.. هوستينا.. نفسنا فيك مووت.. لكن متزعليش إحنا جينا لك.. أصرخ به: لا وقت للغرام مع الرمال!!.. ينظر إلى ونحن مازلنا سائرين لهدفنا وبنفس الابتسامة ثم يرفع يده لأعلى مخاطبا رب العزة قائلا: خلاص يارب أنا مش عايز من الدنيا حاجة لو مت دلوقتى حاكون مبسوط إنى شفت ولمست أجمل حاجه فى حياتى.. أعيد تحذيرى ثانية.. جرى إيه يا شاويش.. شوف شغلك.. يقبل على مسرعاً وقليل من الرمل بيده ويضع أصبعه فى فمه ويتذوق الرمل قائلاً: سكر والله يا فندم.. تركته على حاله لأتابع عملى.

نواصل التقدم فى اتجاه التبة الموعودة تبة الكنتور، أشاهدها تقترب منا أو نحن نقترب منها فهى هدفنا، مازلنا نتقدم وبدأ يحدث رد فعل من العدو بقصفات مدفعية على الساتر الذى كنا فوقه منذ دقائق، لم نبال وكأن شجاعة الدنيا بين أيدينا وانقلب حال التوتر الذى صاحب هجوم الطائرات إلى شجاعة وبسالة خاصة ما شاهده الآخرون من شجاعة وإقدام فى حمل الأسلحة والذخائر والصواريخ أثناء صعود الساتر، مازلنا نتقدم بدون أى مجهود، فكرت فى تلك السيمفونية الجميلة وكل يعزف واجبه، لم يحدث صراخ ولا سباب للمخطئين مُوقنا بأن التدريب الجيد الذى تدربوا عليه منذ فترة وما يمتازون به من هدوء الأعصاب وما يمتلكونه من نواصى الأمور بيدهم.

الحمد لله، وصلنا التبة المحددة "الكنتور "وقد بدأ كل فرد فى إعداد حفرة يختبئ فيها عن النيران المباشرة وخاصة الرشاش النصف بوصة الموجود ببرج الدبابة الإسرائيلية فهو خطير وهالك للأفراد، استعد الجميع للحفر والكل اتخذ موقعه كما تدرب سابقا.

كانت تعليماتى لقواتى بعدم فتح النيران على قوات العدو إلا بعد أن يشاهد المراقبون فى كل فصيلة تدمير الدبابة التى فى أول القول لأنهم لا يستطيعون التوجه إلى شاطئ القناة إلا بقوة لان يمين التشكيل ملاحات لا تستطيع الدبابات أو ناقلات الجند المدرعة للمشاة السير بها فسوف تغرس الجنازير بها إما على جانبهم الأيسر فنحن محتلون أماكننا ولهذا لم يعد أمامهم سبيل لنجدة نقاطهم الحصينة إلا السير بهذا الوضع قول أو رتل مركبة خلف الأخرى ولا يستطيعون فتح تشكيلهم كما هو معروف فى تلك الأحوال. كما أن فتح النيران مجرد اقترابهم سيحرم باقى الأسلحة المضادة للدبابات من استخدامها وخاصة المدفع "ال ر ب ج" ومدافع ال ب ١٠ وال ب ١١ .. كنت قد رتبت قواتى على هذا الأساس كما وضعت فى الجانب الأيسر لقواتى القريبة من القناة لوحة إلكترونية لتوجيه الصواريخ وبها أربع قواذف مضادة للدروع وبجانبها القواذف الصغيرة ولنبدأ بالأصغر مسافة والتى لا تتعدى ثلاثمائة متر.

أبلغنى قائد الفرقة بان الاحتياطى المدرع الإسرائيلى تحرك فى اتجاهنا مؤكدا على حديثى السابق معه "أسامة لا أقل من تدمير نصفهم على الأقل حتى تؤمن قواتنا شرهم أثناء العبور" أجيبه: حاضر يا فندم. تقترب من المعركة التى قال عنها الوزير أمامى.. فؤاد هكذا تضع لحم أمام الحديد. بأقصى سرعة تقترب الوحدات المدرعة الإسرائيلية "الحديد" غير عابئة بقواتى "اللحم" إما إنها لا ترانا أو إنها تستهين بالمشاة وكل ما فعلته أن أطلقت رشاشاتها للتفتيش والإزعاج حتى تصل إلى النقاط القوية التى تحاول قواتنا احتلالها وأنا أستمع إلى نداءات القادة وهم يبلغون قيادة الفرقة بالمعارك الطاحنة التى تدور فوق وأسفل النقاط القوية والبعض وصل إلى داخل النقاط القوية ومازالت مدفعيتنا تزمجر قاصفة أهدافا هنا وأهدافا هناك. الطائرات الإسرائيلية هى الأخرى أشاهد بعضها يهوى فوق مياه القناة أو على أحد الأجناب وأصبحت السماء تكسوها الدخان والانفجارات تصم الآذان كما تقوم قواتنا الجوية بمعارك وعمليات هجوم على قوات العدو تاركة السماء لقوات الدفاع الجوى.

عبرت الدبابات من أمامى وعامل اللاسلكى يبلغ القيادات المختلفة على كل صغيرة وكبيرة ويأتى إلى صوت قائد الفرقة صارخا لماذا لم تشتبك حتى الآن؟ سيفلتون منك ولحظتها تنفجر أول دبابة للعدو وتتوقف الدبابات خلفها فلقد اغلق عليهم الطريق. الدبابة التالية تحاول فتح الطريق بإزاحة الدبابة المشتعلة والتى دمرتها النيران سواء من القاذف أو من الانفجارات الداخلية لانفجار ذخيرتها ونشاهد الدبابة الأخيرة تنفجر. وهكذا حجزت الدبابات والعربات المدرعة بداخل تلك المصيدة لقواتى ونجحت خطتى لجنودى والتى نفذوها ببراعة وانهالت القذائف عليهم يحاولون الإفلات منها بأى طريقة مما دفع بدبابة إلى السير جانبا فغرزت فى الملاحات، حاولت الخروج وكل مرة تحاول الخروج فيزداد غرسها فتركها جنودها هربا للحاق بأى دبابة أخرى أو عربة مدرعة وكانت رشاشاتنا وبنادق المشاة لهم فأردتهم قتلى فى الحال. أعتقد أن كل جندى منهم حصل على أكبر كمية من الرصاصات القاتلة. بمدفع إحدى الدبابات فتحوا ثغرة بقصف دباباتهم الأخيرة ولكن تلك الدبابة أصابها صاروخ آخر ودمرت فى الحال

والانفجارات متتالية ومازالت تنفجر وعربة مدرعة يطالها القذف فتنفجر وتندفع منها الأجساد مشتعلة والبعض لم يمكنه الخروج والذى خرج وجد الأسلحة الصغيرة فى انتظاره فيقتل فورا ولم نُعد مكانا للجرحى أو الأسرى. مهمتنا هى القتل فقط، القتل فليس أمامنا وقت لجرحى أو أسرى، ليست هذه مهمتنا إننا فى مهمة خاصة وهى التدمير لأكبر عدد من الدبابات.

حتى الآن تم تدمير ثلاث دبابات وعربتين مدرعتين، لم أتدخل فى سير المعركة فكل المقاتلين يعلمون الواجب الملقى على عاتقهم وليسوا بانتظار تعليمات جديدة فكل شىء يسير حسب التعليمات والتدريب وحسب الموقف أمامهم، أصبحت المعركة مفتوحة وكل من يجد أن الهدف فى مرمى سلاحه يقذفه فورا، الوحدات المدرعة للعدو تعود للخلف بعد أن دمرت عربتين مدرعتين أخريين وفى نهاية انسحابهم دمرت دبابة فأصبح العدد رباعيا أربع دبابات وأربع عربات مدرعة ودبابة خارج العمل فى الملاحات.

اقتربت من تحقيق الهدف. الـ٥٠% التى وعدت بها قائد الفرقة. الساعة تقترب من الرابعة مساء، أغارت علينا بعض الطائرات المنخفضة ولكن احد صواريخ الكتف " سام ٧ "للدفاع الجوى أصابت إحداها سقطت قريبة منا وقد لفحت الانفجارات والشظايا وجوهنا، ابتعد الإسرائيليون وهكذا مضى من الوقت الساعتان وأبطال تدمير النقاط القوية يحاولون بكل جهد جهيد تدمير أكبر عدد منهم وتلتقط قواتنا مكالمات الإسرائيليين اللاسلكية ويذيعها قائد الفرقة فى إرسال شبكته وجنود العدو فى حالة من الصرع صارخين يستغيثون والرجل يعلق. همتك معانا يا أسامة يا بطل أنت ورجالتك الجدعان، أسمع نداء قائد اللواء برافو عليك يا بطل الله أكبر، يردد البعض من حوله النداء عدة مرات الله أكبر.

قصف شديد من مدفعية العدو على قواتى وبدأت الصرخات تسمع فى موقعى وآهات وآلام من المصابين والشهداء وقادة الوحدات يبلغوننى بعدد من الشهداء وتوالى سقوط الضحايا وأنا مازلت فى موقعى لا أستطيع التحرك فنيران المدفعية شديدة وتركز بقصفنا بغلالات ثابتة وبطريقة الأرض المحروقة

أى قتل كل شىء فى المنطقة ومالها من كثافة نيرانية وأسمع قائد اللواء يستغيث بقائد الفرقة بفتح نيران المدفعية والرجل يطلب منه التمهل لأن المدفعية تقصف الآن بطائرات العدو وانا أشاهد من موقعى استمرار تساقط طائراتهم.

أربعون دقيقة كنت ألاحظ دانات المدفعية تنفجر تباعا حتى وصلت المسافات بين كل دانة وأخرى خمسة أمتار تقريبا وهذا يؤدى إلى الهلاك. الدانة التى تنفجر تحدث شظايا على خمسة عشر مترا على الأقل فى جميع الجهات كما أن بعض الدانات تسقط على الجندى مباشرة فتقذف به خارج حفرته صارخا وقد تمزق جسده إلى أشلاء. عمت الموقع رائحة الموت ورائحة شواء الأجساد المحترقة والمتفحمة ومازال قائد اللواء يحاور قائد الفرقة ولكن كان هناك شىء ما قلل من تأثير مدفعيتنا على مدفعية العدو وزادت وحدات الدفاع الجوى من صواريخها وقد أدى هذا إلى انفراج للمدفعية وقذفت مدفعية العدو والتى هدأت من قذفها علينا كما قذفت طوابير دباباتهم خاصة بعد أن وصلت بعض المعلومات بسقوط نقطتين من نقاط العدو فى أيدى قواتنا فحدث لهم هلع من جراء ذلك لأن النقاط متخمة بالجنود والأسلحة وسقوط نقطة يؤدى إلى انفراط عقد دفاعهم على القناة ويسهل سقوط الباقى وهذا أدى إلى ازدياد مشاعر الجنود للبسالة، قائد الفرقة ورئيس عملياته يبلغوننى بأن الاحتياطى المدرع عاد مرة أخرى استعد له وقد تدعم بكتيبة دبابات "٣١ دبابة" عوضا عما خسره.

فى الهجوم التالى لم يتخذوا طريق المحور الشمالى المرصوف ولكنهم اتبعوا تكتيكا آخر وهو التسلل إلينا من بين الرمال التى نحتل فوقها أى من الحد الأيمن الذى يفصل الفرقة ١٨ والفرقة الثانية وهذا الفاصل يبلغ اتساعه عشرة كيلومترات ولا توجد به قوات، أصبحت فريسة سهلة لهم فلا عون ولا جوار قريباً منى يساعدنى فى تلك الهجمات المتتالية، غيرنا وأبدلنا اتجاه أسلحتنا فى اتجاههم وكان هجومهم على هيئة قوس مع نيران كثيفة تسبقهم وحدث ما حذر منه الوزير معركة اللحم مع الحديد خاصة لقرب نفاد الذخيرة والصواريخ فجنود الاحتياط المكلفون بحمل الذخيرة لنا وأثناء سيرهم للمرة الأولى مجرد أن

شاهدوا الدبابات قادمة ألقوا بما فى أيديهم وأسرعوا بالفرار عابرين القناة إلى الجهة الغربية فأردتهم قوات الشرطة العسكرية قتلا برشاشاتهم وهكذا حُرمنا من إمداد الذخيرة وأصبح الحصار خانقاً علينا خاصة دون ذخيرة وزيادة قوات العدو وما أصابنا من خسائر من قصف المدفعية المركز.

تدمرت دبابتان للعدو وأسرعت بعض الدبابات فى اتجاه القناة مع ترك فصيلة مشاه ميكانيكية، شاهدتهم قادمين فى اتجاهى من جهة القناة أى الجهة العكسية وترجل عشرة منهم ومع أحدهم ميكروفون صغير متحدثاً "قائد مصرى سلم نفسك فورا". جنود الاتصالات يبلغون قيادة اللواء وقيادة الفرقة بالموقف وأسمع قائد الفرقة صارخاً بى إذا أمكنك سحب قواتك فافعل، أحدثه والجنود اليهود قادمون فى اتجاهى لأسرى لا يمكن هذا، مجرد ترك الجنود لحفرهم سيهلك أكثر من نصفهم كما لن أستطيع السيطرة عليهم ونعود لكارثة ٦٧ يعيد قولة أمن الجنود البعض ينسحب والبعض الآخر يحميهم.

أصدرت أمرا إلى أقرب فصيلة لى بأخذ وثبة للخلف ولكن اليهود المتصنتين على الشبكة وتندفع الرشاشات النصف بوصة تحصد فى جنودى فينكفئ الجميع أرضا البعض منهم هربا من النيران والآخرين لاستشهادهم، ألغيت أمر قائد الفرقة الذى مازال صارخا بى لعدم تنفيذ الأمر وأنا أحدثه أنه من الصعوبة تنفيذ هذا وسوف يؤدى إلى هلاك الجنود وأخبره باستشهاد سبعة جنود من اثنين وعشرين كانوا يستعدون لذلك، يطلب منى التمسك بموقعى ويخبر هيئة قيادته بأننى أدرى منهم بالموقف. يعيد قائد اللواء صراخه واستغاثته بقائد الفرقة. يافندم "المفرزة "هالكة أرجوك اعمل على إنقاذهم.

هذه هى الإجابة من قائد الفرقة وانا أسمعها على جهاز اللاسلكى. يا أحمد يا عبده "قائد اللواء". لقد نفذ الرجال ما أردته منهم بالضبط لقد تدمر نصف قوة العدو ومكثوا أكثر من ثلاث ساعات. يسأله ماذا يعنى هذا؟ فيخبره سنحاول إنقاذهم. خلينا نشوف الأهداف المتبقية والمهمة ونشوف النقطة ٥١ اللى خلف أسامة لسه بتقاوم وانا خايف يفضلوا كده وخصوصا أن أسامة مش حنكلفه بحاجه. خلاص زى ما قلتلك حنحاول المساعدة. انتهى.

أغلق الاتصال مع قائد اللواء والرجل يشد من أزرى بأن أعمل على تقليل الخسائر بقدر الإمكان وأنه سوف يدفع بسرية الخدمة لمساعدتى. آه سرية الخدمة ستدفع لمساعدتى هؤلاء الجنود التعساء والذين يعملون فى الخدمة بقيادة اللواء كمراسلة سيحضرون هنا لتزداد الخسائر البشرية، لم أشاهد من أطلق قذيفة "الـ ر ب ج" على إحدى العربات المدرعة التى جاءت لأسرى فانفجرت والصراخ تعالى منها والدخان يغطيها ولم يخرج منها سوى فرد واحد اشتعلت به النيران فحصل على نصيبه من نيران الأسلحة الصغيرة، لحظتها انكفأ الجنود المترجلون أرضا واحتموا بالأرض والمسافة قليلة بيننا لا تتعدى ثلاثمائة متر.

أشاهدهم ويشاهدوننى بوضوح وقد أصبحت المسافة بيننا لا تتعدى الآن المائة متر ولكنهم يجدون فى أسرى. أطلقت عليهم نيران سلاحى الشخصى وطلبت من الجنود الإشارة فعل ذلك فتركوا أجهزة الاتصالات لندافع عن أنفسنا بنيران أسلحتنا ضدهم، شاهدت طاقم مدفع ماكينة يجره طاقمه المكون من ثلاثة أفراد قادما فى اتجاهى مسرعا ونيران العربة المدرعة الأخرى توجه لهم مدفعها الرشاش بدفعات فيتساقطون تباعا ولكن تبقى أحدهم وأنا صارخ فيه. احتمى بالأرض بلاش جرى ولكنه كان يرى ويشاهد نفسه فى الجنة. لم ولن أرى مشهدا مثل هذا فى حياتى. الشاب أحمد همام ابن العشرين عاما والذى التحق بالقوات المسلحة بعد أن جند منذ ستة أشهر. يجرى بمفرده ومعه المدفع خلفه وأشاهده وهو ينفض عن جسده الطلقات التى تخترقه وهى من النوع الكاشف لأننى كنت أشاهد الضوء الفوسفورى المشتعل بجسده أفروله ثم انكفأ خلف مدفعه موجها جهة الجنود الإسرائيليين الذين نهضوا متقدمين فى اتجاهى، لقد كانوا مصممين على أسرى بأى وسيلة، ضغط على عتلة الضرب ليفرغ مائة طلقة بهم فيقضى على ثمانية منهم وهم يصرخون بهستيرية وتتكالب قوات العدو على الموقع وأنا متأكد أنها دقائق أو ثوان ونصبح هالكين فقد أصبحت المعركة كسر عظام بيننا وبينهم خاصة أنهم فشلوا فى الوصول إلى النقاط القوية والتى سقط أكثرها والإصابات بينهم كثيرة ومفجعة غير الأسرى والجرحى وانصب حقدهم علىّ وعلى قواتى هؤلاء هم السبب وهم يريدون هذا القائد لأسره وإذلاله.

***

النقيب عصام سلطان قائد السرية الثانية مشاه ميكانيكى ومن نفس كتيبتى ومكلف مع جنوده بالاستيلاء على النقطة القوية رقم (٥١) وهذا الرقم هو ترقيم النقاط من بورسعيد حتى السويس والرقم هو علامة الكيلو متر وتلك النقطة التى عبرت بجوارها. استمر فى محاولاته للسيطرة عليها واليهود يصدون هجوم وحدته ثانية كلما اقترب من تحقيق هدفه. أخيرا اندفع بعض الجنود للقفز داخل مزاغل النيران بتلك النقطة وتتهتك أجسادهم من نيران الرشاشات الإسرائيلية ولكن المزاغل أغلقت بأجسادهم واليهود بداخلها يريدون فتح تلك المزاغل دون جدوى فالجثث ملأت الفتحات وحرمت الرشاشات من أن تعرقل هجوم عصام وجنوده. حاول عصام الدخول لصحن النقطة الخلفى ولكن حقول الألغام ذات الطبقات المتكررة تعرقلهم فيندفع الجنود للنوم أرضا فوق الألغام فتنفجر فيهم ويكمل آخر المسافة بعد أن تم استشهاد زميله بها وهكذا. سبعة من الشهداء فتحوا الثغرات بأجسادهم وهنا يندفع عصام بقواته إلى الداخل لتدمير النقطة من الخلف والمزودة ببوابات حديد سميكة عرضها عشرة سنتيمتر مثل الموجودة بالبنوك لحمايتها من السرقة. يندفع أحد الضباط الصغار أعلى النقطة دون مبالاة حاملا علم مصر هاتفا الله اكبر. يكبر الجنود خلفه ويضعون الألغام المضادة للدبابات على الأبواب الصلب الفولاذية التى يحتمى خلفها الإسرائيليون وتنفجر الألغام مدمرة أبواب النقطة وتقذف بالداخل القنابل اليدوية ثم تعقبها قواذف اللهب والتى تحمل مواد مثل "النابالم" وتحرق من تحرق وقتل من أثر هذا الانفجار الشديد الكثير من الإسرائيليين والقنابل اليدوية أيضا قتلت البعض.

سقطت النقطة ودخلها عصام ورجاله يطهرونها من الجنود اليهود كما أحضروا بعض الأسرى، هذه النقطة الرابعة التى سقطت بفضل بسالة رجال المفرزة المتقدمة التى كنت أقودها ولولا هذا لكانت الدبابات قد حصدتهم وهم يحاولون التوجه إلى النقطة، ليست هذه بل النقاط السبع والتى سقطت بالتوالى وفى اليوم التالى كانت معركة القنطرة شرق قد كتب فيها السطر الأخير بالنصر لنا حيث لم يتمكن العدو من دخول أى قوة مدرعة سواء بسبب بسالة رجالى أو بعد هذا عند إقامة الكبارى ووصول دباباتنا وقيامها بالمعارك التصادمية مع

دبابات العدو. معركة حديد فى حديد تدمر فيها العديد من الدبابات من الطرفين.

قوات المدفعية مازالت تصب نيرانها المدمرة على قوات العدو ووحداته وتزيد من خسائرهم. اما قواتنا الجوية فتقوم بغارات على العمق القريب نظرا لقلة مدى الطائرات الروسية ولكنهم يقومون بعمل أعلى مستوى من البطولة والبراعة، رجال الدفاع الجوى الأبطال الصناديد الذين ألهبوا السماء بصواريخهم وأسقطوا العديد من الطائرات التى تهاوت ولولا هذا لكانت الطائرات أفشلت الهجمات البرية لقواتنا.

مازالت باقى الوحدات تقوم بواجبها ومنهم الحرب الكيماوية التى تدفع بقاذفات اللهب بنيرانها لتطهير النقاط القوية من العناصر الموجودة بها، عناصر الاستطلاع هى الأخرى دخلت إلى عمق سيناء ترسل بكل جديد عن العدو إلى قيادتها والتى تعلم بها هيئة عمليات القوات المسلحة لتعد الخطط الجديدة لظروف المعركة المتغيرة.

هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون، سلاح المهندسين الذى لغم مرابض الدبابات وأدى هذا إلى خسائر جسيمة بينهم ثم قادوا عملية التصويب بالصواريخ المضادة للدبابات والتى كانت تساعدنى بعضا من وحداتهم، إنه العلم الحديث فى مجال الصواريخ، مازالت القوات البحرية تقصف المحور الشمالى من بدايته عند العريش بينما أغلقته سريتى فى نهايته عند قناة السويس، الوحدات الإدارية تقوم بعملها بمد الوحدات بالوقود والمؤن من طعام وخلافه، وحدات الخدمات الطبية بالخلف تقوم بعملها باستقبال الجرحى والمصابين.

* * *

طلبت من الجنود الذين معى بمركز الملاحظة الحفر أكثر فقد ظهرت شراسة العدو وبأن تلك الوحدة تسببت فى ضياع النقاط الحصينة لهم وكبدتهم خسائر فادحة ولهذا أرادوا الانتقام، كان هذا واضحا من تكالب الأسلحة ضدنا سواء المدفعية أو الطيران أو المدرعات بل وظهر هذا جليا لمحاولة أسرى وما يمثله هذا

من نصر معنوى بأسر رتبة كبيرة مثلى فى الخطوط الأمامية وحصولهم على معلومات، كان هذا اعتقادهم، فشلت عملية الأسر بسبب شجاعة أحد رجالى وهو الشهيد أحمد همام.

بحق هذا الشهر الفضيل " رمضان" سمعت كبسولة خروج مقذوف من دبابة وقلت لهم بسرعة ارقدوا إنها لنا، لم أكمل بعد، سمعت انفجارًا شديدًا وطقطقة فى الخوزة التى على رأسى ودماء غزيرة مندفعة منها، أيقنت أننى أصبت وأننى الآن سوف أصبح شهيداً وانا أسمع أنات حولى وآهات وصراخًا وتذكرت أشياء ثلاثة وهى:

تلاوة الشهادة وتلوتها فى سرى ولم أسمع صوتى، الثانية ماذا سيحدث لأبى وأمى عندما يبلغهم نبأ استشهادى؟ والثالثة انه يوم ميلادى ١٩٤٤/١٠/٦ لقد أتممت تسعة وعشرين عاما. بدأت الأصوات تخفت من حولى ولكنى سمعت وشعرت بأن أحدا يدفعنى ويهزنى بقوة قائلا)قوم يافندم الدبابة جاية علينا حيفعصو...... آه) وسمعت طرقعة وطقطقة مثل أصوات بطيخ يسقط على البلاط ويحدث صوتا ويتهشم وشىء ثقيل الوزن على جسدى وكل ما حدث أننى سمعت نفسى وانا أتأوه.

قبل حدوث هذا كانت الساعة قد جاوزت السادسة، أعتقد أن الإصابة كانت مابين السادسة والنصف والسابعة مساء، أسمع أصوات جنازير الدبابات فى موقعى ومازالت أصوات الصواريخ والأسلحة المضادة للدبابات أسمعها ولكنها اختفت ولم يكن شىء يعمل فى جسدى بعد التنفس سوى أذنى وسمعى.

غبت عن الوعى ولم أشعر بشىء حتى السمع انتهى ولا أعلم المدة التى قضيتها هكذا وأنا على هذا الحال ولا أعلم هل أنا راقد على أحد أجنابى أو مدفون بوجهى فى الرمال لكننى شاهدت حلما أو قل رؤيا لأن البعض يقول إن الحلم من عمل الشيطان. أى المسميات لا يهم ولكن سوف أروى ما شاهدته بعد أن أعادنى الله إلى الحياة وحرمنى من أن أكون بجواره مع من سبقونى فى تلك اللحظات الإيمانية والإنسانية الرائعة.

أقف فى موقعى هذا وأنا أنظر إلى أعلى جهة السماء وأشاهد كائنات تلوح بأجنحة شفافة وليس جناحين عدة أجنحة وجوهها غير واضحة كما أن أجسادهما غير محددة تدور فى موقعى والذى مازلت به أحارب العدو ولا أسمع أصوات انفجارات أو دخان القذائف ولكنى أشاهد شيئا دائريا مثل الأسطوانة الشفافة وعلى هيئة فقاعة الصابون اللامعة الخفيفة الشفافة وأشاهد وجه. أتساءل : من هذا؟ إنه أحمد سباق عامل الإشارة. أنادى عليه: إلى أين أحمد؟ ُعد. ثم فقاعة أخرى. هذا هو العريف محسن عامل الخطوط الذى معى أيضا فى مركز الملاحظة. محسن. أشير إليه إلى أين أنت يا أمباشى إلى أين تتجه وتتركنى؟ ُعد. لا يعود ثم حامل الرشاش المتوسط والذى ألهبته نيران الرشاش النصف بوصة. احمد همام ُعد. إلى أين؟ ُعد لماذا تتركوننى بمفردى؟ توالت الوجوه الهلامية الشفافة يحيط بها هذا الشكل الدائرى وعلى جانبى تلك الأسطوانة شىء مثل الجناحين أكبر من الأذن قليلا مرفرفة وكلها وجوه بيضاء ناصعة فرحة وأنا مازلت واقفا فى مكانى وكل دقيقة أو أقل ترتفع مثل تلك الوجوه اعرفها جميعا فهم كانوا معى فى مركز الملاحظة وأنا مندهش لهؤلاء الجنود الذين تركونى وأنا على هذا الحال وتلف الدائرة حولى بتلك الأشباه التى لها أجنحة كثيرة شفافة وبداخل تلك الدائرة تلك الوجوه حتى اكتمل عددهم العشرة وهنا وقفت صامتا ثم صارخا والله حرام تتركونى بمفردى بين هؤلاء الشياطين؟ لا أريد أن أبقى خذونى معكم. وإذا بشخص خلفى يمسك كتفى برفق قائلاً: لا تحزن أن الله معك ولم يحن موعدك. اهدئ يا بنى، أنا وهؤلاء معك، أنظر إلى الخلف لأشاهد كوكبة من البشر وماهم ببشر ولكن هيئتهم تدل على ذلك أناس أو أشباه الناس كثيرة العدد بملابس بيضاء وأغطية بيضاء على رءوسهم. آهأنتم معى؟ يبتسم لى هذا الشكل ويجيبنى آه نحن معك لا بل نحن معكم جميعا. إن الله لا ينسى عباده المؤمنين. أشعر بفرحة فلقد عوضنى الله عن هؤلاء الشهداء ثم مازالت الدائرة تلف حولنا وينضم إليها آخرون. آه إنه مصطفى أبو عيده أحسن رامى "ر ب ج" فى اللواء والذى دمر بمفرده دبابتين وعربة مدرعة بمن فيها. هذا هو الرقيب محمد فتحى رقيب الفصيلة الثانية وهذا مصطفى

أبوجبل رقيب الفصيلة الثالثة. وآخر من هو؟ إنه الرقيب عبد الحى رقيب الفصيلة الأولى. لقد استشهد الثلاثة رقباء فصائل عندى بالسرية. وأشاهد آخر من هو إنه النقيب حسن إبراهيم قائد ثان السرية. إلى أين يا حسن تتركنى هنا. عُد يا حسن سوف يسأل عنك قائد الكتيبة. يعود إلى هذا الشخص الذى حدثنى قبل ذلك مرة ثانية قائلاً: لا تقل لهم عودوا. هم لن يعودوا. لقد سبقوك ونالوا ما يتمناه أى إنسان منكم يريد هذا الشرف الرفيع. أنهم شهداء ولكن كما تراهم أحياء عند ربهم يرزقون!! نظرت إليه قائلا: شهداء!! دُهشت وهنا أسمع نوعا من الزغاريد مثل الزغاريد الشامية أو السورية والتى أضفت على شعورى بالبهجة والراحة ثم داروا ثلاث دورات سريعة ومعهم العديد من الذين عبروا معى وطاروا إلى أعلى وأنا أقف أنظر إليهم أتابع طيرانهم إلى أن غابوا عنى.

سقطت على الأرض وأنا أسقط هكذا إذ أشاهد هؤلاء القوم وهم يقاتلون. لا أستطيع أن أجزم ولكن هذا ما شاهدته أثناء سقطتى أرضا وأسمع أنات اليهود وصراخهم وما هو معروف عنهم لحظة الخطر أو الموت ورحت فى ظلام دامس.

فجأة شعرت بأن شيئا شديداً يؤلمنى أفقت فجأة فإذ بنيران شديدة اشد قسوة من نيران لحام الأكسجين وأشد قوة وأكبر مساحة واندفاعا وأنا فى تلك اللحظة الفجائية وضعت يدى على وجهى وشعرت بشىء قاس شديد لا أستطيع وصفه ولكننى اشتممت رائحة شواء لحم. لحم يكاد أن يحترق على النيران وانقلبت رأسا على عقب من فوق التبة والنيران مازالت مشتعلة فى ظهرى ويداى مثل قطعة من البلاستيك وتدحرجت حتى استقر جسدى بعد أن اندفعت من فوق تلك التبة حوالى خمسين مترا وأنا الآن نائم على جانبى الأيسر أشاهد ما حولى وأسمع أصوات الانفجارات ورائحة شواء اللحم التى تزكم الأنوف كما كان المكان معبئا برائحة الدماء التى يُشمها أى إنسان أثناء تواجده فى السلخانة أو عند الجزار بعد أن أحضروا له عدة ذبائح من المجزر. رائحة تملىء المكان. غابت الشمس فى السماء عن هذا اليوم الدامى الذى فُقد فيه الآلاف من أبناء وشباب مصر حياتهم أو أعضاء من أجسادهم وأنا على هذا الحال ولا أعلم أين أنا وماذا حدث وبدافع من الحياة جلست أتحسس جسدى وأطمئن على أعضائى. أيوه هذه

قدم وتلك ذراعى وهاهى أنفى وأذنى ولكن الرؤيا بسيطة، حدث انفجار. آه لقد رأيت. إنه الليل والظلام ولا أرى إلا وميضًا وانفجارات ومازال الضوء الذى يتبع غروب الشمس وأستطيع أن أميز منه موقعى وأشاهد ما يجرى حولى، أشاهد دبابة إسرائيلية قادمة فى اتجاهى وأنا عاجز هكذا وليس حولى أحد واقتربت منى وكأنها ترغب فى دهسى ولهذا لم تفتح نيرانها علىّ وكشافها القوى مسلط الضوء فى وجهى. إنها إرادة الله حيث قصفها صاروخ مضاد للدبابات قريبا منى. انفجرت الدبابة وطار برجها فى الهواء والنيران مشتعلة بها وتوقفت عن السير ثم توالت الانفجارات بداخلها وقذف الانفجار بأحدهم ليسقط أمامى مباشرة مشتعلة به النيران صارخا طالبا منى النجدة. أحاول مساعدته وأنا جالس هكذا بأن أقذف عليه ببعض الرمال ولكن النيران كانت أشد قسوة وأسرع لهيبا وتأثيرا وأنا أشاهده يصرخ صرخة قوية لافظا أنفاسه ومازال يحترق أمامى بعد أن فقد حياته.

أنظر إليه على ضوء اللهب المتصاعد منه ومن الدبابة. إنه ميجور. أى رائد بالجيش الاسرائيلى. لقد تقابل القائدان المصرى والإسرائيلى وجها لوجه فى نهاية المعركة، أنا مصاب برأسى والحروق بينما هو فارق الحياة. أنظر إليه صارخاً: ليه عملتم فينا كده؟ ليه دبحتونا فى سينا ودهستم رجلتنا ومش رحمتوهم وهما راجعين بعد هزيمتنا؟ ليه؟ حرام والله حرام. ناس قاعدة فى المكاتب وتبعتكم وتبعتنا نموت بعضنا. حرام.. حرام.. أسرع لى شخص لم أتبين من هو يحدثنى متسائلاً: مين اللى بيصرخ؟ ثم اتجه إلى وجهى صارخا.. آه.. مين سيادة الرائد.. مش قادر أشوفك.. ياه.. إيه ده.. خد حط الرباط الميدانى على الجرح.. ياه أنت يا فندم الدم نازل من راسك زى الحنفية. تساءلت: مين؟ الواد مسعد؟ أجابنى أيوه يا فندم إيه اللى حصل ده؟ سألته فين مركز الملاحظة؟ ودينى مركز الملاحظة. صرخ فى قائلا: مركز الملاحظة إيه؟ روح أتهبب عليك وعلى مركز الملاحظة أنت حتموت قبل ما توصل مركز الملاحظة. تراجع بعد اندفاعه فى الحديث معى قائلا: أفندم. سيبنى أنا عايز أروح أشوف الناس اللى بتتألم. أمد يدى خلف ظهرى فأمسك بحذاء فأجذبه فيقول لى بتعمل إيه؟ ولكننى لم

اجبه فكنت فى حالة ضيق منه وقد أنذرته مكتب. صرخ مكتب.. طيب أجيلك فين أن شاء الله؟ صمت فقد هزلت فإن رقيب طبى السرية يتهكم على شخصى. أجذب الحذاء لأشاهد ساقا ونصف فخذ تركته خائفا وجلا سألته من هذا فأخبرنى بأنه للضابط المهندس المسئول عن القذائف الصاروخية المضادة للدبابات. إنه للشهيد محمود. آه محمود هذا الشاب المبتسم للحياة والذى كان آخر من شاهدته من الضباط قبل هجوم الإسرائيليين. أطلب من مُسعد المعاونة للتوجه لمركز ملاحظتى ولكنه يتركنى فأزحف قليلا وأسير خطوات وانا ممسك بيدى اليسرى المحترقة برباط الميدان وأضعه على رأسى مكان اندفاع الدماء وبيدى اليمنى أحاول الوقوف واليدان التصقت بهما الرمال من أثر الحريق بهما فقد تهتك الجلد والطبقة اللحمية أسفله. وصلت إلى مركز الملاحظة وأنا أتبين أشخاصا لا يتحركون. أقلب فيهم وأنا لا أستطيع فحصهم مما ألم بيدى وظهرى. أكتشف الواحد تلو الآخر. أنهم جنودى الذين رافقونى فى العبور وكانوا يتحدثون فى أجهزة الاتصالات سواء الخطية أو اللاسلكية بعضهم تعرفت عليه وآخرون لم أتعرف عليهم ولكنها هواية الإسرائيليين لدهس الأحياء والأموات بدباباتهم لم تنته. لقد تهتك بعضهم حسب حظه ونصيبه من جنزير الدبابة فمن داست الدبابة فوق ظهره أو مؤخرته استطعت أن أتبين وجهه اما من داست على رأسه فلم أتعرف عليه لأنها كانت أجزاء محطمة مابين الشعر والجلد والعظم.

أشاهد ماسورة سوداء. آه إنها ماسورة قاذف الطائرات إنها مازالت ساخنة وكيف تحترق هكذا؟ إنها لا تحترق إلا إذا احترق الصاروخ بداخلها وهذا ما أخبرنى به مُسعد بعد أن عاد وشاهدنى على أضواء الانفجارات. أيوه يا فندم الصاروخ انفجر فى مركز الملاحظة بعد ما قتل اليهود كل الموجودين فيه. تعرف يا أفندم لو مش الصاروخ ده انفجر كان زمانك والعياذ بالله زى دوول ويشير إلى زملائه. أطلب منه الكف عن حديثه السيئ وأطلب منه العون لإخلائى للخلف، كان رقيب طبى السرية مضطربا حيث قال: طيب خليها لبكرة الصبح. أصل الدبابات مالية المنطقة بعد ما اتقفل المحور والطريق اللى بيمر من ورا النقط من تدميرنا لدباباتهم بعتوا جابوا دبابات تانية ووحدات تانية علشان المنطقة خطرة.

سألته مين عرفك بكده؟ أخبرنى ماهو يا فندم الجهاز اللاسلكى شغال واللى كانوا شايلينه استشهدوا. الحديد فضل يكلم وكنت بأسمعهم وأنا مستخبى تحت النقالة وسامع اليهود وشفت اللى عملوه فى مركز الملاحظة، والله إجرام.

لقد أصبحت عديم الفائدة. لا أستطيع أن أقود أى شىء فلا مخ سليم ولا صحة تقاوم كما أن أجهزة الاتصال الصغرى دمرت تحت جنازير الدبابات ولا أستطيع السير فى هذا الظلام والذى لا يبدده سوى انفجارات المدفعية وصواريخ الدفاع الجوى، المهم الآن أن أخلى نفسى ولكن إلى أين وكيف أسير؟ اهتديت على أضواء انفجارات المدفعية حيث كانت الجهة الغربية من القناة مشتعلة وميضا من إطلاق قذائفها على العدو ومازالت بقايا سريتى تقاوم مقاومة اليائس فالذخيرة المضادة للدبابات على وشك الانتهاء كذلك باقى أسلحة الرشاشات وقاربنا على الانتهاء والتصفية ولا أحد يعلم بحالنا فقد فقدوا الأمل بنا.

سرت المسافة التى تصل لأكثر من ستة كيلومترات وكنت أتعرقل فى شهداء أو مصابين والذى يستطيع السير معى كان يرافقنى واقتربت الساعة من التاسعة تقريبا حيث استطاع احد المصابين الذى فقد ذراعه الأيمن أن ينظر إلى ساعته وهو يعلمنا بالوقت، لقد كان الجندى رجب الذى يعمل على مدفع الماكينة فقد بترت ذراعه اليمنى من انفجار دانة دبابة قريبا منه، يطلب معاونتى فقد أنهكته الإصابة، أحتضنه جانبا وأسير به ويسقط منى متألما صارخا فأنحنى أعاونه على النهوض وتتدفع الدماء من رأسى.

سرنا حتى وصلنا إلى الساتر الترابى على القناة ومازالت تصفية النقطة بين جنود النقيب عصام وبقايا الإسرائيليين على أشدها وأسمع صرخات الإسرائيليين المميتة مثل رجال (يصوتون) على متوفى إنها صرخات لعينة مثلهم حزنا وكمداً على قتلاهم، جلسنا نلتقط أنفاسنا بعد هذا المجهود.

***

يحدثنى الجندى رجب: بعد إصابتى بشظية قذيفة دبابة اتجهت إلى قائد فصيلتى الملازم أول / سيد صارخا ممسكا بيدى اليسرى ذراعى الأيمن المبتور

طالبا منه إعادة ذراعى لى والضابط ينظر إلىّ بدهشة سواء مما حاق بى أو من سؤالى له، تزداد قصفات المدفعية فأنبطح قريبا منه وبرفقته الرقيب محمد فتحى منصور رقيب الفصيلة أشاهدهما فأنا قريب منهما وإذ بقذيفة مدفعية تنفجر قريبا منا وأثنائها كان الرقيب محمد فتحى يحدث الجنود موجها لتنفيذ تعليمات قائد الفصيلة.

توقف قليلاً ثم يكمل. شاهدت رأس الرقيب تنفصل من جسده وتتدفع دماءه من رقبته وتدحرج الرأس قريبا منى وفمه مازال يتحدث ببعض كلمات حتى سكت وصمت. أشاهد قائد الفصيلة يقفز من حفرته حاملاً رأس محمد فتحى ليضعها على جسده طالبا منه أن ينتبه ويجيبه ولكن الرأس سقطت ثانية وقد تلونت يد قائد الفصيلة بالدماء. وقف قائد الفصيلة تاركاً الحفرة سائراً يهلوث قائلاً: "هات الإزازة ياوله وتعال لاعبنى «أصرخ به أن ينبطح أرضا للحماية من نيران المدفعية ولكن أصابته لوثة عقلية. أسرع خلفه جنديان من الفصيلة وأرغموه على الانبطاح وهو مازال يهذى " هات الإزازه ياوله وتعال لاعبنى "، أنهى حديثه ذو الشجون.

***

أقف الآن على الضفة الشرقية لقناة السويس والنقطة (51) التى سقطت بيد قواتنا تلهبها مدفعية العدو بالنيران الشديدة وتتوالى فوقها الانفجارات. احد المصابين معى يرفع صوته صارخا طالبا من رقيب أول السرية إرسال القارب ويخبره بإصابتى. احضر الرجل قاربا ليعيدنى إلى الجهة الأخرى من القناة أى بداخل جزيرة البلاح.

القارب الذى أحضره نصف غرفه الهوائية تالفة وأخبرنى بأن هذا هو أحسن قارب حيث حضرت الدبابات المعادية وأطلقت رشاشتها على القوارب، جلسنا فى القارب الذى أصبح مثل حصيرة وبعض المياه بداخله، وصلنا بعد جهد إلى الجزيرة من شدة أمواج الليل وها نحن وقوف على ضفة القناة الغربية وقد ُغم على رقيب أول السرية أن يحدد مكان الثغرة من الجهة الشرقية والتى عبر منها

فهى مميزة من الجهة الأخرى أثناء الهجوم ولكن من تلك الجهة لم يميزها قبل حضوره إلينا.

اندفع الجندى أبوسريع " المصاب" وهأنذا أتذكر اسمه بعد حوالى ثلاثة وثلاثين عاما. اندفع قائلاً: الثغرة هنا، تسمح يا فندم، دون انتظار إجابة حملنى على يديه كما يحمل الأب ابنه الطفل، أى والله وأنا اعتذر له قائلاً: أنا أستطيع السير ولكنه رفض قائلاً: أنا أحميك حتى لو وقعنا لا قدر الله فى حقل الألغام أفديك ولكن هذا الإنسان طيب القلب لا يعلم أنه لو وقع فى حقل الألغام ستكون نهايتنا نحن الاثنين معا وتذكرت لحظتها حقل الألغام الذى سقطت فيه فى بداية عام ٧٠ ولكن الله أنقذنى منه.

أنظر إلى السماء وأبوسريع مازال يحملنى على يديه وهاهو يدخل بى إلى حقل الألغام. هاهو قد قطع جزءا منه وأنا على هذا الحال وأعتقد أنه فى أى لحظة سينفجر لغم وأشاهد نفسى طائرا فى الهواء وأعود للأرض جثة هامدة، قالها أبوسريع: الحمد لله ربنا أنقذنا من حقل الألغام وأعادنى إلى الأرض بهدوء، تعاون بعض جنود المؤخرة على غسل وجهى ومضمضة فمى وعرضوا على الراحة ولكنى طلبت منهم سرعة الإخلاء خوفا من تدهور حالتى لكثرة النزيف خاصة شعورى بالدوخة وعدم المقدرة على الحركة، لقد أصابنى ضعف وهزال كما كانت يداى تؤلمانى كثيرا من شدة الحروق وانغراس الرمال بها، قائد سرية دبابات حملنى فى لورى تابع لوحدته وكانت تلك الوحدة قادمة من القاهرة.

ملاحظة:

تبين أن الإصابات التى حدثت لرجال المهندسين العسكريين لتأمين الثغرات قبل الهجوم بيومين إصابات مصطنعة وتدخل فى إطار خطة الإخفاء والتمويه ولم أعلم بها إلا بعد انتهاء الحرب بعام أى أن حقول الألغام كانت مؤمنة ولم نعلم بهذا.

إخلاء للخلف

تركنى الرائد خليل قائد سرية الدبابات معتذرا بالعودة إلى دباباته لأنه علم أن كوبرى العبور قد قارب من إتمامه وسيعبر إلى الشرق مع وحدته مع أمنياته لى بالصحة وقدم تهنئته لى بما قمت به مع رجال وحدتى حيث كان يتابع المعركة هو ووحدته وهم مشفقون علينا مما ألم بنا ولكن جسارة الرجال استطاعت أن تقف أمام المدرعات المعادية وحدث هذا الالتحام بينكما، أخى أسامة أعيد تهنئتى لكم جميعا. أستودعك الله.. قبلنى وتركنى لأحد المساعدين "صول" موصيه علىّ بكل خير والعمل على سرعة نقلى إلى السرية الطبية.

السيارة التى أقف بجوارها لورى "زيل" ضخم الحجم ويحمل عشاء جنود الفرقة الثالثة مشاه القادمة من القاهرة منذ ساعات والتى احتلت مكاننا ولم تشترك معنا فى العبور، كنت أشاهد الجنود وهم يتسلمون طعامهم ولا أصدق أن فى الشرق وعلى بعد سبعة كيلومترات زملاء لهم مابين الشهيد والجريح والذى مازال يقاوم وهم على هذا الحالة من اللهفة على الطعام وسلوكهم غير المنضبط، حضرة الصول يستنهض همم رجاله بتفريغ اللورى حتى يتسنى نقل سيادة الرائد إلى عربة الإسعاف القريبة، بعد مجهود نجح فى تفريغ حمولة اللورى من آذان

التعيين الضخمة ومازال يلقى بتعليماته على مندوبى الوحدات بأن الفرخة توزع على أربعه، (محذرًا) فاهمين يا بجم؟ ابتسم لتلك الشفرة التى مازلنا نستخدمها فى حياتنا ومعاملاتنا حتى فى اشد الحالات خطورة وخاصة تلك الحرب وما أجلها لحظات فيها تفارق الحياة الأجساد بسرعة وألم وبكثرة عدد الذين يلاقون ربهم.

جاءنى مستبشرا ومعتذرا، أتفضل يافندم، صرخ فى السائق بأن يترك نصيبه فى الفرخة وبسرعة يقوم بنقلى للوحدة الطبية مما دفع بالجندى إلى وضع ما تبقى من لحوم الفرخة فى فمه دفعة واحدة بينما المساعد يطارده قائلا بسرعة يا ابن... سيادة الرائد بيفرفر وحيموت"أقول الملافظ سعد" ولم يكن باديا على هذا، أخيرا ساعدنى المساعد والسائق بوضعى فى كابينة السيارة التى انطلقت إلى الجهة التى يعلمها السائق وأنا عنها خالى المعلومات والذهن، أطلب من السائق التمهل فى السرعة حيث المطبات تقوم بفعلها معى دافعة ببعض الدماء من رأسى خاصة لشعورى بصداع خطير وشعورى بأن ذراعى الأيمن لا يتحرك إلا قليلا وشبه مخدر ولابد من نطره كل فترة حتى أشعر به، توقف اللورى بجوار سيارة إسعاف وطلب منى السائق أن أتجه إليها، وجدت طبيبا حديث العهد بالخدمة وحينما شاهدنى سألنى: فين أورنيك العيادة؟ !!!!!!!

تيقنت أننى يقظ وأننى بكامل قواى العقلية وما يقوله الطبيب لا يقوله إلا المصريون، مازال ناظرا إلى منتظراً منى أورنيك العيادة. أجيبه: والله يا دكتور وقع منى فى الشرق ساعة العبور، لكن أوعدك بأننى سوف أحضره لك باكرًا، تدخل أحد جنود الشرطة العسكرية موضحا للطبيب أن سيادة الرائد مصاب ونحن فى حالة حرب، نظر إلى الطبيب بدهشة ولقد علمت منه أنه لا يعلم ماهى وظيفته فلقد أحضروه من السرية الطبية بسيارة الإسعاف لهذا المكان لاستقبال المرضى، صرخت فيه قائلاً: أخلينى إلى أى مستشفى بسرعة. اضطرب وتحرك بسيارة الإسعاف يرافقنا مندوب الشرطة العسكرية ليسهل تحركنا، أخيرا وصلنا إلى الكتيبة الطبية للفرقة (١٨) وكان بعض الجرحى قد سبقونى إلى هناك ومنهم أحد ضباطى "الملازم أول سيد الذى استقبلنى سعيدا وأخبرنى بأنه عثر

على الإزازة !! نظرت إليه بحزن وأشار إلى أحد الممرضين بأن الضابط أصيب بصدمة عصبية ونحمد ربنا أنه مش مات منها، مازال يدندن "هات الإزازة ياوله وتعال لاعبنى" أنتظر حضور أحد الأطباء لفحصى وأنا أشاهد الضباط والجنود وأجسادهم ملقاة أرضا بالمستشفى القابع أسفل الرمال بعدة أمتار للحماية من القصف وخاصة الجوى، كانت المناظر والمشاهدات مؤلمة من بتر وجروح عميقة ونزف مستمر وحالات من الإغماء وحالات انهيار عصبى مثل الضابط السيد الذى لم يكف عن الغناء بأغنيته الشهيرة "هات الإزازة" مما آثار بعض العاملين بالمستشفى ودفع بأحدهم لحقنه بمخدر مهدئ حتى يمكنهم رعاية باقى الجرحى.

فحصنى أحد الأطباء وطلب إخلائى إلى مستشفى الصالحية العسكرى، كنت أشعر بأننى فى سباق مع الزمن، فلقد شعرت بعد مقابلة الطبيب الصغير بأننى لن أحصل على أى عناية طبية فى جبهة القتال ولابد من إخلائى للخلف حتى تكون الخبرات والإمكانيات متوافرة وأحسن وأوفر.

سيارة إسعاف عسكرية تتحرك بى من الكتيبة الطبية إلى منطقة مثلث الفرقة وهى منطقة غرب (مدينة القنطرة غرب) على الطريق الواصل بينها وبين الصالحية، كان الطريق مزدحما باللوارى الضخمة التى تحمل معدات المهندسين العسكريين وأرتال الدبابات والمدفعية وحاملات الصواريخ المضادة للطائرات كما كان الوهج فى السماء مازال مشتعلا من الصواريخ المضادة للطائرات وسقوط بعضها كل هذا أثر على سرعة وصولى إلى المستشفى خاصة أن سيارة الإسعاف العسكرية تسير مستخدمة الضوء الميدانى "ضوء خافت للغاية خوفا من الطائرات المعادية" الذى يتطلب من السائق أن يكون حذرا فى قيادته وقليل السرعة، وصلت إلى مستشفى الصالحية العسكرى واستقبلنى قائد المستشفى المقدم طبيب فوزى سويدان وفى حجرة الكشف عاين جروحى وحروقى ثم طمأننى على نفسى ورافقنى احد المرضين إلى الحجرة التى خصصت لى.

توجهت إلى الحجرة متعبا مرهقا راغبا بان ألقى بجسدى المتهالك على السرير وكلى آلام وأوجاع، مازال الصداع ملما برأسى وحروق يدى وظهرى تؤلمنى

وشعرت بأن عظام أحد الأجناب بها بعض الألم، بادرت بفرد جسدى على السرير بعد أن تخلصت من حذائى فإذا بى أسمع شخصا يخاطبنى.

سيادة/ الرائد أسامة.. تلفت جهة الصوت وكان الضوء خافتا خوفا من الغارات الجوية نظرا لوجود قاعدة جوية بتلك المنطقة ولواء صواريخ مضاد للطائرات استفسرت. أيوه أنا من تكون؟ فاجابنى صاحب الصوت ومازال وجهه أسفل البطانية، أنا سعيد، أكرر قوله: من يكون سعيد؟ يعيد: النقيب مهندس سعيد قائد فصيلة المهندسين والذى رافقتك فى العبور وأقمنا حقل ألغام مضاد للدبابات بشرق الساتر الترابى. رحبت به وأنا أكمل حديثى. أسأله: أغلق الإضائة حتى لا تضايقك؟ يجيبنى لا لا بل انى أخفى وجهى حتى لا ترانى وتنزعج من شكلى!! أمازحه. كيف تقول هذا أيها النقيب؟ نهض من رقدته وأزاح الغطاء من على وجهه وقد صدرت منى صرخة مكبوتة ووضعت يدى على عينى. متسائلاً: ياه.. ماذا حدث لك يا سعيد؟ سمعت ضحكته الحزينة!!

لا أتصور أن هذا الإنسان يضحك ولكنى سوف أفسر سبب دهشتى. وجه محترق بالكامل لا يوجد أنف ولا عينان ولا حاجب. الأنف فتحتان بمسطح الوجه والعينان عبارة عن فتحتين هلاميتين وفم به شفتان لا أعرف كيف أصفهما. أما الرأس والشعر فلا وجود لشعر إطلاقا وفروة الرأس محترقة. أعود بذاكرتى لعدة أيام مضت يوم جاءنى هذا الشاب مفرود القوام وفخور بجسده وعضلاته حيث كان بطل كلية الهندسة فى ألعاب القوى، أستفسر منه عما حدث؟ يجيبنى:

بعد أن انتهينا من إنشاء حقل ألغام الدبابات والتى أمرتنا بأن نعده جاءت دبابتان للعدو وأنت منهمك فى معركتك مع باقى القوة واندفعت إحدى الدبابات إلى المصطبة فانفجر بها اللغم فدمرها عن آخرها بمن فيها، امتنعت الدبابة الثانية من دخول مريض نيرانها خشية أن تلاقى مصير زميلتها.

وقفت الدبابة على هذا الوضع وخشيت مع جنودى أن تتعرف علينا أوتصيبنا فأمرت أحدهم بأن يتجه إلى الدبابة ويقذفها بقنبلة"ر ب ج" ولكن الجندى بعد أن استعد لها قابلته دفعة نيران من الخلف فارتمى جريحا وهنا

أمسكت بالقنبلة واتجهت من خلف الدبابة فى حماية الظلام وقذفتها بتلك القنبلة فانفجرت ونظرا لقربى منها طالنى هذا الحريق الذى صهر حديد الدبابة.

أمسكت بيده أقبلها حيث لا أستطيع تقبيل وجهه لما فيه من آثار الحروق. الله يشفيك يا سعيد وربنا ياخد بيدك. ياه على بطولتك!! يجيبنى ضاحكا وأنا لا أتميز كلماته بسهولة كما أنى ألاحظ أن أنفه تفتح وتقفل مثل فتحتين لسمكة وهى تفتح خياشيمها. يجيبنى بصوته المرتج: ياه إحنا عملنا إيه؟ أمال رجالتك اللى كنا بنشوفهم بين عجلات وجنازير الدبابات والعربات المدرعة. أيقنت أن هذا الشاب أشجع منى مرات ومرات. بل إنهم شباب مصر الشجاع الوفى لبلده الذى يكون صلبا عند أى محك وفى مثل تلك الظروف الصعبة.

صباح اليوم التالى قبل الفجر أيقظنى أحد جنود المستشفى ليخبرنى بأن أتوبيس المستشفى سوف يتحرك بعد عشر دقائق حاملا لى سندوتشًا وكوبًا من الشاى. شاهدت سرير النقيب سعيد فارغا فاستفسرت منه. صمت قليلا ثم قال البقية فى حياتك. تركت ما فى يدى واتجهت إلى سريره أقبل تلك الفرشة التى كان نائما عليها وتذكرت أن روحه خرجت من تلك الحجرة وأنا معه وتذكرت أيضا أننى آخر إنسان شاهده وحادثه. ياه على المفارقات. يا ربى سأظل هكذا أقابل أحياء وشهداء وجرحى.

أمام باب المستشفى وقف قائد المستشفى وتذكرت وضعى بالأمس وانا أستعد للعبور. كان الرجل صارما حازما لا ينسى صغيرة ولا كبيرة وشاهدت أتوبيسا ضخما عليه علامة الهلال التى تدل على أنه مستشفى ولا يجب قصفه حسب المواثيق الدولية ولكن ثبت أن تلك المواثيق هى التى يلتزم بها الضعفاء أما القوى فلا يحتاج مواثيق.. مواثيقه فى سلاحه وهى التى تلبى له كل رغباته وتحل له كل منازعاته.

اعتذر قائد المستشفى لى بأنه يمكن تأجيل رحلتى إلى مستشفى كوبرى القبة بالقاهرة نظرا لازدحام الأتوبيس ولكنى أخبرته برغبتى بأن أرحل اليوم إلى

المستشفى إلا إذا كان لديه علاج لى، اعتذر لعدم توافر الإمكانيات بخصوص حالتى كما أن المستشفى معرض للقصف من قبل الطائرات الإسرائيلية. ثم قال لى إذا أمكنك التحامل على نفسك والجلوس بالمقعد الأمامى الذى يجاور مقعد السائق من الجهة الأخرى فى هذه الحالة يمكنك مرافقتهم. وافقته وحينما صعدت إلى الأتوبيس وجدته عبارة عن سراير وقد ملئت بالجرحى وما أدهشنى هو أن جميع الجرحى هم جنودى وضباطى. لقد كنا أول المصابين وأول المرحلين لمستشفى القاعدة بالقاهرة.

غادرنا الصالحية متخذين الطريق إلى فاقوس وكنت أشاهد الفلاحين متجهين إلى حقولهم بدوابهم لبدء يوم جديد من حياة العمل والكفاح كما أشاهد منازلهم ودخان الفرن أو الكانون يتصاعد لإعداد طعام قاطنيه ومنظر الخضرة على جانبى الطريق تسعد أى إنسان وأنا أتذكر ملحمة الأمس وأفكر فيما عساه فعل جنودى والذى تركتهم أمس بشرق القناة وقد لاقى قائد ثان السرية ربه ونال الشهادة التى يستحقها وأنا القائد متجه إلى المستشفى العام بكوبرى القبة ومعى بعض الضباط والجنود وكل واحد منهم ينام على سرير ومشاهد الإصابات من بتر وخلافه تزعج النفس لكنها الحرب فلا حرب بدون شهداء وخسائر وإصابات وجروح.

مازال الأتوبيس سائرا بنا وتنتابنى من حين لآخر حالة إغماء لحظية مما دعى المشرف الطبى المرافق لنا بأن يعمل على إيقاف الأتوبيس عند أى نقطة شرطة عسكرية ويطلب سيارة إسعاف عسكرية تقلنى لأى مستشفى أو يتجه الأتوبيس لمستشفى فاقوس العام أو مستشفى جامعة الزقازيق وأنا رافض لعروضه ويخبرنى بأن كل مستشفيات وزارة الصحة والجامعات فُرغت من مرضاها غير الخطر على صحتهم مغادرتها من أجل القوات المسلحة وأنا أخبره بأنى قادر بإذن الله وسوف أواصل معهم الاتجاه إلى القاهرة مرافقا جنودى وضباطى مثلما رافقونى إلى المعركة.

وصل بنا الأتوبيس إلى مدينة ابى كبير وهى مركز من مراكز محافظة الشرقية كبيرة المساحة، طلب منى أحد المصابين رغبته بالتبول وقد جاوزت

الساعة السابعة بقليل وهذا واضح من انكباب العدد القليل من الناس المتواجدين بالشارع لسماع آخر أخبار المعارك الذى كان ينتظرها الشعب المصرى والأمة العربية بفارغ الصبر. أسأل السائق هل يمكننا التوقف لأنه من غير المعقول أن يظل هذا المصاب فى احتياج إلى دورة مياه أكثر من ساعة ونصف حتى نصل القاهرة. انعطف السائق للجانب الأيمن جهة محطة السكك الحديد وعاونه المشرف على الهبوط ليقضى حاجته بجوار حائط المحطة قبل حضور البشر.

شاهد أحد الباعة الجائلين الأتوبيس وكان يحمل لوحة خشبية صغيرة ويعلقها فى كتفه يبيع من خلالها الجرائد والسجائر وبعضًا من الحلوى والبسكوت فاعتقد أنه أتوبيس عادى فلونه أصفر مثل أتوبيسات محافظة الشرقية فأسرع للصعود إليه لعرض بضاعته وشاهده السائق فنهره فمنعته من هذا راغبا فى أن يعرض الرجل حاجاته على الجرحى الذين كانوا فى أمس الحاجة لمثل تلك الأشياء، سار الرجل ووزع كل ما معه من بضاعة على الجرحى حتى الجرائد والمجلات بين نداءات الجرحى له ليحضر ليحصل على أثمانها والرجل رافض الحصول على أى مليم وهو يكبر.. الله أكبر.. ياه وهيه ديك الساعة لما أشوف الأبطال. يارب يشفيكم ويرجعكم مجبورين الخاطر.

لقد فرغ الرجل كل بضاعته ولم يحصل على أى مليم فعرضت عليه ورقة مالية من فئة العشرة جنيهات فاعتذر عن قبولها ونظر إلى د ˘·: أنت مستئل بيًا يابيه. دا أنا وطنى وبأحب بلدى ورجالة بلدى ثم تركنى ومر على الجرحى مرة ثانية يقبل أيديهم أو أرجلهم. كل ما يستطيع الوصول إليه ليقبله دامعا بعيون الفرح واستأذن بأن يذهب ليحضر أشياء أخرى لهؤلاء الأبطال بين دعائهم له بالستر وأن يغنيه الله ويسعده مثل ما أسعدهم بتلك النفحة القليلة الرائعة فى معناها.

غادر الأتوبيس فشاهد الجندى المصاب الذى فقد إحدى ساقيه بعد أن قضى حاجته يقفز متحنجلا على قدم واحدة فحمله على يديه مثل ما فعل معى أمس

البطل الهمام الجندى أبوسريع، صعد به الأتوبيس بين تصفيق الجرحى له وبهدوء أراح الجريح على سريره مقبلا وجهه ويديه داعيا لنا بالنصر المؤزر بإذن الله.

نشاهده يلوح لنا والأتوبيس يغادر المكان وقد شملنا شعور وطنى وعاطفى مؤثر من هذا البائع الفقير الذى يجرى على قوت عائلته وبدلا من أن يعود إلى أسرته آخر النهار بمكسبه هاهو قد فقد رأس ماله ولكن الله لا يضيع اجر من أحسن عملا، شعرت بداخلى بأننى أقوى بدنيا وصحيا وشعرت أن حالة الدوخة التى صاحبتنى عدة مرات منذ مغادرة المستشفى قد توقفت من تصرف هذا البائع الفقير. أنهم المصريون الشجعان الكرماء.

نحن الآن على مدخل مدينة ههيا وهى مركز أيضا من مراكز الشرقية وقد عرض السائق على الجنود قائلا: أى بطل يرغب فى أى شىء ما؟ ولكنهم شكروه وأكملنا سيرنا، دخلنا مدينة الزقازيق عاصمة المحافظة ومدينتى والتى بها عائلتى. أتلفت يمينا ويسارا لعلى أعثر على من أعرفه ليبلغ عائلتى بأننى بخير ومتوجه للقاهرة حتى أمحو قصور تأخرى عليهم مثل ما حدث فى عام ٦٧ ولكنى لم أوفق.

مازال الأتوبيس يقطع بنا الطريق وكل سيارة فى الطريق تشاهدنا أو مدنيون يشاهدون الأتوبيس ويشاهدون علامة الهلال التى ترمز إلى المستشفى يلوحون لنا والبعض يقفز فرحا وسعادة بأنه شاهد أتوبيس الجرحى الأبطال. الحمد لله اقتربت الساعة من العاشرة صباحا والأتوبيس يدخل بنا مستشفى كوبرى القبة وأسرع جميع العاملين به إلى لقاء الجرحى القادمين من جبهة القتال. كنا أول جرحى نصل إلى المستشفى الذى كان فى حالة طوارئ مثله مثل جميع الأجهزة بالدولة وخاصة القوات المسلحة ومستشفياتها.

جميع من بالمستشفى يحملون الجرحى على نقالات أو كراسى متحركة وكل يوجه إلى قسم من الأقسام وأنا الآن بين أيدى بعض الممرضات الشابات وهن يخلعن عنى ملابسى المحترقة والمليئة بالدماء الجافة ويحصلون على بيانتى

الشخصية وهتفت إحداهن. عيد ميلاد الرائد أسامة النهاردة يا بنات. هللن لتلك المناسبة وأنا سعيد فرح ومسرور لهذا الاستقبال ولذاكرة الفتاة التى حصلت على تاريخ ميلادى وأخبرت الأخريات بذلك.

حضر عميد طبيب بعد أن بُلغ بأول إرسالية قادمة من جبهة القتال وأن من بينهم رائد فحضر الرجل إلى مهنئا بسلامة الوصول مستفسراً منى: هيه وصلتم ممر متلا؟ لقد كانت معلوماته عن الحرب وأماكن القوات ضعيفة ولم يتذكر سوى ممر متلا وأخبرته مثل أبناء البلد. إحنا فين وممر متلا فين. الممر على مسافة أكثر من خمسين كيلو. كل المعارك لسه فى شرق القناة. اهتموا بنا وأخذت لى عدة صور بأشعة أكس وتناولت دواء مهدئاً ثم بعض الحقن لمنع التلوث وبمساعدة الكرسى المتحرك دفعوا بى إلى إحدى الغرف وهناك تقابلت مع نقيب من سلاح المدرعات وقد بدا عليه السرور وعلق قائلاً أخيرا سأجد منُ يسلى وحدتى، لقد أصيب قبل المعارك أثناء نقل القوات ونقل إلى هنا يوم الرابع من أكتوبر. أنا طريح الفراش فى الحجرة رقم (١٠١) بمستشفى كوبرى القبة العسكرى وهذا المبنى أعُد حديثا.

بعد قليل حضر ضابط من رواد المستشفى حيث كان يعالج منذ عشرة أيام وأجريت له عملية الزائدة الدودية ورحب بى وسألنى عن أى خدمة يقوم بها فهو القادر على الحركة. زودته برقم تليفون خالى الضابط بالمخابرات العامة ومعى تليفون منزله واتصل بزوجته ليخبرها بأن الرائد أسامة بالمستشفى وجريح. جاءنى ليخبرنى بتمام الاتصال ثم أخبرنا بآخر المعلومات التى يستقيها من الراديو عن سير المعارك وقد أثلج صدرى سقوط مدينة القنطرة شرق فى أيدى قواتنا. أحدث نفسى، أنت فرح الآن يا قائد الفرقة وكنت تتمنى أن ينعم الله على فرقتك بهذا الإنجاز الذى تغنت به الإذاعات الأجنبية قبل المصرية.

عصراً أقبل خالى متوجسا ودخل إلى الحجرة وعندما شاهدنى أقبل مسرعا يحتضننى ويقبلنى مستفسرا عن أحوالى وإصابتى وسعيد بأن حالتى على هذا الوضع متسائلاً عما أريد، طلبت منه عدة حلاقة وبعض الغيارات الداخلية لأن المستشفى زودتنا بالبيجامة فقط ومازالت ملابسى الداخلية عالق بها اثار المعركة

بها اثار المعركة من روائح الدخان والدماء الجافة التى سقطت من رأسى. غادرنى بعد أن جلس بعض الوقت فقد أقبل من عمله مباشرة بعد أن أبلغته زوجته بنص رسالة صديقنا الإعلامى!!

بعد مغادرته بقليل فُتح باب الحجرة وشاهدت شابا يرتدى بدلة كاملة وأنيقة وفارع الجسد وتحدث قائلاً: حرم سيادة الرئيس. أقبلت علينا السيدة جيهان السادات. إنها كالبدر المنير ولها ابتسامة ساحرة ورقيقة الحس وتجيد فن الحديث والمديح صافحتنى ثم صافحت النقيب المتواجد فى الحجرة قائلة: ألف حمدلله على سلامتكم. ربنا يخليكم لمصر وشعب مصر. إيه يطلبه الأبطال من مصر؟ أسعفتنى قريحتى بأن أوجه لها الشكر طالبا منها إيصال تحيتنا إلى قائدنا الأعلى الرئيس السادات. أجابت على الفور: سأبلغه رغم وجوده المستمر بغرفة العمليات وإن شاء الله فى أول فرصة سوف يحضر لمصافحة أبنائه من ضباط القوات المسلحة الذين رفعوا رأسنا عاليا. ودعتنا مغادرة بين رهط من الحرس والمرافقين من قيادات المستشفى.

اليوم الثالث للحرب الثامن من أكتوبر حضر شقيقى الأكبر ويعمل طبيبًا بيطريًا فى المؤسسة العامة للدواجن وعلم من خالى باتصال تليفونى مع خالى الآخر فى عمله بالزقازيق بحالتى. فنحن كما سبق الحديث لا نملك خطا تليفونيا فى منزلنا فهو صعب المنال على الجميع. حضر أخى مقبلا وسعيدا بان رآنى على خير طالبا منى كتابة خطاب لوالدتى عن أى موضوعات عامة تفيدها بأنى حى أرزق. كتبت الخطاب وأنا أحاور أمى دائمة اللهفة على أخبارى وأخبرها بأن أخى حضر اليوم لزيارتى وأمس حضر خالى وهكذا حتى تعلم أننى أسير فى نفس التاريخ.

حضر كبير الجراحين واستفسرت منه عن حالتى فأمسك بعدد من صور الأشعة التى التقطت لى وقد طمأننى وبأنى بخير وأن بعض الشظايا موجودة برأسى ستخرج من تلقاء نفسها مثل أى شوكة تخرج من اليد ولا حاجة لعملية جراحية. أسعدنى حديثه. مازالت حالة الصداع الشديدة وآلام اليدين والظهر وخدلان بذراعى الأيمن. اليوم التالى التاسع من أكتوبر رافقنى أحد العاملين

لإعادة بعض صور الأشعة غير الواضحة، أنتظر دورى على أحد الدكك الخشبية أشعر بدوران وأننى سوف يغمى على ثم صرخت "سأقع" ولم أدرى إلا وأنا على بلاط الأرضية والجميع يسرعون جهتى وأنا أسمع وأرى ولكننى لا أستطيع الحركة، تعاونوا على إعادتى وجلوسى على كرسى متحرك ومعى مرافق وبعد أخذ صور الأشعة عُدت ثانية إلى حجرتى مع إعطائى دواء وبعض الحقن وجلوكوز. اليوم العاشر من أكتوبر حضر لى مندوبنا الإعلامى والذى كان يخبرنا كل يوم بنشرات الأخبار عن معارك الشرق الطاحنة بين الجانبين. قال: سيادة الرائد. اليوم سترحل إلى مستشفى المعادى لخطورة حالتك، نزل على الخبر مؤلما، إذا أنا فى حالة خطرة وكنت أشعر بها لكن كلام كبير الجراحين كان شيئا مخالفا.

حضر لى مسئول العنبر ليخبرنى بأن السيارة التى ستقلنى إلى مستشفى المعادى ستتحرك بعد ربع ساعة وطلب منى إعادة العهدة إليه. سألته عن العهدة فأشار إلى البيجامة التى أرتديها فأخبرته وأنا فى دهشة!! يعنى حاروح مستشفى المعادى بملابسى الداخلية والتى أحضرها لى خالى أمس مع عدة الحلاقة، أشار إلى كيس بيده وكان فى حالة من التأفف والضجر منه قائلا: أفرولك موجود فى هذا الكيس. أرجوك أن تدفع لى بعهدتى حتى لا تخصم علىّ. أنظر إلى المرافق وأنا فى دهشة حيث نزعت البيجامة وارتديت أفرولى الذى بدون ظهر حيث احترق ظهر الأفرول فى الشرق والدماء الجافة عالقة به. شكرنى واصطحبنى بين وداع رفيق الحجرة والمندوب الإعلامى إلى سيارة عبارة عن لورى صغيرة قديمة متهالكة ينتظر أمام باب القسم الذى كنت أرقد به.

فتح السائق الباب الخلفى للورى وأشار إلى بالصعود، أنظر إلى داخل هذا الصندوق الخشبى فأشاهد ضابطا برتبة نقيب ملقى على أرضية الصندوق بدون حركة. أستفسر منه: ألا توجد عربية إسعاف؟ صمت قبل الإجابة وأشار إلى الجهة الأخرى. أشاهد أكثر من خمس عشرة سيارة إسعاف حديثة.دُهشت متسائلاً: طيب وليه مش نستخدمها؟ يجيبنى: علشان التفتيش، شعرت بالأسى لحالى حيث أقف بجوار صندوق اللورى صغير الحجم أرتدى الأفرول وما به من

حروق ودماء جافة وبكل يد فردة من حذائى وأقف حافى القدمين، رائد بالجيش المصرى بعد أن أدى ما عليه من واجب يصبح هذا حاله وفى مستشفى عسكرى.

حضرت سيدة بدينة تناهز الخمسين من عمرها تتحدث بصوت مرتفع: ياالله يافندم علشان نلحق المستشفى. ياالله ياعوف والسائق يحدثها حاضر ياحاجة جمالات. نظر السائق إلى قائلاً: أتفضل يافندم. دخلت إلى هذا الصندوق الردىء شكلا ومعنى ثم طلب منى بأن أضع رأس هذا النقيب فوق "استبن" السيارة!!! أتساءل: ألا توجد مخدات؟ ابتسم بسخرية وأجابنى: كل حاجة موجودة لكنها عهدة والكل خايف على العهدة. أسأله: وأنت مش خايف على اللورى ده؟ يجيب هامسا: أصله يا فندم ده لامؤاخذة "بتاع المرحومين". اسأل من هم المرحومين؟ اسمع صوتا جافا. ياالله ياواد ياعوف مالك لكعى كده. يخرب عقلك عايزه الحق أطبخ للراجل.

جلست بداخل اللورى منكمشا فى أحد أركانه بوضع القرفصاء وأنا أنظر لهذا المسكين الذى وضعت رأسه على استبن السيارة بديلا عن المخدة بأمر مباشر فى صورة رجاء من المارشال عوف والإمبراطورة جمالات، أثناء كل مطب تتحرك رأسه بشدة فما زال فاقدا للوعى مغمض العينين وأثار شظية فى جبهته من الأمام، رثيت لحالى وحاله وقد أصبحنا ضعافا لا نقوى على المجادلة ولا نرفض أمرا يوجه إلينا من ممرضة أو جندى سائق، إنه المرض رحم الله كل إنسان من هذا الابتلاء ومتع الجميع بالصحة.

اعتقدت أنه من ضمن المرحومين الذى قال عنه وسوف يقوم بتوصيله إلى المقابر وبعدها إذا كنت حيا يوصلنى إلى مستشفى المعادى. أتذكر جلستى هذه منذ ست سنوات أو أكثر بعد استقبال رجال المخابرات الحربية لنا فى الكاب عام ٦٧ وبعد أن نلنا مكافئاتنا جلست هكذا أرتعد من البرد وأنا الآخر ارتعد ألما وحزنا على ما نحن فيه، منذ أربعة أيام تركنا قائد الفرقة واعتبرنا خسائر ونحن مازلنا أحياء ثم يتبعه قائد اللواء مواسينا بأنه سوف يرسل بسرية الخدمة لمعاونتى!! واليوم سيارة نقل الموتى تقلنى وهذا الضابط إلى مستشفى المعادى. رائد ونقيب بالجيش المصرى ومصابان بالعمليات الحربية ينقلان هكذا بعد أن

نزعوا عنا ملابس مستشفى كوبرى القبة وأصبح نصف جسدى عاريا. توقف اللورى وغادرته السيدة وأنا أسأل عوف إحنا فين؟ يجيبنى إحنا يافندم فى سوق السلاح؟

عادت الحاجة جمالات ومعها بعض البضائع لكنى شاهدت بعض الخضار وعدد اثنين كرمب لزوم المحشى!!!

تحركت السيارة ثم توقفت بعد قليل وفتحت الحاجة جمالات باب المقبرة على كلانا أنا والنقيب الغائب عن الوعى لتقدم اعتذارها قائلة: "معلهش ياخويا عايزة الحق أجهز الأكل للراجل والعيال وإحنا فى طوارئ أخرتكم معانا. ماتيجوا ناكل لقمه سوا. والنبى دا أنا فى عمايل محشى الكرنب متقلشى لعدوينك عنه. "أجبتها بانفعال: يا حاجة عدوينى بيحاربونا دلوقتى وأنا سايح فى دمى أنا والغليان ده. تجيب:آه يا قلب أمه. تلاقيه بعد الشر بعد الشر طلع منه السر الإلهى.

أخيرا تشجعت وشخطت فى السائق آمرا إياه بأن يعود بنا إلى مستشفى كوبرى القبة حتى أقابل مدير المستشفى، رجتنى بألا أفعل هذا لأن عوف المسكين سوف يعاقب. أخيرا تحركنا إلى مستشفى المعادى بعد أن رُقيت من السائق ورفع من هامتى ووافق على أن أجلس بجواره وكنت أتذكر يوم لك ويوم عليك. يوم مع الوزير وقائد الفرقة ويوم مع جمالات وعوف. إنها مصر المحروسة اللى كل شىء فيها وارد وقابل لأن يحدث.

كورنيش النيل فى هذا العام بهدوئه الجميل وقلة عدد السيارات ونحن متجهون إلى هذا الصرح الضخم مستشفى المعادى للقوات المسلحة والذى يتضاهى فندق هيلتون فى تلك الفترة تدخل بنا السيارة إلى داخل المستشفى على الطريق المرتفع الدائرى المخصص لسيارات الإسعاف. أشاهد سيدات معهد التمريض العالى برتبهن العسكرية وزيهن الجميل وهن مسرعات إلينا وتفرد الأسرة المتحركة على عجل ويوضع الجلوكوز فى أذرعنا وندفع بهدوء من مكان إلى آخر إلى الأسانسير ثم نصل إلى باب زجاجى ضخم مكتوب عليه الإنعاش.

خلف هذا الباب عنبر كبير وفسيح وعلى مستوى عال من العناية والنظافة خصص لى أحد الأسرة الفارغة واسترحت فيه لحين حضور الطبيب وبجوارى كميدينو عليه باقة من الزهور الطبيعية وعدد من زجاجات العصير ولم يمض وقت طويل إلا وشاهدت الطبيب وعرفنى بنفسه: ممدوح سلامة. فتح الملف الذى أرسل معى وشاهد صور الأشعة، نظر إلى الجرح الذى فى رأسى ثم إلى الأشعة مرة أخرى وسألنى عن أى مشاكل نتجت من تلك الإصابة فأخبرته بتدفق الدماء وشعورى بخدلان فى ذراعى الأيمن.

هز رأسة دلالة على فهمه ما يعترينى وأجابنى بأن الخدلان شىء طبيعى ناتج من الإصابة لأن الإصابة فى الجانب الأيسر فهذا يؤثر على الجانب الأيمن من الجسم. أسأله: هل الحالة مطمئنة يا دكتور؟ يجيبنى وهو شاخص فى وجهى قائلاً: أنت أمك دعيالك!!! لأن أى حركة للشظايا التى برأسك يمينا أو يسارا قيد أنملة توقف جزءا من جسمك عن العمل أو شلل لا قدر الله لكن احمد ربنا. أجيبه: الحمد لله. . أخبرنى بأن الحلاق حييجى قوام ويقوم بحلق شعر راسك بالموس وبعدها تدخل العمليات وربنا يعمل ما فيه الخير. استوضحه عن الحروق التى بيدى وظهرى وآلام ظهرى فيجيبنى بس لما نخلص من المشكلة الكبيرة بتاعة راسك الأول. انصرف وبعد عدة دقائق حضر الحلاق وقام بعمله الذى تمرس عليه. لقد نفض شعرى بالكامل ثم أعقبه احد العاملين قادما بكرسى متحرك سائلا إياى. سيادة الرائد أسامة؟ أجيبه: أيوه أنا. أتفضل يافندم على حجرة العمليات.

أنا متواجد بحجرة العمليات وجمع من المتخصصين فى الحجرة والمساعدين وأجهزة التنفس. جاءت طبيبة البنج "التخدير" ولا أعرف لماذا اختيرت طبيبة التخدير التى كانت على مستوى عال من الجمال الطبيعى بعيونها الخضراء. وضعت إبرة التخدير فى الوريد وطلبت منى العد حتى رقم عشرة وانا شاخص لعيونها الجميلة ولم أكمل بعد العد ثلاثة ولم أشعر بنفسى.

مضى وقت وفترة من الزمن لم أتبينها ولكن كل ما شعرت به أننى ظمآن وراغبٌ فى شرب الماء، حضرت مسئولة القسم بعد سماعها لصوتى وإفاقاتى

وهن يطلبن منى أن أؤوجل شرب المياه فترة بعد العملية لأن هذا مهم جداً. كنت أشعر بورم فى شفتى السفلى وقد أخبرتنى إحداهن بأنها من أثر العملية حيث إنى قضمت بشفتى العليا على السفلى. جاءتنى إحداهن على استحياء تستأذننى فى أن يأخذوا الراديو الترانزستور الذى معى حتى يعلموا موعد آذان المغرب فأشرت لها بالموافقة.

أشاهدهن يتجمعن الآن فى منطقة الكونتر وهو مكتب القسم الذى أنا أرقد به الآن"بقسم جراحة المخ والأعصاب" آه تذكرت هذا القسم الذى عثرت فيه على مدحت ابن ماما وداد منذ ستة أعوام. يا لها من مصادفة بعد ستة أعوام بالتمام والكمال وفى نفس المكان أصبحت نزيلا به، سمعت آذان المغرب بصوت الشيخ محمد رفعت وبصوته العذبٌ وبدأت السيدات فى تناول الطعام وقوفا وهن يراقبن مكان القسم ويلاحظن المرضى ومن حين لآخر تهرع إحداهن على صوت آلام أحد المصابين.

مضى أكثر من ساعة وأحضرت إحداهن طعامى وشربت قليلاً من الماء بتوجيه منهن. لا أستطيع تناول الطعام فساعدتنى إحداهن وقد أكلت القليل حيث لم أكن راغبا فى الطعام. بدأ تأثير المخدر فى الزوال وقد أعقبه شعورى بألم فى منطقة الرأس. حضرت إحدى الممرضات وأدارت جسدى وأعطتنى حقنة فى منطقة اعلى الفخذ ولكنها كانت مؤلمة للغاية وشعرت أن بها ماء نار وليس دواء. أغفو بعض الوقت وأستيقظ قليلا. أمضيت ليلة بائسة ورأسى ملتحف بالشاش. صباح اليوم التالى حضر الطبيب المعالج ومعه رئيس القسم وهما يتفحصان المرضى ونظافتهم ونظافة الأسرة موقعين العقاب على المهملات من مسئولى النظافة والرعاية للمرضى. اطمأن الطبيب المعالج من ملاحظات الممرضات التى دونت بالأمس عن حالتى وطلب منهن أن يحضر أحد من قسم الحروق لملاحظة حالتى الصحية والتى كانت بادية عليها يداى.

حضرت إحدى المتخصصات وشاهدت يدى وأبدت ارتياحها بأن العلاج سهل لمثل تلك الحالة، أحضرت منظفًا وقطنًا وشاشًا وعقمت المنطقة وكانت تنظف مكان الإصابة وانا أتألم من التصاق الرمال منذ خمسة أيام بظهر يدى ثم غطت

المنطقة المحترقة بالميكركروم وربطت كفى يدى بالشاش وأصبحت أرتدى كلافز مثل الملاكمين.

فى آخر اليوم نُقلت إلى قسم العظام بسرير متحرك وهناك حصلت على عدة صور بالأشعة لمنطقة الظهر الذى تبين وجود كسر بثلاثة أضلع من أثر سير الدبابة فوق جسدى،. بسرعة أعُد الجبس. وجبس ظهرى وعدت إلى مكانى. الآن أنا مربوط الرأس واليدين وظهرى به جبس دائرى وأشعر بتعب وصعُوبة فى التنفس من حركة الحجاب الحاجز المحددة.

حوالى الثانية عشرة ظهراً تكرر مشهد مستشفى كوبرى القبة بحضور عدة أشخاص وهم يصرخون "حرم سيادة الرئيس" أقبلت السيدة جيهان السادات تسبقها ابتسامتها وشعورها بالسعادة مما حققته قواتنا من انتصار على جبهة القتال. حاولت مصافحتى ولكنها وجدت يداى مربوطتان وهما مكمورتان مثل الملاكمين واعتقدت اننى مبتور الكفين ولكن أحد الأطباء المرافقين أخبرها بعد أن شاهد التقرير باحتراقهما ويعالجان. رتبت على صدرى قائلة: الزيارة الجاية تكون كويس وأسلم عليك. ملكش أى طلبات؟ أومأت لها برأسى شاكرا وغادرتنى لتكمل مرورها على باقى الجرحى.

قبل العصر حضر لزيارتى أخى الأكبر بعد أن توجه إلى مستشفى كوبرى القبة ولم يجدنى هناك فانزعج واعتقد أنى قابلت ربى وعلم أننى نقلت إلى مستشفى المعادى لأحصل على قسط أكبر من العلاج، فى الاستعلامات علم بمكانى وأخبرنى بان الزحام خارج وداخل المستشفى كثيف وأن الكثيرين من الأهالى ينتظرون دخولهم.

هذا ما كنت ألاحظه منذ وصولى لهذا القسم، زيارة لشخص واحد يتعدى عدد الزائرين العشرة فى بعض الأحوال. لم تكن إدارة المستشفى ترفض الزيارة تقديراً لشعور الأهالى تجاه أبنائهم وأزواجهم إلا فى فترات العلاج والمرور فكانت تمنع الزيارة وبعدها يندفع الزائرون خصوصا أول مرة وهم يتفحصون المرضى

ومن فى حالتى يقفون أمامه طويلا لاحتمال أن يكون ممن يبحثون عنه مختفيًا خلف لفائف الشاش والقطن.

خالى هو الآخر بعد ذهابة لمستشفى كوبرى القبة عاد إلى المعادى ودخل على باشا مشجعا حالتى ومطمئنا على بأنه طالما وصلت إلى المعادى فسأخرج منها بإذن الله معافيًا وسليمًا ومازال العلاج مستمراً وبدأت أشعر بقليل من الصداع ثم أحصل على وجبتى الغذائية وأشعر ببعض التحسن فى رأسى ولكن مازالت يداى مربوطتين وهذا يزيد من ضيقى فكنت أشعر بأننى فى حالة اختناق ولا أستطيع أن أساعد نفسى بفرد الملاءة أو ثنيها كما كنت أنتظر أخى ليصطحبنى إلى دورة المياه بدلا من مرافقة فتيات المستشفى لى وانتظارهن لى بخارج الحمام. كان الخجل يعترينى منهن وخاصة من صغر أعمارهن. كما طلبت منه أن يقوم بإعطائى حمامًا ساخنًا وفعل ما طلبته منه وجازاه الله عنى كل خير لما تحمل من مشاق من أجلى وهو صائم فى شهر رمضان قادماً وعائداً إلى مدينة الزقازيق ليبلغ أبى وأمى بحالتى والتى كان مشوار السفر شاقا عليهما خاصة فى شهر رمضان وهما صائمان.

أثر الشعب فى العلاج النفسى

مضى على وجودى بمستشفى المعادى خمسة أيام ومازلت أواصل العلاج وتحسنت حالتى قليلاً من جهة الإصابة بالرأس وقد تبين لى من حديث مع الطبيب المعالج وهو العميد مكلف الأستاذ الدكتور ممدوح سلامة الأستاذ بكلية طب عين شمس قسم جراحة المخ والأعصاب بأن سبع شظايا اخترقت رأسى واستقرت فى منطقة ما بين المخ والمخيخ وأرجو أن يكون هذا الاسم صحيحا وليس خطأ لأن هذا الحديث منذ قرابة ستة وثلاثين عاما مضت وإنهم قد أزالوا ثلاث شظايا هى مكمن الخطر وتركوا أربعة مازلت أتشرف بحملها داخل رأسى أما تحت فروة الرأس فكانت هناك أربع أخرى لم يتعرضوا لها لعدم الخطورة الحالة ومن الممكن بعد عدة أشهر إزالتها بجراحة بسيطة لا تحتاج سوى مخدر موضعى وطمأننى الطبيب على حالتى وكنت أشعر بصدق حديثه نظرا لكفاءته ومهارته التى لن أنساها ودائما ما أدعو له بدوام الصحة لما قام به معى ومع مئات آخرين إن لم يكن ألآفًا ممن أصيبوا فى تلك الحرب.

كان هناك أمر آخر أشعر أنه مازال فى حاجة إلى رعاية وهى حروق يداى فبعد أن رفعت الأربطة أصبحت يداى سيئة ولا أستطيع فرد أصابعى واصبحت

مكمورة بوضعها الحالى بعد وضع الميكروكروم. ُدهش الدكتور ممدوح من هذا وطلب أخصائيًا لهذا التخصص. حضر الأخصائى وكانت طبيبة يوغسلافية وأزعجها هذا الأسلوب فى العلاج مقررة أن هذا لا يفيد فى مثل تلك الأحوال لأنها حروق وليست جروحًا وقررت إصلاح خطأ السيدة التى بدأت علاجها منذ أربعة أيام بأن جاءت بمشرط وقطعت خطوط عرضية خفيفة بين الآمى الشديدة ولهذا أعدت عدتها بأن وضعت فوطة فى فمى حتى أكد عليها مما أصابنى من ألم من تشريط هذا الجلد الرقيق الذى بدأ فى التكون وأبدلت العلاج بشريط معقم من مادة مثل الفازلين وأعيد ربط يدى ثانية وهما مفرودتان وتأتى يوميا لتلاحظ الحالة مع ثنى أصابع يدى حتى يتكون الجلد الجديد على وضعه الطبيعى.

غفوت بعض الوقت وأنا على هذا الحال والآم يدى مازلت تؤثر بى وقد بدا هذا واضحا على معالم وجهى لأن أخى عند زيارته لى لاحظ ذلك وقد أخبرته رئيسة قسم التمريض بما تم وكان لابد من علاج خطأ العلاج السابق.

نهضت من نومى المتقطع وقت الزيارة فأبصرت بسيدة تجلس على السرير المجاور من الناحية اليمنى حيث كان جارى اليسار هو النقيب الذى رافقنى فى اللورى السياحى لمستشفى كوبرى القبة (لورى المرحومين) وقالت عنه يومها الحاجة جمالات إنه قد يكون قابل ربه. مازال حيا وفتح عينيه ويستجيب لنداءات هيئة التمريض دون مقدرة على التحدث وقد ذكرنى بالعزيز مدحت.

نظرت إلى السيدة وأنا أعتقد أنى قد شاهدتها قبل ذلك ثم فاتحتنى فى الحديث: أزيك يا ابنى عامل إيه؟ هوه مافيش حد بيزورك وإلا إيه؟ أنا كل يوم هنا ومشفتش حد معاك؟

أجيبها بصوت خافت: أصل عيلتى فى مدينة الزقازيق ووالدتى مريضة ولا تستطيع أن تحضر لزيارتى مثل الآخرين. ابتسمت لى مع نظرة أسى لحالى وهى تشير إلى نفسها بأن وضعت يدها على صدرها قائلة: تقبل إنى أكون ماما لحد ما مامتك الحقيقية ما تيجى تزورك؟ أصل أنا ربنا حرمنى من الخلفة. إيه رأيك؟

موافق؟ أجيبها: ربنا يخليكى دا شرف كبير ليا إنك تكونى ماماتى. تسألنى: طيب اسمك إيه؟ أخبرتها وهنا قالت: بص يا أسامة يا ابنى أنا من النهاردة أمك. أنت تعرفنى؟ أجبتها أعتقد أنى شفت حضرتك قبل كده. تضحك وهى تقول فيه حد ما يعرفشى "عزيزة حلمى" أنتبه لها وأقول: آه ماما عزيزة حلمى بتاعة برنامج ربات البيوت بالإذاعة. تبتسم وتقول تمام وبرده مثلت كام فيلم. فاكر فيلم عبدالحليم حافظ وآمال فريد لما كان عبد الحليم موظف بسيط فى شركة أبو آمال واخترع قماش مينحرقشى. اهو أنا كنت مرات سراج منير. ضحكت وأجبتها أيوه لما كنتى غاوية تقولى شعر. تبادلنا الأحاديث وجاءت رئيسة القسم لتشكرها لأنها أدخلت البهجة على قلبى وجعلت لسانى ينفك بهذا الحديث نظرا لقلة الزائرين.

قبل أن تودعنى سألتنى عما أريده أن تحضره لى غداً فشكرتها طالبا منها أن تتصل ببعض أصدقائى وزودتها بتليفون ماما وداد وماما مارى فأكدت لى على أنها سوف تحدثهم فور عودتها إلى منزلها. تركتنى ماما عزيزة حلمى وأنا أتذكر أفلامها وتمثيلياتها.

اليوم التالى بعد مرور الأطباء غفوت قليلاً ونهضت على صوت وحركة بجوارى لأفتح عينى لأشاهدها. آه يا ربى إنها روز. نظرت إلى باكية وهى تحدثنى: كده دوختنى أنا وعاطف عليك ودورنا فى مستشفيات كتير ومش عارفين أخبارك. تحادثنا قليلا ثم غفوت فى نومى.

تنبهت على كلمة ابنى أسامة وأسمع صوتها والذى أستطيع أن أتبينه من بين مئات الأصوات إنه صوت ماما وداد. أفتح عينى لأشاهدها أمامى وبرفقتها كلٌ من مدحت وعلا ودينا والتف الجميع حولى وحضرت ماما عزيزة وهى شخصية مشهورة فقدموا لها الشكر على اتصال الأمس ومن جانبها قدمت الشكر للحضور وزيارتى وأخبرتهم بأن أسامة لا يقوم أحد على زيارته مثل باقى الجرحى.

تكالبوا حولى وكل يسأل وأنا لا أستطيع الإجابة لكثرة الأسئلة التى تحتاج وقتا ومجهودا للإجابة عليها وشعرت بعدم اتزان مما انعكس عليهم بأنى أحتاج لرعاية وزيارة مستمرة بينما دينا تستحثنى بأن أشفى بسرعة لأنها ترغب فى مشاكستى واللعب معى مما أضحك العائلة، اعترض مدحت وأخبرها بأنه أصبح قائداً كبيراً ولا يلاعب الفتيات الصغيرات، تحدثنى بأنها كبيرة وسوف تقرأ الفاتحة قريبا على شاب تقدم لها، أخبرتنى ماما وداد بأنها سوف تؤجل كل شىء إلى ما بعد شفائى وخروجى من المستشفى. جلسوا معى جلسة طويلة ممتعة.

بعد قليل حضرت ماما عزيزة حلمى مع بعض الزوار حاملين معهم الهدايا وقدموها لى وبعدها بقليل عادت بزوار آخرين والأسرة فى دهشة من شعبيتى بين الزائرين، فهمت بعد هذا بأن ماما عزيزة حلمى تلتقى بالزائرين خارج القسم الذى أقيم به وتحضرهم لزيارة ابنها ويعتقدون أنى ابنها حقيقة وليس مجازا. تتوالى زيارة العائلتين، حضرت ماما مارى برفقة عاطف الذى حاول احتضانى ولكنه شعر بالجبس حول وسطى فاعتذر لى بينما جلست الأم على حافة السرير ممسكة بيدى وهى تنظر إلىّ بكل مشاعر الأمومة الصادقة وتقول خلاص أخدت بتار أخوك وليم؟ أجيبها: بكل اللى عذبهم اليهود أخدنا بتارهم وأولهم أخويا وليم. ياه إنها ذكرى قد تكون مؤثرة ولكنها محببة إلى القلب أن نعود ونرفع رايات النصر خفاقة عالية.

قُدم طعام الإفطار أثناء وجود زيارة من فتيات جامعة عين شمس وهنا تقدمت إحداهن متسائلة: كم عدد قوالب السكر على الفنجان؟ فأخبرتها اثنان. كان السكر من النوع الفاخر ومعبأ كقوالب مثل الفنادق. وضعت السكر وأضافت إليه اللبن الطازج وناولته لى وهى تقول: تعرف يا كابتن البلد كلها مافيهاش حبة سكر. اندهشت لهذا واستفسرت منها ومن زميلاتها وقد أدلت كل واحدة بدلوها فى هذا الشأن بان إحدى جارتهم لا تستطيع أن تعد رضعة طفلها لعدم توفر السكر. امتنعت عن شرب الشاى مراعاة لظروفهم ولكنهم أجابوا فى وقت واحد:أنتم أهم منا جميعا.أنتم المدافعون عن مصر وشعبها ولكم كل تقدير وماهو السكر إلا بالشىء القليل فيما قمتم به من بسالة فى ميدان المعركة..

غادرت الزيارة الحجرة وأقبلت ماما عزيزة تقص على بعضا من أخبارها وذكرتنى بفيلم "ليالى الحب" للمبدع عبد الحليم حافظ وتذكر لى بعض ما حدث أثناء التصوير والبروفات وما كان يحدث من مفارقات مع زميلهم عبدالسلام النابلسى والممثل البارع محمد عبد القدوس الذى كان يقوم بدور رجل تركى فى الفيلم "ممتاز شركس" ولم تهدأ حتى انتهت من قص روايتها.

حضرت مجموعة من طالبات الجامعة للزيارة وإحدى الفتيات تنظر بإمعان إلى النقيب الذى رافقنى فى لورى المرحومين على حد قول السائق والذى لم ينطق بحرف منذ وصلنا المستشفى حيث كان صامتا ولا يعلم عن الدنيا شيئًا بل كان لا يتحكم فى نفسه فيبول وتتحرك المياه قريبا من سريرى والزوار ينظرون إلى وأنا خجل أما هو فلا يعلم أى شىء.

تبادل النظرات، صرخت الفتاة بصوت منخفض ووضعت يدها على فمها وهى تقول:.. علاء.. علاء، نظر إليها دون أى انتباه ولم يبال بها. تدخلت وحادثتها. اسمه علاء؟ قالت: أيوه هوه علاء. اسألها أتعرفينه؟ تجيبنى طبعا علاء جوز أختى هدى. الجميع فى دهشة، حضرت السيدة المسئولة لتبلغها الفتاة باسم هذا الضابط فاقد الذاكرة وبعض المعلومات فلم تعرف شخصيته سوى أنه نقيب لما يضعه على كتفه من رتب ففى غمرة الاشتباكات ينسى البعض إعطاء بيانات المصاب وبعض المصابين لا يحتفظون بمحافظ وأوراق خشية فقدها فى المعارك ويتركونها فى مؤخرة الوحدة.

أسرعت الفتاة تتصل بشقيقتها وعادت بعد دقائق لتزف لنا خبر حضورها بعد قليل حاملة وليدها ذا الأربعة أشهر. تنظر إلى قائلة: أصل إحنا ساكنين هنا فى المعادى. لم تمض نصف ساعة إلا وحضرت الزوجة تنظر إلى زوجها متلهفة عليه وانحنت عليه باكية وهو مازال كما هو غير عابئ بما يحدث حوله ولكن الشىء الذى لفت انتباهه هو الطفل فكان يدقق النظر فيه بينما خالته تحمله وعيونه مازالت تلاحقه أثناء سيرها فى الحجرة.

طلبت منها أن تعطيه الطفل فناولته له فأمسك به يقبله باكيا والطفل يصرخ ألما من شدة قبضة أبيه عليه والأم تحاول فك ذراعه عنه وهو مازال باكيا ناظراً إليه وينظر إلينا مستفسراً.. عمرو.. مش اسمه عمرو؟ ابتسمت الزوجة.. أيوه يا علاء ده عمرو ابننا.. جلست بجواره على حافة السرير وبينهما الرضيع وشملتنا جميعا الفرحة والسعادة وقد ملأت الغبطة قلوبنا. أخيرا عرفنا من هو علاء وأيضا عمرو وهدى واجتمع شمل الأسرة بعد أسبوعين من بداية الحرب التى مازالت تدور رحاها بيننا وبين الأعداء.

انشغلت بكلٍّ من هدى وعمرو فقد ملأ علينا الغرفة سعادة وبهجة ومن منا يسمع صوت الرضيع ولا تتحرك شجونه وخاصة عندما يلاعب أى إنسان ويبتسم فاتحا فمه الصغير خالى الأسنان إنه لشىء رائع وحكمة الله فى الأرض.

أشاهد عائلة قادمة تستفسر من البعض وتتفرس وجوه المرضى فى الحجرات الزجاجية وألاحظهم وأنا فى سريرى ولسان حالى يقول إننى أعرف هؤلاء. إننى أشعر بأننى رايتهم قبل ذلك. دخلوا حجرتنا والرجل والمرأة نظروا إلى علاء بينما الفتاة أسرعت إلى تصافحنى بحرارة قائلة: إزيك يا خويا. لقد كانت أسرة عم عليوة المزين وأدهشنى أن يعلم الرجل بمكانى ويحضر من بورسعيد لزيارتى وأنا أفكر هكذا إذ بسحر الجميلة الرقيقة تقطع على تفكيرى قائلة شوف بابا عرف إزاى إنك فى المستشفى؟ قوله يا بابا.. بصوته الهادئ الذى أثرت فيه السنون وأحداث ٥٦ واستشهاد ابنه ممدوح عام ٦٧ قال: يا ابنى الحكاية كانت صدفة. واقف عند الفرن أجيب عيش شافنى الأسطى وسلم عليا ولما كلمنا مع بعض عرفت منه إنك انجرحت وفى المستشفى. مازلت غير واع ولكن الشباب أسرع توضيحا إذ قالت سحر أن بابا قابل سعيد السواق اللى جه معاك لما زرتنا فى بورسعيد وتعرفوا ببعض. ياه قلتها وأنا فرح، أستفسر منها: لكن إيه اللى ودى سعيد بورسعيد؟!! ضحكت سحر وهى تقول مش أنا يا خويا قلت لك لما كنت عندنا إننا حنهاجر إلى القاهرة. هما تقابلوا فى القلعة لأن سعيد ساكن فى نفس الحى. آه قلتها بعد أن أعادت سحر تركيب الحروف الهيلوغرافية فى أماكنها.. استفسر منها:

الآن أنتم بالقلعة فى منزل عمتكم؟ أجابت: آه دلوقتى بقينا فى القلعة ومن سكان مصر وحتلقانى كل يوم نطالك هنا وأفضل طولة النهار معاك. إيه رأيك؟ اخويا موافق وإلا له رأى تانى؟

يكمل عم عليوة الحديث. متأخذينشى يا ابنى. صحتى على قد حالى وخصوصا فى رمضان لكن بإذن الله إن حضرت العيد هنا حاكون معاك. جلسوا جلستهم وهموا بالانصراف ولكن عم عليوة عاد يحدثنى: أنت ابنى مش كده؟ ابتسمت له: أمال يا عم عليوة من ست سنين وكام شهر. قبلنى ومازالت زوجته وابنته وابنه وقوفا على بعد عدة أمتار. اقترب منى وهو يقبلنى قائلاً: مش حاوصيك لو حصل لى حاجة خد بالك من أخواتك. انتفضت وأنا أخبره قائلاً: بشر ولا تنفر. إيه اللى بتقوله ده؟ ربت على كتفى وقال: الأعمار بيد الله. السلام عليكم يا ابنى.

بقدر سعادتى بزيارتهم لى بقدر ما حطمت تلك الكلمات الأخيرة قلبى وأشعرتنى بحزن ويأس شديدين. لماذا قال هذا الأب الملتاع على ابنه وأسرته هذا الكلام؟ لابد أنه شعر بدنو أجله ولكن كل هذا عند الله، هونت على نفسى بأن الرجل يريد أن يتأكد أننى مازلت ابنه وأننى لم أتكبر أو أتعالى عليه مثل ما يشعر بعض المصريين الطيبين، ظللت أتذكرهم وأتذكر ما يتمتع به هؤلاء الناس من طيبة ورقة رغم رقة حالهم، ازدادت سحر جمالاً وبهاء وقد تعدى عمرها العشرين عاما كما أخبرتنى منذ قليل.

أثناء فترة عيد الفطر تقاطر الزوار على المستشفى لزيارة الشباب من الجرحى ومازالت ماما عزيزة تلقى القبض على الزوار وتأتى بهم لزيارتى وقد زودت سحر ببعض الهدايا وكانت رافضة فى البداية أخذ أى شىء منها ولكنى أقنعتها أنها على سبيل الأمانة وتحفظ عندها وأسعدها هذا، مازالت زيارة سحر وروز اليومية يتخللها زيارة علا فى بعض الأحيان وماما وداد و ماما مارى والعقيد عاطف شفيق.

بعد أجازة العيد قام الطبيب بخلع الجبس عن ظهرى ووسطى وأراحنى هذا كثيرا كما خلعت العمامة وبعض شعر رأسى بدأ فى الظهور وارتفع قليلا وبعدها بيومين رفعت طبيبة الحروق كل الأربطة عن يدى وأصبحت حرا طليقا بعض الشىء. لم يمض أسبوع إلا وقررت إدارة المستشفى مغادرتى ومنحى أجازة مرضية لمدة شهر تكرر ثلاث مرات متتالية بنفس المدة "أى ثلاثة أشهر" ثم بعد هذا أعرض على قسم المخ والأعصاب.

مضى على عودتى لمنزلنا بالزقازيق أسبوعان تحسنت خلالها حالتى الصحية إلى أقصى درجة كما أعدت أمى دورى من الأطعمة تنافس فيه كل من البط والفراخ والحمام والأرانب ولحوم الأغنام.

نتائج المعركة

بعد مُضى أسبوعين على تواجدى بمنزل أسرتى بالزقازيق وتحسن حالتى الصحية والنفسية إلى درجة كبيرة حضر إلى زيارتى الملازم أول مهندس فايز المسئول عن صيانة العربات المدرعة بالكتيبة أثناء الحرب ويصحبته سائق عربة جيب وتربطنى بهذا الضابط علاقة طيبة، بعد أن عانقنى هو والسائق مرحبين بعودتى سالما إلى اسرتى شكرته وسألته: أحضرت إلى مدينتى فى مأمورية وكيف عرفت عنوانى؟ ابتسم قائلاً: مأمورية فهذا صحيح أما كيف عرفت عنوان سيادتكم فقد زودتنى به قيادة اللواء وبالذات قائد اللواء العقيد أحمد عبده. أفندم: سيادتكم إذا كنت قادراً على مرافقتى إلى موقع الكتيبة شرق القناة سوف نكون سعداء جميعا وتلك رغبة الجميع وأمر من قائد اللواء لأن التليفزيون المصرى متواجد منذ يومين ويقوم بالتصوير فى أماكن المعارك مع الأبطال الذين قاموا بتلك الأعمال المجيدة وقد أجل قائد اللواء التصوير فى جميع قطاعات اللواء قائلاً: ليس قبل أن نصور قائد مفرزة نطاق أمن الفرقة الرائد أسامة لما قام به هو ورجاله من أعمال فى منتهى الشجاعة كانت السبب الرئيسى فيما نحن فيه الآن من شعور بالنصر والفرحة فيجب على صاحب الفرح أن يتواجد

بيننا وهو الذى نبدأ به الاحتفال والتصوير ولهذا طلبوا منى الحضور لسيادتكم لو كانت حالتك الصحية تسمح بالعودة إلى الموقع الذى حاربت فيه.

كنت أستمع إلى هذا الضابط قليل الكلام كثير العمل وأنا سعيد بكل ما جاء على لسانه فهو أولا قد فك عقدة لسانه ويتحدث بطلاقة وكأن النجاح يولد البلاغة فى الحديث والأهم أنه نقل إلى رسالة من قائدى الأعلى وما لشعورى من جهة هذا القائد دمس الخلق الهادئ فى أشد الظروف ضراوة وأنا أستمع إليه على جهاز الاتصال اللاسلكى طالباً من قائد الفرقة تقديم العون لى ولجنودى لإنقاذنا.

لم ينسانى أو يتناسانى قائد اللواء فى غمرة الأفراح، أسعدنى هذا التقدير ومن منا نحن البشر لا يسعده ويطربه أن يجد التقدير من الآخرين وخاصة القيادة وبعد أن تنجز مهمتك التى أوكلت إليك، أخبرنى الضابط فايز أننى على الأقل سأمضى بضعة أيام معهم فى الكتيبة لأن الجميع فى شوق إلى رؤياى وسماع حديثى وروايتى خاصة بعد أن مُنيت تلك الوحدة بخسائر جسيمة وفقدت نصف قيادتها كشهداء ومنهم قائد ثان السرية النقيب حسن وقائدهم الأكبر سعادتك كمصاب.

اعترتنى مشاعر فياضة أكثرها تأثيراً هو شعورى بالحزن على من فقدناهم وانا أعلم الكثير ممن لاقوا الشهادة أثناء حلمى أو رؤيتى وأنا مصاب ملقى أرضا ومدفون فى داخل الرمال بعد أن قامت الدبابات الإسرائيلية بواجبها المقدس بدفن وهرس الموتى والجرحى والأحياء بتلك الجنازير القوية وتحت ثقل دبابة لا يقل وزنها عن ستين طنا من الحديد.

تحركت بنا السيارة الجيب بعد أن أقنعت أمى التى كانت رافضة عودتى إلى موقع كتيبتى وهى تقول يا ابنى اليهود حيكونوا مستنيينك وينتقموا منك!!! وكأننى شخصية معروفة لديهم.. بعد أن قطعت السيارة الطريق فى حوالى الساعتين وصلنا إلى هدفنا وأنا مازلت واضعا الأربطة على يداى حسب تعليمات الطبيبة وألا أنزعها إلا وقت الاستحمام أما رأسى فقد أوصانى الطبيب بالابتعاد

عن الشمس والمحافظة عليها من برودة الشتاء مستخدما الطاقية المعدة لذلك وهى من الشاش المعقم للحماية والدفء نظرا لتعرية عظام الجمجمة وتأثير الحرارة والبرودة عليها كما أن برأسى فتحة تحت فروة الرأس بقطر اثنين سم مربع بدون عظم وعلى الاحتراز لهذا.

وقفنا أمام الكوبرى الذى شيده سلاح المهندسين شمال جزيرة البلاح وأشاهد النقطة (٥١) الإسرائيلية التى بدأت هجوم قواتى بجوارها وقد دمرت بالكامل وينعق بها البوم.. عبرت بى السيارة إلى الشرق واتجهنا إلى موقع رئاسة الكتيبة.. يا له من موقع إنه مكان مركز ملاحظتى وأرى قريبا منى ماسورة القاذف المضاد للطائرات والذى احترق وأحرقنى وأنقذنى معه.. سبحان الله أن أعود بعد قرابة الشهرين لهذا المكان الطاهر الذى صعدت منه أرواح شباب مصر إلى ربها شهيدة لتحيا من جديد فى جنة الخلد والرضوان وسبحان من له الدوام.

تقاطر على الضباط والجنود مرحبين وسعداء مقبلين ومحتضنين وقد اعيانى الإرهاق والتعب سواء من طول المشوار أو من حُسن الاستقبال وكثرة الانفعالات وشعرت اننى لم أستطع أن أقدر حالتى الصحية عندما وافقت على العودة لموقعى السابق أثناء الحرب ولكن كما سبق وقلت إنها رعونة الشباب واندفاعهم مهما كانت الأحوال وبأيدى هؤلاء الشباب ورعونتهم تبنى الأمم أمجادها وقوتها.. أشاهد بعض الضباط الغرباء عن ذاكرتى وأعلم من رئيس العمليات الرائد احمد الشيخ محمد سعد بأنهم استعواض خسائر بعد أن فقدنا ربع ضباط الكتيبة فى المعركة.

كان الرجل يقود سيارة لورى صغيرة لمساعدتى على مشاهدة موقع عمليات وحدتى يوم العبور العظيم شارحا وموضحا لى ماذا شاهد فى صباح السابع من أكتوبر وكان يروى لى ما تم بحزن قائلاً: كنت لا أتصور إنها حرب بل هى مجزرة بكل المقاييس.. تصور يا أسامة لم أجد شهيداً إلا وقد هرسته الدبابات رغم ما لحق بهم من خسائر كبيرة على أيدى رجالك ثم توقف بالسيارة قائلا بس تعرف أنت ورجالتك كنتم عيال ميه ميه.. أى والله وده السبب اللى خلاهم عملوا فيكم كده لأن معارك الكتائب المجاورة رغم محدودية خسائرهم لكن محصلهمشى

كده.. لكن اليهود خسايرهم كانت كبيرة والأهم أنتم ضيعتم عليهم فرصة مساعدة النقط القوية من هنا من البلاح من مكان عبورك حتى جنوب بورسعيد.. تصور كان العميد فؤاد عزيز بيقول لأركان حربه قدامنا كلنا.. تعرفوا أحسن حاجه عملتها فى الحرب دية.. ونحن ننظر إليه لنستمع إلى ما سوف يقوله من كثرة أعماله خلالها فقد كان قائدا فذا بكل المعايير.. بعد أن صمتنا ونحن ننظر له بكل اهتمام.. عاد فقال.. أحسن حاجة هو اختيارى الشخصى لقائد مفرزة نطاق امن الفرقة.. فقد كان اختياراً فى محله ومش حأقلل من كل اللى كانوا معاه لكن أسامة كان القائد المثالى فى تلك المعركة وكلفته بهذا الواجب.. دقة تنفيذ الأوامر وهدوء الأعصاب أثناء المعركة.. ثم نظر إلى قائد اللواء العقيد أحمد عبده.. قائلاً : فاكر يا أحمد اتصالاتك وكلها مسجلة وموجودة عندنا وعند هيئة عمليات القوات المسلحة.. يتحنح أحمد عبده قائلاً: يا فندم الموقف كان خطيرًا وانا أراقبه من الغرب على مسافة تمانية كيلو.. مش حرب كانت طحن فى بعض.. دبابات بتدوس عساكرنا وعساكرنا بتفط على الدبابات وولعة فى الناحيتين وانفجارات مدرعاتهم مكنتش عارف أفصل بينهم داخلين فى بعض.. سأله: فاكر أمر الانسحاب إللى أصدرناه إلى أسامة.. تبرم أحمد عبده وأجابه: طيب يا فندم ماهو كان معارض وسيادتك صممت.. نظر جهة اركانات حربه.. قائلاً : سامعين قائد اللواء بيقول إيه؟.. أنا أقول هو أدرى بوضعه وخلونا فى معركة القنطرة وأنتم تطلبون منه أن يعود للخلف علشان ندفع بيه إلى مكان آخر.. المهم كان حوارا ساخنا.. إلى أن سأله أحد قادة السرايا وهو رائد وأقدم منك بعام.. أفندم : لم تخبرنا بالسبب الذى اخترت على أساسه الرائد أسامة لهذا العمل.. أجاب أيوه ده سؤال مهم للقيادات الصاعدة.. أيها القادة إياكم والسير بالروتين الحكومى الموجود بدولتنا أثناء المهام القتالية.. إياكم.. وحأقول على سبب اختيارى له.. أسامة احدث رائد فى قادة سرايا الفرقة ولسه مترقى فى يوليو إللى فات لكن أنا اخترته قبل الترقية يعنى رتبته هنا مكنش لها أساس فى الاختيار وكان سبب اختيارى له نقطة مهمة فى رأيى وأنا القائد والذى اختار القائد الذى يعمل فى مواجهة فرقتى:

سرعة تنفيذ الأوامر والتعليمات بدون النظر للأوامر تنفذ ضد من.. معنا هنا مجموعة من رؤساء أفرع قيادة الفرقة وهما إللى اتعرضوا لحادث إطلاق النيران من أسامة.. تعليمات قائد الجيش محدش يصطاد سمك فى تفريعة البلاح بالمتفجرات وإللى يخالف الأوامر تطلق عليه النيران.. صدقونى لما قالها قائد الجيش وكلمناه بينا وبينه ضحك وقال لزوم الردع والتخويف يعنى أنتم فاكرين حد حيعملها.. ما أنتم كقيادات اللى بتصطادوا.. لكنها حدثت ومع قيادتى ومن وحدة صغيرة عندى.. ارتبكت وارتبكت قيادة الجيش.. (رئيس العمليات أحمد الشيخ يقول : متزعلشى من الكلمة اللى قالها قائد الفرقة عليك).. فى قيادة الجيش قالوا فيه مجنون عملها وقائد الجيش اضطرب وقال : ستر من ربنا انه مافيش خسائر.. رغم أن الحكاية دية قطعت دابر عملية الصيد بالمتفجرات لأنها حادثة مش هينة.

عُدت مع رئيس العمليات إلى قيادة الكتيبة وهناك ترجلنا سيراً على الأقدام واتجهنا إلى المقبرة الجماعية التى أقامتها الكتيبة لشهداء وحدتى فى نفس مكانهم ومن حُسن الحظ فإن موقعنا أصبح مكان تجمع الكتيبة بعد وقف إطلاق النار.. أقرأ أسماء الشهداء،

فى المساء حضر رئيس العمليات يرافقه المخرج التليفزيونى مصطفى بشير لكى أكون مستعداً فى الغد لتصوير بعض المشاهد بجوار الدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية التى دمرها جنودى الشجعان.. أعطانى الرجل فكرة مبسطة عن عملهم وأخبرنى أنه لن يرهقنى بكثرة التصوير لما لاحظه علىّ من إرهاق وما شاهده علىّ وانا ملتحف بالشاش.

أشاهد بعض الخطابات أمامى مرسلة من الأهل لأبنائهم. عثرت على عدد كبير من الخطابات المرسلة بأسماء بعض جنودى وضباطى الذين لاقوا الشهادة.. أتذكرهم وأتذكر أن إخوتهم وعائلاتهم تنتظر ردا على خطاباتهم ولكن الشهداء لا يكتبون خطابات للأحياء. تخيرت أحد الخطابات، خالفت ضميرى وفتحت

الغلاف لكى أطلع على ما كان يحتويه.. لقد كان من الأب إلى الابن وبخط متواضع كتب الخطاب المرسل إلى عريف مجند مؤهلات محمد سالم على الباز بلوكامين السرية:

بسم الله الرحمن الرحيم

أزيك يا محمد.. أمك بتعيط كل يوم وبتجول يا ترى محمد عايش وإلا راح عند ربه، عرفنا يا بنى إذا كنت عايش جول وإذا كنت ريح ربك يبجى عليه العوض ومنه العوض، إخواتك كلتهم باعتين لك السلام وأنت عارف معزتك حدانا كلتنا ما هو أنت الصغير آخر العنجود، ربنا يرجعك بألف سلامة أنت وإخوانك وعلى فكره ده تالت جواب أشيعهولك، مش تتأخر علينا بالرد وحس بينا، مع السلامة يا محمد، مع السلامة يا بنى.... من أبيك سالم وباجى العيلة.

٢٥ أكتوبر سنة ٧٣

أمضيت ليلتى بجوار زملائى وأحبائى الشهداء يعترينى من حين لآخر شعور عارم بنشوة النصر وأتذكر منذ ما يقرب من الشهرين كانت تدور فى هذا المكان معارك قوية مع الأعداء والحمد لله بفضل الشهداء والجرحى والباقون حصلنا على جزء من أرضنا وها أنا انعم بالنوم هنا بعد أن كنا ننظر لهذا المكان من الغرب على انه شيء بعيد المنال.

أشرقت الشمس وكنت قد عقدت العزم على البحث عن مقابر الشهداء، أحد الجنود المتبقيين من المذبحة رافقنى إلى مكان المقبرة، قرأت الفاتحة على أرواحهم جميعا، تلى ذلك محادثة كل شهيد أمام الشاهد الذى يحمل اسمه، كنت أحادثهم مثل ما كنت أتحدث معهم قبل المعركة فهم أحياء عند ربهم يرزقون، توقفت كثيرا أمام الشاهد الذى يحمل اسم أعظم ما رأيت وشاهدت خلال معاركى الكثيرة، الجندى أحمد همام والذى قضى على جنود العدو القادمين لأسرى، حادثته برقة وكأنى أب يحادث ابنه شاكرا فضله مثنيا على شجاعته مؤكدا على وعدى له بمنحه أجازة طويلة نهاية شهر أكتوبر قبل أن نعلم موعد

الحرب لحضور حفل زفاف شقيقته، غلبنى حزنى على فراقهم وما شاهدته بعين رأسى وكيف نال الشهادة، انهمرت دموعى ولا أعلم الوقت الذى ظللت أبكيه حتى شعرت بمن يمسك بيدى مهدهدا على كتفى، لقد كان قائد الكتيبة المقدم بهاء زايد الذى حل فى القيادة مكان قائد الكتيبة السابق والذى أصيب ومازال يعالج بمستشفى المعادى.

نهضت مع الرجل والذى قدم لى مواساته وتهنئته على معركتنا المجيدة، فى موقع قيادته أخبرنى بأنه كان يتمنى رؤية قائد مفرزة نطاق أمن الفرقة وكيف أدار تلك المعركة التى اختلط بها الحابل بالنابل وما حدث لكم من خسائر وإنجازات.. سألته عن نتائج تلك المعركة، فتح أجندته وقرأ منها وأنا أسجل فى ذاكرتى:

خسائر قواتك

عدد الشهداء من الصف والجنود ٦٤

من الضباط ٧

الجرحى من الصف والجنود ١٤٦

من الضباط ٣

خسائر المعدات

عشرة مدافع لسرية م/د الكتيبة

اثنين مدفع هاون الكتيبة

أربعة مدافع "جرينوف" رشاش

أربعة لوحة إلكترونية توجيه صواريخ م/د

خسائر العدو:

سبع دبابات مدمرة وواحدة سليمة غرزت فى الملاحات (الإجمالى ٨) دبابات

العربات المدرعة ست عربات مدمرة بالكامل

الأفراد ٨ دبابات × ٤ أفراد= ٣٢ قتيلاً

عشرة فى عربة مدرعة انفجرت بهم بالكامل واحترقوا (١٠) قتلى

ثمانية من أفراد المشاة الميكانيكى قتلوا أثناء محاولة أسرك وذلك بواسطة الرشاش المتوسط (٨) قتلى... هؤلاء من قتلهم الجندى الشهيد أحمد همام بمفرده

الإجمالى = ٣٢+١٠+٨ = ٥٠ قتيلاً إسرائيليًا

الجرحى خارج السيطرة لأن العدو أخلاهم للخلف

الخسارة الكبرى لليهود هو عدم مقدرتهم على إنقاذ النقاط القوية التى سقطت تباعا

أعاد القائد الجديد ثناءه على قواتى وعلى نجاح مهمتنا وعندما لاحظ شرودى من كثرة عدد الشهداء والمصابين هون على قائلاً: تلك هى ضريبة الحرية وضريبة النصر.. لا يوجد انتصار بدون دماء.. ثم أخبرنى بأن طعام الإفطار سيصلنى وبعدها يأتى أحد ضباط قيادة الكتيبة ليصطحبنى لأماكن التصوير متمنيا لى إقامة سعيدة بينهم.

تركنى متجها إلى عمله بينما ظللت أجتر أحزانى على زملائى رغم علمى بكمية خسائرنا ولكننى لم أكن أتوقع هذا الكم الكبير وأن نعبر القناة بدون أن يصاب أى منا وهنا تسفك دماؤنا ومازلت أتذكر حديث الوزير معى ومع قائد الفرقة "حتكون معركة حديد مع لحم يا فؤاد" لقد صدقت سيدى الوزير لقد كانت هكذا لحمًا مع حديد فرم اللحم بواسطة الحديد وانصهر الحديد تحت قوة نيران الرجال.

أقف فى منطقة تدمير الدبابات المعادية والمخرج يوضح لى زوايا التصوير والفنيين والمعاونين بكاميراتهم وانا أقف بجوار ثلاث دبابات إسرائيلية مدمرة بأيدى رجالى البواسل ومازالت رائحة تحلل الأجساد المحترقة بالداخل نفاذة، تحدثت حوالى عشر دقائق عن مهمة وحدتى وموقعها وخلاصة المعركة ونتائجها،

أشفق على المخرج من معاناة التصوير فأسرع بإنهائه شاكرا لى، نفحنى قائد القوة التى استولت على النقطة القوية رقم (٥١) قطعة من قماش العلم الإسرائيلى أحتفظ بها خصيصا لى قبل أن أغادر الموقع عائداً إلى منزلى.

***

شعرت برتابة الحياة فى مدينتنا فلم أجد بعد الصُحبة الطيبة ومازال باقى الشباب فى الجيش رغم أن وقف إطلاق نار قد بدأ لكن مازالت الثغرة موجودة وهناك تداخل بين القوات بين البلدين.. أتذكر أين أنا الآن مما كنت فيه وانا جالس فى مستشفى المعادى اما الآن فلا حول لى ولا قوة أترك أمى لأجالس أبى وكل منهما يضع بعضا من المعاناة فوق كتفى لهذا المستمع الجيد.. أريد أن أعرف وأعلم عن أخبار الأحباء لكن كيف؟ لا تليفون لدى لكى يتصلوا بى.

اتصلت بمنزل علا وجاء صوت ماما وداد رقيقا من الطرف الآخر للتليفون مستفسرة عن أحوالى وأخبرتنى بأن جميع أخوتك بخير وفكرت بأن أرسل لك مدحت إلى الزقازيق للاطمئنان عليك لكن علا قالت بلاش يا ماما ونخليه من غير إزعاج.. أجبتها أشكرك كتير يا أمى وإن شاء الله فى أقرب فرصة سوف أكون بمصر وأسعد برؤياكم جميعا.. انتهت المكالمة، تنبهت على أن علا تريد قطع حبل الصداقة بينى وبينهم.

كانت تنتابنى من حين لآخر مشاعر بالأسى لما حدث بينى وبينها ومازلت حانقا على ما بثه محمد فوزى فى عقلى وقلب حياتى الهانئة رأسا على عقب فلو لم يقل ما قاله لكنت الآن أرفل فى نعيم السعادة معها.

فى الصباح التالى تشجعت واتجهت إلى القاهرة محتاطا على نفسى وأخذت تاكسى من محطة القطارات حتى القلعة والسائق مشكوراً أوصلنى حتى باب المنزل العتيق الذى يقع فى منطقة شعبية كثيفة السكان وهم أناس طيبو القلب والعشرة يسرعون للمساعدة والمساندة لأبطال الحرب على حد قولهم.. عاوننى شابان من الحى حتى وصلت إلى منزل عم عليوة. فتحت زوجته الباب مرحبة بى قائلاً : أهلا وسهلا اتفضل.. تعالى يا سحر شوفى مين عندنا. نظرت إليها وهى

مقبلة بملابس المنزل وتغطى شعرها الجميل حتى لا يغبر بالأترية. جاءت مصافحة بينما الأم اتجهت إلى الداخل لتوقظ الزوج عليوة.. حضر لاستقبالى وأنا أصافحه وتبادلنا القبلات، شعرت بأن حالته الصحية سيئة وقال لى الحمد لله، ربنا فرجها واعتبروا ممدوح شهيداً وجابوا لى كل مستحقاتى اللى فاتت وربنا حيسترها. .اقترب منى لاهث الأنفاس قائلاً: كنت خايف عليهم يا ابنى. مين حياخد باله منهم بعد ربنا. ما فيش غيرك.. أنا عارف أنت قدها وقدود ولكن الإنسان تقيل.. المهم اشتريت البيت ده من أختى يعنى بقى ملكى.. الشقة اللى فوق لو كان فىّ صحة وعمر حاجهزها لسحر تتستر فيها هى وجوزها وتكون قريبه من أمها وأخوها حمدى الصغير. . يا دوب خمستاشر سنة.. إيه رأيك فى كلامى واللى عملته؟.. ربت على يده قائلاً: خير ما عملت، كنت فى شوق إليهم، حضرت سحر حاملة الشاى لى ولوالدها وقدمت لها التهنئة على ملكية المنزل. اقتربت منى وجلست بجوارى على الكنبة التى كنت أجلس عليها قائلة: صحيح يا خويا؟.. انبسطت من عمايل بابا؟.. أجبتها خير ما فعل وأجاد.. أقبلت ام حمدى كما كانوا يطلقون عليها بدلا من الغائب ممدوح.. شوف بقى أنت النهاردة حتتغدى معانا.. حأقوم أجهز الغدا وخلى سحر معاكم تتكلم لأنها مش بتخرج فى الشارع محبوسة فى البيت على طول.. قضيت نصف يوم فى منتهى السعادة وعدت إلى مدينتى لأكمل إجازتى وراحتى.

أحداث متلاحقة

أخبرنى أحد ضباط الكتيبة والذى كان فى مأمورية بالزقازيق بأن مكافآت الحرب وصلت وقد منحت نوط الجمهورية من الطبقة الثانية.. أسعدنى هذا ثم ذكر باقى المكافآت وأن غالبية جنودى قد حصلوا على أنواط مهمة مثلى أو نوط الشجاعة.

فى أحد الأيام جاء شقيق أحد الزملاء يخبرنى بأن أسرة عم عليوة اتصلت بهم راغبين بزيارتهم فى القاهرة بأقصى سرعة.. أسرعت متجها إلى القاهرة ووصلت إلى الحى وبعد أن اقتربت من المنزل شاهدت بعض كراسى بالشارع وبعض العامة من الحى يجلسون، اقتربت أكثر وشعرت بإقباض بقلبى وكنت متخوفاً أن يكون قد حدث مكروه إلى عم عليوة.

الباب مفتوح وبعض النساء بالداخل يرتدين الملابس السوداء ومنهن من تبكى وهنا شاهدتنى سحر فأسرعت إلى تحتضننى باكية قائلة: أخويا.. بابا مات.. استندت بيدى على أحد الحوائط القريبة منى ومازالت سحر قابضة على صدرى، دفعتها برفق فقد شعرت بكرشة نفس.. أى لا أستطيع استنشاق الهواء بحرية وبالكمية المطلوبة، اتجهت للجلوس بالشارع وهى مازالت تراقبنى وقوفا

على باب المنزل.. لا أعلم السبب فى هذا الشعور بالحزن العميق، هل لأننى تعودت أن أناديه بابا عليوة أو أنه رجل يستحق منى كل هذا فهو أب للشهيد الغائب طيب القلب الذى أراد أن ينفحنى ببعض القروش البقشيش الذى حصل عليها من بعض الضباط ونحن عائدون من سيناء أو لأنه اوصانى بعائلته. .شعرت بأن شيئا ثقيلاً وقع على وشعرت بعدم القدرة على التصرف، أقبل البعض وأشار احدهم إلىّ: ابن المرحوم.. صافحنى البعض مترحمين عليه وعلى أخلاقه مرددين: "البقية فى حياتك.. البركة فيك" اجتمع نفر من أبناء المهنة يقدمون مواساتهم لى واقترب منى أحدهم قائلاً: يا ابنى المرحوم حبيبنا.. إن مكنش لك فى مهنتنا أنا مستعد أشترى العدة كلها.. نظرت إليه بضيق قائلاً: مهنة إيه وعدة إيه فى الوقت ده!!

تمت جميع الاجراءات بسهولة ويسر وقام رجال الحى بما هو واجب عليهم فى مثل تلك الأحوال وهم أبناء البلد الذين يعتبرون أن المتوفى من الأهل ولم ينتظروا حضور ابنه الكبير من الزقازيق ليقوم باجراءات الدفن.. رفعوا الخشبة وساروا إلى المدافن ولم تكن بعيدة ووراى جسده التراب والنساء تبعتنا لتعزفن باللحن الجنائزى المصرى الشهير.

انتهت الجنازة وأخبرنى احدهم بان "القعدة" يقصد تقبل العزاء حتكون فى دار الضيافة توفيرا للنفقات. .بدا يتلاشى الجمع حتى بقيت والسيدة أم حمدى وحمدى وسحر وبعض النسوة لتكملة الكوبليه الأخير من المقطوعة الجنائزية.. عُدنا إلى المنزل وقد كان باديا عليهم الهدوء والسكينة بعكس حالى.. جلست منعزلاً بإحدى الحجرات رافضا الطعام أو القهوة التى تقدم فى مثل تلك الأحوال عقابا للمعزين لحضورهم فهى رديئة إلى أقصى درجة وطعمها علقم إلى أقصى حد.. حاولت سحر محادثتى وهى تخبرنى قائلة: ما أنت عارف أن بابا كان تعبان ومستنى اليوم ده.. هوه قال كده إيه اللى مزعلك كده؟.. نظرت إليها ومازالت آثار دموع محبوسة فى عينيى لم تخرج بعد.. يتوالى حضور ومغادرة بعض المعزين وخاصة النساء وإحداهن تتساءل عن هذا الشاب فتخبرها سحر أو زوجة المرحوم.. ده ابن المرحوم الكبير.. تعيد حديثها ربنا يعوض عليكم. .لكن يا

أختى أنا مشفتوش من يوم مجيتو من بورسعيد؟ ميكونشى مراته كانت منعاه يجيلكم.. تخبرها بأنه مازال أعزب ولم يتزوج بعد.. تعيد السيدة قولها : خير ما عمل أما عندى له عروسة تقول للقمر قوم وانا اقعد مكانك!!.. انفعلت سحر.. يعنى ده وقته.. اعتذرت السيدة: ايوه صحيح يقطعنى.. خلاص فى الخميس الكبير أجيبها معايا. .سمعت هذا الحديث وأنا أشعر أن الناس فى مصر تعيش فى عالم آخر.. فإن كل ما يريدون فعله وعمله وقوله يندفعون للقيام به دون مراعاة أى شىء ليس هناك محاسبة للنفس قبل التصرف أو التحدث.. أمضيت ليلة بائسة فى برد الشتاء وانتهى العزاء وأردت العودة إلى بلدتنا ولكن أم حمدى رجتنى أن أنتظر الثلاثة أيام وقالت: تعال على نفسك يا ابنى.. المطرح واسع وممكن تنام مع أخوك حمدى، كان باديا على الفتى اثر وفاة والده وقد الجم الحزن لسانه فما زال شابًا صغيرًا وأكمل عامه السادس عشر منذ عدة أيام.

بعد قليل شعرت بى سحر فجاءت وجلست بجوارى ملتصقة بى باكية الأب الغالى الحنون طالبة منى بحق البنوة التى بدأتها مع أبيها ألا أتخلى عنهم وتخبرنى بأن الناس فى بعض الظروف يستحلون كل شىء فى الضعيف مكسور الجناح وأنت ترى ما نحن عليه ولم يتبق لنا شىء حتى عمتى بعد بيع منزلها لنا غادرت المنطقة إلى حى إمبابة فكن قريبا منا حتى نشعر بأمان ولقد تعمدت أن أخبر أبناء الحى بأنك أخونا حتى لا يطمع فينا أحد والطامعون كثيرون وكل له رغبة فى شىء ما.. هدأت من روعها. قالت: انك تذكرنى بأبى.. أشكرك أخى. تبادلنا نظرات حزينة ولا أعلم كيف كنت أحادثها.

انتهت الأيام الثلاثة وأنا راغب فى العودة إلى منزلى لأستريح واحصل على حمام وأغير ملابسى.. ودعتهم من خلال دموع الفراق ووعدتهم بسرعة عودتى إن شاء الله. عدت أحمل معى أحزان وداع عم عليوة وتركتهم يتصرفون فى العدة فليس لى دخل بها. أنا أخ معنوى فقط لكن فى أمور الحلاقة والعدة فليس لى معرفة ولا خبرة بها.

صباح اليوم التالى حضر ساع من سنترال المدينة طالبا مقابلتى وسلمنى خطابا مرسلاً من السنترال بالتوجه للتعاقد على تركيب خط تليفونى بناء على

خطاب شئون ضباط القوات المسلحة رقم.. وتاريخ.. أبدلت ملابسى واتجهت إلى السنترال بالخطاب فوجهنى البعض إلى مكتب التعاقد وهناك قابلنى الموظف بترحاب وأظهر لى العقد لأوقع عليه وطلب منى توريد مبلغ من المال للخزينة لزوم التركيب وأنه فى صباح الغد ستصلك العدة وقبل الظهر تصلك الحرارة.. لم أصدق ما أنا فيه تركيب تليفون عام ٧٤ بتلك السرعة. .آه.. تذكرت السيدة جيهان السادات فى زيارتها لى فى مستشفى المعادى وهى تسألنى ماذا تطلب؟ طلبت منها تركيب تليفون بمنزلى. قام أحد معاونيها بكتابة بياناتى.. لقد نسيت هذا ولكن كل شىء سار فى طريقه وسوف يصبح لى رقم تليفون مكتوب بالعقد.. فى الصباح حضر العمال وركبوا العدة وقاموا بشد السلك فى الشارع والناس فى حالة من الانبهار بان أحد جيرانهم استجاب الله إلى دعائه فى ليلة القدر وسيتم تركيب خط تليفونى له.. حضرت بعض نساء الحى تباركن لوالدتى هذا الحدث السعيد وحصلوا منها على رقم التليفون لتبليغه لأقاربهم وخاصة المسافرين للخارج للاتصال بهم وقت الضرورة.. آخر النهار وصلت الحرارة بسلامة الله وأخوتى الصغار يلعبون فى قرص التليفون كل فترة فرحين به.

فى مساء أحد الأيام أخبرتنى أمى بان السيدة روز اتصلت بك وأنت فى زيارة صديقك وهى تخبرك بأنهم راغبون بأن تقوم بزيارتهم باكر لأمر مهم، حاولت استيضاح الأمر من أمى عن سبب ما أخبرتها به ولكنها لم تحدثها عن شىء وأخبرتنى بأنها شعرت من المكالمة بأن شيئا غير سار بمنزلهم.. أدركت على الفور أن ماما مارى توفيت واتجهت إلى سريرى فوراً لأحصل على قسط من النوم والراحة لكى أتوجه إليهم مبكراً وأنا مشفق على روز فسوف تصبح الوحدة قاسية عليها، لا أستطيع الاتصال بها الآن فالوقت متأخر وعلى أن اتجه للسنترال وأحجز المكالمة وأتكلم من هناك أو تحول المكالمة إلى منزلى. الصباح رباح كما يقولون، طلبت من أمى أن يوقظنى والدى فى الصباح حيث يستيقظ مبكراً للصلاة ثم يخرج لشراء الخبز من الفرن لتلافى الزحام الذى يحدث بين الناس.

اليوم التالى صباحاً اقتربت من منزلهم فى حى الضاهر ولم أجد أى علامات أو إشارات فى الشارع كما شاهدتها حين وفاة عم عليوة الشهر الماضى قلت فى نفسى الوقت مبكر فقد اقتربت الساعة من الثامنة صباحا.. ضغطت على جرس الباب ففتحت لى روز الباب ثم اندفعت فى البكاء وهى ترتدى ملابس الحداد واستمرت فى بكائها الشديد وسمعت صوت ماما مارى وهى تسأل "مين اللى جه يا روز" فتجيبها.. أسامة يا ماما.. أسمع نحيب السيدة عند سماع اسمى. اتجهت إليها وانا فى دهشة..أشاهدها راقدة فى سريرها وهى باسطة ذراعيها لى وانا أندفع إليها أحتضنها.. خير يا ماما؟.. بكت قائلة: أخوك.. دهشت وقلت فى نفسى هل حضر أخى الأكبر وتشاجر معهم؟.. ولماذا؟.. أتساءل مرة أخرى ماذا فعل؟ تجيبنى لم يفعل لكنه انتقل إلى الأمجاد السماوية.. مازلت لا أعلم ما حدث وماهى الأمجاد السماوية.. أسألها من هو؟.. بكت روز وهى تخبرنى.. عاطف !!.. لقد استراح.. شعروا بأنى لا أعرف معنى تلك الكلمة انتبهت على صوت روز وهى تقول: بنقولك اتنقل للأمجاد السماوية يعنى راح جنب الأب ويسوع!!!! يا للعجب هذه هى الأمجاد السماوية.. أردد عاطف حبيبى ؟ يهزون رأسهم بالتأكيد.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. إيه اللى حصل؟ أخبرتنى روز ومازالت عيونها الخضراء بها سحابة حمراء من البكاء حيث قالت: إمبارح بعد المغرب اتصلت مراته وقالت إنه تعبان شوية ثم خرجت روحه الطاهرة إلى السماء لتسكن بجوار الشهيد وليم.

أصابنى الصمت ولا أعرف كيف أقول فى مثل تلك الظروف.. لقد قلتها منذ سبع سنوات إلى عاطف.. اقرأ الفاتحة على روح وليم.. لكن يجب أن أقول شيئا مناسبا ولا أعلم عن تقاليد المسيحيين فى مصر أى شىء. أحببتهم ولكن لا أعرف تقاليدهم، سكنت قليلاً وأخبرتنى روز بأنها سوف تستعد لنتوجه سويا إلى منزله لنرافقه إلى الكنيسة للصلاة على الجثمان ثم نودعه مع الأهل والأحباب.

مازلت جالسا فى انتظار أن تنتهى روز من استعدادها لمرافقتى للذهاب إلى منزل عاطف ولم أعد أرى أى شىء أمامى حتى ماما مارى لم أشاهدها وكانت تحدثنى وأنا عنها غافل وكل ما أتذكره هو رقة ومشاعر هذا الإنسان الوديع

عاطف، غالبتنى دموعى المتحجرة والتى عكرت صفو هذا اللقاء وصنعت سحابة أمام عينى وقلت ما أشاهده بدون سقوط دمعة واحدة لتغسل هذا الحزن الدفين فى قلبى.. أقبلت روز قائلة أنا مستعدة بينما ماما مارى قالت: صحتى مش قادرة على المواقف دية.

أاتبع روز فى سيرها بالشارع واستأجرت تاكسى واتجهنا إلى منزل عاطف، هناك شاهدنا حشداً من الرجال والسيدات والتقيت بزوجة عاطف وقدمت لها واجب العزاء والى عم غبريال والد روز أيضا وبعض القساوسة، أسير معهم من هذا المكان إلى الكنيسة وتقام الصلوات عليْه وحضر عدد من زملائه من ضباط الشرطة وكنت مازلت أتذكر هذا الإنسان الرقيق رغم صوته القوى الجهورى لكنه عبارة عن قلب ابيض يتحرك.. أتذكر كل محاسنه لأننى لم أقابل أى مساوئ منه فهو كان بمثابة الأخ الأكبر لى وكان يعطف على من أول لحظة استقبلنى فيها بقسم الشرطة ثم مروءته معى وإيصالى إلى إدارة سلاح المشاة وأقرضنى خمسة جنيهات وسَاعدنى فى معرفة صاحبة السيارة المرسيدس وزيارته لى بالمستشفى وحبه لى. مازلت أسترجع هذا الشريط الوضاء من حياته.. انتهى نصف اليوم ووارى جثمانه التراب وأتذكر كلمته وهو يقول وليم أحسن منى.. أنا فى يوم سأقابل الرب ويسوع ولكنى لم أفيد بلدى بشىء مثله.

عدت إلى منزلأاسرتى وأخبرتهم نبأ وفاة الصديق عاطف وحزنى على هذا الشاب الذى لديه طفلان صغيران.. أتجه إلى سريرى بعد أن تناولت كوبا من الشاى يعمل على إصلاح حالتى النفسية وأعدت شريط الأمس وصباح اليوم .

***

فى أحد الأيام أخبرنى أبى عن صديقه المهندس وأن له ابنة تدرس بالجامعة. يواصل حديثه: هو رجل فاضل وأسعد بلقائى معه.. زودنى ببعض المعلومات والبيانات عن ابنته لأتجه إلى الكلية التى تدرس بها، خاصة أن والدتى كانت دائمة الرغبة لأن أتزوج وهى تخشى أن تقوم حرب أخرى وأموت فيها ولا تكون لدى ذرية.. حملت رغبتها بجد واهتمام وذهبت إلى الكلية وهناك تعرفت على

شاب هو الأخ الأصغر لأحد أصدقائى واستفسرت منه عن الفتاة وسأل زملاءه وزميلاته وأشاروا إليها.. تابعتها وأعجبت بملابسها المحتشمة ووقارها وهى تداعب صديقاتها.. تكررت متابعتى لها عدة مرات بعد ذلك حتى تأكدت انها الزوجة المناسبة لى.

أخبرت أبى برغبتى بالتقدم إلى عائلتها وبدوره أخبر صديقه وبالتالى تحدد موعد للقاء الأسرتين.. هناك فى المنزل تعرفت الأسرتان وتعددت زيارتى لهم ووافقوا على مصاهرتى وهكذا بدأت أعُد نفسى نحو حياة اجتماعية سليمة.. تمت الإجراءات الرسمية فى مثل تلك الأحوال.. وبعد عامين تزوجنا وكانت فى العام الدراسى الأخير وأنجبت ابنتى الأولى قبل حصولها على درجة البكالوريوس.. استمرت حياتى.. أعمل وأتابع أسرتى الصغيرة.

عام ٧٥ أبلغتنى إدارة سلاح المشاة بترشيح رياسة الجمهورية لى مع عدد من الضباط للعمل بالمخابرات العامة وتحدد موعد ومكان الاختبار وهذا يعتبر شيئا سعيدا لأى ضابط لما فيه من مميزات وتقدير من الجهات المسئولة، عُقد امتحان على مستوى عال من الذكاء والمهارة فى الاختبارات الحديثة وبعد ستة أشهر حضر إلى وحدتى احد ضباط المخابرات العامة ليبلغنى بنجاحى والاستعداد لانتقالى من وزراة الحربية إلى المخابرات العامة وقابل قائدى وطلب استكمال بعض بياناتى الشخصية كما أخبرنا بأنه خلال أسبوع سوف يحضر لاصطحابى إلى الجهاز وحضور دورة تدريبية لإعدادى لهذا العمل الجديد علىّ، مضى أكثر من شهر وقائدى يستفسر منى عما تم وأنا أخبره بأننى لا أعلم شيئا.. مضى شهران وتوجس الرجل شرا فذهب إلى القاهرة وهو برتبة لواء وله من الزملاء والأصدقاء الكثيرين وجاء حاملا بخبر ضايقه وآلمنى.. استبعادى عن تلك الوظيفة المرموقة وحصول آخر عليها بدلا منى وهو ابن أحد المسئولين الكبار بالدولة.

الختام

تركت الخدمة العسكرية فى بداية عام ٨٤ وأنا برتبة العقيد بين استهجان وانتقاد الأهل والأصدقاء الذين حاولوا إثنائى عن هذا ولكن انتابنى شعور بأننى لن أستطيع أن أقدم لبلدى فى هذا المكان المشرف لكل مصرى وطنى أكثر مما قدمت وشعرت به من خلال الأحداث السابقة التى رويتها فى الفصل السابق بأن الحق والتقدير ليس له معايير حقيقية ولأتركهم يقدرون ما يريدون بعيداً عنى ويكفينى ما قمت به لبلدى خلال الفترة المهمة فى حربين معلنتين(٦٧ -٧٣) يتخللهما حرب الاستنزاف وقاسيت فيها ونزفت خلالها من دمائى الكثير وقمت بما أستطيع القيام به وقد يكون هناك الأشجع منى وأعطوا لبلدهم أكثر ولكن الله جعل لكل إنسان قدرات ويكفينى بأننى لست جبانا وعبرت مع جنودى بجرأة ولم أرهب الموقف حتى سقطت جريحا وغير قادر على عمل أى شىء حتى الواجب الإنسانى بمساعدة القائد الإسرائيلى الذى تسبب فى كل تلك الخسائر بنا وبى شخصيا كنت أحاول إنقاذه وهو مسجى أمامى صارخا من قسوة النيران المشتعلة به وأنا أحاول إنقاذه ولكن حروق يدى التى تسبب بها عرقلتنى من أن أقدم تلك المساعدة الإنسانية.. التزمت منزلى فترة لا أريد أن أحادث أحدا

لم يكن تفكيرى فى ترك الخدمة وليد تلك اللحظة بل كنت راغبا فيها من قبل ولهذا بدأت الاتصالات للوصول إلى بغيتى، طلبت من أحد القادة الذى أعتز به ويعتز بى ويقدرنى بأن يساعدنى فى أن أحال إلى التقاعد فى النشرة العسكرية القادمة، حاول الرجل أن يقنعنى بخطأ قرارى ولكنى كنت سائراً فى رغبتى وأثناء انتظارى لتلك النشرة التى ستغير من حياتى القادمة إلى المجهول بحد عينه تقابلت مع سيادة الفريق أول محمد أحمد صادق وزير الحربية الأسبق وهو رجل ذو خلق وأعرفه من خلال دراستى بالكلية الحربية فى منصب كبير المعلمين ولا أعرفه شخصيا تقابلت معه فى إدارة مرور الشرقية فقد كُنت ذاهبا لزيارة احد ضباط المرور التى تجمعنى به علاقة معرفة وليست صداقة حيث كان معسكر وحدتنا مجاوراً للمرور وهناك تقابلت معه فجأة بدون موعد وقد أحيل إلى التقاعد أثناء حكم الرئيس السادات وأثناء حديثى معه والذى زودنى بالكثير عن تاريخ ثورة يوليو وقبلها ومآثره مع الراحل السادات وعندما أخبرته بنيتى عارضنى هو الاخر.

أخيرا ظهرت النشرة العسكرية وقرأت اسمى بها.. الترقية إلى رتبة العقيد والإحالة إلى التقاعد.. أصابتنى الفرحة والحزن فى نفس الوقت.. هاجمنى الشعوران: الأول وهو الفرح لأننى حققت رغبتى، والثانى: حزنى لأننى سأترك تلك الحياة الحافلة بالأحداث وما تعودت عليه من النظام العسكرى ودقة العمل ولكنى هيأت نفسى لوضعى الجديد وإن الله لا ينسى عباده أبدا ولا يجب أن يعمل الإنسان وهو كاره لعمله ليس لطبيعة العمل ولكن للمتسلقين الذين يجهزون على كل بادرة أمل وخير فى أبناء هذا الشعب وهم دائما جالسون بالمرصاد للقيام بهذا العمل الذى لا يجيدون سواه.. الصيد فى الماء العكر وتلويث سمعة الشرفاء وجنى محصول وعرق الآخرين.

شئون الضباط أبلغتنى إذا كُنت راغباً فى الاعتراض على قرار تقاعدى فى النشرة العسكرية مع آخرين أن أتقدم بطلب لهذا طاعنا فيه وهم سيبحثونه ويجرون معى مقابلة بأحد المسئولين فى شئون الضباط، رفضت هذا وبعد مُضى الفترة الزمنية المقررة على الاعتراض تقدمت إلى المجلس الطبى العسكرى لتقرير

حالتى الصحية من أثر الإصابة مزوداً بكل التقارير الطبية والإشاعات، صدق المجلس على أننى غير لائق للخدمة العسكرية بسبب إصابتنى فى العمليات الحربية ونسبة عجز ٢٠٪ وهذا يتيح لى أن أظل أخدم فى القوات المسلحة حتى الترقى إلى رتبة اللواء ثم أحال إلى التقاعد وكنت أعلم هذا ولكنى أجلت العرض على المجلس الطبى العسكرى منذ عام ٧٤ حتى عام ٨٤ حتى أحال بقوة القانون.

* * *

اشتريت قطعة ارض بمنطقة الصالحية وقمت باستصلاحها وأثناء ذلك عُرضت علىّ بعض الوظائف المدنية لأننى حاصل على بكالوريوس تجارة شعبة محاسبة عام ٧٩ وبكالوريوس آخر شعبة إدارة أعمال عام ٨٠ ولكننى كرهت أى وظيفة وأى رئيس.. مكثت فى مجال الزراعة فترة ثمانية أعوام تعلمت فيها الكثير وفلحت كما يقول العامة وأصبحت خبيراً فى هذا المجال تحت ضربات الخسارة والنجاح والتجارب التى مررت بها.

جاءت لى فرصة للهجرة إلى الولايات المتحدة فحملت اسرتى متجها إلى تلك الدولة التى نكره المسئولين بها ونحب شعبها الطيب الذى لا يعلم من أمور السياسة شيئًا فهو شعب مغيب تحت سيطرة وسائل الاعلام، تعلم أبنائى وتخرجوا فى الجامعة وعاد بعضهم ليفيد بلدهم والبعض انتظر حضوره وليكملوا منظومة أن المصريين يكرهون الاغتراب هذا صحيح فرغم تطور هذا البلد لكن مصر لها روح وطعم غريب لا ينساه أبناؤها حتى الأمريكان الذين تعرفوا علينا وجاء عدد منهم لزيارتنا، تكررت عودتهم لهذا البلد الطاهر.

كنت أداوم على الاتصال بأسرة ماما وداد كل عدة أشهر قبل سفرى وبعدها وحضرت زفاف علا وبعدها دينا وباركت لهما تلك الأفراح ومازالت العلاقة حميمة حتى بعد وفاة تلك السيدة العظيمة التى تعاملنى كابن لها وفتحت باب الفيلا وأحضان الأم لى مثل أبنائها ولم تُسمعنى كلمة تؤثر على إحساسى فى يوم من الأيام.

عام ٢٠٠١ وأثناء زيارتى السنوية إلى مصر قادما من أمريكا كنت أهم بمغادرة احد محلات الحلوى الشهيرة بميدان الجيزة حيث توجهت لشراء علبة حلوى بمناسبة ترقية مدحت إلى رتبة اللواء وإحالته إلى التقاعد فوجئت بها أمامى إنها رابحة. نظرت إلى ونظرت إليها.. قالت أوعى تكون أنت؟ أجيبها هو أنا.. كادت أن تطير فرحا من فرط السعادة، يحيط بها اثنان من الشباب تعدت أعمارهما الثلاثين عاما، نظرت إليهما وهى تشير إلىّ، هذا هو عمو أسامة الذى وقف بجانبى وأنا فى سيناء فترة حرب عام ٦٧ وبفضل هذا الرجل وزملائه من الدفعة قدموا لى الكثير وأنت طفل صغير، أشارت إلى أحدهما قائلة هذا هو ابنى الأكبر سليمان. رحب بى الشاب كثيراً، أشارت إلى الثانى، هذا ابنى صالح وابن الشهيد عامر زميلكم "كانت تضغط على الحروف" ناظرة لى بشىء من التحذير رحبت به هو الآخر وبادلنى الترحيب، صممت على أن أتناول شيئا معها فأخبرها أحد ابنائها بأنهما يعتذران ويطلبان الإذن بتركنا لالتهام الحلوى لأنهما على موعد. أذنت لهما وأخبرتهما بأنها سوف تستقل تاكسيا إلى المنزل. ودعنى الشابان برجاء أن أزورهم بمنزلهم.

اتجهنا للجلوس على إحدى الموائد وقصت على قصتها ومأساتها منذ افترقنا فى سيناء قائلة: لقد عبرت القناة بمعاونة بعض قوات حرس الحدود المصرية واتجهت إلى خالتى.. ثم قمت بزيارة زوجى عدة مرات بالسجن وطلبت منه الطلاق وبعد أن شاهد ابنه وسعد به وافقنى على طلبى وأخبرنى بأنه يجب على الاتصال بصديق له زودنى باسمه وعنوانه وعلى أن أخبره بكلمة سر بينهما. قابلت صديقه الذى سلمنى مبلغ عشرين ألف جنيه فى عام ٦٩ وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت.. اشتريت منه شقة فى شارع فيصل حديثة الإنشاء وكانت الشقة رخيصة الثمن ثم عملت فى هذا المحل، محل الحلوى عاملة وقمت على رعاية ابنائى وعلمتهم وتخرجوا فى الجامعة والكبير سليمان تزوج والثانى صالح يستعد، أطلب من الله أن يسامحنى فيما اقترفته من معاص.

ضحكت قائلة مش قابلت الحاج.. اسألها من هو؟.. تجيبنى الحاج جويلى الدفعة اللى كان معاكم وسألته عليك وأخبرنى إنه لا يعرف عنك شيئا ويتمنى هو

وزملاؤه أن يروك، فتحت شنطة يدها واخرجت أجندة صغيرة وزودتنى برقم تليفونه واستفسرت منها قد يكون الرقم تغير من القدم ولكنها أخبرتنى بان هذا اللقاء تم فى الشهر الماضى عندما حضر لهذا المحل مع أحد أبنائه لشراء بعض الحلوى.

زودتنى بعنوانها ورقم تليفونها طالبة منى زيارتها وأن تلك الأيام لن تنسى لأنها أيام صعبة عسيرة وكل من تصادق خلالها هم أحباء وإخوة، قبل فراقنا أخبرتها.. رابحة أنت مازلت جميلة.. ضحكت من كلامى قائلة: "فات الميعاد وبقينا بعاد.. فاااات الميعاد " ودع كل منا الآخر.

عُدت إلى منزلى بالزقازيق واتصلت بالصديق جويلى والذى جاء صوته من الجهة الأخرى ولم تغيره السنون والأعوام فى نبراته. هذا الصوت الذى تعودت عليه وحفظته فقد استمر معى أربعة أسابيع ليل نهار لا نسمع سوى أصواتنا نحن الستة أثناء الانسحاب.. فى بادئ الأمر لم يصدق وكان يصرخ ويسأل عن أشياء كثيرة فى وقت واحد، طلب منى أن أقوم بزيارته أو يأتى هو لزيارتى وعندما علم بأننى سوف أغادر القاهرة بعد عدة أيام طلب عنوانى وأتى لزيارتى بالشرقية من بلدته بأحد مراكز محافظة الفيوم، كان مشهداً مؤثراً وهو يحتضننى مرحبا بى ويقبل كتفى ويسأل عن كل شئ ويخبرنى بأنه هو وزملاء الانسحاب"مصطفى وعطية وفراج" يتقابلون كل عام فى بلدة احدهم.. اسأله هل أنتم على اتصال وتعرفون عنواين بعضكم البعض.. ضحك وقال بقينا نخدم بنفس الكتيبة حتى نهاية عام ٧٤ ولكنك الوحيد الذى تركتنا إلى وحدة أخرى ولم نستطع معرفة عنوانك لكن الحمد لله ثم سألنى من أين حصلت على رقم تليفونى؟ أخبرته فضحك وأخبرنى بأنه كان سعيداً بمشاهدتها رغم ما حدث منها من أفعال ولكن الله غفور رحيم. .طلب منى أن أقسم بحياة أبنائى أن أقوم بزيارته عند حضورى كما أنه سوف يخبر زملاءنا بهذا اللقاء.

نهاية عام ٢٠٠٤ وابنى طارق يستعد للزواج من فتاة مصرية تقيم بالقاهرة وبعد الزفاف يصطحبها عائداً إلى الولايات المتحدة وبعد نهاية حفل الزواج سوف اتجه برفقة زوجتى إلى الأراضى السعودية لأداء فريضة الحج، اتصلت بكلٍّ من

مدحت وعلا ودينا وروز وسحر لحضور حفل الزفاف كما دعوت محمد فوزى الجندى الذى كان معى بالكتيبة وأردت أن أرسل معه برسالة إلى منزل علا فأخبرنى بعلاقتهما والتى كانت السبب الرئيسى فى إلغاء أى علاقة رسمية معها، اما عن سبب دعوتى له فقد قابلنى مع أسرتى والعروس أثناء شرائنا بعض مستلزمات الفرح وبالتالى أخبرته وعلمت منه انه يعمل كرئيس مجلس إدارة لإحدى شركات المجمعات الاستهلاكية.

ليلة الزفاف أفاجأ بحضور كل من دعوتهم لحضور تلك المناسبة.. حضرت سحر بصحبة زوجها وابنها وابنتها وخطيبها.. ثم حضر مدحت وزوجته وعلمت منه أن جميع بناته قد تزوجن وأنجبن وأصبح «جد» ثم أقبلت علا، هى كما أعرفها فمازالت جميلة رقيقة وبصحبتها ابنها وزوجته اما ابنتها فكانت مشغولة مع زوجها ثم لحقت بهم دينا وابنها وعلمت أن زوج علا توفى منذ عدة أعوام.. فجأة أقبلت روز وشاهدتها كما هى منذ أول لقاء لنا. جمالها البارع وطريقة سيرها مرفوعة الرأس وقفت أمامى وأنا لا أستطيع أن أتحرك فى اتجاهها للقائها. ابتسمت وهى تصافحنى.. مبروك أسامة.. خلاص كبرت وحتبقى جد.. زى حالاتى.. اسألها بدهشة هل تزوج عزيز؟ تجيبنى بسعادة.. ياه!! منذ خمس سنوات ولديه ابنان"الكبير وليم والصغير عاطف" لا أملك غير أن اقول الله.. كنت أرغب فى مشاهدتهما.. ضحكت وقالت إنهما قادمان بعد دقائق لأن عزيز قابل صديقه وزوجته ويتحدثان سويا.

حضر عزيز وزوجته وطفلاه، انحنيت أقبلهما وأنا سعيد لما شاهدته، أقبلت زوجتى تصافحهم وتشيد بذوق روز فى اختيار ملابسها كما أشادت بجمالها قائلة: أنت أجمل من الصورة، نظرت إلىّ روز متسائلة: ألا زلت تحتفظ بصورتى؟ أخبرتها مؤكدا على ذلك وبأننى مازلت محتفظا بها لكن زوجتى لم تغضب من هذا الحديث وروز هى الأخرى أكدت لى بان صورتى رفيقة بصورة وليم وعاطف وماما مارى.

بعد قليل أقبل محمد فوزى برفقة كلٍّ من زوجته وابنته، تصافحنا وتبادلنا التحية وكنت سعيدا بحضوره مع أسرته، أخذت بيد محمد فوزى واتجهت به جهة

المائدة التى جمعت كل أحبائى (مدحت وأسرته وعلا وأسرتها ودينا وأسرتها وسحر وأسرتها وروز وأسرتها) أشير إليهم متسائلا: أتعرف هؤلاء؟ نظر ثم أخبرنى قائلاً : لا أعرف أى منهم، أعيد ثانية. وتلك السيدة الجميلة والتى وقفت الآن. يعيد لا أعرفها. أوضح: إنها علا. نظر إلى متسائلاً: علا!!.. من تكون علا؟.. أوضح: علا حبيبتك أثناء فترة الدراسة بالجامعة. أعاد قوله: لا أعرفها. حاولت تنشيط ذاكرته. أخيرا تذكر ضاحكا.. آه.. ياه !! أنت لسه فاكر؟.. أنا كنت بأضحك معاك، أنا عمرى ما شفتها.. أسأله ولماذا قلت ما قلت وكانت كل معلوماتك صحيحة.. يوضح: كنت أعرف شقيقها مدحت ونحن فى المرحلة الثانوية ثم التحق هو بالحربية وأنا بكلية التجارة. أسأله هل أنت خريج تجارة أم علوم؟ نظر إلى قائلاً: إزاى خريج علوم يبقى محاسب وبعدين يترقى لحد ما يوصل رئيس مجلس إدارة. أنا محاسب.. أعيد سؤالى : لكن لماذا قلت هذا ؟ ضاحكا كنت أسليك فقط وأشجعك على إرسال الخطاب معى لأحصل على إجازة. نظرت إليه بضيق وأخبرته قائلا: الله يخرب عقلك.. أنت عارف إيه اللى حصل من كلامك؟ شرحت له كل شىء وكان الرجل فى حالة من الدهشة وشمله الحزن لما سمعه منى واعتذر وندم على إساءته لسمعة فتاة.

ضرب قورته بيده قائلاً: تصور!! فهمت الآن أن الله انتقم من حديثى السيئ والضحك والهزار. ابنتى الوحيدة التى تصحبنى الآن "رانيا" وقد رزقت بها بعد أربعة أولاد والتى تجلس بجوار والدتها.. تصور بعدما تمت خطبتها ألغى العريس الخطبة فجأة وبعد عدة أسابيع علمت من زميل لى بأن العريس أخبر خالته وهى زوجة صديقى بأن السبب فى إلغاء هذه الخطبة انه علم من شاب صديق له بان ابنتى وهى فى المرحلة الجامعية كانت على علاقة بشاب فى الجامعة رغم أن فترة دراستها الجامعية كانت بألمانيا برفقة والدتها. كنت فى دهشة لكن الآن علمت أن الله انتقم منى فى ابنتى وهى أعز إنسانة عندى وقد أدخل هذا الحزن إلى أسرتنا جميعا. قال بحزن.. آه.. داين.. تدان.. داين.. تدان. . سمعته وأنا غير مصدق ما قاله وأقول فى نفسى ببساطة هكذا نوزع الأخبار والإشاعات على أمهات المستقبل.. إنه شىء سيئ للغاية.

شعرت بأن أخواتى وإخوتى موجودون حولى بخلاف أشقائى.. وكلما نظرت جهة أحد منهم أشاهد السعادة واضحة من خلال ابتسامتهم وخاصة أنهم جلسوا جميعا على مائدة واحدة بعد تعارف واسترجاع ذكريات عام ٧٣ ونحن فى مستشفى المعادى ولم يغب عن الحفل إلا الكبار الأمهات" مارى ووداد وعزيزة حلمى وعم عليوه" وقد أسعد هذا ابنى وبناتى بهذه الباقة من الأصدقاء والصديقات فقد سبق وأخبرتهم قبل الزفاف باحتمال حضور عدد من الضيوف وأوضحت لهم مدى أهمية هؤلاء بالنسبة لى وأنهم الذين ساندونى فى محنتى أثناء العلاج من إصابات الحرب ومدى تأثير زياراتهم ورفع معنوياتى.

* * *

قبل حلول شهر رمضان الذى اقترب ونحن فى عام ٢٠٠٥ عُدت من الولايات المتحدة بغرض الاستقرار فى مصر واتصلت بالصديق جويلى الذى صرخ فى التليفون بأن أقوم على زيارته، أخبرته: سوف يحدث هذا وكان سعيدا وأستفسر منى عن موعد الزيارة فأخبرته بالموعد، أعاد حديثه بأنه سوف يتصل بأصدقاء رحلة الانسحاب قبل وصولى إلى الفيوم.

هذا هو اليوم المحدد لى لزيارة ولقاء الأصدقاء الرجال الأبطال، أتجه بالسيارة الأجرة إلى الفيوم لمقابلة جويلى وزملاء رحلة (٢٨) يوما التى لا تنسى، أتذكر بعض الخواطر ومنها ليلة قيامنا بالمشروع وحضور الرئيس عبد الناصر فجأة وبعد أن غادر موقعنا انتقدنى بعض جنودى.. (بقى ده معقول يا فندم لما ييجى مقدم وإلا عقيد تجرى لهم وأنت لابس الخوزة ومعاك الأوراق والخرايط ولما ييجى الرئيس بنفسه تقوم تمشى على مهلك وأنت رايح تقابله وقالع راسك ولا خوزة ولا خرايط. .الحمد لله أن ربنا عداها على خير) ضحكنا بعد هذا وأنا أمازحهم وأتذكر فيلم غزل البنات للمبدع نجيب الريحانى عندما ذهب لمقابلة الباشا فشاهد رجلا أنيقا فوقف يجله ويحترمه وبعدها علم أنه مخصص لرعاية الكلب وبعدها شاهد رجلاً آخر قادما حاملا سبت به خضراوات ومقص لتقطيع وتقليم الأشجار فاعتقد أنه الجناينى.. إنه التباس المظهر وهذا ما حدث معى بالضبط.. العربات الجيب أربعة باب مخصصة لكبار القادة عقيد وعميد أما

السيارات الجيب اتنين باب فمخصصة لرتبة الرائد والمقدم وبعض الأحيان النقيب أما الملازمون فعليهم السير أو الجرى.. ولهذا عندما شاهدت السيارة اتنين باب تأكد لى أنها رتبة صغيرة وخاصة أن السيارة قديمة ولكنها طلعت أنها بتاعة الباشا وبتاع الكلب ركب مكان الباشا.. ضحكنا على هذا التشبيه وهذا الخلط.

اليوم الأول من شهر رمضان المبارك موعد زيارتى للفيوم وها أنا قد وصلت إلى المركز الذى يتبعه جويلى وأشاهده جالساً مع بعض أبنائه. وقف مرحبا بى بمجرد هبوطى من السيارة وتعانقنا سويا.. إنه الزمن فقد ظهرت عليه علامات الشيخوخة مثلى ويرتدى نظارة طبية لضعف نظره الذى كان حادا وقتل القناص الإسرائيلى الذى كان بالطائرة الهليكوبتر أيام الانسحاب، نتجه سويا إلى سيارته التى يقودها أحد أبنائه لنتوجه إلى قريته أو بلدته وأرضه بعد أن قطعنا شوطا فى الصحراء والرمال من حولنا.. شاهدت جنة خضراء على مرمى النظر. ضحك وهو يشير قائلاً : خلاص وصلنا "الدار" ثم علق : دية ارض جديدة اشترتها من خمستاشر سنة ومضيت فيها باقى صحتى وعمرى وشبابى وأولادى ساعدونى ربنا يعطيهم الصحة.. والله يا فندم خمسين فدانًا لكن ربنا طرح فيهم البركة.. وقفت السيارة وعلى صوت نفيرها منبها باقى الأصدقاء. غادروا المنضرة واندفعوا للقائى بالقبلات والأحضان المخلصة ودموع الفرح فى عيونهم وقد انتقلت عدواها إلىّ وإلى مضيفى الحاج جويلى.

جلسنا نتسامر.. كل منا يقص ما حدث له منذ افترقنا فى منطقة عجرود بالسويس بعد عودتنا من سيناء بعد أن نقلت أنا وعادل زميلى إلى القاهرة.. مصطفى ابن الإسكندرية أخبرنى بأنه تزوج وأنجب خمس بنات.. وجميعن تزوجن إلا الصغرى آخر العنقود وعمرها الآن سبعة عشر عاما.. نجح فى عمله وأصبح مقاول بياض ويقوم بعمله فى المناطق الجديدة كما أن محافظ الإسكندرية الجديد دفع بزيادة الطلب عليهم لمحاولة تحسين وتجميل المدينة والتى بدأها المحافظ النشط اللواء المحجوب. عطية أخبرنى هو الآخر أنه شارك شقيق زوجته فى محل قماش بمنطقة الأزهر وربنا فتحها عليهم من واسع ولديه

ولدان تعلما وتخرجا فى الجامعة وفتاة تزوجت منذ عدة سنوات وأصبح «جد».. أما فراج فهو مازال يعيش فى قنا ويعمل بالتجارة مع شقيقيه فى شراء حدائق الفاكهة وربنا رزقهم من خيره.. ولديه ثلاثة رجال وبنتان تزوجتا منذ فترة وله من الأحفاد ستة. اقترب موعد أذان المغرب ولا يقطع هذا السامر سوى القيام للصلاة، يؤمنا الحاج جويلى والذى كان يؤمنا منذ ثمانية وثلاثين عاما.. نفس الإمام ونفس المصلين خلفه.

بعد الانتهاء منأداء الصلاة نظر إلينا وطلب منا أن نقرأ الفاتحة على شهدائنا الأبرار وبالأخص الثلاثة عشر جنديا وضابط والتى دهستهم الدبابات الإسرائيلية لاعنا هؤلاء الناس ثم توجه بالدعاء إلى الله ونحن خلفنا الصحراء الصفراء الشاسعة وأمامنا الجنة الخضراء التى انتصرت فيها السواعد المصرية لقهرها وتحويلها إلى هذا اللون الذى كنا نرنو إليه فى أيام الانسحاب.. ثم يتلو الآية الكريمة:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ (صدق الله العظيم).

(سورة الأحزاب)

تمت و الحمد لله

مجموعة الصور
والوثائق



١ - الملازم أسامة الصاوى قبيل حرب عام ١٩٦٧



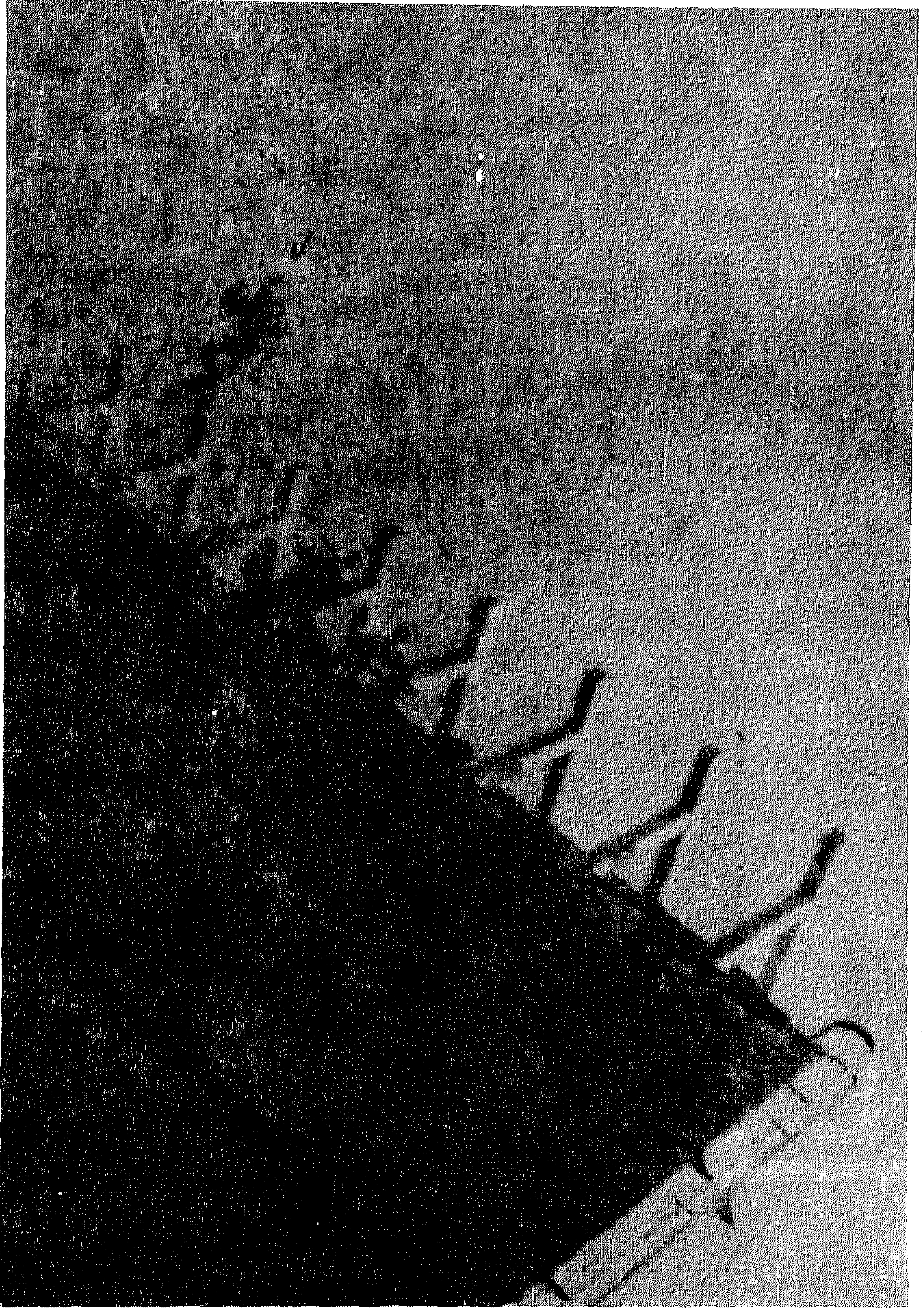
٢ - صورة الشهيد العقيد مصطفى توفيق فهمى قائد الكتيبة خلال حرب ١٩٦٧.



٣ - إحدى صور أبطال المدرعات بسيناء عام ١٩٦٧ ولقد حصلنا عليها بعد قتل طاقم الدبابة الإسرائيلى الذى كان يعذب الأسرى يوم معركة البطل الرائد وليم شفيق وزملائه الأبطال



٤ - الأبطال الثلاثة خلال حرب ١٩٦٧.. بالوسط جويلى يجلس على قفص حديدى، يمينه مصطفى ابن الإسكندرية وعلى اليسار عطية ابن باب الشعرية، المصور هو فراج والذى حرم من التصوير.. الصورة التقطت عام ١٩٦٨ أثناء التدريب بمنطقة عجرود بالسويس.



٥ - جانب من التدريبات بمدرسة الصاعقة عام ١٩٦٨.



٦ - جانب من التدريب على العبور عام ١٩٦٨ - الرياح البحيرى



٧ - مجموعة من الجنود الجدد وأنا ألقنهم موضوع التدريب قبل التدريب العملى.. المنطقة الرياح البحيرى.



٨ - التدريب العملى على العبور بداية عام ١٩٦٨.



٩ - أثناء إحدى المناورات بالذخيرة وفترة الاستراحة المنطقة: صحراء ٦ أكتوبر عام ١٩٦٨.



١٠ - مجموعة من جنود سرية الهاون عام ١٩٧٠ مدينة القنطرة غرب والتدريب على قراءة الخريطة.



١١ - أنا وبعض جنودى نلهو فى مياه قناة السويس بعد وقف إطلاق النار - أكتوبر ١٩٧٠



١٢ - بعد إيقاف إطلاق النار ومجموعة من الفلاحين العائدين - أكتوبر ١٩٧٠



١٣ - مجموعة من جنودى بعد انتهاء التدريبات مارس ١٩٧١



١٤ -القنطرة غرب ١٩٧٠ - مارس



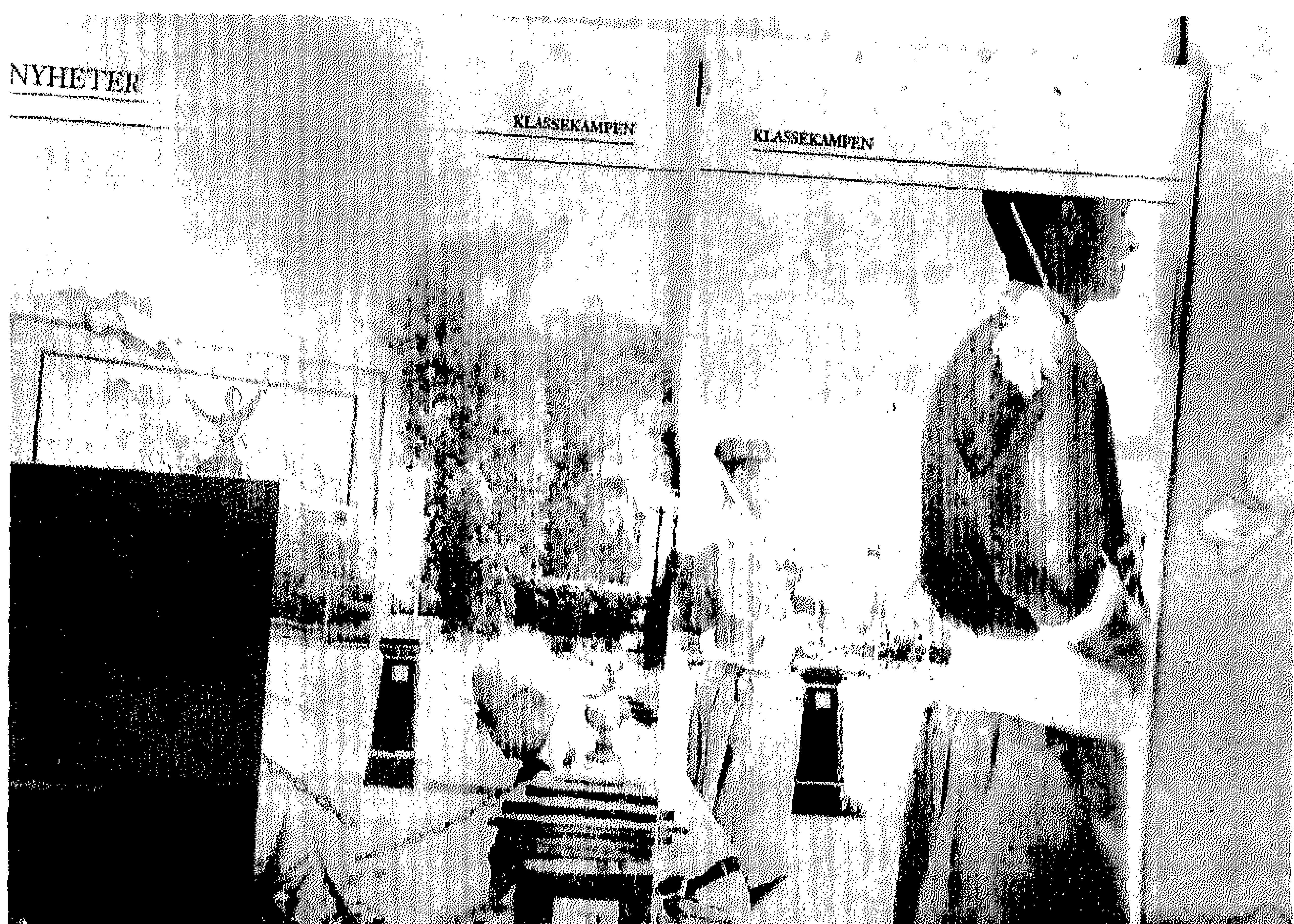
١٥ - يوليو ١٩٧٣ - قبيل حرب أكتوبر



١٦ - خط العريش رأس محمد.. عام ١٩٨٠



١٧ - رتبة العقيد عام ١٩٨٤.



١٨ - النصب التذكارى إبريل ٢٠٠٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية العربية المتحدة .
وزارة الحربية

قيادة الجيش الثاني
مكتب القائد

القيد : ٤٢٢/٧٠/١٥/١٤٢

التاريخ : ١٦ / ٦ / ١٩٧٠

الملازم أول أسامة على الصادق

الكتيبة ٥٣٨ مشاة

أوجه لك شكري وتقديري لما قمت به من تدمير مخزن ذخيرة للعدو يوم ١٩٧٠/٤/١١ م .

والله يوفقكم ويسدد خطاكم ،،،

لواء / عبد المنعم محمد خليل
قائد الجيش الثاني

صورة الى

السيد قائد فر ١٨ مش .
السيد قائد اللواء ١٣٦ مش .

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

منح نوط الجمهورية العسكري من الطبقة الثانية

إلى : رائد أسامة علي الصادق عويس ، من القوات المسلحة

تقديراً لما قام به من أعمال استثنائية تدل على التضحية والشجاعة الفائقة في مواجهة العدو بميدان القتال .

تحريراً بقصر الجمهورية بالقاهرة في ٢٧ المحرم ١٣٩٤هـ - ١٩ فبراير ١٩٧٤م

عنه رئيس ديوان رئيس الجمهورية



بسم الله الرحمن الرحيم

أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

منح ميدالية جرحى الحرب

إلى : رائـــد / اسامه على الصادق عويس

من القـوات المسلحـــه

تحريرًا بقصر الجمهورية بالقاهرة فى ٢ رمضان ١٣٩٤هـ الموافق ١٩ سبتمبر ١٩٧٤م

رئيس الجمهورية

الفهرس

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة ساقية
عبد المنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة – الهرم

مبنى أكاديمية الفنون – الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول – الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك – المرحلة الخامسة – عمارة ٦

مدخل (أ) – الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى – بكلية الزراعة –

الجامعة الجديدة – الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ – بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى – أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية – أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب – المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب –جامعة المنيا – المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة – عمارة سينما أمير – طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى – دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة – المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

مكتبــات ووكـــلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة- بيروت - هاتف: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣

ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت -بناية سنتر مارييا.

ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢

فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -

سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

دار المعارف

طريق تونس كلم 131 المنطقـــة الصناعية بأكودة

ص. ب: 215 - 4000 سوسة - تونس .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض -

تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية -

شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - هاتف : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -

الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ - الرياض: ١١٤٩٤ - هاتف : ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبدالرحمن السديرى الخيرية -

الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف : ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين

هاتف : ٩٦٢٤٦٢٦٦٢٦ +

تلى فاكس : ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +

ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

الجزائر

١ - داركتاب الغد للنشر والطباعة والتوزيع

حى 72 مسكن م. ب. أ. ع. عمارة هـ محل ٠٢ - جيجل - هاتف : 034477122 - فاكس : 034495697

موبايل : 0661448800

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

إثر هزيمة عام ١٩٦٧ وانسحاب وحدتنا من على الحدود وقعنا فى كمين إسرائيلى بعثر القوة بعد حدوث خسائر، فى المساء وجدت نفسى ومعى خمسة من الجنود ولم نكن نعرف من سيناء إلا اسمها، ظللنا نسير ونتفادى العدو لمدة أربعة أسابيع ما بين العطش والجوع والشمس الحارقة ورغم هذا دخلنا فى معركتين مع العدو أنزلنا بهم خسائر، عدنا إلى الضفة الغربية لقناة السويس ، وبدأت ملحمة التدريب وحرب الاستنزاف التى حققنا فيها انتصارات على العدو، السادس من أكتوبر من عام ١٩٧٣ كنت على رأس قوة عبرت القناة وتوغلت سبعة كيلومترات لتدمير المدرعات الإسرائيلية، ظلت المعارك بيننا ست ساعات أنجزنا مهمتنا بنجاح وسقط منا العديد من الشهداء والجرحى وكنت ضمن من أصابتهم جراح شديدة، تذكرت بيت شعر لأحمد شوقى بك :

ومانيل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

تصميم الغلاف : مرفت عنتر النحاس



الهيئة المصرية

٢٠ جنيها


ISBN# 9789774217627
6 221149 019829